جو كوينن

هوسُ القراءة

مذكرات

ترجمة:

أنس محمد غطوس

منشورات وسم

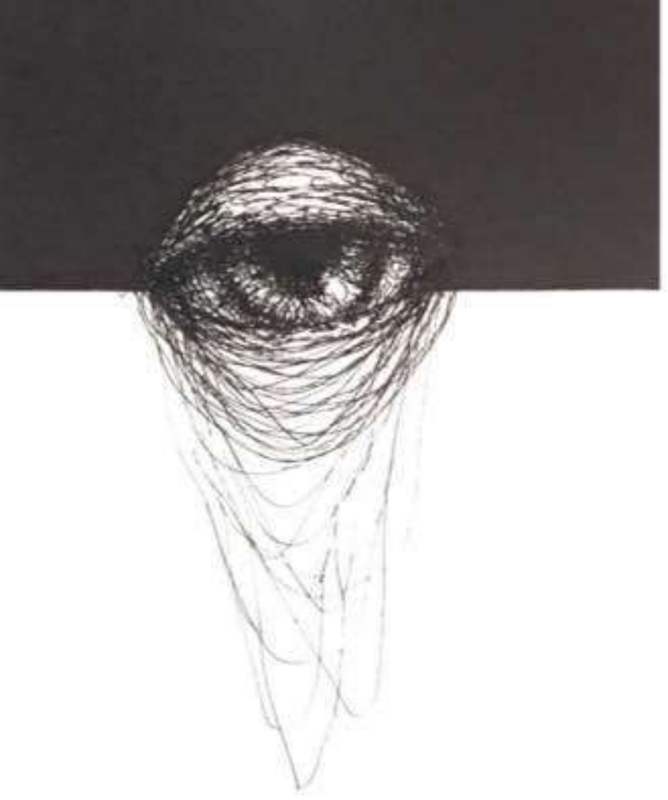

المحتويات

الفصل الأول: آمالٌ عظيمةٌ 7

الفصل الثاني: وجه دون اسم، حقيبة دون رقم 43

الفصل الثالث: فتح الكتب 81

الفصل الرابع: الحياة على الرّفوف 119

الفصل الخامس: حضِّر نفسك للدّهشة 159

الفصل السادس: متلازمة ستوكهولم 173

الفصل السابع: أصواتٌ أخرى، غرفٌ أُخَر 256

الفصل الثامن: واسطة إنقاذ الحياة 293

الفصل الأول

آمالٌ عظيمةٌ

لا يقرأ الأمريكي، في المتوسّط، أكثر من أربعة كتبٍ سنويًّا، ويرى أن ذلك أكثر من كافٍ؛ أما أولئك الذين يسعون للحصول على مناصب رفيعة فيرون أن هذه النّسبة السّنوية متكلّفة أكثر من اللّزوم؛ لذلك يلتبس عليهم الفهم أحيانًا بخصوص ما قاله داروين بالضبط عن منقار عصافير غالاباغوس؛ كما أنهم لا يستطيعون أبدًا أن يتذكّروا أي مِن الاثنين تْرُويْلوس ومن منهما كريسيدا[1].

شخصيًّا، أفرّق بينهما دون أدنى صعوبةٍ، لكنّني لا أجد في ذلك دافعًا للتّباهي. وفي سعيي الدّؤوب نحو كسب أفكارٍ جديدة، أقرأ مئة كتابٍ على الأقل سنويًّا، وغالبًا ضِعفَ ذلك؛ ومع ذلك يساورني شعورٌ ليلَة رأس السّنة بأنني لم أحقّق شيئًا يُذكر!

أقرأ الكتب، كتبَ الخيال غالبًا، لمدّة ساعتَين على الأقل يوميًّا؛ لكنني أقضي كذلك ساعتَين أُخرَيَين كل يوم في قراءة الجرائد والمجلّات. أجمع مادّة عملي (الذي سيكون جزءٌ مهمٌّ منه عبارةً عن السّخرية من الحمقى المخبولين والمحتالين الفاسدين). أمارس القراءة في كل الأماكن المألوفة: بيتي، مكتبي، على متن القطارات والحافلات والطائرات، في الحدائق العمومية والخاصة. سبق لي كذلك أن قرأت في أثناء عرض المسرحيّات والحفلات ومباريات الملاكمة للمحترفين. ولم تكن قراءتي محصورةً في فترات الفراغ، فقد غرقت بين دفتي الكتب خلال انتظاري صديقًا سكّيرًا

(1) الشّخصيّتان الرئيسيّتان من مسرحية شكسبير **Troilus and Cressida**.

يستوفي ساعاتِ احتجازه [في المخفر]، في غضون انتظاري إجراء عمليةٍ على غضروف ركبتي، وفي الفترة التي يقضيها أحدنا منتظرًا أن يستفيق شخصٌ من غيبوبته، وخلال انتظاري أن يصعد «رجل الجليد» من غطسه تحت الماء المتجمّد. وفي أكثر من مناسبة، دسستُ وجهي بين صفحات كتابٍ كي أسرح بذِهني بعيدًا عن المظاهر المشبوهة لأناسٍ على الجهة المقابلة من مقطورة مترو كنت أسافر عليه وحيدًا - لسببٍ يَصعب عليّ شرحُه - عند منتصف اللّيل. أحمل معي على الدّوام كتابًا أقلّب أوراقه خلال وقوفي في صف السوبرماركت، خلال تشكيل لجنةٍ، أو حين أجد نفسي في حفل تأبين شخصٍ بالكاد أعرفه ولا أهتم لأمره. أقرأ بكل مكانٍ، باستثناء الحمّام، لأنني أجد في هذا الفعل قلّةَ أدبٍ تجاه المؤلِّف، (إلا إذا كنت تقرأ لشخصٍ مُريعٍ طبعًا!).

تستهويني فكرَةَ «القُبَل المسروقة» وكم تستعذبني!

لطالما دأبتُ في مرحلة الدراسة الثانوية على إسناد نسخةٍ من **(الدكتور نو)**[1] أو **(الجاسوس الذي أُغرِم بي)**[2] على ظهر الشّاب الضّخم، ذي بِنية وحيد القرن، الذي كان يجلس على الطاولة التي كانت أمامي مباشرةً، وأتلذّذ بالغوص في مغامرات جيمس بوند التي تخطف الأنفاس، بينما يكون الأستاذ منهمكًا في شرح درس حروف الجرّ، أو مغالطة الأصول، أو التركيب الضوئي. وأثناء عطلتي الصّيفية الجامعيّة، حيث كنت أقضيها بمناوبةٍ ليليّةٍ في أحد مصانع العلكة، أو متطوّعًا لتسلّق سلّمٍ يقود نحو السّقف بغرض تنظيف المدخنة؛ لأن العمّال المسنّين والبُدُنَ كانوا يمقتون فعلَ ذلك، فبعضهم يخشى المرتفعات - أما السّلالم فيخشونها جميعُهم بدون استثناءٍ - وحالما أحتجب عنهم داخل ذلك العش الفولاذي المقاوم للصدأ، الذي لم يكن بمقدور أيٍّ منهم في الأسفل التحقّق من نظافته أو وساخته، ثم أتّخذ مكانًا وسط السّكر

(1) **Dr. No (1957)** - Ian Fleming.
(2) **The Spy Who Loved Me (1962)** - Ian Fleming.

والمخلّفات، وأستغرق في قراءة أحد كتب إف. سكوت فيتزجيرالد طوال اللّيل. وأقوم بإحداث جَلَبةٍ، من حين لآخر، لإيهامهم بأنني أحرز تقدّمًا في مهمة التنظيف.

في عشرينيّاتي، حين كنت أعمل حمّالًا للشاحنات في مستودع «إي أند بي» (A&P) بأحد الضواحي الكئيبة لفيلاديلفيا، كنت أقرأ خلال فترات الفراغ في جوف اللّيل وظُلمته، رغم عجز زملائي عن إدراك أن العلم نورًا! ومن أجل سلامتي الشّخصيّة، كنت أتجنّب قراءة مؤلّفات الكتّاب الرّوس أو الوجوديّين، كما كنت أتجنّب دواوين الشّعر، أو كتبٍ من قبيل **(رسائل مادام دو سيفينييه)**[1] في حضورهم، (لأنهم سيمزّقونني إربًا!). وخلال الاحتجاجات المناهضة للحرب في العاصمة الأمريكيّة خلال «أيام الغضب»[2]، كنت أقرأ المضامينَ الممنوعة رسميًّا والثقافةَ المضادّة، من قبيل أغاني مجموعة «ستبنوولف» Steppenwolf، رواية **(رحلة إلى الشّرق)**[3] أو **(سِدهارتا)**[4]، حتى يظلّ تركيزي بعيدًا عن عزف بيت سيغر (Pete Seeger) على البانجو. لقد سبق لي أن قرأت **(شقّة التّرتيّة)**[5] من الغلاف إلى الغلاف خلال أحد العروض الفرديّة لجيري غارسيًا في حلبة سبيكتروم Spectrum بفيبلاديلفيا، إذ يمكن للمرء قبل اختتام الحفل إنهاء قراءة رواية: **(بينما أرقُد محتضرةً)**[6]. وغالبًا ما انسللتُ من الخرجات، وحفلات أعياد الميلاد، وكذا مباريات كرة قدم الأطفال وحفلات تسليم الجوائز،

---

(1) **Lettres de Madame de Sévigné** (1671 - 1696) - Marie de Rabutin-Chantal.

(2) **أيام الغضب (The Days of Rage)**: هي سلسلة من الاحتجاجات المناهضة للحرب الفيتنامية، شهدتها مدينة شيكاغو الأمريكية ما بين الثامن والحادي عشر من أكتوبر/تشرين الأول من سنة 1969.

(3) **Journey to the East (1932)** - Hermann Hesse.

(4) **Siddhartha (1922)** – Hermann Hesse.

(5) **Tortilla Flat (1935)** – John Steinbeck.

(6) **As I Lay Dying (1930)** – William Faulkner.

لأسترق لحظةَ قراءةٍ، مختبئًا خلف أَجَمَةٍ أو دَغَل، في مرأبٍ أو كشكِ حديقةٍ مهجورٍ. لطالما كانت الكتب بالنسبة لي صمّام أمانٍ، وفي بعض الحالات، حين يظهر كتابٌ من العدم في لحظةٍ أبعدَ ما تكون عن المتوقّع، يكونون بمثابة «العصا السّحريّةَ» التي تجعل همومي كلّها تختفي في لمح البصر. إن الكتب تمثّل طريقةً لقول: «هذه الغرف تحوي أكثر مما ينبغي من الأغبياء والمدّعين!» ومع أن إديث وارتون[1] ميّتةٌ الآن، إلا أن رفقَتها تظلُّ أفضلَ من هؤلاء الريّاضيّين عَديمي الموهبة.

لم يسبق لي قطُّ أن ضيّعتُ فرصةً سانحةً للقراءة. فاليوم لا يحوي إلا أربعًا وعشرين ساعةً. سبعةٌ منها يلتهمها النّوم، وأربعًا على الأقل، من السبع عشرةَ المتبقّيةِ، يجب أن أقضيها في القراءة. وبالطبع، تظل أربعُ ساعاتٍ من القراءة يوميًّا بعيدةً عن إشباع شهيّتي.

أخبرني أحد أصدقائي مرّةً أن الرسالة الحقيقيّة التي سعى برام ستوكر إلى إيصالها للقارئ في روايته الشّهيرة **(دراكولا)**[2] هي أن الإنسان يحتاج أن يُعمِّر لمئات السّنين حتى يُنهي كلّ ما يجب عليه قراءته؛ وأن الكونت دراكولا (الذي لم ينتبه أحد لكونه قارئًا نهِمًا!) كان يمصّ الدماء من أعناق العذارى، سيّئات الحظّ، ليس لأنه تجسيدٌ وتمجيدٌ لصورة الشّرّ المطلق، بل لأنها كانت الطريقةَ الوحيدةَ لإطالة عمره بما يكفي لشطب المزيد من الكتب التي على قائمة قراءته. لكنني أقف للأسف عاجزًا عن التأكد من حقيقة ذلك، لأنّني لم أجد بعدُ ما يكفي من الوقت في حياتي حتى الآن لقراءة تلك الرّواية.

لو كان الأمر ممكنًا، فسأقرأ الكتب لمدة ثماني إلى عشر ساعاتٍ يوميًّا، طوال أيام السّنة، وربما أقرأ لفترة أطول من ذلك. ليس هناك شيءٌ في الحياة

---

(1) **Edith Wharton**: (1862 - 1937م) كاتبة وروائية، ومؤلفة ومصممة أمريكية، حازت على جائزة بوليتزر للخيال، ورُشحت لجائزة نوبل للآداب ثلاث مرات: سنوات 1927، 1928 و1930.

(2) **Dracula (1897)** – Bram Stoker.

قد أرغب في فعله أكثر من قراءة الكتب؛ هكذا أشعر منذ أول مرةٍ شرعت في استعارة الكتب من إحدى شاحنات الكتب الجوّالة بقرية كواكر سيتي، أوهايو، وأنا لم أُجاوز السّابعة من عمري؛ سأستعير عبارة فرانسوا رابيلبه في القول: «لقد وُلدتُ هكذا!». كما أنني أعلم سبب انكبابي على القراءة بكلّ هذا الهوس: أنا أقرأ لأنني أريد أن أكون في مكانٍ آخر. أجل، إن العالم الذي نعيش فيه كافٍ إلى حدٍّ معقولٍ، والأمر ينطبق فعلًا على هذا المجتمع [الأمريكيّ] بالتحديد، إلا أن العالم الذي ينبثق من داخل الكتب يظل دومًا أفضلَ بكثيرٍ! وذلك صحيحٌ على وجه الخصوص إذا كنت فقير أو فقدت أحد أطرافك. في حالتي، لقد وجدتُ نفسي مُلقًى بي، عالقًا وسط أحد المشاريع الأسريّة المهمَلة، مع أبوَين دون المستوى، في الوقت التي شرعت فيه في القراءة كما لو أن ضوءَ الغد لن يبزغ أبدًا، وأنا مقتنعٌ تمامَ الاقتناع بأن الفرار من الواقع هو السّبب الرئيسيّ الذي يدفع النّاس لقراءة الكتب. وأقصد هنا النّاس الأذكياء، وهو صنفٌ يضمّ أشخاصًا من طينة والدي: شخصٌ مغمورٌ من الطّبقة العاملة اختار أن يمضي على درب المعاناة مبكّرًا حين انقطع عن الدّراسة منذ بداية المرحلة الثانويّة، ليحكم على نفسه بقضاء عمره بين الوظائف العقيمة والسّخيفة التي تنخر الرّوح، ومع ذلك كان من النادر أن تراه دون كتابٍ في يده. كان يستعمل الكتب لنفس السبب الذي يستعمل الكحول من أجله: ليتظاهر بأنه ليس موجودًا هنا؛ أو بأنه سعيدٌ، على سبيل التّغيير، في حالة ما إذا كان هنا. ثم إن هذا الإكراه الذّاتي، في نظري، سلوكٌ شائعٌ للغاية؛ فبغضّ النّظر عمّا يدّعيه عشّاق الكتب، وبغضّ النّظر عمّا يقنعون به أنفسهم، فإن هدفَهم الأوّل من القراءة ليس الحصول على المعلومات أو تزجية الوقت في شيء مُسَلٍّ أو تطوير ذواتهم، ولا حتى - حسب تعبير سي. إس. لويس - أن «يعرفوا أنهم ليسوا وحيدين»؛ بل من أجل الفرار إلى عالم أكثر إثارةً وإشباعًا، حيث لا يكرهون وظائفهم، أزواجهم، حكوماتهم، والحياة برمّتها.

لقد قرأت ما يصل إجماله بين ستة إلى سبعة آلاف كتابٍ خلال حياتي ـ لم أحسبها بدقّة ـ لكن يبدو لي أن هذا الرقمَ التقريبيَّ معقولٌ. وهو يحوي العديد من الكتب التي قرأتها أكثر من مرة، من قبيل: **(التّربية العاطفيّة)**[1]، **(رحلات غوليفر)**[2]، وكذا **(شجرةٌ نبتت في بروكلين)**[3]؛ بالإضافة إلى كتبٍ قرأتها أكثر من مرّتين، مثل **(الإلياذة)**، **(آمالٌ عظيمة)**[4]، **(ستشرق الشّمس من جديد)**[5]، وكذا **(دِير نوزثانجر)**[6]. وتضمّ اللائحة كذلك نسبةً مهمّةً من التفاهات: روايات الغموض، روايات الغرب الأمريكي [الويسترن]، بالإضافة إلى كتبٍ غير مألوفةٍ كانت تُهدينيها شقيقتي رِي Ree كل سنة خلال أعياد الميلاد، من قبيل: **(هاينريش هيملر: الحياة المشؤومة لقائد الجيستابو وقوات الأمن الخاصة النازية)**[7]، أو **(جزّار ليون: السيرة المُخزية لِكْلاوْس باربي)**[8]، بالإضافة إلى **(ليني: حياة وأعمال ليني ريفنستال)**[9].

في طفولتي، أشرتُ مرّةً في أثناء حديثي إليها، بأنني لا أبالي البتّةَ بأمر «رايخ الألف سنة»، ويبدو أن ذلك التّعليق كان قاسٍ عليها.

إن سبعة آلافِ كتابٍ لعددٌ كبيرٌ بحقٍّ، إلا أن روايات الغموض، القراءات على الشاطئ، بالإضافة إلى القراءات التّافهة كيفما اتّفق، قد ساهمت كثيرًا في تضخيم هذه الحصيلة. وعلى أية حالٍ، يظل هذا الرقمُ أبعدَ من أن يكون

---

(1) **L'education sentimentale (1962)** – Gustave Flaubert.
(2) **Gulliver's Travels (1726)** - Jonathan Swift.
(3) **A Tree Grows in Brooklyn (1943)** - Betty Smith.
(4) **Great Expectations (1861)** - Charles Dickens.
(5) **The Sun Also Rises (1926)** – Ernest Hemingway.
(6) **Northanger Abbey (1817)** – Jane Austin.
(7) **Heinrich Himmler: The Sinister Life of the Head of the SS and Gestapo (1965)** - Heinrich Fraenkel & Roger Manvell.
(8) **The Butcher of Lyon: The Story of Infamous Nazi Klaus Barbie (1983)** – Brendan Murphy.
(9) **Leni: The Life and Work of Leni Riefenstahl (2007)** – Steven Bach.

إنجازًا أو رقمًا قياسيًّا، إذ يُفترض أن ويستن تشرتشل كان يقرأ كتابًا كل يوم، حتى حين كان منشغلًا بإنقاذ الحضارة الغربية من النازيين. وهذا الإنجاز يظلُّ مذهلًا، لأن تشرتشل - حسب رواياتٍ عديدةٍ - قد أمضى الحرب العالمية الثانية برمّتها مخمورًا.

***

لم أشرع في قيادة السّيارة إلا حين جاوزتُ الخمسين، ولا أعلم سبب ذلك. لم أفهم قطُّ وجودَ هذه الفجوة في سيرة حياتي، لكن هذا هو واقع الأمر بصراحة. ربما في أن السبب وراء عدم تكليف نفسي عناء تعلّم القيادة راجعٌ بالأساس إلى أنني كنت منشغل بالقراءة، وبالتالي فإن قيادة سيّارةٍ سيوقع ضررًا جسيمًا، لا يمكن إصلاحه، بنمط حياةٍ أستمتع به أيّما استمتاع. كل تلك السّاعات التي أمضيتها على متن الحافلات، القطارات، مترو الأنفاق، وباقي أنواع العربات، بل وحتى المقصورات الجبلية المعلّقة... لأن كل تلك السّاعات، التي أمضيتها في القراءة، قد تراكمت عبر السّنين؛ فإذا كان الفرد يمضي عشر ساعات أسبوعيًّا متنقلاً يقود سيّارته، فهي «عشرُ ساعات ضائعة» كان يمكن أن تُستغلَّ في قراءةِ كتابَين اثنَين، أو: مائة كتابٍ في السنة، أو: ستة إلى سبعة آلاف كتاب خلال حياته.

لا بد أن الأمر أبعدُ من مصادفةٍ أن ويليام شيكسبير، جفري شوسر، رالف والدو إيميرسون، و[الشّاعرة الإغريقية] صافو Sappho قد شَهِدوا ذلك الازدهار المشهود في «عصر ما قبل السّيّارات».

ولعلّكم تتساءلون...

والجواب هو: أجل، أقرأ الآن بوتيرةٍ أقلّ، ما دمت أقود لوقتٍ أطولَ.

إن كل تعليقاتي تشير إلى فعل «القراءة الملموسة»، لأن الكتب المسموعة لا تستهويني. أنا لا أستمع إليها للسّبب ذاته الذي يجعلني لا أستمع إلى

طبق معكرونة زيتي[1]: لأن الأمر يفتقر إلى اللّمسة الشّخصيّة. بالإضافة إلى أن الشّخص الذي يقرأ الكتاب المسموع، والذي غالبًا ما يتّسم بشيءٍ من التّباهي المتكلّف، يُقحِم نفسه بيني وبين الكاتب، تمامًا مثلما يُفسد دليلٌ سياحيٌّ ثرثارٌ بلَغْوِهِ التّفاعلَ العاطفيّ بين عشّاق الفنّ ولوحات بيرو ديلا فرانتشيسكا Piero della Francesca. زيادةً على ذلك، غالبًا ما تكون الكتب المسموعة مكثّفةً، وإذا كنتُ مهتمًّا فعلًا بما أقرأ، فسأرغب في قراءة الكتاب كلِمةً كلمةً، بما في ذلك تلكَ التي ليست بالمثيرة أو المشوّقة.

أنا لا أمارس القراءة السّريعة للكتب مطلقًا، لأنني أظنّ أن ذلك يدمّر الهدف من نشاط القراءة: يجب أن تتم التّجربةُ بأناةٍ تمنح القارئ متعةً خالصةً. ذات مرةٍ، حين كنت في الثالثة عشرة، صادفتُ آلةً ميكانيكيّةً في مكتبة المدرسة تستطيع ضبطها لتعمل بدرجاتٍ مختلفةٍ من السرعة، تقوم بتحريك مِسطرةٍ تنزلق بشكل عموديٍّ نزولًا على الصفحة، مثل الباب الحديديّ لـ «معبد الهلاك»[2]، فتغطّي سطرًا ثم السّطرَ الذي يليه تدريجيًّا، لتجبرك على القراءة بشكل أسرع. أفترض أنها كانت فعّالةً، إلا أنها تظلُّ منغِّصةً إلى أبعد الحدود. لقد كان أحد اختراعات خبراء مجال الوقت والحركة خلال ستّينيّات القرن الماضي، إذ كانت القراءة السريعة هي الموضة الرّائجة آنذاك. في طفولتي؛ كان الجميع يسعون إلى إتقان هذه المهارة لأنها ستقودنا، كما أكد لنا مرارًا وبلا هوادةٍ بعضُ الحمقى الذين كانوا يَهرِفون بما لا يعرفون، لأنها ستقودنا نحو الشهرة والثّراء. لكنّني لم أتعلّم تلكَ المهارة مطلقًا. أنا لا أضغط زرّ التّقديم السّريع خلال مشاهدة الأفلام ولا أتسرّع خلال تناول طعامي، لذا لمَ يجب عليّ التّسرع خلال قراءة الكتب؟

إن الكتب الوحيدة التي قد تراودني فكرة الإسراع في قراءتها هي الكتب السّيّئة، لكنّ احتمال أن أقرأ كتبًا سيّئةً هذه الأيام أصبح ضئيلًا للغاية، مع

---

(1) **baked ziti**: طبق شهير ومميّز من المطبخ الإيطالي-الأمريكي.

(2) **Temple of Doom**: من فيلم: إنديانا جونز ومعبد الهلاك (1984).

استثناء الحالات التي أتسلّم فيها مقابلًا للكتابة عنها، أو حين يبلغُ سوؤُها درجةً لا يمكن أن يسوء بعدَه أكثر: مثل المرّة التي أعطتني مصفّفة شعرٍ جَزوعةٌ روايةً كتبها حبيبُها السّجينُ كإنتاجٍ يثمّنُ إعادة تأهيله، واتّضح أنها محضُ إعادةِ روايةٍ معاصرةٍ لملحمة جلجامش، تجري أحداثها في فورت واين، [ولاية إنديانا]. وحتّى في مثل هذه الحالات لا أقرأ الكتب بسرعةٍ؛ أقرأها أسرع من قراءتي لروايتَي **(دِير بارما)**[1]، أو **(الأحمق)**[2] لكنّني مع ذلك لا أفوّتُ أيّ كلمةٍ. وهذا الأمر في حدّ ذاته قد يفسّر لمَ لمْ أمضِ بعيدًا في حياتي.

في المتوسط، أنتهي من قراءة 150 كتابًا سنويًا، دون احتساب العناوين التي أراجعها من أجل المجلّات والصّحف.

أقرأ صنف اللاتخييليّ non-fiction هذه الأيام أقلّ فأقلّ، فأحصر قراءتي في الأعمال الكلاسيكيّة من قبيل: **(بنادق أغسطس)**[3]، **(داروين، ماركس، وفاغنر)**[4]، **(تاريخ الفلسفة الغربيّة)**[5]، **(القياصرة الإثنَي عشر)**[6]، ولستُ أقرأ أيًّا منها للمرّة الأولى. أنا لا أقرأ الكتب المتعلّقة بالقضايا الرّاهنة؛ وأكاد لا أقرأ السّيَر الذاتيّة أو المذكّرات أبدًا، إلا إذا كانت تتعلّق بأحد المغامرين الأفارقة الأفذاذ والمتهوّرين، جورج آرمستونغ كاستر، أو كلاوس كينسكي Klaus Kinski. وأتفادى الكتب التحفيزيّة أو كتب التنمية الذّاتية، لأنني لو كنت في حاجةٍ إلى قراءة كتابٍ إرشاديٍّ للتّطوير الذّاتي لَلَجأتُ إلى الكتاب المقدس.

---

(1) **La Chartreuse de Parme (1839)** – Stendhal.

(2) **The Idiot (1868-69)** – Dostoïevski.

(3) **The Guns of August(1962):** كتاب تاريخي للمؤرخة الأمريكية باربرا ف. تاكمان Barbara W. Tuchman (1912 -1989) يسلط الضّوء على أحداث أول شهر من اندلاع الحرب العالمية الأولى.

(4) **Darwin, Marx, Wagner (1947)** - Jacques Barzun.

(5) **A History of Western Philosophy (1945)** – Bertrand Russell.

(6) **القياصرة الإثني عشر:** هو كتاب للمؤرخ سويتونيوس Suetonius، يعود تاريخ كتابته إلى سنة 121 ق.م.، ويحكي سيرة يوليوس قيصر بالإضافة إلى 11 قيصرًا آخر. عنوانه الأصلي باللاتينية: De vita Caesarum.

باستثناء أن أكون قد تقاضيتُ مالًا مقابل ذلك، فأنا لا أقرأ الكتب التي كتبها أو تتعلّق برجال أعمالٍ أو سياسيّين، وكذلك يجب على الجميع أن يفعلوا. إن هذه الكُتب مريعةٌ جميعها، بدون استثناء! إذ إن مؤلّفيها يلجؤون إلى الكُتّاب المأجورين وأخصّائيّي الكتب[1] ذاتِهم، وحتى أولئك الذين يزعمون أنهم تولّوا الكتابةَ بأنفسهم ينجحون بطريقةٍ ما في إنتاج أسلوبٍ نثريٍّ يعاني من سوء تغذية، غاصٍّ بالابتذال؛ وهو أسلوبٌ اكتسبوه من قراءة مقالاتٍ وكتبٍ مركّبةٍ تركيبيًا، استعان زملاؤهم [أصحاب تلك الكتب] بكُتّاب مأجورين دؤوبين قاموا بتجميعها لهم، فتبدو جميعها متشابهةً: محفِّزةً، صادقةً، وثاقبةً؛ وتكون مراجعتها أشبَه بالتّحقّق من سائل الفرامل: إنها تقوم بعملها على أكمل وجه، لكن من يبالي بذلك؟!

إن نصف الكتب التي أقرأها متوفّرةٌ، في متناول اليد، في بيتي أو مكتبي؛ والبقيّة أستعيرها من المكتبة العمومية، أتلقّاها كهدايا، أو أقتنيها بنفسي. كنت فيما مضى أشتري خمسين كتابًا سنويًّا، لكنّني أحجمتُ عن فعل ذلك منذ بضع سنواتٍ بعد أن قرّرتُ أن أقرأ – أو أعيد قراءة – كل كتابٍ أملكه، وبما أنه كان هناك مئتان وخمسون كتابًا غير مقروءٍ في تشكيلتي، زيادةً على مئتي كتابٍ آخر أو نحوها كنت أرغب في إعادة قراءته، فذلك لم يترك لي الكثير من الوقت لتتبّع المقتنَيات الجديدة. في المحصّلة، إن ما سبقَ ذكرهُ هو عملٌ يتطلّب ثلاث سنواتٍ كاملةٍ، وأية إضافةٍ جديدةٍ ستعطّل عملية الإنتاج. لذا ما عدت في الآونة الأخيرة أقتني أكثر من عشرين كتابًا سنويًّا، تكون في كل الحالات تقريبًا نتيجةً لنزوةٍ واندفاع خاطفٍ نحو كشكٍ بأحد محطّات القطار أو المطارات حين أرغب في التّهام كتابٍ يكون خفيفًا وقصيرًا بما يكفي. وغالبًا ما أختار العناوين التي بلغ صداها أقصى أطراف الأرض بضعَ

(1) **book doctor**: عكس المدقّق اللّغوي أو المحرّر، يقوم " أخصّائيُّ الكتب" بقراءة الكتاب والنظر إلى ما الأمور العامة التي يجب تصحيحها، مثل البنية أو التنظيم، التطور، وسلاسة التدفّق، وفي حالة رواية: الحبكة، الشّخصيّات، وتيرة الأحداث،... إلخ.

سنواتٍ قبل ذلك، من بينها مثلًا روايات: **(الفتاة ذات القرط اللؤلؤي)**(1)، **(لحنٌ جميلٌ)**(2)، و**(العظام البهيّة)**(3). وهنا أشير إلى أصناف الكتب التي تلتهمها النّساء الثلاثينيّات في نوادي السّباحة التهامًا (في الغالب أمام امتعاض واستهجان أطفالهم الغرقى في المسبح). إن هؤلاء النّسوة يخضعن لعقيدةٍ ثقافيةٍ وحيدةٍ لا تتزعزع: يقرأن هذه الكتب خلال السنة الميلادية التي تكون فيها متصدّرةً لقوائم أفضل المبيعات، لكن إذا لم يَنتهين من قراءتها عند منتصف ليلة الحادي والثلاثين من ديسمبر/كانون الأول، يُلقى بها في حاوية القمامة. ثم ينتقلن إلى الرواية الموالية ذات الطّابع الأكثر جِدّة وتحيينًا؛ روايةٌ غالبًا ما تحتوي على أصنافٍ شادهةٍ من «ذاتويّةِ الضّواحي» أو مغامراتٍ يصعب تصديقها لبطل عِرقي جَسور. أتذكّر أنني كنتُ قد خطّطتُ مرّةً لكتابة مقالٍ لمجلةٍ عنوانه: «آخر رجل يقرأ واقفًا رواية **(ماندولين الكابتن كوريلّي)**(4)»، إلا أنه لم يرغب أحدٌ في أن يدفع مقابل للمقال.

أنا لا أقرأ بتاتًا ما يسمى «كتاب السّنة» حين ينكبُّ الجميع على صفحاته، لأنه يروقني أن أنتظر بضع سنواتٍ حتّى تهدأ الأمور. وعادةً ما أنجح في إقناع نفسي بالإقبال على قراءة روايات من قبيل: **(منتصف اللّيل في حديقة الخير والشرّ)**(5)، **(أخبار سفن الشّحن)**(6)، **(حياة باي)**(7)؛ لأكتشف في نهاية المطاف أن سبب كل تلك الجَلَبَة راجعٌ إلى نظريّة الأوتار، بْيورك Björk، أو حرب جُزر فوكلاند [مالفيناس]. إن هذه الكتب عمومًا «جيّدةٌ» لكنها ليست «رائعة»، ويتم تحويلها في عددٍ كبيرٍ منها إلى أفلامٍ خرقاءَ مثيرةٍ للسّخط

(1) **Girl With a Pearl Earing (1999)** – Tracy Chevalier.
(2) **Bel Canto (2001)** – Ann Patchett.
(3) **The Lovely Bones (2002)** – Alice Sebold.
(4) **Captain Corelli's Mandolin (1994)** – Louis de Bernières.
(5) **Midnight in the Garden of Good and Evil (1994)** – John Berendt.
(6) **The Shipping News (1993)** – Annie Proulx.
(7) **Life of Pi (2001)** – Yann Martel.

والسّخرية، تحطّ من قدرها وتُفقدها بريقها المكتسَب بجدارةٍ واستحقاقٍ، ولعلّ أوضح مثالٍ على ذلك هو فيلم «**تكفير**»[1]. إن القراءة ليان ماك-إيوان Ian McEwan، وأنت محمولٌ جوًّا، في رأيي، لرائعةٌ إلى حدٍّ مذهلٍ. إنه الأفضل! في حين أن كتابات جوناثان فرانزن Jonathan Franzen، على النقيض منه، تصلح للقراءة على متن القطار. لكنني لم أجد قطّ كاتبًا ممتعةً قراءتُه خلال رحلة على متن الحافلة؛ حتمًا لن يكون مارسيل بروست!

حتى وقتٍ قريبٍ لم أكن أعي إلى أيٍّ حدٍّ كانت الكتب تُهيمن على وجودي المادّي. لم أنتبه إلا حين بدأت تصنيف ممتلكاتي إلى وجود كتبٍ بغرَف البيتِ جميعها، باستثناء الحمّامات، وبالغرف الثلاثة لجناح مكتب عملي. إن إغفالي لهذه الحقيقة مردُّه إلى تفسيرٍ واضح: إنني من أصولٍ إيرلنديّةٍ، والكتب في نظر الإيرلنديّين شيءٌ حتميٌّ وطبيعيٌّ تمامًا، كعنصرٍ يشكّل المنظرَ العامَّ، مثلما هي الرّمالُ بالنّسبة لقبائل الطّوارق، وبسبب ذلك ننسى كيف أن الكتب تبدو في غير موضِعها داخل البيت الأمريكيّ المعاصر. لكن الكتب ما عادت تتماشى مع الدّيكور؛ لأن حُليّ وزخارف شعب الإنويت Inuit - بخسةَ الثّمنِ - تعطي انطباعًا أفضل عن الذوق الجماليّ لأصحاب البيت. فلنتأمل الآتي: حين غزا الإنجليز «الجزيرة الزمرّديّة»[2] تحت قيادة أوليفر كرومويل في القرن السابع عشر، أخذوا كل ما له قيمةٌ وأحرقوا الباقي. لم يبقَ للإيرلنديّين، بعد ذلك، أرضٌ، ولا مالٌ، ولا مستقبلٌ. لم يبقَ في حوزتهم إلا الكلمات. تلك الكلمات صارت كتبًا، ثم تزاوجَت تلك الكتبُ مع الموسيقى والكحول لتتيح للإيرلنديّين أن يتساموا عن الواقع. لقد كانت تلك بالفعل

---

(1) **(Atonement 2007)**: فيلم حاصل على الأوسكار، مبني على الرواية التي تحمل العنوان ذاته، تكفير (2001) للروائي وكاتب السيناريو الإنكليزي المعاصر يان ماك إيوان Ian McEwan الذي صنّفته مجلة الدايلي تيليغراف البريطانية في الرتبة 19 ضمن قائمة الـ"100 شخص الأكثر تأثيرًا في الثّقافة البريطانية".

(2) **Emerald Isle**: لقب إيرلندا، بسبب الخُضرة النّاصعة التي تتّسم بها.

تجربتي الشّخصيّة خلال طفولتي، فلقد نشأتُ فقيرًا؛ مرّاتٍ كثيرة لم نكن نملك ما نسدُّ به رمقنا؛ مراتٍ عديدةً لم نكن نجد إلى التّدفئةِ سبيلًا، ولم نكن نتوفّر على جهاز تلفازٍ؛ في حين أن الكتبُ كانت متوفّرةً على الدّوام، وهي ما وضع حدًّا لذلك البؤس وتلك الوَيلة.

الكتب على مرمى بصري طوال ساعات النّهار، بل وحتّى اللّيل. إذا دخلتم بيتي فإن أول ما سترونه هو الكتب، والأمر ذاته ينطبق على مكتبي، إذ إن الرّواق لا يحتوي - باستثناء خزانة حفظ الملفّات واللوحات الزّيتية - إلا على الكتب حصرًا. هناك خزانةٌ للكتب في كل غرفةٍ من غرف بيتي الثلاثة، كما أن خزانتَي كتبٍ تحظيان بمكان شرفيٍّ داخل غرفة خزانة الملابس المتّصلة بغرفة النّوم الرئيسيّة. هناك كتبٌ في المرأب، في القبو، في العلّيّة، في سيّارتيَّ: «كامري»، و«سيينّا»؛ هناك كتبٌ بكل مكان، ومع استثناءاتٍ قليلةٍ، جميعها كتبٌ جيدةٌ للغاية أو ممتازةٌ.

توجد خِزانتا كتبٍ في غرفة الطعام الضّيّقة ببَيتنا، تحتويان على أجزاء من موسوعاتٍ اعتدنا إخراجها والاطّلاع عليها خلال وجبات العشاء حين كان الأطفال صغارًا ويريدون أن يعلموا ما الذي دفع لايدي غوديفا Lady Godiva إلى امتطاء جوادها والانطلاق في رحلتها الشّهيرة (لقد كانت للضّرائب علاقة بالأمر)! ولمَ كانت قبائل الإيروكواس Iroquois[1] تسيء معاملة سجنائها. كانت موسوعةً انتشلناها من بين القمامة، تنقصها 6 كتب، أي أنها تنتهي عند الحرف «T». لكن، لا بأس بذلك، لأن الأمر أجبر الأولاد على تخطّي الحروف النّاقصة وعلى أن يكونوا مبدعين؛ لكنهم وجدوا صعوباتٍ مع الكلمات التي تبدأ بالحرف «Z». وفي الآونة الأخيرة، أشارت زوجتي إلى أنّه يجب التخلّص من هذه الكتب العتيقة - لأنها صارت تستثقل ظلّها

(1) **Iroquois**: هي تسمية لرابطة قبائل الأمم [الستة الأولى] من الأمريكيين الأصليين بأمريكا الشمالية (المعروفين بـ: الهنود الحمر).

بالبيت بعد رحيل الأولاد – لكنني رفضت ذلك. فبفضل تلك الكتب، كبر أولادي بذهنٍ متفتّقٍ محبٍّ للاستكشاف، في حين أن الكثيرين من أقرانهم كبروا ليصيروا بهلوانات. وفي هذا السياق، أجرى علماء اجتماع – يعيشون غالبًا في السويد – أبحاثًا على التوائم الذين تفرّقوا بعد الولادة والإخوة الذين تبنّتهم عائلاتٌ مختلفةٌ ثم التقوا بعد سنين طويلةٍ من الفراق، وسيقولون لك بأن إحاطة أبنائك بالكتب لن يكون له أيّ تأثيرٍ – قابلٍ للقياس الكمّي – على تشكّل شخصيّاتهم. إنهم يؤكّدون أن الطبيعة تتغلّب على التّنشئة في كل مرّة. لكن، وكما هو الحال دومًا بالنّسبة لعلماء الاجتماع، خصوصًا أولئك الذين يعيشون في السّويد، فإنهم على خطأ.

أمتلك، في المجموع، ألفًا وثلاثمائة وأربعة وسبعين كتابًا، أربعمائة منها منها في مكتبي، ومنها ما يناهز مجموع سبعمائة من الروايات، مجموعات القصص القصيرة، المسرحيات، والدّواوين؛ أما الباقي فيتعلّق بالتاريخ والفن والموسيقى. أما زوجتي فتملك قرابة مئتَي كتاب، وأبنائي أيضًا تركوا العددَ ذاته تقريبًا من الكتب بالبيت بعد انتقالهم. ثم إن هناك أيضًا ما يناهز اثنين وسبعين كتابًا وكتابَ صورٍ من تلك التي توضع على طاولة القهوة، تحمل عناوين من قبيل: **(القصّة المعقّدة لأشهر قطٍّ في العالم)**[1]. إنه رقمٌ كبيرٌ بمعايير الفرد المتوسّط، لكنّه ليس بالكبير البتّة بالنّسبة لعاشق كتبٍ حقيقيّ. ورغم ذلك، فإن هذا الفرد الأمريكيّ المتوسّط سيجد عندي ما يكفيه من الكتب لقراءتها على مدى القرون الثلاثة المقبلة، مع أنه من المستبعد للغاية أن يتفرّغ لقراءة رواية فلوبير غير المكتملة: **(بوفار وبيكوشيه)**[2].

لديّ كذلك ما يناهز مئة كتابٍ مرجعيٍّ: مراجع، قواميس، كتب نحوٍ وصرفٍ، ودلائل سياحيّة؛ بالإضافة إلى ثلاثين كتابًا أحتفظ بها كمزحة.

(1) **The Twisted Tale of the World's Most Famous Cat (1996)** – John Canemaker.

(2) **Bouvard et Pécuchet** (1881, posthumously) – Gustave Flaubert.

وتضم هذه الأخيرة: **(الوصفات العلاجيّة المنزلية بإنديانا)**[1]، **(الإنجيل الفاحش)**[2]، **(ماخور شكسبير)**[3]، **(كيف تنشئ دولتك الخاصّة)**[4]، **(الزّراعة الحاسوبيّة للبسطاء)**[5]، **(دليل موجز لمالك بيت الدّعارة القانوني)**[6]، **(كيف تصبح جامايكيّا)**[7]، بالإضافة إلى **(الأجزاء المثيرة: دليل القارئ للجنس في الأدب)**[8]. معظم هذه الكتب تم طبعه على نفقة المؤلف. كتبٌ سخيفةٌ أُرسلت عبر البريد إلى أماكن مختلفة حيث كنت أعمل، ولن أقرأها أبدًا، لأن الغرض من الاحتفاظ بها هو تسليتي فحسب، لذلك أعرضها على رفوفي بشكلٍ بارزٍ. ومن بينها كتابٌ عنوانه: **(الوصفات العلاجيّة المنزلية بإنديانا)**، أُرسل إليّ من قِبل منشورات جامعة بيردو لأسباب لم أفلح حتى اللّحظة في فكّ طلاسمها بعدُ، لذلك ما عادت هناك فائدة تُرجى من محاولة التّخلص منه الآن: بعد مرور 27 سنة!

هناك أيضًا مجموعةٌ صغيرةٌ من الكتب حافظتُ عليها لأن محتواها بالغ الحمق وجديرٌ بالازدراء، إلا أنها قد تكون مفيدةً في المستقبل: في حالة ما إذا طُلب مني المثول أمام محكمةٍ فيدرالية للإدلاء بشهادتي في تحقيق حول الذّوق السّيّء في الثقافة الأمريكية خلال القرن العشرين. وأما هذه الكتب الأخيرة فأحتفظ بها في حقيبة معدنية مقفلةٍ بالمفتاح على الدّوام في خزانة

---

(1) **Hoosier Home Remedies (1985)** – Varro E. Tyler.

(2) **The X-rated Bible: An Irreverent Survey of Sex in the Scriptures (1985)** – Ben Edward Akerley.

(3) **Shakespeare's bawdy (1947)** – Eric Partridge.

(4) **How to Start Your Own Country (1984)** – Erwin Strauss.

(5) **Computer Gardening Made Simple (1985)** – Charie DeJardin.

(6) **The Legal Whorehouse Owner's Handbook (1984)** – Chuck Prince.

(7) **The How to be Jamaican Handbook (1987)** – Harclyde Walcott and Kim Robinson.

(8) **Show Me the Good Parts: The Reader's Guide to Sex in Literature (1984)** – Robert Reisner.

بالبهو خارج مكتبي، لأنني أخشى من انبعاثاتها الهيدرو- نووية أن تلوث باقي المجموعة. من بين هذه الكتب أولى خُطَب بات بيترسون المخبولة بتسعينيات القرن الماضي: **(النظام العالمي الجديد)**(1)، حيث يُنظِّر هذا المبشِّر المسيحيّ التلفزيونيّ بأن عددًا من قرارات أفراد إدارة الرئيس كارتر قد تأثّرت، بطريقةٍ غير مباشرةٍ على الأقل، بخُدّام إبليس. وتتفسّخ في حاوية البهو العَفِنة ذاتِها أيضًا السيرةُ الذاتيةُ العدوانيّة لجيرالدو ريفيرا: **(كشف ذاتي)**(2). طوال سنينَ وأنا أرى كورت فونيجيت وهو يُجرجر قدميه في شارع تورتل باي، شرق نيويورك، والكآبةُ باديةٌ على وجهه. لم أستطع قطّ فهم السبب الذي قد يجعله بئيسًا إلى تلك الدرجة، إذ إنه في نهاية المطاف يظل أحد أكثر الروائيّين الأمريكيّين نجاحًا ومن بين أرفعِهم مكانةً. ثم حدث يومًا، خلال قراءتي **(كشف ذاتي)**، أن اكتشفت بأن فونيجيت كان حَمَا جيرالدو لوقتٍ وجيز: أيُّ نازلةٍ هذه التي ألمّت بالرّجل!

أملك بضع مئاتٍ من الكتب ذات الغلاف المقوّى، بعضها عتيقٌ، لكن معظمها نُسخٌ بغلافٍ عاديٍّ تضم محتوى كتب الغلاف المقوّى؛ والكتب من هذا النوع الأخير صارت اليوم معروضةً في أغلفةٍ زاهيةٍ فتّانةٍ تخدع القارئ إذ تدفعه للظنّ بأن الكلمات داخلها ستكون بنفس سحر العمل الفنّي الذي يزيّن غلافَه: لا يكون الأمر كذلك، في العادة. إنه لمن الأسهل رسم صورةٍ جميلةٍ أو التقاط صورةٍ تسترعي الانتباه على كتابةِ كتابٍ جيدٍ. فعلى سبيل المثال، نجد أن بيكاسو قد أبدع مئات اللّوحات العظيمة، في حين أن رالف والدو إيميرسون كتب روايةً عظيمةً وحيدةً؛ إن الفن صعبٌ، لكن الأدب أصعب. إن روايتَي باولو كويلو **(بمحاذاة نهر بييدرا جلست فبكيت)**(3)

---

(1) **The New World Order (1991)** – Pat Robertson.
(2) **Exposing Myself (1991)** – Geraldo Rivera.
(3) **By the River Piedra I Sat Down and Wept (1994)** – Paulo Coelho.

و(**فيرونيكا تقرّر أن تموت**)[1] تم إخراجهما في حلّةٍ أنيقةٍ، لكن في الحالتَين كلتَيهما، فإن الغلاف يحرّر شيكًا يستحيل على مضمون الكتاب أن يسدّده. وعلى النّقيض من ذلك، نجد أن الغلاف الأصلي لرواية (**غاتسببي العظيم**) [للناشر:سكريبنر]، في نظري على الأقل، مبهرَجًا بطريقةٍ صارخةٍ، ملتبِسًا، وفي غاية البشاعة؛ لكن الرواية في حد ذاتها لا تُضاهى!

عدا استثناءاتٍ قليلةٍ، أقوم دومًا بتدوين اسمي بالإضافة إلى التاريخ والمدينة حيث اقتنيت الكتاب على الجهة الداخلية للغلاف؛ وإذا لم أكتب اسمي داخل الكتاب، فذلك يعني أنني قرّرت أنه لا يستحق أن أحتفظ به. أنا لا أكتب اسم المحلّ، وأفترضُ أن ذلك راجعٌ إلى أن كتابة أسماءٍ من قبيل «Prairie Lights»، «Librairie du Vieux Quartier»، أو «Tattered Cover» داخل كتابٍ سيستحضر دومًا ذكرياتٍ مبهجةً، في حين أن كتابة عبارة «حدود» لن يجعلني أستحضر أيّ شيءٍ. وعلى ذكر ذلك، لقد اقتنيتُ عددًا هائلًا من الكتب عند الحدود.

أنا لا أجمع الإصدارات الأولى، كما أن الكتب القديمة لا تثيرني البتّة. هناك نسخة من كتاب: (**تاريخ انحدار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**)[2]، لمؤلّفه [المؤرخ] جيبون Gibbon يرقد في خزانتي منذ 36 سنة، حين أهدتني إياه زوجتي بُعَيد زواجنا. نُشرت هذه النسخة في هاليفاكس، غرب يوكشاير، سنة 1854، وقد كان الكتابُ – الآخذ في تحلّل صامتٍ منذ أكثر من نصف قرنٍ – مِلكًا لجدّها؛ لونه بنيٌّ وذهبيٌّ، وشنيعٌ؛ يغزو أوراقَه النّمشُ الشّيخوخيّ؛ رائحته لاذعة نفّاذَة، وحين تحمله يبدأ جلده بالتّداعي بين يديك. ثم ما يدريني؟ لعلّه يطفح ببرقاتٍ وديدانٍ من أواخر العصر الفيكتوريّ. إن هذا الكتاب لمنفّرٌ بحقٍّ لدرجة أنني حين قرّرت الانهماك في قراءة هذا المؤلَّف

(1) **Veronica Decides To Die (1998)** – Paulo Coelho.
(2) **History of the Decline and Fall of the Roman Empire (1776)** – Edward Gibbon.

الكلاسيكيّ لجيبون قبل بضع سنواتٍ، قمت أولًا باقتناء المؤلف الصادر عن سلسة «مودرن لايبريري» Modern Library، والذي يحوي 3 مجلدات. وبهذه الطريقة، أستطيع أن أسطّر بابتهاج أسفل المقاطع المثيرة للاهتمام دون أن أخشى تشويه قطعة الميراث الأثريّةً تلك، ودون أن أقلق بشأن حشراتٍ، عمرها قد يصل إلى قرنٍ، تخرج من بين ثناياه لتكتسح بيتي الضّاحَويّ حسنَ التّجهيز. أما فيما يخصّ المؤلَّف الضخم: **(تاريخ إنكلترا)**[1]، للّورد ماكولاي، فأنا أحتفظ بهذه السّلسلة كموضوعٍ للحديث، رغم أنه لم يسبق لأيٍّ من تلك الكتب أن كانت موضوع محادثةٍ حقًّا؛ ذلك لأنني أخبّئها بعيدًا في الغرفة الخلفيّة بمكتبي، ولا أسمح لأحدٍ بالدّخول إلى هناك. لن يفرّقني مع هذا الكنز شيءٌ أبدًا! ستكون جريمةً أن أبيع أحد هذه الكتب، أن أمنحها، أو أتركها خلفي، لكنني أعلم أنني لن أقرأها أبدًا.

ولا أملك أيّ كتابٍ آخر بهذه المواصفات.

إن كتبي ليست مرتّبةً حسب موضوعاتها، بل حسب قوامها وطولها: الأغلفة المقوّاة (hardacks) مع بعضها، والأغلفة العادية المشابهة للمقوّاة في الحجم والشكل (trade hardbacks) مع بعضها أيضًا؛ كما أحتفظ بإصدارات «بانتام الكلاسيكية» Bantam Classics – **(بيلي باد)**[2]، **(قلب الظلام)**[3]، **(القادة الشّجعان)**[4]، **(ويلسون المغفّل)**[5] – مجتمِعةً. إن الاستثناءات الوحيدة هنا هي كتبي المئة والثمانية والخمسون (158) بلغاتٍ أجنبيةٍ: معظمها بالفرنسيّة، محشورةٌ مع بعضها في رفوفٍ خاصّةٍ بها. إن المؤلّفات الفرنسية هذه موضوعةٌ قرب مؤلّفات الإسبانية، وهذه الأخيرة

(1) **The History of England from the Accession of James the Second (1848)** – Lord Macaulay.
(2) **Billy Budd (1924)** – Herman Melville.
(3) **Heart of Darkness (1899)** – Joseph Conrad.
(4) **Captains Courageous (1897)** – Rudyard Kipling.
(5) **Pudd'nhead Wilson (1894)** – Mark Twain.

قرب المكتوبة بالإيطالية. أما الكتب الألمانية فتقعد محتجزةً لوحدها بعيدًا، على رفوف أخرى، لأنها تثير أعصاب باقي الكتب وحفيظتها.

أحيانًا، أقرأ ما يقترحه عليّ أصدقائي، لكنني أقتني نسختي الخاصّة من تلك الكتب دومًا. ومردّ ذلك أنني أحبّ أن أدوّن على كتبي، أن أصوّب علامات التّرقيم، وأكتب عبارات متحذلقة من قبيل:

«أوه، حقًّا؟ ماذا إذن عن حركة ماركو أنتونيو المفاجئة في معركة فيليبي؟»

أو: «هلّا حاولتِ قول ذلك في حيّ البرونكس، يا ليزي بينيت؟»

وفي نفس السّياق، أذكر أن فلان أوبراين Flann O'Brien قام بتوفير خدمة قراءةٍ حسب الطّلب للأميّين ذوي السّعة: أن يدفعوا بضع باوندات مقابل «الخربشة» على كتبهم وإدراج ملاحظات على هوامش الكتب تنمّ عن الفِطنة والاطّلاع، لإعطاء انطباعٍ بأنهم قد قرأوها. ومن بين تلك الملاحظات:

«نقطة وجيهة!»،

«هذا هراءٌ، هراءٌ محضٌ!»،

أو «هذا معقولٌ إلى حدّ ما، إلا أن بوسوي قد برهن على الفكرة ذاتها في مؤلّفه: **(خطاب حول التاريخ الكوني)**[1]، مقدّمًا تفسيراتٍ أقوى وأكثر إقناعًا.»

ويظل من نافلة القول إن هذه المهمّة تناسبي تمامًا!

كما أنني – ومنذ زمن طويل – قد اتبعت عادة التسطير أسفل أبرز المقاطع في الكتب، وتدوين أيّة كلمةٍ غريبةٍ أو غير مألوفةٍ على الجهة الدّاخلية للكتاب بغرض البحث عن معانيها لاحقًا؛ كلماتٌ من قبيل: azoic (عديم الحياة)، omphalos (السرّة)، وfrottage[2]؛ كلماتٌ غريبةٌ وسُلطويّةٌ لا يمكن

---

(1) **Discours sur l'histoire universelle (1861)** – Jacques-Bénigne Bossuet.

(2) **Frottage**: لها معنيان اثنان: الأول، تقنية في الرسم تتم عبر وضع الورقة فوق سطح غير مستوٍ؛ والثاني الاحتكاك فوق الملابس على جسد شخص آخر في مكان عمومي من أجل تحقيق نشوة جنسيّة.

استعمالها في الصحافة الرّسمية أبدًا، وذلك لأنّها تضرب تدفّق الجملة في مَقتلٍ، تمامًا كما تفعل أية إحالة على بار لاغركفيست Pär Lagerkvist. وقد يصل بي الأمر أحيانًا إلى تدوين ملاحظاتٍ لنفسي، لائحةٍ بما يجب عليّ القيام به، أو روزنامة مواعيد [على أوراق الكتاب]، رغم أنني أقوم بذلك غالبًا خلال قراءة الدواوين الشّعرية، حيث تكون المساحات البيضاء شاسعةً. لعلّه من قلّة الأدب أن أخُطَّ جملًا من قبيل: «لقاءٌ مع آني لوكوم في ساحة القديس ميشيل على الساعة السادسة والنصف»، «تعلّم الألمانية»، أو «خفّف من استهلاكك للنّبيذ بصرامةٍ!» على ديوانٍ للشاعرة إيدنا سانت فينسنت ميلاي[1]، لكنني حين أصادف هذه المقاطع سنواتٍ بعد كتابتها، يراودني شعورٍ بالسّفر عبر الزّمن نحو مكانٍ أكثر أمانًا وأُنسًا. إن الماضي يكاد يبدو دومًا تقريبًا أفضل من الحاضر لأنك لا تستطيع تذكّر المخاوف والشّكوك التي كانت تحوم حول مستقبلك آنئذٍ، وعلى أية حالٍ، فقد كنتَ أصغر بأربعين سنةً. ثم إن المشاهد السّيّئة من تلك العقود القديمة التي مضت دون رجعةٍ يتم تعديلها في ذكرياتنا: ننسى بسهولةٍ حرب فيتنام، المدن التي احترقت، الاغتيالات، والنّساء اللاتي كنّا نخرج رفقتهن في مواعيد غراميّةٍ.

إن المتعة التي أستقيها من الكتابة على صفحات الكتب هي إحدى أسباب عدم امتلاكي لقارئة إلكترونية. إن الكتب لتعويذاتٌ وطلاسمُ تاريخيّةٌ، كما أنها تذكيرٌ بالموت كذلك، بما أننا نقرأ لمؤلفٍ بعد رحيله بقرونٍ. أجل إنها كذلك بالفعل! لكنّها أيضًا ألعابٌ، وأنا أحبّ اللّعب بكتبي، وسمَها وتعليمها، كما أحبّ أن أضفي عليها مظهرًا ينضح بالحيوية. ويروقني كذلك تجميعها على الرفوف وإعادة ترتيبها وفق معاييرَ جديدةٍ: الطول، اللون، السُّمك، المصدر، النّاشر، جنسيّة المؤلّف، موضوع الكتاب، واحتمالية أن أقرأها يومًا.

---

(1) **Edna St. Vincent Millay**: شاعرة أمريكية (1892 - 1950) حائزة على جائزة بوليتزر عن فئة الشّعر (1925) وميدالية روبرت فروست (1943).

ثم أعيدها إلى ترتيبها القديم مجدّدًا. أحب جذب أحد كتبي من على الرّف وإلقاءَ مقطع مدهشٍ على مسامع أحد المخبولين قليلي الذّكاء الذي ظهر بمكتبي حينًها. وحين أمتلك كتابًا، حتى قبل فتحه على الصّفحة الأولى، أشعر بأنّه قد غيّر حياتي بالفعل على نحوٍ ما. من جهة أخرى، أعامل كتبي بالطريقة ذاتها التي أعامل بها ملابسي، أحذيتي، أو أسطواناتي الغنائية: أستغلّها. ولا يمكنك القيام بأيٍّ من ذلك مع قارئة كيندل.

رغم أنني أدوّن على الكتب، إلا أنني لا أشوّهها عبر استعمال لونٍ فاقعٍ [للهايلاتر]. لقد كنت أفعل ذلك خلال دراستي بالجامعة، لكنّ تقنية الحشوِ المَقيتة هذه لم تفلح، وذلك راجعٌ بالأساس إلى عدم كفاءة الاختيار؛ فإذا أردت أن تُعلِّم على الأجزاء الرائعة من مسرحية **(ماكبث)** [لشكسبير]، فسينتهي بك المطاف بالتّعليم على الكتاب برمّته. وفيما يخص الكتب التي أستعيرها من المكتبة، فأنا لا أخربش عليها ولكنني أدوّن ملاحظاتٍ على مذكّرتي بالمقاطع البديعة المباغِتَة.

يقول غراهام غرين في روايته **(صلب الموضوع)**(1):

«يقبع في قلوبنا ديكتاتوريٌّ قاسي القلب، على استعدادٍ للتأمّل في مآسي آلاف الغرباء إذا كان ذلك سيضمن سعادة القليلين من أحبابنا.»

ويقول أوسكار وايلد في روايته **(صورة دوريان غراي)**(2):

«هناك على الدّوام شيءٌ سخيفٌ بخصوص مشاعر أولئك الذين ما عدنا نكنّ لهم مشاعر الحبِّ.»

أما جاين سمايلي فتقول في قصّتها **(حبٌّ عاديٌّ)**(3):

---

(1) **The Heart of the Matter (1984)** – Graham Greene.
(2) **The Picture of Dorian Gray (1890)** – Oscar Wilde.
(3) **Ordinary Love (1989)** – Jane Smiley.

«لقد منحتُ أولادي أقسى هديّتَين بوسعي منحهما: تجربة أن يحظوا باختبار سعادةٍ عائليةٍ مثاليةٍ، والمعرفة الأكيدة بأن ذلك لا يمكن أن يدوم.»

إن قراءة مقاطع كهذه تجعلني دومًا راغبًا في تدوينها، كما لو أنه بفعلي هذا أقوم بتكريم من كتب تلك الكلمات، زيادة على أنني أعتقد أنها الطريقة المثلى لتعلّم الكتابة، حتى ولو انتهى بك المطاف ككاتب سيء. فكما يحفظ لاعبو الشّطرنج الحديثون - كفراخٍ لم ينبت ريش أجنحتها بعد - فخاخ الافتتاحات التي تعلّموها من [أسطورتَي اللّعبة] غاري كاسباروف وبوبي فيشر، فإن الكتّاب الشّباب يتعلّمون حرفة الكتابة عبر تقليد - عن وعيٍ أو دونه - إيقاعات الكتّاب الذين يبجّلونهم، أنماط كلامهم، والطريقة التي تتموّج بها جُمَلُهم. فخلال طفولتي كان معظم الكتّاب في مجال الصّحافة الرّياضيّة يكتبون بطريقةٍ تعكس تأثير إرنست هيمنغواي. وبالفعل، حين بلغتنا أخبار انتحاره من مدينة كيتشوم، [ولاية أيداهو]، غمر هؤلاء الكتّابَ الرّياضيّينَ شعورٌ بالارتياح العميق لأنه مات أخيرًا. لقد كان يطبع على آلته الكاتبة على الدّوام ما كانوا لا يفلحون في صنعه إلا نادرًا. إن كتّاب العمود الواعدين - المتغطرسون بالضّرورة والذين تبتدئ أسماؤهم بلفظة «ماك» Mc - قد تعلّموا الكتابة عبر تقليد جيمي بريسلين Jimmy Breslin؛ ولم يتعلّم أيٌّ منهم من فولكنر ولا حرفًا واحدًا.

أنا لا أقبل بقراءة النّصائح من الغرباء، خصوصًا من الرّجال المتردّدين ذوي الياقات في لونٍ مختلفٍ تمامًا عن باقي ردائهم؛ ويراودني شعورٌ بالنّفور من استعارة أو قبول كتب من أشخاصٍ تكون لديَّ أسبابٌ للتّشكيك، أو حتى الخوف، من ذوقهم الأدبي. كم أوجس في نفسي خيفةً من تلك «اللّحظة الشاذّة» حين يسلّمك صديقٌ أو صديقةٌ ذلك «الكتابَ الذي غيّر حياته» حسب تعبيره أو تعبيرها، فيتصادف أنه كتابٌ تعرفه جيدًا، بل وتمقُته منذ سنّ الرابعة عشرةَ. إن هؤلاء النّاس المهووسين بكتابٍ وحيدٍ لا يستطيعون

استيعاب الفكرة الآتية: مهما كانت قيمة ذلك الكتاب لديهم، فإنه من الممكن تمامًا أن هذا الكتاب بعينه قد يدفع شخصًا إلى الاستمتاع بقراءة **(مذكرات معجب)**[1]، **(عنصر الخَبَل)**[2]، **(الأمير الصغير)**[3]، **(الكُثَيب)**[4]، بل وحتى كتابٍ يحمل عنوانًا من قبيل: **(ألف مكانٍ ومكانٍ يجب عليك زيارته قبل لقاء أكثر ستة أشخاص تستبعد مصادفتهم في الجنة)** [عوض قراءة الكتاب المقترح].

ما عاد أحدٌ من أصدقائي المقرّبين يُعيرني كتبه، لأنهم جميعًا يعلمون بأنني لن أقرأها في أي وقتٍ قريب. لديّ جدول قراءاةٍ محدّدٍ، والذي - إلى وقت كتابة هذه الأسطر - ليس به متّسع لقراءة روايتَيّ: **(قوس قزح الجاذبية)**[5] أو **(بنين)**[6]. والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هي الكتب التي طلبتها بنفسي، على وجه الخصوص: سيرةٌ ذاتيّةٌ محترمَةٌ لمارك توين، وكتابٌ حول الدور المركزي الذي لعبته ليفربول في تسهيل عملية توطين الإيرلنديّين النازحين في مدينة الحبّ الأخوي [فيلاديلفيا]. إنني أستعير هذه الكتب لأنني أكون قد اعتزمت قراءتها بالفعل حينئذٍ، لكن حالما آخذها معي إلى البيت تتملّكني نزوةٌ لا فكاك منها للشّروع في الكتابة عليها. لا أقصد إهانة أصدقائي حين لا أقرأ كتبهم بعد أن طلبت منهم استعارتها، لكن مع عدم رغبتي في تشويه ممتلكاتهم، أقرّر وضعها على الرّفوف بغرفة المعيشة، حيث تظل لسنواتٍ أو لعقودٍ أحيانًا، قابعةً هناك بجوار الأجزاء الثلاثة لمؤلّف روبرت كارو الرائع الذي يحكي سيرة لايدون بينز جونسون Lyndon Baines Johnson، كأنشودة شكرٍ وتسبيحٍ لكلٍّ من غوغائي العصور الوسطى ومثير القلاقل،

(1) **A Fan's Notes (1968)** – Frederick Exley.
(2) **The Sot-Weed Factor (1960)** – John Barth.
(3) **Le Petit Prince (1943)** – Antoine de Saint-Exupéry.
(4) **Dune (1965)** – Frank Herbert.
(5) **Gravity's Rainbow (1973)** – Thomas Pynchon.
(6) **Pnin (1957)** – Vladimir Nabokov.

هيروارد الحارس Hereward the Wake (الذي لم يحظَ بالتّقدير اللازم) ومجموعة مقالات ويليام هازليت William Hazlitt؛ وهي كتبٌ ممتعةٌ أخطّط لأن أتذوّقها ما إن أنتهي من قراءة سيرة مارك توين وشتات الكويكْريّين الإيرلنديين.

أكره أن يحشر أحدهم الكتب في حلقي حشرًا، وذلك قد يفسّر لمَ لمْ أكن قطُّ محبًّا للمدرسة: ما زلت عاجزًا عن فهم كيف تفرض على إنسانٍ أن يقرأ رواية **(انظر صوبَ الوطن، يا ملاك)**[1] ثم تتوقّع أن تظل المودّة قائمةً بينكما بعد ذلك. لطالما اعتبرتُ أن إثقال شخصٍ بكتابٍ لم يطلبه فرضًا سيكولوجيًّا ثقيلًا وخانقًا، مثل إجبار أحدهم على تناول طبقٍ برياني biryani بالدّجاج، دون أن تسأله عمّا إذا ما كان يفضّل إضافة الكُزبَرة. إن منح كتابٍ لشخصٍ غريبٍ تقريبًا لهي أيضًا طريقةٌ لفرض منظومة قيمٍ - لم يطلبها - عليه. فإذا سلّمتَ شخصًا كان اسمُ والدته قبل الزواج هو ماكنلتي كتابًا مثل: **(رماد أنجيلا)**[2]، فإنك بفعلك ذلك تقول له: «أنت إيرلندي؛ هات قبلةً!». وأرفض كذلك - رفضًا قاطعًا وآنيًّا - فكرة وجوب قراءة كتابٍ لمجرد أنني أتشارك نوعًا من القرابة العِرقيّة البعيدة مع كاتبه. أيجب أن يروقك كنوت هامسن Knut Hamsun لمجرد أنك نرويجيّ؟ وهل يجب أن تروقك كتابات ماريو فارغاس يوسا لمجرد أنك نشأت في ليما؟ إن الكتّاب يتحدّثون إلى الناس جميعًا، ولا يفعلون ذلك عبر نوعٍ من التّخاطر العِرقي الهزليّ. إن كلًّا من جوزيف غوبلز[3] وألبرت أينشتاين ألمانيّ، فهل يعني ذلك أن على كل منهما أن يجد مقدار المتعة ذاته في قراءة [سيرة هتلر] **(كفاحي)**[4]؟ لكن لعلّه ليس المثالَ

---

(1) **Look Homeward, Angel: A Story of the Buried Life (1929)** – Thomas Wolfe.

(2) **Angela's Ashes: A Memoir (1996)** – Frank McCourt.

(3) **Joseph Goebbels**: وزير الدعاية في ألمانيا النازية بين عامي 1933 و1945.

(4) **Mein Kampf (1925)** – Adolf Hitler.

الذي كنت أبحث عنه؛ هاك مثالًا أفضل: إن أحد أصدقائي المقرّبين مصوّرٌ مكسيكيٌّ أمريكيٌّ نشأ في قريةٍ صغيرةٍ بضواحي مدينة فريسنو، بكاليفورنيا، ويقطن الآن في لوس أنجلوس، وكتابه المفضل هو **(أناس من دبلن)**[1].

حين تُفرض عليّ الكتب، مثل حلويات أعياد الميلاد التي لن أتناولها أو أغاني كليزمر klezmer التي لن أستمع إليها، أحشرها في ركنٍ مظلم بخزانتي حيث ستظل هناك لتتعفّن إلى الأبد. ولا يراودني أي تأنيبِ ضميرٍ بخصوص فعل ذلك، لأن الأشخاص الذين يفرضون كتبًا على الآخرين هم في الواقع لا يريدون استعادتها منهم. بل إنهم في معظم الحالات، لا يكونون قد قرأوها هم أنفسهم، ولا هم يعتزمون القيام بذلك. لقد تم إثبات ذلك علميًا عبر مؤسسة بحثٍ يغيب عنّي اسمها في هذه اللّحظةَ، إذ تقول إن 87% من مُقتَني الكتب لا يتعدّونَ قراءة الفصلين الأول والثاني من مؤلّفات مذهلة لكنها عسيرةِ القراءة مثل كتاب **(تاريخ موجز للزمن)**[2]، لأن الكتب من هذا الصّنف تصيبهم بالصّداع. ويقترح ستيفن هوكنز، في كتابه السّالف ذكرُه، الذي كان الأعلى مبيعًا سنة 1991، أن مجرد قراءة هذا الكتاب «ستزيد في بعشرة التّرتيب الكونيّ عشرينَ مليونَ مليونَ مليونِ وحدةٍ، أو في زيادة التنظيم في دماغك بعشرة ملايين مليونِ مليونِ مرّة.» (أنا، عن نفسي، أرغب في رؤية ورقته البحثيّة)؛ ويضيف العالم الفيزيائيّ اللّعوب المتعذّرِ كبحُ جماحِه قائلًا:

نحن لا نملك أية أدلّةٍ مباشرةٍ لمعرفة ما إذا كانت المادّة في مجرّات أخرى مكوّنةً من البروتونات والنيوترونات أو نقيض البروتونات (antiprotons) ونقيض النيوترونات (antineutrons)، لكن لا بد أن يكون أحدَ الأمرَين: لا يمكن أن يكون مزيج من النّوعَين في مجرّةٍ واحدةٍ، لأنه في هذه الحالة سنعاينُ انبعاثاتٍ كثيرةً صادرةً عن الإفناء. لذلك نؤمن بأن كل المجرّات مكوّنة

---

(1) **Dubliners (1914)** – James Joyce.

(2) **A Brief History of Time: From the Big Bang to Black Holes (1988)** – Stephen Hawking.

من الكواركات (quarks) عوض نقيض الكواركات (antiquarks). يبدو غير قابلٍ للتّصديق أن تكون بعض المجرّات مكوّنةً من المادّة بينما تتكوّن غيرها من نقيض المادة (antimatter).

لقد بيعت من هذا الكتاب أكثر من ثمانية ملايين نسخة، لكنك لن تستطيع إيجاد ثمانية آلاف شخص على هذا الكوكب في وسعهم فهم الفقرة أعلاه؛ بل إنك لو حاولت فلن تجد حتى ثماني مئة! قد يكون هناك ثمانية أشخاصٍ في وسعهم تفسير تلك الفقرة، لكنني لستُ واحدًا منهم. ثم إن الأشخاص الذين يشترون كتابًا كهذا ليعرضوه في مكانٍ واضح عند مدخل البيت لسنةٍ أو ما إلى ذلك، يستعملونه من حينٍ لآخر لتثبيت طابعٍ بريديٍّ عبر الضّغط عليه، أو يقذف بهم أحدهم صوبَ جمجمة زوجه الخائن، ثم يخفيه في صندوق السّيّارة إلى أن يجد فرصة للتّخلّص منه عبر إعطائه لشخصٍ يبدو ذكيًّا بما يكفي لقراءته [وفهم مضمونه]. إن إعارة الكتب للأشخاص هو، في نظري، وببساطة شديدةٍ، أحد أشكال التنظيف المنزليّ.

أنا أستمتع بمناقشة الكتب، لكن ليس مع عامّة النّاس. فحين ينخرط محبّو الكتب في محادثة مع من لا يحبونها فإن الأخيرين هم من يحدّدون محتوى المحادثة. لن يكون في وسعك حينها الحديث إلا عن الكتب التي توجد في المساحة الضّيّقة حيث تتقاطع قراءاتكما: **(عدّاء الطائرة الورقيّة)**[1]، **(نقطة التحوّل)**[2]، أو في أسوأ الأحوال: رواية **(المذكّرة)**[3]؛ بل إن الإنجيل، في الواقع، هو ما سيكون أسوأ الأحوال. لقد أمضيتُ فيما مضى ساعاتٍ لا تُعد ولا تُحصى في الدردشة مع الناس بخصوص آن تايلر، توم روبنس، ودايفيد لودج؛ جميعهم كتّابٌ جيّدون ويسهل فهم كتاباتهم، لكنني لا أحبّذ القراءة لأيٍّ منهم على وجه الخصوص.

---

(1) **The Kite Runner (2003)** – Khaled Hosseini.
(2) **The Tipping Point: How Little Things Can Make a Big Difference (2000)** – Malcolm Gladwell.
(3) **The Notebook (1996)** – Nicholas Sparks.

وعلى العكس من ذلك، لم يسبق لي قطّ أن ناقشت أعمال [الشاعر الروماني] جوفينال Juvenal مع أي كان، وقد مضت سنينُ عديدةٌ منذ آخر مرة سمعت أحدهم يذكر جون دون John Donne في حضوري. وتمر عقود دون أن ينبس أحد ببت شفة بخصوص إيتالو سفيفو Italo Svevo، إيتالو كالفينو، أو غيرهما ممن أقدّر من الإيطاليين الذين يحملون الاسم «إيتالو». ومن بين كتّابي المفضّلين هناك مارسيل آيمي، إيفان دويغ، جيمس غوردن فاريل، جورج بيرنانوس، توماس بيرغر، جونيشيرو تانيزاكي، روبرت كوفر، وجان جيونو. ولم يسبق لي قطّ أن كنت طرفًا في محادثةٍ تتعلّق بأحد هؤلاء الكتّاب السّالف ذِكرُهم؛ خلاصة القول إنني ألتقي الحشود غير المناسبة.

ينخرط محبّو الكتب مع الكتّاب في اجتماع خاصٍّ يحدث داخل غرفة ضبابية أثيريّة: داخل ذهن القارئ. أخبرني أحد أصدقائي مرةً أنه قرأ لِسُول بيلّوو Saul Bellow لأنه بدا من صنف أولئك الأشخاص الذين قضوا ما يكفي من الوقت بالحياة وقد يعلّمك أمرًا أو اثنين. وهذا هو شعوري بالذات بخصوص كتّابي المفضّلين. إذا كنت شيخًا تفكّر في تقاعدٍ مبكّرٍ، فيجب عليك قراءة [مسرحية شكسبير] **(الملك لير)** أولًا؛ إذا كنت رجلًا في منتصف العمر وتفكّر في امرأة أصغر سنًّا، فيجب عليك استشارة موليير بخصوص ذلك؛ وأما إذا كنتَ شابًّا يظن أن الحبّ سيستمرّ إلى الأبد، فسيفيدك الاطلاع على رواية **(مرتفعات ووذرينغ)**[1] قبل أن تضع أية خططٍ بعيدة المدى.

يشعر عشاق الكتب بأن الكاتب يتحدّث إليهم مباشرةً عبر الصّفحات المفرودة أمامهم، بل إنهم يشعرون بأنه يرعاهم، يعتني بهم، ويُبرئُهم. إنهم ينسون دومًا بأن الكاتب هو من يقدّم لهم طقوس الشّكر والامتنان. ثم إن الناس يقولون دومًا إن السبب الذي يدفعهم إلى الإعجاب بهذا الكاتب أو ذاك هو أنه يقول «في صيغةٍ مطبوعةٍ» ما يدور في ذهن القارئ بالضبط

---

(1) **Wuthering Heights (1847)** – Emily Brontë.

بخصوص موضوع ما؛ إن الكاتب في نظرهم يعمل كوعاءٍ روحيٍّ وسيطٍ، يصوّتُ أفكارَهم ويضعها في كلماتٍ. أما أنا فلم أختبر هذا الأمر قطُّ، بل أشعر بأن الكتّاب يقولون أشياء ما كانت ستخطر لي، كما أنني، وعلى نحوٍ ما، ما كنت سأفكّر في قولها. إن شعوري شبيهٌ بما قاله أحدهم يومًا بخصوص أفضل شاعرةٍ أمريكية؛ حيث قال إن أفضل طريقة للتقرّب من إميلي ديكنسون هي: جاثيًا على ركبتَيك.

إن الكتّاب العظماء ليقولون كلامًا بديعًا، ومجرد ترديد ما قالوه يجعل الحياة ذاتها أكثر بهاءً. إن المدينة لتصبح عالمًا كاملًا إذا ما أحبّ المرء أحد ساكنيها، كما يقول لورنس دوريل؛ بينما تقول أليس مونرو إن الناس الذين يؤمنون بالمعجزات لا يتفاجؤون مطلقًا حين تتحقّق أحلامهم. أما شكسبير فيقول: «إذا التقينا مجدّدًا، فسنبتسم في وجه بعضنا؛ وإلّا لمَ كان وداعُنا بكل هذا البهاء؟» وأي شخص يجرأ على أن ينطق الجملة الآتية «لقد قلتَ ما كان بذهني تمامًا» أمام كتّابٍ من هذه الطينة، فهو أحمقُ، لا غبار على ذلك! وهناك الكثير منهم بالفعل!

إن ما يجمع أعضاء (رابطة القرّاء الجادّين) هو الاعتقاد الرّاسخ بأن الأدب سلسلةٌ لانهائيةٌ من الاكتشافات، بعضها مُخطّطٌ له، والبعض الآخر غير ذلك، لكن جميعها تؤدي إلى الانتشاء، ولا أحد منّا يقوم بذلك لمجرد التّباهي. ومع أن الكتب لا تأخذنا على الدوام إلى حيث نودّ أن نمضي، إلا أنها تأخذنا دومًا إلى مكانٍ قد يرغب الواحد منّا في الذّهاب إليه؛ كما القرّاء الشّغوفين - آكلي الكتب، ملتهمي الأوراق - هم أناسٌ لا يُشبعهم الواقع على أحد المستويات. لقد أغرم النّاس في تسعينيات القرن الماضي بروايتَي السير والتر سكوت: **(إيفانهو)** و**(كوينتين دوروارد)**[1]، لأنهم لم يكونوا يحبّون تلك الفترة التي كانوا يعيشونها. والنّساء في عصرنا يقرأن روايات من قبيل:

---

(1) **Ivanhoe: A Romance (1816)**, **Quentin Durward (1823)** – Sir Walter Scott.

(إقناع)[1]، أو **(جين آير)**[2]، بل وحتى **(جسور مقاطعة ماديسون)**[3] لأنهم يتخيّلون إلى أيّ حدٍّ ستكون حياتهن سعيدةً لو لم يكن أزواجهن يقضون وقتًا طويلًا على شاطئ ميرتل [بكارولينا الجنوبية]. أما الرجال فيلتهمون رواية **(شيفرة دافنشي)**[4] لأنهم سيفضّلون أن تكون الحياة أكثر تعقيدًا بدرجةٍ أو اثنتين، وألا تكون زوجاتهم مهووسات بممارسة البيلاتس[5] Pilates. فأن يجد المرء نفسه في مركز مؤامرة كونيّةٍ تضمّ كلًّا من فرسان الهيكل والفاتيكان سيكون تحسينًا كبيرًا لجودة حياته مقارنةً مع الكدّ المُضني طوال اليوم في مكتب إحصاءات العمل؛ أو مقارنةً مع الزواج من امرأة يضجُّ مطبخها بخطابات الإنذار بالدفع القادمة من شركة «ويليام سونوما».

إنك لا تكاد تجد شخصًا يقرأ كتابًا دون أن يكون له دافع خفيٌّ. فقبل سنوات، بدأت إرسال كتبٍ إلى امرأةٍ في الفيليبين تدعى إيفيلين، تعرفت إليها عن طريق أحد أصدقائي الذي يراسلها منذ عقودٍ. تدير إيفيلين أحد أنواع المتاجر الذي تمسحه الأعاصير الاستوائية من على وجه البسيطة بشكلٍ دوريٍّ، وبالتالي تقرأ أي شيءٍ أرسله لها: روايات، سيَر ذاتية، كتب الرياضة، أو المجلات. وبعد مرور 18 شهرًا عن آخر شحنةٍ أرسلتها، تصلني منها رسالةٌ تنضحُ بهجةً وسرورًا تعلن فيها أن الطّرد قد وصل أخيرًا، بعد أن ظلّ – لمدة سنةٍ ونصفٍ – أسيرًا بقبوٍ مظلم إلى أن قرّر لصوص مكتب البريد أنه لا يحوي أي شيءٍ قيّم وبالتالي يمكن السّماح بمروره إلى وجهته. إن صديقتي هناك في الفيليبّين، الّتي لم ألتقِ بها قط، تقرأ الكتب من أجل المتعة من جهةٍ، لكنها

---

(1) **Persuasion (1817)** – Jane Austen.

(2) **Jane Eyre: An Autobiography (1847)** – Charlotte Brontë.

(3) **The Bridges of Madison County** (or: **Love in Black and White**) **(1992)** – Robert James Waller.

(4) **The Da Vinci Code (2003)** – Dan Brown.

(5) نظام لياقة بدنية تم تطويره من قبل جوزيف بيلاتس Joseph Pilates في ألمانيا في أوائل القرن العشرين.

تقرأ أيضًا لتنسى بأنها تدير محلًا تستمر الأعاصير في محقه، وأنها تعيش في عالم مليءٍ باللّصوص الأميّين.

لم تكن تنتابني هذه النّشوة على الدّوام في علاقتي بكتبي: لم تكن تتملّكني الرّغبة في تملّك الكتبِ، في عرضها بزهوٍ على رفوف مكتبتي، في المسح عليها، وفي أن أرتَع وأمرح داخل عوالمها؛ لم يأتِ ذلك إلا خلال مرحلة لاحقةٍ من حياتي. فخلال طفولتي، كانت الكتب سخيفةً، دون طعم، وقبيحةَ المظهر عمومًا. لم تظهر في حلّةٍ مثيرةٍ إلا في ثمانينيّات القرن الماضي. حينئذٍ شرعت في تجميعها - أو بالأحرى: تكديسها وتكويمها - إذ إنني لا أعتبر نفسي هاوي جمع كتب. إن هواة جمع الكتب مهووسون بالطّبعات الأولى، أما أنا فلا أبالي بها؛ إنهم يواظبون على حضور المزادات العلنيّة، في حين أنني لا أحضرها؛ يختبرون نوعًا من المشاعر الفيّاضة حين يعاينون المسودّةَ الأولى لعملٍ ما، أما أنا فلا يحصل معي هذا الأمر. وزيادة على ذلك، فأنا لا أبالي بالنّسخ التي تحمل توقيع كاتبها؛ لا أمضي في بحثٍ حثيثٍ عن النّسخ النّادرة، ولا عن الكتب التي نفدت طبعاتها؛ أنا لا أطارد محلّات الكتب العتيقة والأثرية، ولا أتبادل القصص والطرائف مع بائع كتبٍ هَرِمٍ حدث أن أشعل سيجارة «لاكي سترايك» ذات يوم للشاعر الروسيّ يفغيني يفتشينكو؛ لم يسبق لي قطّ أن التقيتُ بائع كتبٍ عتيقةٍ لم يكن متزمّتًا أو عتيق الطّراز، أو كليهما، في حالاتٍ عديدةٍ. ثم إن القولَ الفصلَ في هذه المسألة هو أنني أدوّن على الكتب التي أقرأها، وهو أمرٌ لن يُقدم عليه أيٌّ من هواة جمع كتب. لأنه حتى لو أخذنا النسخة الأصليةُ البِكر لرواية **(الأب غوريو)**[1]، فستفقد الكثير من قيمتها إذا عُرضت للبيع وهي تحتوي على ملاحظات متحذلِقةٍ وخربشات على الهوامش (إلا إذا كانت تلك الخربشات بريشة بالزاك طبعًا).

---

(1) **Le Père Goriot (1835)** – Honoré de Balzac.

لا أسعى خلف نُسَخ الكتب الموقّعةِ باسمي، ولو أن مكتبتي تضم بضعة كتبٍ تحمل توقيعاتِ مؤلّفيها، لأنها - مع استثناءاتٍ قليلةٍ - هدايا تلقّيتها. أنا لا أفهم هذا الهوس بالحصول على توقيع الكاتب؛ بل إنني لا أفهم الانبهار بالمخطوطات. فقد حدث مرّة أن أحد جيراني أراني كتابًا بنسخة فوليو [folio copy] يضم مسرحيات شكسبير كان قد اقتناه لتوّه، لكن ذلك لم يثر اهتمامي البتّة. حاولت التظاهر بأنني أهتم، لكنه كان جليًّا أنني لا أبالي. مرةً أخرى، خلال زيارتي لجامعة كارولاينا الجنوبية، قُدّمت إليّ المسودّة الأصليّة المنشورة لإحدى روايات ف. سكوت فيتزجيرالد. لعلّها كانت **(غاتسببي العظيم)**[1]، فأنا، صِدقًا، لا أذكر. كان الباحث الذي يعرضها أمامي خبيرًا في مؤلفات فيتزجيرالد؛ (بل إنه كان «الخبير»!). كان جليًّا شعورُه بأنه يمنحني لحظةً سأبجّلها ما حييتُ، فما كان منّي إلا أن تجاوبتُ بحماسٍ مكافئٍ لتوقّعاته. لكن حماسيَ ذاكَ كان مصطَنعًا! إن رؤية - بل وحتى لمس - تلك المسودّة لم يعنِ لي شيئًا البتّة. لقد رأيتُ أطنانًا من المسودّات الشّبيهة بها في المكتبة البريطانية وفي متحف مورغان، والوحيدة التي أذكر منها هي التي تخصّ بالزاك، لأن مسودّاته تمثل كابوسًا لمنضّد الحروف المطبعيّة. وفي حضور مثل هذه الأشياء التي يُفترض أنّها قيّمة أو مَهيبة، لا أستطيع حشد المشاعر التي يُفترض فيّ إظهارها، ولا هي [مشاعري] تطاوعني في ذلك. لعلّ الأمرَ راجعٌ إلى كون هذه المسودّات أو النصوص الموسيقيّة أشياءَ «وظيفيّة»، مجموعة رموزٍ تعبّر عن أفكار، في حين أن اللّوحاتِ الزّيتيّةَ مثلًا أشياءٌ جميلةٌ في حد ذاتها؛ أو ربما أن الأمر أسهل من ذلك: إذا لم يكن الكتاب مِلكي، فأنا لا أهتم لأمره.

(1) **The Great Gatsby (1925)**– F. Scott Fitzgerald.

إلا أن ذلك لا يفسّر كل شيء. فحين فُرضت عليّ قراءةُ رواية **(غاتسبي العظيم)** في المدرسة الثانوية، لا بدّ أن أكون قد قرأت هذا المقطع الشهير:

لقد كانا شخصَين مستهتِرَين - توم وديزي - يحطّمان الأشياء والكائنات، ثم ينسحبان عائدَين للاحتماء داخل مالِهما أو لامبالاتهما، أو أيًا يكن ذلكَ الذي أبقاهما معا؛ تاركَين للآخرين مسؤولية ترتيب ما أحدثاه من فوضى...

لم يعنِ لي هذا المقطع شيئًا آنئذٍ، لكنّه سيعني لي الكثير سنينَ بعد ذلك، وسيتردّد صداه بقوةٍ بعد أن التقيت بأشخاص يشبهون توم وديزي بوشانان، وأقصد ذلك النّمط العام من الأشخاصّ المنحلّين الذين يتبعون أهواءهم؛ إنهم ليسوا أشرارًا، لكنهم قد يكونون كذلك. وها هي كلمات فيتزجيرالد تمسك بي الآن من ياقة قميصي وتهزّني بقوّة! لقد كتب عن الأمريكيّين شيئًا حقيقيًا للغاية لدرجة أنه قد يظل حقيقيًا إلى الأبد. لكن رؤية كلمات فيزجيرالد على تلك المسودّة في أرشيف جامعة كارولاينا الجنوبية - بغض النظر عن فحوى تلك الكلمات - لم يكن لها نفس الوَقع؛ بل إنه لم يكن لها أيّ أثرٍ البتّة على نفسي.

مع استثناءاتٍ قليلةٍ، ما عدت أملك تلك النسّخ التي شكّلت معالمَ رؤيتي للعالم خلال شبابي؛ لقد فقدتها واشتريت نسخًا جديدةً لاحقًا. ومعظم هذه الكتب - **(جزيرة الكنز)**[1]، **(ذئب البحر)**[2]، **(مغامرات أليس في بلاد العجائب)**[3] - كانت مستعارةً من المكتبات حينئذٍ؛ وكذلك كانت العديد من الحكايات التي تجري أطوارها في إفريقيا السّمراء، حيث يُستدعى أرستقراطيون متسلّطون من إجازاتهم الطويلة ليهبّوا لنجدة أوانس إنجليزيات

(1) **Treasure Island** (or: **The Sea Cook: A Story for Boys**) **(1881-82)** – Robert Louis Stevenson.

(2) **The Sea-Wolf (1904)** – Jack London.

(3) **Alice's Adventures in Wonderland (1865)** – Lewis Carroll.

من الطبقة العليا لبلغرافيا Belgravia بعد أن انتهى بهن المطاف، بطريقةٍ ما، في قبضة أَكَلة بشرٍ مهتاجين.

حين نقوم بإعادة بناء ذكريات طفولتنا، فإننا نتذكر هذه الكتب كجبال هيمالايا شامخةٍ تسلّقناها، في حين أننا كنّا في الواقع نِثِب في وديانٍ خافتة الإضاءة. مازلت أحتفظ بذكرى نيّرةٍ عن نسخة أطفال من كتاب **(الإلياذة)** مع رسوم توضيحيّةٍ، أهدانيها والدي حين كنت في سن السابعة؛ لطالما اعتبرتُه أعظم كتّابٍ خُطّ على الإطلاق، ربما لأنه كان هديّةً من والدي، ولكن على الأرجح لأنه بالفعل أعظمُ ما كتب في تاريخ البشرية. وفي هذا الصدد، أشير إلى أنه من المفيد أن يكون أول كتابٍ يحبّه الطّفل هو ذاتُه الذي يَفطِر فؤادَه، وذلك لأنه يهيّئُ الطفل أو الطفلة من أجل قراءة **(روميو وجوليت)**، **(إيثان فروم)**[1]، كما يهيّئهما للزواج، بل وللحياة عمومًا. إن أعظم الكتب بالعالم لأشبهُ بتحذيرٍ صادرٍ عن رئيس الجرّاحين:

انتباه، أيها القراء: حتى ولو كنتم أشخاصًا ناجين، وأفرادًا تحظَون باحترام وتقديرٍ كبيرَين – زعماء تجارةٍ ما، أو أحد ركائز المجتمع، ربما – فإن الأمر سينتهي بشكلٍ مريع للغاية! ورغم أنني أحببت ذلك الكتاب ذا الرّسوم التّوضيحيّة حبًّا جمًّا، إلا أنني لم أتشبث به؛ وقد اختفى من حياتي قبل وقتٍ طويلٍ، تمامًا كما فعل والدي.

أنا نادمٌ على فقدان نسخي من روايات: **(مادام بوفاري)**[2]، **(الغريب)**[3]، **(ابنُ محلّيٍّ)**[4]، **(المحبوب)**[5]، و**(الحرب والسّلم)**[6]؛ التي قرأتها خلال مراهقتي وبداية عشرينياتي. لقد تركت بعضها في بيت والديّ، لكنها صارت

---

(1) **Ethan Frome (1911)** – Edith Wharton.
(2) **Madame Bovary, Mœurs de province (1856)** – Gustave Flaubert.
(3) **L'Étranger(1942)** – Albert Camus.
(4) **Native Son (1940)** – Richard Wright.
(5) **The Loved One: An Anglo-American Tragedy (1948)** – Evelyn Waugh.
(6) **War and Peace (1865-67)** – Leo Tolstoy.

«ضحايا حرب» حين انتهت علاقتهما. لقد حدث ذلك منذ وقتٍ طويل، ولا أعلم مصيرها بعد ذلك؛ بل إنني ما عدت أذكر كيف كانت تبدو حتى! أتمنى لو أنها كانت ما تزال في ملكي. آهٍ لو أستطيع الرجوع بالزّمن لأرى المقاطع التي سطرّت أسفلها خلال أول قراءةٍ، لأرى ما إذا كان منظوري قد تغيّر، ولأرى ما إذا كانت ستخطف أنفاسي مجدّدًا.

لا غرابةَ في أن كتبًا قليلةً فقط من فترة شبابي هي التي ما تزال معي اليوم. لقد انتقلت كثيرًا خلال شبابي، وحسب تعبير صديقٍ عزيزٍ، فأنا أتّبع المقولة: «سافر شتاءً وصيفًا، لكن كُنْ دومًا خفيفًا!» وهذه المقولة في الأصل تعني أنه يجب أن تتخلّص من علاقتك بالمرأة قبل أن تتلخبط الأمور، لكنها تظل مناسِبةً لسياقات أخرى كذلك. في عشرينياتي، حين كنت أنطلق على عجلٍ نحو تكساس أو باريس أو نيويورك، كنت ألقي بحاجيّاتي دومًا في بيت والدتي التي لم تكن تبالي بذلك بتاتًا، لأن البيت كان أشبه بزريبة خنازير صالحةٍ للعيش. لكنها كانت تنتقل كثيرًا بدورها، وكانت تعتنق الفلسفة ذاتها التي يتّبعها صديقي، لذلك كان مصير معظم حاجياتي من تلك الحقبة الاختفاء دون أثرٍ. كما أنها لم تكن من الصّنف العاطفي، أي أنها لن تَحيد عن مسارها لتتشبّث بصور طفولتي، وبالتالي ما كانت - بكل تأكيد - لتُوليَ نسختي [الفرنسيّة] من رواية **(السيمفونية الرّعَويّة)**[1] أي اهتمامٍ خاصٍّ أو تحاول الحفاظ عليها بأيّ شكلٍ من الأشكال.

لعلّ ضياع الكثير من كتب طفولتي هو ما دفعني إلى التّشبّث بالكتب التي اقتنيتُ وأحببتُ خلال بلوغي. لقد احتفظت بكل تذاكر العروض والحفلات التي حضرت طوال حياتي، واحتفظت كذلك بكل الكتب التي أبجّلها منذ أن بلغت الحاديةَ والعشرين من عمري؛ أحتفظ بها كما لو كانت رسائل حبٍّ. فأنا أعتبر الكتبَ كائناتٍ ماديّةً لأنها تجعلني أستحضر الماضي، كما

---

(1) **La Symphonie pastorale (1919)** – André Gide.

لأن وجودها مُشبعٌ عاطفيًّا. وأحيانًا يحدث أن تسقط بطاقة مترو من كتاب اشتريته قبل أربعين سنة، فأسافر عبر الزمن رجوعًا إلى شارع القدّيس جاك يوم 12 سبتمبر/أيلول 1972؛ تسقط رسالةٌ - تلقّيتها عبر اتصال هاتفيّ - من صديقٍ قضى في عمر الزّهور من نسخة من كتاب هنري غرين: **(اختتام)**[1]؛ فأجد نفسي مجددًا في قصر مارمونت ذات يوم أريجيٍّ عابقٍ من سبتمبر/أيلول من سنة 1995؛ أقرأ ملاحظةً خربشتها لنفسي على رواية **(الحنين إلى كاتالونيا)**[2] سنة 1973 حين كنت في غرناطة، فأتذكّر أن أتعلّم اللغة الإسبانية، (الأمر الذي لم أفعله بعد)، وأن أزور غرناطة مجدّدًا.

إن الأشخاص الذين يحتاجون امتلاك نسخةٍ ورقيةٍ من كتابٍ ما، وليس مجرد نسخة إلكترونيّة، هم على نحوٍ ما «متصوّفون»؛ فنحن نعتقد بأن الكتبَ مقدّسةٌ في حدّ ذاتها، وليس فقط من حيث القصص التي ترويها؛ نحن نؤمن بأن للكتب القدرةُ على الاستحالة: على تحويل الظلام إلى نورٍ، وعلى خلق عوالمَ من عدمٍ. نحن لا نريد لتجربة القراءة أن تتجرّد من هذا العنصر المتسامي، لتظل مجرد استظهارٍ وفعلٍ ميكانيكيّ، لأن ذلك كفيلٌ بإفساد كل شيء.

لكنني لا أتوقع أن يعيش الآخرون حياتهم على هذا المنوال؛ إن لهم كامل الحريّة في تحميل الكتب على قارئاتهم الإلكترونيّة حول عوالم غريبةٍ، كواكب غريبةٍ، أكوانٍ موازيةٍ حيث تستبصِر ثعابينُ ماءٍ تُساعيّة الأعين في معتقدات الكابالا، وحيث تتحالف الجرابيات العمياء مع ربّات الفالكيري[3] الصّمّاء لإنقاذ عذراواتٍ متغنّجاتٍ ناصعات البياض من قبضة قنطورٍ[4]

(1) **Concluding (1948)** – Henry Green.

(2) **Homage to Catalonia (1938)** – George Orwell.

(3) **Valkyrie**: إحدى الرّبّات من الميثلوجيا النوردية التي تقود أرواح الأموات إلى الإله أودين في قاعة الفالهالا.

(4) **Centaurus**: مخلوق أسطوري إغريقي نصفه العلوي بشري والنصف السفلي لحصان.

خنثويٍّ. لكنهم بفعلهم ذلك، برفضهم مناصرةَ محلّات الكتب والمكتبات، برفضهم أن يعرّضوا أنفسهم لموسيقى الحظّ، قد محقوا كل أنواع الغموض و«السّحر غير الإلكترونيّ» من حياتهم؛ لقد انبطحوا واستسلموا للآلات.

قد تكون القراءة الإلكترونية ملائمةً وعمليّةً، لكن ذلك كلّ ما في الأمر، لأن التكنولوجيا تظلّ دون روح.

بعض الأمور مثاليةٌ على حالها، وليست في حاجةٍ إلى أية تعديلاتٍ. السّماء، المحيط الهادي، التّناسل، وكذا مقطوعة باخ Goldberg Variations؛ جميعها تلائم الوصف السّابق. والكتبُ كذلك ليست في حاجةٍ إلى تحسيناتٍ، فالكتب الورقيّة جليلةٌ رفيعةٌ، لكنّها أيضًا «عميقةٌ»، تبلغ الحشا. إن منظرها مثيرٌ، كما أنها مثيرةٌ للعواطف، وهو ما يجعلها تشكل نظام توصيلٍ مثاليٍّ. أما الكتب الإلكترونية فهي مثاليةٌ للأشخاص الذين يفضّلون المعلومة التي ببطن الكتاب على الكتاب في حدّ ذاته، أولئك الذين يعانون مشاكل في البصر، أولئك الذين يقرأون في المترو، أولئك الذين لا يريدون أن يرى الآخرون الطريقةَ التي يسلّون بها أنفسهم، أو أولئك الذين يعانون من مشكل في التخزين أو ضيق المساحة؛ لكنها تظل دون قيمةٍ بالنّسبة للأشخاص المنخرطين طوال حياتهم في علاقات عاطفيّةٍ مكثّفةٍ مع الكتب؛ مع كتبٍ نستطيع لمسها، كتبٍ نستطيعُ شمّها، وكتبٍ نستطيع الاعتماد عليها في أوقات الشّدة.

الفصل الثاني

وجه دون اسم، حقيبة دون رقم

لم تكن علاقتي بزيارة المكتبات طيّبةً على الدّوام: كانت جيّدةً أحيانًا، بيد أنها كانت تَجنحُ صوبَ «الإجرام» في أحيان أخَر. فذاتَ يوم صقيعيٍّ من يناير/كانون الثاني 1988، توقفت عند الفرع الرئيسي لمكتبة نيويورك العامة بالشارع الخامس من أجل حضور عرضٍ مُعَنونٍ: «ويليام ووردزوورث والعصر الرومانسيّ الإنجليزي»، يضم المخطوطات الأصليّة لقصائد وورْدْزوُرْث، كولريدج، وكتّاب آخرين من العصر الرومانسيّ، بالإضافة إلى لوحاتٍ لبعض معاصريهم: كونستابل وتورن. ولجتُ يومها المكان وتركتُ حقيبة كتفي الخفيفة عند منضدة إيداع المعاطف، أخذت وصل الأمانة ثم مضيتُ متهاديًا نحو الداخل. كان العرضُ بديعًا، وأمضيتُ بعد انتهائه ثلاثةَ أرباع السّاعة في تفحّص بضاعتهم المعروضة، بعد ذلك توجهت نحو غرفة المعاطف وقدّمتُ وصل الأمانة للآنسة القائمة على الأمر قائلًا:

- إنها تلك الحقيبة القماشية الرماديّة هناك!

أخذت مني ورقة الوصل دون أن تلقيَ بالًا لكلامي، ثم مضت تقلّب الحقائب داخل الخزانة التي تعلو رأسها دون كياسةٍ، وما هي إلا ثوانٍ معدوداتٌ حتى عادت وقدّمت إليّ حقيبةً بلاستيكيّةً بيضاء.

- هذه ليست حقيبتي!

- هذه هي الورقة التي أعطيتني... وهي مطابقةٌ للرّقم على هذه الحقيبة.

حاولت أن أشرح لها:

ـ إذن، لا بدّ أن أحدهم وضع الرّقم الخاطئ على حقيبتي، لأنها هناك في الرّكن: الحقيبة البلاستيكية الرّماديّة.

لكنّها ظلت على تعنّتها، لا مباليةً:

ـ إن تلك الحقائب تحملُ علاماتٍ برتقاليّةً؛ أما ورقة الوصل التي قدّمتها إليّ فزهريّة اللّون!

بدا أن ثقتها ازدادت الآن، وبما أن صفًّا من النّاس أخذ يتشكّل خلفي، فقد خطر لي أن أرفع صوتي وأحاول استدرار الدّعم من هذا الحشد الصّغير، على طريقة [الممثل الأمريكيّ] جيمي ستيوارت:

ـ اسمعيني جيدًا: إن كل كلمات الدّنيا لن تفلح في تحويل هذه الحقيبة البلاستيكيّة البيضاء إلى حقيبة قماشية رماديّة!

لكنني لم أتلقّ أيّ دعم من الواقفين خلفي؛ قابلوني بالصّمت البليغ والثّقيل، بل إنني بدوتُ في نظرهم شخصًا متصيّدًا للهفوات، بالغَ التّطلب والتأفّف، وببساطة: نذلًا؛ والأرجح أن فتاة المعاطف كذلك لم تخالفهم الرأي حين حدّجتني بنظرةٍ وهي تقول:

ـ ماذا تنتظر؟

ـ وماذا في رأيكِ أنتظر؟ أنتظر أن تعطيني حقيبتي اللّعينة!

إثر سماع ذلك، استقامت في وقفتها. لقد بدأت مواجهتنا هذه تأخذ منعطفًا خطيرًا، وبعبارة أصحاب مثل هذه الوظائف الموسميّة الدنيئة، فإن أمامها «وضعًا» يجب عليها التّعامل معه.

طلبت مني التنحّي جانبًا لتتولّى أمر الواقفين في الصّف، ثم حملت سمّاعة الهاتف وقالت: «أحتاج إلى رجال الأمن... في غرفة المعاطف.»

وما هي إلا لحظاتٌ بعد ذلك حتى ظهر أمامنا رجلُ أمنٍ مكتنزُ الجسد في لباسٍ رديءٍ. بدا الانزعاجُ عليه جليًّا لأنه تم استدعاؤه، فقال بنبرةٍ جادّةٍ:

- ما المشكلة هنا؟

- إنها ترفض أن تعطيني حقيبتي: لقد التبسَ على أحدِهم أمرُ الأرقام. اسمع، أنا كاتبٌ... لذا كل ما عليك فعله هو النظر داخل الحقيبة وستجد مجموعةً من القصص التي كتبتها.

طلب منّي تقديم بطاقةٍ تثبت هويّتي، وحين أثبتُّها - جوزيف م. كوينن - مضى خلف المنضدة، ألقى نظرة على ورقة الوصل التي كانت أصل كل هذه المشاكل، ثم تبثّ نظره على الحقيبة البيضاء المثيرة للغيظ، وسألني:

- هذه ليست حقيبتك؟

- بل حقيبتي هي تلك الرّماديّة هناك: إنها هديةٌ من الحكومة الفرنسيّة... دعنا لا نخوض في التّفاصيل أكثر من ذلك، لكن إذا ألقيتَ نظرةً داخلها، فسترى مجموعةً من القصص التي كتبتها بنفسي، بالإضافة إلى نسخةٍ هذا الأسبوع من مجلة «ذي نيو ريبّبليك» The New Republic، مفتوحةٍ على مقالٍ بخصوص الطبقة العاملة.

مضى نحو الرّكن، حمل حقيبتي وفتحها، لكنّه تجاهل كل ما قلته عن محتوياتها ولم يُثِر اهتمامَه سوى شيءٍ وحيدٍ:

- هل دفتر الشيكات هذا يخصّك؟

- أجل، أجبته.

- ما اسم البنك؟

- سيتي بانك Citibank.

- هناك اسم شخصٍ آخر على الدفتر؛ لمن هو؟

أخبرته باسم الشخص الآخر الذي يشاركني الحساب البنكي: كانت امرأةً ما، تدعى فرانشيسكا جاين سبينر.

- من تكون هذه المرأة؟

- إنها زوجتي.

- وأين هي الآن؟
- في البيت مع الأولاد.
- وكيف أعلم أنها ليست في الطابق العلويّ [داخل المكتبة]؟

لم أفهم الغرض من سؤاله! هل كان يلمّح إلى أن شخصًا يدعى فرانشيسكا جاين سبينر هو المالك الفعليّ لهذه الأغراض المتنَازع عليها؟ أنها كانت في الطابق العلويّ، تحضر معرض وُورْدزوُرْث، وأنني علمت بطريقةٍ ما محتوى تلك الحقيبة بخسة الثمن، فانسللتُ خُفيةً، ثم تسلّلت على رؤوس أصابعي نزولًا إلى غرفة المعاطف، وأنني الآن أحاول سرقة ممتلكاتها دون حسيبٍ أو رقيبٍ؟ لعلّه يظن أن الحقيبة تحتوي على «ماسة الأمل»[1] الشهيرة أو على مسودّة سوفوقليس الأولى لمسرحيات **(أوديب في كولونس)**[2]، أو ربما على إحدى النّسخ القليلة المتوفّرة لنصّ شريعة حمّورابي.

- أنا لا أحضر معي زوجتي في كل مرّة أقرّر زيارة المكتبة؛ لقد اتفقنا على أن يفعل كلٌّ منا ما يحلو له، إلا أنّنا مازلنا نتشارك دفتر الشّيكات ذاتَه.

هزّ رأسه، ثم أشاح بوجهه بعيدًا وقال:

- يجب أن تتصل بزوجتك؛ لن أعطيك الحقيبة إلا بعد التّحدّث إليها.

نزلت وتوجهت إلى كشك هاتفٍ عموميٍّ واتصلت بفرانشيسكا، لكنها لم تكن بالبيت. لقد حدث ذلك في زمن سابقٍ لزمن الهواتف المحمولة، لذا لم تكن هناك طريقة للوصول إليها مباشرةً. وبالتالي، فقد وجدتُ نفسي عالقًا هناك: يجب أن أنتظر حتى تردّ على الهاتف كي أستعيد حقيبتي. إنه أمرٌ معتادٌ من زوجتي: كلما احتجتها لإثبات هويتها حتى أتمكن من استعادة ممتلكاتي من «شخصيّةٍ متحمّسةٍ» تقوم على أمر المعاطف، يكون ذلك هو اليوم الذي تقرر فيه أخذ الأولاد إلى ساحة اللّعب بالحديقة العمومية.

---

(1) Hope Diamond.

(2) **Oedipus at Colonus** – Sophocles.

عدت أدراجي وقلت لرجل الأمن:

ـ إنها ليست بالبيت.

ـ إذن، لا يمكنني تسليمك الحقيبة.

ـ أريد التّحدث إلى المسؤول... أيًّا يكن.

ـ أنا هو المسؤول.

فكّرت في الأمر وهلةً، ثم قرّرت اللّجوء إلى الحلّ النّووي:

ـ فلنتّصل بالشرطة! لن أغادر حتى آخذ حقيبتي معي، لذا اتصل بالشرطة.

كذلك فعل، وبعد قرابة نصف ساعةٍ، ظهر أحد أجوَد رجال شرطة نيويورك، بمظهرٍ يوحي بأنه قادم من قسم اختيار الممثلين بهوليود: إيطاليٌّ، متوسّط الطول، له شاربٌ تم الاهتمام به جيدًا، وكان يبدو عليه مللٌ من نال كفايته من هذا العالم (قد يكون ملائمًا لتأدية دور سيربيكو[1])، ويبدو كذلك أنه في غنًى عن كل هذا.

ـ ما المشكلة؟ سأل الشّرطي.

ـ لقد وضع أحدهم الرقم الخطأ على حقيبتي، والآن لا يسمحون لي باسترجاعها؛ إنها تلك الحقيبة القماشية الرّمادية ذات الشريط الكستنائيّ.

توجّه نحو الحقيبة، ألقى نظرةً داخلها ثم قال:

ـ أخبرني عن محتواها.

أجبته بكل فرحٍ:

ـ نسخة من جريدة التايمز The Times، مظلّةٌ، نسخةٌ من مجلة كومنويل Commonweal، وقفّازان... رماديّا اللون.

أومأ برأسه بالإيجاب.

---

(1) **Serpico (1973)** – directed by: Sidney Lumet.

ـ وماذا أيضا؟

لا بدّ أن أعترف بأن سؤاله هذا قد أخذني على حين غرّة، إذ كنت أظن أن الإشارة إلى مجلة كومنويل ستفي بالغرض. كان الأمر أشبه بأحد الاختبارات، الصّعبة إلى حدٍّ لا يصدّق، لولوج معهد السّحر وألعاب الخفّة. لقد كان اختبارًا شموليًّا أكثر ممّا يجب، لكنّني ما كنتُ لأتراجع ولو إنشًا واحدًا:

ـ هناك مقوّم أسنانٍ في علبةٍ بلاستيكيّةٍ خضراء، في لون البازلّاء؛ مشط أفرو Afro أبيض اللّون؛ بالإضافة إلى عدد هذا الأسبوع من مجلّة «نيو ريبّبليك»، مفتوحة على مقال عن الطبقة المتوسطة بقلم روبرت كاتنر...»

ـ أي شيءٍ آخر؟

ـ أجل.

أدركتُ حينها – وأنا أردُّ بالإيجاب – أنه رغم نجاحي في إحراز ستة نقطٍ من أصل ستة في لعبة «التوقّع البَيْمَكتباتي عبر قوى الحدس والتّخاطر»، فإن ذلك لم يكن كافيًا ولم يصدّقوني! ولسخرية القدر أنه كلّما كانت معرفتي بمحتويات حقيبتي أكثرَ دقّة وتفصيلًا إلا وبدا لهم أنها إحدى الخُدَع السّحريّةِ العبقريّة. ومع ذلك، فقد كان في جعبتي المزيد، وما كنت لأتراجع:

ـ هناك ورقة مواعيد قطار قرية تاريتاون، نقطة انطلاقه هي محطة غراند سنترال؛ قلم «بيك»... إنه أزرق اللّون، إن لم تخنّي الذاكرة، في الجيب الجانبي ذي السّحاب؛ هناك أيضًا ملفٌّ أسود يحوي بضعَ قصصٍ كتبتها. اسمع، إذا أخرجت مجلّة «نْيُوز وِيك» Newsweek، فستجد صورتي هناك، على عمود «ماي تورن» My Turn، في مقدمة المجلّة، عنوانه: «لقد فات الأوان على اعتذارك»[1]، أتحدّث فيه عن والدي الذي كان مدمن كحوليّات.

---

(1) Too Late to Say I'm Sorry.

ثبتَ نظرته عليّ ولسان حاله يقول: أتتوقّع مني حقًّا أن أصدّق خدعة (ستجد صورتي على مجلة نْيوز وِيك)؟ كلّا، ليس اليوم، يا صاح!

إذن، فقد وقفت الأمور عند هذه النقطة: طريقٌ مسدودٌ، مواجهةٌ مكسيكيّةٌ[1]!

بعد ذلك، ومن اللامكان، أتاني الخلاصُ:

ـ هل دفتر الشيكات هذا لك؟

ـ أجل.

ـ ما الأسماء المكتوبة عليه؟

ـ إنهما: جوزيف مارتن كوينن وفرانشيسكا جاين سبينر؛ مصرف سيتي بانك، رقم 30 شارع ويلدي، تاريتاون، نيويورك.

توقّفت برهةً، ثم أضفتُ بغرض التأثير الدّراميّ:

ـ والرمز البريديّ هو: واحد، خمسة، تسعة، واحد.

التفت الشّرطيّ إلى حارس الأمن وحدّجه بنظرةٍ كانت مزيجًا من الاحتقار والقرف وهو يقول:

ـ أظن أنّه **من الجليّ** أن الحقيبةَ مِلكُه.

ثم سلّمها إليّ.

وبذلك أُغلقت «القضية الغامضة للوجه دون اسم والحقيبة دون رقم» بشكلٍ رسميٍّ. وخلال مراجعتي لتلك الواقعة لاحقًا، تجلّى لي المنطقُ الغريبُ الذي رأى به الشّرطيُّ الوضعَ: أي شخصٍ ذو مهاراتٍ معقولةٍ في الشّعوذة يستطيع أن يتنبّأ بمحتويات حقيبةِ شخصٍ آخر (حتى مجلة الكومنويل ومشط

(1) **Mexican Standoff**: مصطلح يُستعمل لوصف حالة تُحجم فيها الأطراف المتنازعة عن المبادرة أو الإقدام على الهجوم، لأن الوضع قد ينقلب على المهاجم، ولعل أكثر مثال شائع لهذا الوضع نجده في سينما الويسترن، حيث يقف شخصان مسلّحان متقابلَين في صمتٍ وتحدٍّ، دون حراك.

الأفرو!). قد يكون ذلك أمرًا عاديًا في عالم **(غابة الإسفلت)**[1]، إلا أن أبرع مُنتَشلي الحقائب ما كان ليحزِر رمزًا بريديًا مُغبّشًا مثل رمز مقاطعة وِيسْشِسْتر، أو يخرجه من العدم.

لاحقًا، وفي دفء بيتي الوثير، فتحت حقيبتي لأكتشف أن كاتب ذلك مقال على مجلة «نيو ريبّبليك» لم يكن روبرت كاتنر، وإنما كتبه شخصٌ مختلفٌ كليًا! واو، لقد نجوت من هذه الكبوة!

بعد بضعة أسابيع، ورد خبر تلك الحادثة على مجلة نيويورك، وبعدها مباشرة تلقيّت رسالة تصالحيّة من فارتان جيورجيان، رئيس مكتبة نيويورك، يعتذر فيها عن وقاحة عناصر الأمن في مؤسسته وعدم كفاءتهم؛ كان يأمل أن أستطيع الصفح وتجاوز الأمر (أجل، استطعت ذلك)؛ كما كان يأمل ألا يتسبّب ذلك في تكدير المياه بيننا (لم يكدّرها)؛ مع أن الأمر سواءٌ على أية حال، إذ إنني لم أخطُ مجدّدًا داخل تلك المكتبة لمدة عشرين سنة بعد الواقعة، لاعتقادي أن تلك الموظّفة وذلك الحارس كانا متربّصين لي، يعدّان العدّة لحقيبتي إذا زرتهما مجددًا.

لم يكن قصدي قول إن زياراتي لمكتبة الشارع الثاني والأربعين هي النموذج الذي اتّبعَته معاملاتي مع هذه المؤسّسات الرّفيعة على مدار حياتي. ومع ذلك، يجوز القول إنه بعد بداية واعدةٍ لعلاقتي بالمكتبات، لم تقع عيناي عليها مجدّدًا. لقد نشأتُ في حيٍّ لا يتوفّر على مكتبةٍ وأنا أخطو خطواتي الأولى على درب محاربة الأميّة، لكن لحسن الحظ أن مسؤولي مدينة فيلاديلفيا أرسلوا إلى الأرجاء مقطورة كتبٍ كانت تمرُّ على حيّنا كلّ أسبوع (وقد كانت مقطورةً سحريةً بحقٍّ!). كنت أَستعير كل عشيّة جمعةٍ أقصى عددٍ مسموح به من الكتب، ألتهمها، ثم أعود في الأسبوع الموالي طلبًا للمزيد. وقد كانت

---

(1) **Asphalt Jungle** – W. R. Burnett.

هذه الكتب في الغالب تضم عناوين من قبيل **(نداء البرّيّة)**[1]، **(الوردة السوداء)**[2]، **(رحلة إلى قلب الأرض)**[3]، **(عائلة روبنسون السويسرية)**[4]؛ أو كتبًا عن مقاتلين مستضعَفين من أمثال [القائد الغاليّ] فيرسن جيتركس، كونت مونتي كريستو[5]، وكذا [قائد قبيلة شيريكاوا الأمريكيّة] كوتشيس. وفي الآن ذاته، أقرأ أي محتوًى مستساغ تجلبه شقيقاتي إلى البيت، باستثناء الكتب غير الملائمة طبعًا، ومنها: نسخةً الأطفال من **(مانسفيلد بارك)**[6]، أو **(مغامرات تريكسي بيلدن)**[7]. ومثل العديد من الأطفال الذين نشأوا في أحياء حقيرةٍ، كنت أعتقد صادقًا أنه إذا قرأت ما يكفي من الكتب وعرفت جذور حرب الخلافة النّمساوية وبقعة المثوى الأخير للطاغية الفارسيّ أخشورش - الذي يعرف أحيانًا باسم آرتَسيريس - فستأتمكّن يومًا من الحصول على مسكن على الطّراز كولونياليٍّ، ذي ثلاث غرفٍ، بسيط لكنه من طرازٍ رفيعٍ، مع سيّارتين وطفلين، سياج حديقةٍ أبيض، ومنظر خلّابٍ مطلٍّ على نهر.

وذلك بالضبط ما حدث في نهاية المطاف!

حين كنت في سن الثامنة، صُعقت أمّتُنا بكسادٍ غاشم، فقد إثرَه والدي عملَه. وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ أكرهنا على إفراغ البيت - منزلٌ محبّبٌ من القرميد الأحمر - فانتقلنا إلى مشروعٍ سكنيٍّ لم يكن التّعايش فيه أمرًا يسيرًا، إذ لم يكن المقيمون فيه إجمالًا ميّالين إلى القراءة. وعلى بعد ميلٍ واحدٍ كانت هناك مكتبةٌ مكتظة عن آخرها. لكن لسوء الحظ، كانت تلك البناية الحكوميّة

---

(1) **The Call of the Wild (1903)** – Jack London.
(2) **The Black Rose is a (1945)** – Thomas B. Costain.
(3) **A Journey to the Centre of the Earth (1864)** – Jules Verne.
(4) **The Swiss Family Robinson (1812)** – Johann David Wyss.
(5) **The Count of Monte Cristo (1844)** – Alexandre Dumas (the father).
(6) **Mansfield Park (1814)** – Jane Austen.
(7) Trixie Belden: هي الشخصّية الرئيسة في روايات غموض بوليسيّة صدرت أجزاؤها الستة الأولى بين 1946 و1986، من تأليف الكاتبة الأمريكية جولي كامبل تاثام (1908 – 1999)، قبل أن يتولّى كتّاب آخرون إصدار الأعداد اللاحقة.

العتيقة على مسافةٍ بعيدةٍ نسبيًا عن بيتنا الجديد، وكانت الكتب ثقيلةً للغاية، لذا ظلت زياراتي الشّحيحة إليها أقلّ بكثيرٍ من زياراتي لمقطورة الكتب.

ولعلّ عاملًا آخر ساهم في ردعي: لقد كان لشاحنة الكتب سائقٌ يرافقه مستخدَمٌ يتولّى أمر تفقّد الكتب وجمع الغرامات. لا أذكر شيئًا عن هوية هذا الشخص، جنسه، أو شكل جسده، باستثناء أنه أو أنها كانت شخصًا غير مؤذٍ. أما مكتبة «إيست فالز» فقد كانت على النّقيض من ذلك: يتكوّن فريق عملها من نساءٍ في منتصف العمر، مستبدّات متأفّفات، ويبدو أنهن لا يحبّذن الأطفال. إن هذا التّصوير النّمطي للقيّم على المكتبة الغريب الأطوار لتصويرٌ شرّيرٌ حقًّا، لكن ككّل التصاوير النّمطيّة الشّريرة، لا بد أنه مبنيٌّ على أساسٍ - ولو طفيفٍ - من الحقيقة. بإمكانك الشعور بنظرةٍ البغضاء التي يحدّجنك بها حالما تطأ قدماك عتبة الباب، ولسان حالهن يقول: «ماذا؟ أنت مجدّدًا؟» ربما أن فكرة كوننا قادمين من تلك المشاريع السّكنيّة جعلهّن متوجّساتٍ من الأسلحة النّارية، لكننا - أنا وأخواتي - كنّا جدّ يافعين من أجل أمورٍ كتلك.

بعد ذلك بعقودٍ، نشأ طِفلاي على الجهة المقابلة للمكتبة العمومية بتاريتاون، نيويورك، وسيكوّنان علاقةً قويّةً مع مساعدة الأطفال الحنونة والصّبورة، السيدة فيرمن: إنها أقرب ما يكون إلى نسخة مصغّرة و«مسرحية» لامرأة إنجليزيّة تخرّجت من أكاديميّةٍ لتعلّم سحر مكتبات القرى الصّغيرة الجذّاب، فهي تقرأ لهما القصص، تغنّي، تعلّمهما الأعمال اليدويّة، تلعب معهما ألعاب ألواحٍ تعليميّة، وتنظّم حفلات تجمّع نهاية أسبوعٍ ينشّطها لاعبو الخفّة يؤدّون بمهارةٍ واقتدارٍ عاليين رفقة عازفي هارمونيكا فولكلوريين وبهلوانات مثابرين غالبًا ما تتجاوز قدراتهم الكوميديّة الأزياء الملوّنة والمكياج. كان الأطفال يمرحون ويعربدون بصخبٍ خلال مثل هذه التجمّعات لأنهم قبل بلوغ السّابعة يظنّون أنّ كلّ البالغين يعلمون ما هم بصدد فعله (حتى أولئك الذين يعزفون على الهارمونيكا بجهد بدنّي جهيدٍ!).

لم أحظَ بمثل هذه التجربة «التّكوينية» في مكتبة «إيست فالز»: لم يكن هناك لاعبو خفّةٍ، موسيقيون، ولا مهرّجون. إن أقرب شيءٍ حظينا به مما قد يدعوه المرء تثقيفًا، ترويحًا عن النّفس، أو مرَحًا هو الوقت الذي كنتُ أجلس فيه رفقة شقيقاتي لمشاهدة برامج تلفزّية لا تنتهي، تقدّمها شخصيّةٌ تسمى الرئيس هالفتاون، وقد كان أداؤه يعاني من شُحٍّ كبيرٍ في التغيير، كما أنه كان إلى حدٍّ ما يعاني من التّخشّب. لطالما ظننتُ أنه بولنديّ، ثم بلغ إلى علمي، بعد ذلك بسنينٍ، أنه ذو أصولٍ سينيكيُّة [من الهنود الحمر]، وما كان أداؤه الهزيلُ ذاك ليساهم بأيّ شكلٍ من الأشكال في تحسين سمعة الشخصيّات التلفزيّة من سكان أمريكا الأصليّين.

كان هناك أيضًا وجه اختلاف آخر بين شاحنة الكتب والمكتبة العمومية، يتمثل في أن الأولى لا تتوفر إلا على عددٍ محدودٍ من الكتب، لذا لا يقف المرء قطّ حائرًا أمام الاحتمالات العديدة المعروضة أمامه. أما المكتبة فقد كانت، على النقيض من ذلك، تحوي آلاف الكتب المرصوصة في صفوفٍ يُخيّل إليك أنها تمتد إلى ما لانهاية. إن وجود كل تلك الكتب التي لن يكون لي الوقت الكافي لقراءتها أبدًا كان يثبّط عزيمتي وأحزنني؛ لكنني كنت كذلك أشعر بالأسف تجاه المؤلّفين وأنا أستحضر مقولة صامويل جونسون:

«لا يوجد على الأرض مكانٌ يصدمك بغرور الآمال البشرية المترسّخ أكثر من مكتبةٍ عموميّةٍ، فمن ذا الذي يرى الجدران الأربعة ملأى عن آخرها بالمؤلفات الضّخمة، نتاج التأملات الشّاقة والأبحاث الدّقيقة، التي بالكاد يعرفها أحدٌ غير الفهرس؟»

وما يزيد الطين بلّةً أن العديد من الكتب كانت شنيعةً، إذ إن أحد أبرز مشاكل المكتبات العامة يتجلّى في تجميعها للغثّ والسّمين جنبًا إلى جنبٍ، دون فرزٍ، خصوصًا في الوقت الرّاهن. فعكس المتاحف التي تعمل - بضميرٍ يقظٍ - على فصل لوحات برونزينو عن بوغيرو، واضعةً اللّوحات الشّنيعة

خارجًا على أعمدة السّلالم، تحت إضاءة خافتة لِلَمبات الأربعين واط، حيث لن تُلحق أذاها - أكثر من ذلك - بمجتمع لم يقترف ما يجعله يستحق ذلك الأذى، وحيث تستطيع القوارض أو الحشرات أو العفن الفطريّ أن يصلوا إليها. وعلى عكس المتاحف، تقوم المكتبات بتكديس كل شيءٍ معًا في ترتيب أبجديّ داخل حوصَلةٍ شاسعةٍ، حيث يشارك جيمس باترسون الرّف ذاته مع مارسيل بروست، حسب الترتيب الأبجديّ! إن وضع باترسون مع بروست لأشبه بعرض لباس [لاعبَي البايسبول] بايب روث وماوْدوكايّي براون جنبًا إلى جنب؛ فالأمر كما لو أن القيّمين على المكتبة يتوقّعون أن يقوم أحد المعتوهين الذي أتى باحثًا عن رواية (**هكذا أقبل عنكبوتٌ**)[1]، واكتشف أن أحدهم استعارها، فيقول: «لا بأس، سأستعير رواية (**حين يقع ظل الشابّات على الزهور**)[2] بدلها».

ليس الأمر أن المكتبات حُبلى بكتبٍ مريعةٍ لن أقرأها يومًا، بل الأمر أنني عقدت العزم بشكلٍ مقصودٍ على ألا أقرأها أبدًا. فأنا لن أقرأ الرّوايتَين: (**مأساةٌ أمريكيّةٌ**) و(**الأخت كاري**)[3]، لأنني جرّبت أن أقرأ لثيودور درايزر مرةً، ولن أعيد الكرّة. وقد أخرجت كذلك جيمس غولد كوزينز من اللائحة، وكذلك الحال بالنسبة لجون غالْسْوُرْثي وجين ريس، بالإضافة إلى أيّ كتابٍ يرتبط - بأيّ شكلٍ من الأشكال - بثلاثيّة **ستادس لونيغان**[4]. في المقابل، قرأت روايات هنري جايمس[5]: (**الأمريكيّ**)، (**ساحة واشنطن**)، (**أوراق**

---

(1) **Along Came a Spider (1993)** – James Patterson.

(2) **In the Shadow of Young Girls in Flower (1918)** – Marcel Proust.

(3) **An American Tragedy (1925)**, **Sister Carrie (1900)** – Theodore Dreiser.

(4) **Young Lonigan (1932)**, **The Young Manhood of Studs Lonigan (1934)**, and **Judgment Day (1935)** by James T. Farrell.

(5) **The American (1877)**, **Washington Square (1880)**, **The Aspern Papers (1888), Daisy Miller (1879), The Portrait of A Lady (1881), The Princess Casamassima (1886), The Spoils of Poynton (1897), The Golden Bowl (1904), The Wings of the Dove (1902)** – by Henry James.

أسبيرن)، **(دايزي ميلر)**، و**(صورة آنسة)**، لكن لن يتسنّى لي قراءة **(الأميرة كاساماسيما)** أو **(غنائم بويتون)**، بل إنني لست متأكّدًا مما إذا كنت سأجد الوقت لقراءة **(كوز الذّهب)** أو **(أجنحة الحمامة)**.

ومع ذلك، فإن وجود مثل هذه العناوين المتوعّدَة على رفوف المكتبة العمومية يثير في نفسي شعورًا بالضّيق والتوتّر كما لو أنها تتعقّبني وتوبّخني وتسخر منّي: «تظن أنك نبيهٌ، أليس كذلك؟ تحسب نفسك شخصًا متمدّنًا وراقيًا؟ لكننا نتابع مثل هذه الأمور عن كثبٍ، ونعلم علم اليقين بأنك لم تقرأ قطّ **(انزل، يا موسى)**[1]، **(ولادة التراجيديا من روح الموسيقى)**[2]، أو **(مجموعة القصص الكاملة بقلم ف. س. بريتشيت)**[3]، ولا وقعتْ يداكَ يومًا على رواية مادام دو لافاييت: **(أميرة كليف)**[4]؛ إن حيلتك هذه لا تنطلي على أحدٍ، يا صاح! وإذا لم تقرأ بعد **(عوليس)**[5]، فأنت ما تزال حثالةً مثيرةً للشّفقة من شوارع فيلاديلفيا، وكذلك ستكون دومًا».

إن هذه الكتب لا تخيفني، لأنني لا أخشى سخريتها ولا وعيدَها؛ لكن ما أشفق منه هو أنها قد تقبض عليّ ذات يوم في لحظة سهوٍ وتتغلّب عليّ. ثم سأجد نفسي مُقيّدًا ومُكمّمًا فوق الأرضية المغبّرة، محبوسًا داخل غرفة القراءة بالمكتبة، مجبَرًا على تحمّل عذاب إنهاء الأعمال الكاملة لويليام ستايرون، أو رواية **(يوسف وإخوته)**[6] بأجزائها الأربعة، في حالة ما إذا كان مزاج المعتدين ساديًّا ذلك اليوم. كيف سأتمكّن من تقليب الصّفحات وأنا على

---

(1) **Go Down, Moses (1942)** – William Faulkner.

(2) **The Birth of Tragedy Out of the Spirit of Music (1872)** – Friedrich Nietzsche.

(3) **The Complete Collected Stories (1990)** – V. S. Pritchett.

(4) **La Princesse de Clèves (1678)** – Madame de Lafayette (تم نشر الرّواية أول الأمر بشكل مجهول)

(5) **Ulysses (1922)** – James Joyce.

(6) **Joseph and His Brothers (1933)** – Thomas Mann.

تلك الحال؟ لم أقرِّر ذلك بعد؛ كما أنني لا أقصد التّفكُّهة إذا قلت إن بعض هذه الروائع التي لم أقرأها بعد تُبيّتِ لي أمرًا ما. فأنا أعتقد صادقًا أنها تعدّ لي كمينًا، إذ ستتولى [الروائية [الوديعة غرترود ستاين استدراجي نحو أخدودٍ حيث يكون السّفّاح أليس بابيت توكلاس في انتظاري لسلخ فروة رأسي. لعلّ هذه الكتب تظن أنه بمجرد أن تقبض عليّ في اللحظة المناسبة، فسأنهار وأشرع أخيرًا في قراءة رواية **(ميدل مارش)**[1] من الغلاف إلى الغلاف خلال جلسةٍ واحدةٍ.

فلتحلمي، ولتتمادي في أحلامك، أيتها المكتبات العمومية!

بعد انتقالنا إلى حيٍّ جديدٍ وأفضل، حين كنت في الثانية عشرة، ما عدت أتردّد على المكتبات العمومية بانتظام. بحلول ذلك الوقت، بدأت رِي - شقيقتي الكبرى - باقتناء الكتب ذاتَ الغلاف الورقيّ، وصرت كبيرًا بما يكفي لقراءة كتب والدي التي كانت جلّها إصدارات «ريدرز دايدجيست» لملخّصات أفضل الكتب مبيعًا لإدوين أوكونر، آرتشيبالد جوزيف كرونين، وموريس ويست؛ وهو صنف من الكتّاب متوسّطي الثقافة أصبح من النادر مصادفتهم في وقتنا الرّاهن. وقد شرعت في شراء الكتب في سنّ الثالثة عشرة، لأنني كنت أحبّ أن أراها موضوعةً على الرّف بعد الانتهاء من قراءتها، وأيضًا لأنني كنت اتخذتُ هواية التّسطير والكتابة على ما أقرأ؛ لذا خلال جلّ سنوات دراستي الثانويّة ظلّت المكتبات العمومية مهملةً، على الهامش.

لكن الأمور تغيّرت خلال مرحلة دراستي الثانوية، وصرت أقضي فتراتٍ طويلةً من وقتي داخل مكتبة المدرسة: غرفة ضيّقة تفوح بدخان السّجائر. لا أعلم سبب قيامي بذلك، إذ إن ذلك المكان لم يكن مناسبًا للدراسة بتاتًا. لعلّها كانت محاولةً مستميتةً للقاء الفتيات، رغم أن الدّخان كان كثيفًا لدرجةٍ أنني لن أستطيع تحديد ملامحهن حتى ولو كنّ هناك فعلًا. لم تصبح مدرستي

---

(1) **Middlemarch, A Study of Provincial Life (1871)** – Mary Anne Evans.

الثانوية مختلطةً حتى سنتي الأخيرة، أما الفتيات القادمات من الثانويات غير المختلطة، اللواتي كنّ يرغبن في إمضاء الوقت داخل غرفة كثيف الدّخان داخل مدرسة ثانوية كاثوليكيّةٍ للذكور تبعد عن حرمهن الجامعي بأميالٍ - ليست بينهن من تتخصّص في العلوم الفيزيائيّة - فلم يكنّ صنف الفتيات اللواتي قد أرغب في لقائهن. (أم أنني كنت أرغب في ذلك فعلًا؟ لا أستطيع الجزم، فذاكرتي ضبابيّةٌ).

خلال عطلتي الصّفيّة، عَسكَرتُ داخل الفرع الرئيسي للمكتبة العامة في ساحة لوغان سكوير بوسط المدينة، رغم أنني أمضيت جلّ وقتي في الاستماع إلى موسيقى الجاز، حيث تصدّر القائمة كل من شارلز مينغوس، وأورنيت كولمان، بالإضافة إلى صَنْ را، غريب الأطوار. هناك حيث استمعت أول مرة لمقطوعة «في مزاجٍ عاطفيٍّ»[1] كما عزفها ديوك إيلينغتون وجون كولتران، وهي أجمل مقطوعةٍ مسجّلة على الإطلاق. وقد كان بتلك المكتبة مطعمٌ بالطابق العلوي له شرفة مكشوفة مطلّة على خط أفق المدينة (غير الموجود)؛ لطالما فاجأني هذا المطعم كعنوانٍ للرّقيّ والأناقة، رغم أن الطعام كان بالكاد قابلًا للأكل. لقد كان في الواقع أقرب إلى مقصَفٍ منه إلى مطعم، إلا أنّه كان دون سقفٍ، الأمر الذي يجعله منقوعًا في أشعة الشّمس الوفيرة. وقد رجعت بعد ذلك بعقودٍ لألقي خطابًا في الطابق العلويّ لتلك المكتبة، فتحدثتُ عن اللّحظات السعيدة العديدة التي أمضيتُ في تلك البناية، ملتجئًا إليها هربًا من تعنيف والدي السّكير؛ أشرت إلى أنها كانت أكثر من مجرد مستودع للمعرفة، فقد كانت كذلك حِصنًا، حصنًا ذا مطعم في الطابق العلوي. لقدَ كانت مكاني المفضّل في مدينة الحبّ الأخويّ [فيلادلفيا]، رغم أن حبّي لها لم تكن له علاقة كبيرة بالكتب، وإنما بموسيقى الجاز.

(1) In a Sentimental Mood.

لم تحتفظ ذاكرتي إلا ببضع ذكريات مميّزةٍ أخرى ليس إلّا. ففي جنكين تاون، إحدى ضواحي فيلاديلفيا المرموقة حيث التقيت زوجتي، اعتدت استعارة الكثيرِ من الكتب من المكتبة المحلّيّة هناك. كانت بناءً كلاسيكيًا من القرن التاسع عشر تملأه التماثيل ولوحات البورتريه، لذا يعتريك شعورٌ بأن ويليام دين هويلز قد يلج المكان في أية لحظة ليسأل – في مزاج نكِدٍ – متى ستكون نسخته من رواية **(حبّ بلايثديل)**[1] جاهزةً. ومثل العديد من البنايات الكلاسيكية من القرن التاسع عشر، فقد بُنيت في الحقيقة في مطلع القرن العشرين، رغم أن المكتبة على وجه الخصوص أُسست خلال الفترة الرئاسيّة الأولى لتوماس جيفيرسون. ثم إن إديث براوت، التي كانت تعمل مُفهرِسةً حين كنتُ في الثالثة والعشرين، مازالت هناك؛ وتلك هي الوظيفة الوحيدة التي مارستها طيلة حياتها. إن أصل اسمها «براوت» من اللغة الكورنية – إذ ينحدر جدّها من بلدة سانت تادي، كورنوال، إنجلترا، مثل الأميرال ويليام بلاي – ولو أضيف له حرفٌ آخر، لبدا اسمًا فرنسيًا بشكلٍ لا يقبل التشكيك [يقصد: بروست].

في المكتبات فقط، دون غيرها، يمكث الناس في مقاعدهم لوقتٍ طويلٍ جدًّا؛ فحتى الكنائس والعصابات الإجرامية التي تنشط في المدن تقوم بمداورة العاملين لديها. ولطالما راودني شعورٌ بأن وظيفة القيّم على المكتبة تتطلب نوعًا من الشّجاعة، إذ يُطلب من العاملين تولّي حراسة الحاجز ذاته داخل نفس القلعة على مدى سنين طويلة – خمسة وأربعون سنة، في حالة إديث – فتصبح المكتبة معيارًا للمجتمع، منارةً خافتةً تجاوزت النّكبة تلو النّكبة، والكارثة تلو الكارثة، بينما تهدد الثقافةُ الأمريكيّة المعاصرة باجتثاثها. لكن أمناء المكتبة سيكونون دومًا هنا حين تعود لزيارتها، كما لو أنهم يتوقّعون زيارتك، ولا فكرة لديّ عن شعورهم حيال كل هذا، لأنني كلما

(1) **The Blithedale Romance (1852)** – Nathaniel Hawthorne.

مررتُ بالأرجاء، أتوقّف لأدردش قليلًا مع إديث. إنها ممتعضةٌ للغاية، عيّابةٌ، وذات تفكير مستقلٍّ، كما أذكرها من سنوات شبابي (وشبابِها هي أيضًا)، كما أنها تبدو دومًا سعيدةً لرؤيتي، إذ مازال يروقها أن يدخل عبر الباب كلّ يوم أناسٌ غير اعتياديّون بطلباتٍ غير اعتياديّةٍ، رغم أن بعضهم يجب أن يُطرَدوا خارجًا في حينهم.

تملك تلك المكتبة أحد كتبي، وأراه أمرًا في منتهى التّحضّر، رغم أن إديث ليست معجبةً به كثيرًا، فتقول: «إنه متهكّمٌ للغاية، وسخريته ملتويةٌ.» وتضيف: «إن أمين المكتبة الذي استمتع بقراءته قد وافته المنيّة قبل بضع سنواتٍ.» حين شاركتني إديث مثل هذه المعلومة، لم أستطع قطّ معرفة ما إذا كانت بصدد إخباري فحسب، أنها كانت ممتعضةً، أم عيّابة؟ (على الأرجح أنها كانت ممتعضةً).

***

لقد قضيتُ نصف عمري تقريبًا في قرية تاريتاون، على بعد قرابة عشرين كيلومترًا شمال البرونكس؛ عشرٌ من تلك السنين التسعة والعشرين قضيتها رفقة زوجتي وطفليَّ على الجهة المقابلة من الشارع لمكتبة وارنر. إنها بناءٌ صخريٌّ شامخٌ بنوافذ ضخمةٍ، سقفٍ عالٍ، وكراسيٍّ مريحة ذات مساند للذّراعين، كما أنها تسدّد فواتير تدفئة هائلةً. بدأ بناؤها سنة 1929، وفتحت أبوابها في السنةَ الموالية، وقد كانت تلك أيضًا هي السنة التي أضافت فيها كوّةً مقبّبةً (لم تكن سنة 1929 سنةً مناسبةً للمكتبات، وأقل منه للكوّات). وأمام البناية نمت شجرةٌ عليها لوحة تحمل اسمَي طفلَيّ، زرعتها زوجتي حين كانا ما يزالان صغيرين عِرفانًا لملائكة الرّحمة الذين يعملون داخل المكتبة، لأنه خلال نشأة طفليَّ المدلّلين ومفرطَي الحركة، فقد كانا يعيشان في المكتبة، وهو الأمر الذي منع أن تفقد زوجتي وأمهات كثيراتٍ غيرها عقولهن.

مضت فتراتٌ أزور فيها مكتبة وارنر بانتظام وفتراتٌ لا تطأها قدمايَ لأشهرٍ متتالية؛ تكون معظم زياراتي بغرض التبرّع بنسخ مراجعاتٍ تصل إلى مكتبي، تكون في العادة متعلّقةً بالاقتصاد أو السّياسة، غالبًا ما تكون سِيَر قدّيسين كتبها مخبولون، خدمةً للحمقى. أحيانًا يتم إضافة هذه المواد إلى المجموعة الدائمة للمكتبة، ولكن معظم الوقت، يتم عرضها للبيع بغرض جمع المال خلال معرض الكتب السّنويّ. وحين أتبرع بعناوين من قبيل **(اعترافات قاتل مأجورٍ من عالم الاقتصاد)**[1] و**(نهج شاكلتون: دروس في القيادة من مكتشف أنتاركتيكا العظيم)**[2]، لم أقتنع قطّ أنني بصدد إسداء معروفٍ إلى أيٍّ كان، وخصوصًا شاكلتون.

على لوحة البيانات عند مدخل البناية، تجد دومًا قائمةً بدروس اللّغات، محاضراتٍ في الاستثمار، أفلامًا، عروضًا، بالإضافة إلى باقي الفعاليّات القادمة. إن الأحداث التي تنظّمها المكتبات تخيفني، إذ إنها تؤوي علماء التّاريخ المحلّيين، مؤلّفي القصص والأكاذيب، رواة القصص الطويلة، ومؤدّيي العروض والتمثيليّات التاريخية، بل وحتى ناسجي الأحلام، دون الإشارة إلى المخلوق الأكثر رعبًا على وجه هذا الكوكب: الشّاعر الذي نشر ديوانه على نفقته الخاصة. وتبرمج المكتباتُ كذلك - من باب الشّفقة ربّما - لزيارات مؤلّفين قاموا بإعادة تخيّل **(أسطورة سليبي هولو)**[3] في وقتنا الرّاهن، حيث تقرأ على المطويّات التي تعلن عن مثل هذه القراءات: «لا أظن أن واشنطن إيرفين، أول هجّاءٍ أمريكيٍّ عظيم، سيمانع أن يوقظه أحدٌ من قبره بعد كل هذه السّنين من النّوم الهنيء ببطن الأرض ليتيح له أن يعيش فخر السّتّينيّات المتلاشي.»

---

(1) **Confessions of an Economic Hit Man (2004)** – John Perkins.

(2) **Shackleton's Way: Leadership Lessons from the Great Antarctic Explorer (1998)** – Margot Morrell & Stephanie Capparell.

(3) **The Legend of Sleepy Hollow (1819)** – Washington Irving.

بل، أظن أنه كان سيمانع.

ولأنني أصبحت معروفًا داخل بلدتنا إلى حدٍ معقولٍ، كنجم خافتٍ بعيدٍ وسط مجرّةٍ حالكةٍ، وصار النّاس يَرونني غالبًا في مكتبة الأطّفال بالطابق السّفلي رفقة أطفالي، صارت فلورنس كاين، مديرة المكتبة، تحاول باستمرارٍ إقناعي بإلقاء خطابٍ هناك. إنها نتاج حقبةٍ ولّتْ، امرأة من تلك النسّاء المتبجّحات اللاتي لا يُقهرن، يشعرن بأنهن أكبر من الحياة، ويتحرّكنَ بهمّةٍ وسرعةٍ لا تتحرّك بها نساء العصر الحالي. ورغم أنها تروقني كثيرًا، إلا أنني قاومت حين فاتحتني في الموضوع، وأخبرتها بأن لا أحد سيحضر للاستماع إلى كاتبٍ محلّيٍّ يمكنهم ببساطةٍ أن يسمعوه مستفيضًا في الحديث في أقرب مطعم بالجوار، إلا إذا كان هذا الكاتب دكتور فيل[1] أو جين أوستن. والأدهى من ذلك كله أن مثل هذه الفعاليات حيث يتحدث الكتّاب عن مسيرتهم المهنية تجذب الهواة الذين يعتقدون أن الكاتب صار ناجحًا لأن له ما يكفي من وقت الفراغ أو لأن والده كان كاتبًا مشهورًا (الأمر الثاني فقط هو الصحيح.)

إن مشكلة العيش في قريةٍ صغيرةٍ هو أن جيرانك سيفلحون في إنهاكك في نهاية المطاف، طال الزّمنُ أو قَصُر. لقد ظلّت السيدة كين تطلب وتترجّى، مؤكدةً كم سيعني لها شخصيًّا إذا ألقيتُ كلمةً تثقيفيّةً في المكتبة. لذا رضختُ ذات ربيع ووافقت على إلقاء خطابٍ أشرح فيه كيف يمكن للمرء أن يتّخذ الكتابة كمهنة حرّة. لكن الخطاب لم يَلقَ ردودًا إيجابيّةً، لأنه بينما توجد قواعد يجب على المرء اتّباعها بحذافيرها من أجل إطلاق مسيرة مهنيّة في الكتابة، فالقواعد لا تنطبق على الكتّاب المستقلّين، بالإضافة إلى أنه يجب على المرء أن يكون كاتبًا جيّدًا؛ ولم يكن أحدٌ يرغب في سماع ذلك.

---

(1) د. فيل ماكجرو: طبيب نفسيّ أمريكيّ اشتهر بتقديم برنامجٍ حواريّ يحمل اسمه – د. فيل – ذي شعبيّة عالميّة، بين سنتَي 2002 و2008.

لقد تصادف إلقاء هذا الخطاب تلك اللّيلة مع جلسة استماع علنيّةٍ داخل مقرّ البلدية لتحديد مصير نبتةٍ تتوسّع وتدمّر الإسفلت بمحاذاة النهر. انقسم إثرها القرويون الأصليّون والقادمون الجدد فريقَين متعارضَين خلال تلك المناظرة، فتصاعدت حدّة النّزاع. لقد كان المشكل يختمر منذ سنين، والآن حانت لحظة تصفية الحسابات العالقة. كان مبنى البلديّة متاخمًا للمكتبة، فحضرت بضعة مئاتٍ، بينما حضر خطابي اثنَي عشرَ شخصًا، بينهم شخصٌ من نادي روتاري [للأعمال التطوّعيّة] قد حضر من أجل غرضٍ وحيدٍ: ليسأل عمّا إذا كنت أستطيع تقديم عرضٍ مماثلٍ خلال تجمّعهم بالنادي الشهرَ الموالي. لم أستطع، فأنا لست عضوًا بـ «نادي العمل المجّاني» ! ولكن، سنوات بعد ذلك، حتّى هو استطاع النّيل مني بدوره.

لم تكن السيدة كين بين الحضور تلك الأمسية خلال خطابي، لأنها سافرت إلى باريس طوال ذلك الأسبوع. وقد عبّرتْ لي لاحقًا عن مدى أسفها لتفويت خطابي، لكنني أظنها اتخذت القرار الصّائب بسفرها إلى مدينة الأنوار. أخبرتها أن «خرجتي» تلك لم تكن ناجحةً إلى حدٍّ مذهلٍ، وأنني لن أعيد الكرّة مجدّدًا، لكن السيدة كين كانت امرأة مكّارةً لا تنقصها العزيمة ولا الإصرار، لذا وافقتُ بعد سنواتٍ من ذلك على الظهور على ملصقٍ إشهاريٍّ رفقة كتّابٍ آخرين. هذه المرة، كان ضمن ما ناقشناه أهمية إيجاد وكيل أعمالٍ، وقد تم ذلك داخل غرفة مليئةٍ بالكتّاب الواعدين الذين لن يحتاجوا إلى وكلاء أعمال أساسًا، لأن مسيرتهم لن تتخطى مرحلة: «واعدة».

أظن أن تلك الأمسية صادفت فوز فريق اليانكيز بأول بطولة العالم للبايسبول منذ 18 سنة.

ولم ألقِ أيَّ خطابٍ بعدها.

قبل بضع سنواتٍ، سألني العديد من سكان قريتي عن رغبتي في الانضمام إلى نادي مناقشة كتب: سنصوّت على كتاب لنقرأه، ثم نجتمع في المكتبة من أجل مناقشته، لننتهي بعدها بالاسترخاء وطلب مشروبٍ في المطعم. فغادرت البلدة لستة أسابيع، أطفأت هاتفي، تجاهلت الرسائل الواردة على بريدي الإلكتروني، وأخبرتهم أنني أعاني من أحد أنواع أمراض تصبّغ شبكيّة العين الذي يجعل قراءة الكتب أمرًا مستحيلًا، خصوصًا الكتب من قبيل: **(الحادثة الغريبة للكلب خلال اللّيل)**[1].

لطالما شعرت ببُغضٍ شديدٍ تجاه نوادي القراءة والأشخاص الذين ينتسبون إليها. إنّي أفضّل أن تقضم اليرابيع الجوعى رُموشي على الانضمام إلى ما يسمّى «نادي الكتاب»؛ إن هذه النوادي تنبني على فكرةٍ مغلوطةٍ وأنانيّة تتمثّل في أن القارئ يملك شيئًا يُثري به النّقاش. ماذا يكون ذلك يا ترى؟ فالكتاب هو مجموعة من المناقشات بين الكاتب والقارئ، حيث لا يمكن في أي حالٍ من الأحوال للقارئ أن يفوز في أيٍّ منها، والأمر صحيحٌ جدًّا إذا كان جيمس جويس أحد طرفَيها. ثم إن تجارب القراءة التي يشاركها القرّاء في هذه النوادي ليست حميميّة، وإنما هي مجرد تجارب عامّة، لا شيء فيها مميّز. إن رغبة المشاركين تتمثل في التواصل العميق مع أشخاصٍ غيرهم يراودهم الشعور ذاته حيال كتابٍ معيّنٍ، وذلك قد يفسّر لمَ يَندُر أن يقع اختيارهم على كتابٍ جيّدٍ! إنهم ينشُدون الوحدة، والكتب الجيّدة لا توحّد النّاس؛ بل العكس تمامًا: إنها تدعو إلى التنافر، تشويه ملامح الوجه، العراك بالأسلحة البيضاء، والنّزاعات الدّمويّة. إن الذين يحضرون نادي القراءة ممن أعرف هم أناسٌ أذكياء، لكنهم من النّادر أن يكونوا من قد أصفهم بـ: «المثيرين للاهتمام»؛ إنهم يسعون إلى حلبِ الكتب حلبًا، بحثًا عن شيءٍ غير موجود أساسًا.

(1) **The Curious Incident of the Dog in the Night-Time (2003)** – Mark Haddon.

إن أحد الأمور التي تثير حنقي وأعصابي بخصوص نوادي القراءة هي ما يسمى «أسئلة للنّقاش»، التي تكون في آخر صفحات الكتاب. لاحظت ذلك أول مرة بعد أن أنهيت قراءة رواية أندري ماكين: **(جريمة أولغا آربيبلينا)**[1]. إنها قصة طويلة من المآسي والكَدَر تحكي سيرة مهاجرةٍ روسيةٍ مع ابنٍ مصاب بالنّاعور يظهر بفرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ويأمل أن يُعيد حياتها إلى مسارها القويم. وبما أنه يشاع عنها قرابةٌ للأسرة الملكيّة سيئة الطّالع التي عاقبت وسجنت لينين ورفاقه فيما مضى، فإن أولغا ستُقاسي الأمرّين وتعيش حياةً مليئة بالبؤس والخذلان غير المنقطعَين.

تابعتُ الخطّ السّرديّ دون صعوبةٍ، لذا حين بلغت نهاية القصة كوّنتُ فكرةً واضحةً بأن قِسمة أولغا من الحياة لم تكن منصِفةً، لكنني صدمتُ حين وصلت إلى الصفحات الأخيرة لأواجه ثمانية أسئلة تم إعدادها من أجل نوادي القراءة التي قد تكون مهتمة بالاستفاضة في مناقشة الرواية؛ وقد جاء السؤال رقم 5 على الشكل الآتي:

5 ـ لقد اقتيدَت أولغا خارج بلدتها الأم من طرف البلشفيّين، اغتصبها جندي، تخلّى عنها زوجها، عاملها عشيقها بإهمالٍ، تم تخديرها، واعتُديّ عليها جنسيًّا، ثم حملت من ابنها.

هل تلقي الرّواية بذنب سوء مصيرها على عاتق الرجال في عالمها؟ وماذا عنك؟

في البداية، ظننت أن هذا السؤال لا يعدو كونه مزحةً، أو أنه انسلّ في سهوٍ من الرقابة ليجد سبيله إلى صفحات الكتاب. لكن بعد الاطّلاع على رواياتٍ أخرى تضم هذا المحتوى الإضافيّ، صار جليًّا أن هذه الأسئلة اللّعينة وغير المعهودة عنصرٌ رئيسيٌّ في هذا الصّنف من الرّوايات، وقد صُمّمت خصّيصًا لزعزعة عالم الأدب النّتن العتيق وإجبار القرّاء على التّفكير «خارج الصّندوق».

---

(1) **The Crime of Olga Arbyelina** – Andreï Makine.

فعلى سبيل المثال، تضم إحدى إصدارات رواية **(أنا كارينينا)**[1] السؤال التالي: «هل يمكن قراءة رواية هذه الرواية على أنها نوعٌ من القصص التحذيريّة ضد الخيانة الزّوجية؟» (في الواقع، سأقول: أجل). ويتبعه سؤال آخر: «هل كان الطلاق والزواج مجدّدًا ليساعد آنا كارينينا؟ ولو أنها كانت تعيش بيننا في العصر الحالي، كيف كانت قصّتها ستتغيّر؟» يجدر التّنويه بمجهود هؤلاء القوم في تحضير مثل هذا النوع من الأسئلة التي تتحدّى افتراضات القرّاء، تنسف ما نسجوه من الخيوط، وتذهب إلى بيت القصيد مباشرةً. وفي مثال آخر حيث نجد أن الشخص الذي قام بتحضير أسئلة رواية **(إيثان فروم)** التي تنتهي بكارثةٍ هائلةٍ قد اكتنهَ عمق الأمر بهذه الجوهرة الفريدة: «هل تظن أن هذه الرواية سوداويةٌ لدرجةٍ تجعل من الصعب الاستمتاعُ بقراءتها؟»

أجل، وقد تحقّقتُ من ذلك بنفسي.

ثم اكتشفت بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ أن هناك مواقع إلكترونية عديدة تقترح أسئلةً للمجموعات التي تود مناقشة الكُتب وأن ذلك الصّنف من الاستخفاف البدويّ الجامح وغير المقيّد يطغى هناك أيضًا. فعلى موقع BookSpot.com، مثلًا، يجد القرّاء الذي عجزوا عن اكتناه دقائق الأمور في **(مذكرات آن فرانك)**[2] أنفسهم في مواجهة هذا السؤال المحفّز للدّماغ والخالي من الزخرفة: «لقد طُلب من القائد النّازي أدولف آيشمان أن يفسّر قتل ستة ملايين من اليهود، وأجاب: 'إن مئة قتيل كارثةٌ، لكن مليون قتيلٍ مجرّد عددٍ إحصائيٍّ'. هل أصبحنا متسامحين أكثر مع عمليات القتل بعد هذه الملحوظة؟»

---

(1) **Anna Karenina (1878)** – Leo Tolstoy.

(2) **The Diary of a Young Girl**, (or: **The Diary of Anne Frank**) **(1947)** – Anne Frank.

من حين لآخر، تلاحظ أن بعض الأسئلة أُدرجت لا لشيءٍ إلا للتحقّق ممّا إذا كان القارئ منتبهًا. فلنأخذ هذا السؤال من نهاية رواية **(الآنسة ماكبث)**[1] لسوزان فريزر كينغ: «قام ثورفين سيغوردسون، سفّاك الدّماء بأرض الوغى، باختطاف غرواد بعيدًا عن والدها وهي طفلة في الثالثة عشرة. لماذا؟ متى سترى ثورفين مجدّدًا؟ وهل يمكنها أن تثق به؟»

بالفعل، تظل مثل هذه الأمور موضوع نقاشٍ، لأن سفّاكي الدّماء بالمعارك عادة ما يقعون تحت مروّضي العنقاء بدرجةٍ في «النّظام التّراتبيّ الهايبوريّ[2]» لاستحقاق الثّقة. إن سؤالًا أكثر ارتباطًا بالموضوع قد يكون على الشكل الآتي: كيف وجد ثورفين سفّاك الدّماء سبيله إلى كتابٍ حول عائلة ماكبث؟ لأن معظمنا، نحن المطّلعون الذين لهم أُلفةً بهذا الصّنف من الرّوايات، لا نتوقّع ظهور شخصيّاتٍ مشابهة؛ لكن يبدو أن بيت القصيد من هذه الأسئلة أن موقع «بوك سبوت» BookSpot يمضي شمالًا حين تتوقّع منه أن ينعطف يمينًا.

وبما أن اختلاق الصّعوبات جزءٌ من طبيعتي، فقد قررت أن أدلي بدلوي في كتابة هذا المحتوى غير المعهود، اللائق لمناقشة الكتب، لأرى ما إذا كانت ستهتم إحدى دور النّشر ببضاعتي.

هاك بعض الأمثلة:

الأوديسة[3]

1. بعد سقوط طروادة، تطلبَ الأمر من أوديسيوس عشر سنين حتى يعود إلى وطنه: عشر سنين كاملة! وبما أن طروادة لم تكن تبعد عن اليونان سوى بقفزةٍ، تتلوها مسافة قصيرة، هل تظن أنه كان على بينيلوبي أن

---

(1) **Lady Macbeth (2008)** – Susan King.

(2) نسبة إلى العصر الهايبوري Hyborian Age وهو عصر خياليّ مرّت منه الأرض، من ابتكار الكاتب الأمريكي روبرت إدوين هوارد.

(3) **Odyssey** (poem), by Homer.

تكون شكّاكةً أكثر بخصوص تفسير زوجها للتأخير الطويل (عصابةٌ من عمالقة أكلة للبشر ذوي عينٍ وحيدةٍ، جيشٌ مكوّنٌ من الوحوش البرمائيّة القتَلةِ حصرًا، وساحرةٌ تحوّل البّحارة إلى خنازير)؟ ألا يبدو الأمر برمّته مثيرًا للرّيبة؟

2. خلال وصف هوميروس للسّاحرة التي تحوّل رجلًا إلى خنزير، هل كان بصدد انتقاد الرّجال عمومًا أم البّحارة فقط؟ أم أنه كان يشير إلى صنفٍ محدّدٍ من النساء؟
3. هل تعرف شخصيًّا أي امرأةٍ من ذلك الصّنف؟ هل تحمل أيٌّ منهن اسم: براندي؟
4. في أي ساعة ينتهي دوامها؟
5. إذا تطلّب الأمر من أوديسيوس عشر سنواتٍ للقيام برحلة قصيرة عبر بركة مائية بالكاد تتعدّى حجم حوض الأطفال البلاستيكي، لَمَ إذن يصرُّ الجميع في **(الأوديسة)** على وصفه بالذكاء؟

موبي ديك[1]

1. يتداعى كل شيء في نهاية الرواية حين يصير الكابتن آهاب مهووسًا تمامًا بأمر الحوت الأبيض. هل تظن أنه كان عليه أن يستفيد مما حصل في رواية **(الفكّ المفترس)**[2] ويبحث لنفسه عن قاربٍ أكبر؟
2. هل الحوت الأبيض رمزٌ للقروش البيضاء الكبيرة؟

(1) **Moby-Dick** (or: **The Whale**) **(1851)** – Herman Melville.
(2) **Jaws (1974)** – Peter Benchley.

مرتفعات ووذرينغ

1. هل رأيت الفيلم المبني على هذه الرواية؟ ألا تظن أن لورنس أوليفيير كان عجوزًا على لعب الدّور؟ يا صاح، أنا أؤكّد لك أنه كذلك؛ كما أنه لم يبدُ لي وسيمًا البتّة، ماذا عنك؟
2. لو أُغرم هيثكليف بامرأة مثل جين آير عوض كاثي، هل تظن أن النيران كانت ستشبُّ في منزله؟
3. لو كان هيثكليف حيًّا اليوم، هل سيشير إلى وفاة كاثي على صفحته على فايسبوك ويقول إنه ما عاد مرتبطًا.

البحث عن الزمن المفقود

1. تمتد هذه الرواية على طول أربعة آلاف صفحة، ومع ذلك لا يحدث فيها أي شيءٍ إطلاقًا. هل يدلي بروست عبر ذلك بتعليقٍ خفيٍّ بين السّطور عن المجتمع الفرنسي؟
2. هل تظنّ أن هذا الكتاب سيكون أكثر إثارة للاهتمام لو تم استبدال سْوَانْ[1] بثورفين سيغوردسون، سفّاك الدّماء؟ إن هذا التغيير سيجعل عنوان الجزء الأول في اللغة الفرنسية على الشكل الآتي: Du côté de chez Sigurdsson. (بجانب سيغوردسون)

لأكون صادقًا، كنت أظن أنني سأصل إلى شيءٍ ما، أنني مضيت أبعد مما ذهب إليه الكل لأجعل أسئلتي هذه – المتفرّدة والمتمرّدة – محفّزةً للتفكير. كنت قد عقدت العزم على المرور إلى **(عبورٌ إلى الهند)**[2]، **(اللاعب البارع)**[3]، **(الفرسان الثلاثة)**[4]، وربما أمرّ إلى **(الدون الهادئ)**[5]؛ لكنني

---

(1) الشخصيّة الرئيسيّة في الجزء الأول – " من جانب منزل سوان"– من الرواية.

(2) **A Passage to India (1924)** – E. M. Forster.

(3) **The Natural (1952)** – Bernard Malamud.

(4) **Les Trois Mousquetaires (1844)** – Alexandre Dumas.

(5) **And Quiet Flows the Don (1925-32)** – Mikhail Sholokhov.

حين ألقيت نظرةً على الصفحات الأخيرة لمجموعة القصص: **(الحالة الغريبة للدكتور جيكيل والسيد هايد، وقصص أخرى)**(1)، وجدت الآتي:

بمَ يوحي لك مظهر هايد؟ (إنه ضئيلٌ ومشوّهٌ بشكل طفيفٍ). هل تظن أنه كان يجب تصويره في قامةٍ طويلةٍ وعضلاتٍ مفتولةٍ، كبدينٍ شهوانيٍّ داعرٍ، أو كشخصٍ شديد الشّحوب والنّحول؟ سوى ذلك، لمَ لا؟ هل هناك معنى محدّدٌ، أو سببٌ، يفسّر مظهر هايد؟

حينها قرّرت إطلاق صافرة النهاية على هذا المشروع برمّته، لأنني كنت – بمحاولاتي العبثيّة تلك – قزمًا بين العمالقة. فهؤلاء القوم يعلمون تمام العلم ما هم فاعلون، ومستواهم بعيد عنّي بُعدَ الثّريّا عن الثّرى.

من المعلوم على نطاقٍ واسعٍ أن المكتبات موجودة إلى حدٍّ كبير بغرض إمتاع وخدمة الحقيرين، إذ إنها توفّر مواد قراءة مجانية ليتسنّى للبخلاء مقبوضي اليد أن يُخبروا الكتّاب المحلّيّين بأنهم استعاروا مؤلّفاتهم، ويتوقعوا منهم أن يكونوا ممتنّين لذلك. هؤلاء الخسّيسون المُقتِرون الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم على إنفاق خمسة عشر دولارًا على كتابٍ لشخصٍ عرفوه طوال ثلاثين سنةٍ (شخص قد يكون ساعدهم في الحصول على وظيفةٍ، أو هتف بأعلى صوته من أجل الضّربة الوحيدة الموفّقة التي نفّذها طفلهم على الإطلاق بنجاحٍ خلال عشر سنوات من ممارسته لكرة القاعدة المصغّرة(2)، ولعلّه قد رافق جدّتهم المُعوِزة التي تعاني من الصرع من محطة القطار وساعدها على صعود التّل خلال عاصفة بردٍ هوجاء) هم أيضًا من يعيشون في ظل الاعتقاد المغلوط بأن الكاتب يقدّر مساهماتهم؛ لكننا في الواقع لا نفعل: إن كل ما يهتم به الكتّاب هو المال. أجل، نهتم بالحقيقة، بالعدالة، وبالأسلوب الأمريكيّ في الحياة، لكن أكثر ما يهمّنا فعلًا هو المال. إن هؤلاء البخلاء أبناء

---

(1) **Strange Case of Dr Jekyll and Mr. Hyde and Other Stories (1886)** – Robert Louis Stevenson.

(2) T-ball

الكلب المتبقّعةِ جلودُهم بالجرَب، الذين يستعيرون كتبنا من المكتبات ولا يضعون المال في جيوبنا، أشبه بأولئك الذين يحضرون الأنشطة الاجتماعية في الكنيسة ويتذوّقون بعض لفائف النّقانق اللذيذة التي سهرت زوجتك طوال اللّيل لإعدادها ثم يشتكون بأنها دهنيّةٌ أكثر من اللازم (قد لا يكون هذا التشبيه مثاليًا لكنه يفي بالغرض!).

عندما كنت طفلًا، كنت أرى المكتبة على أنها مستودعٌ يحوي مسحوقًا ثقافيًا حيث أستطيع إيجاد المواد التي ستساعدني على محق أعدائي والترّقي على السلّم الاجتماعي. لكن ليس بعد الآن: اليوم صرت أرى المكتبات على أنها مكان رائع لأخذ مواد القراءة التي ما كنت لأحلم يومًا بشرائها بل وما كنت لأرغب في الاحتفاظ بها في بيتي. فحين يستعير شخص كتابًا من المكتبة، لا يخلّف وراءه أيّ دليلٍ على ذوقه المريع أو ميله المثير للشفقة إلى التكاسل. إن الكتب المرصوصة على رفوفي بالبيت – لشكسبير، ديكنز، والأخوات برونتي – تعطي على الأقل انطباعًا بأنني مثالٌ في الذّوق الرّاقي. أما الكتب التي أستعيرها من المكتبة فغالبًا ما تتمحور حول رجال شرطة ممتعِضين ومدمني شربٍ قد شهدوا ثلاث زيجاتٍ فاشلةٍ، يكرههم أطفالهم، وحبيبتهم الجديدة عاهرة ناقلة للأمراض الجنسية، بينما يحاولون فك لغز الظهور المتتالي لجثثٍ مقطوعة الرأس عند مطرح النفايات المجاور لحديقة لعب الأطفال خلف مدرسة حضانة. والكثير من القصص المشابهة تجري أحداثها في الدول الإسكندنافيّة، بؤرة القلق والاغتراب وإدمان الكحوليّات... والرؤوس المقطوعة.

إن المكتبات، دون شكٍّ، لمكانٌ مناسبٌ لإطلاق مشاريع قراءة غريبةٍ: فقد حدث مرّةً، حين كان أطفالي صغارًا، أن أمضيتُ سنةً كاملةً في قراءة كتبٍ أسحبها من الرّف بطريقة عشوائيّةٍ دون النظر إلى عناوينها حتى. كان بعضها جيدًا، والبعض الآخر غير ذلك، وهذه الأخيرة [أي السّيئة] أتخلّص منها

بسرعة. لكن كانت هناك بضع اكتشافاتٍ رائعة: **(أضواء الشفق القطبّي)**(1) بقلم هوارد نورمان، **(إلى اللقاء، أراكَ غدًا)**(2) بقلم ويليام ماكسويل، **(شهرٌ في الرّيف)**(3) بقلم جيمس جوزيف لويد كار، وكذا **(حصار كريشنابور)**(4) بقلم جيمس غوردن فاريل، بالإضافة إلى العديد من أعمال الخيال النّسائي المريعة.

لقد كانت تجربةً مثيرةً للاهتمام بحقٍّ، لكنها ليست تجربةً أرغبُ في تكرارها.

وفي تجربة أخرى، قررت قراءة كتابٍ قصيرٍ كلّ يوم. حين انطلقت في هذه المغامرة، كانت هناك بضعة كتبٍ في حوزتي بالفعل وبعضها اقتنيتُه، لكنني استعرت حصّة الأسد من المكتبة؛ ذلك يعني أنني كنت مُعسكِرًا في المكتبة على الدّوام. لكن في ظهيرة أحد الأيام، وبينما كنت أشقّ طريقي عبر أكوام الكتب في مكتبة وارنر بحثًا عن مؤلفات قصيرة وسهلة لالتهامها، لاحظت أن بعض الكتب قد تم سحبها من مكانها الطبيعي ووضعُها جانبًا، من بينها أربعة كتبٍ لنادين غورديمر الحائزة على جائزة نوبل للآداب سنة 1991، العديد من كتب دوريس ليسينج الحائزة على الجائزة عام 2007، بالإضافة إلى كتابَين لجونتر جراس الحائز على الجائزة عام 1999. وقد كانت من بينها روايات أو مجموعة قصص قصيرة بقلم توماس هاردي، كارلوس فوينتيس، موريال سبارك، جون أوهارا، دافني دو مورييه، بل وحتى شالز ديكنز؛ ووجدت بينها النّسخة ذات الرّسوم التّوضيحيّة لرواية **(ترنيمة عيد الميلاد)**(5)، وقد كانت إحدى الرّوائع الحقّة التي قد يشهدها المرء يومًا.

---

(1) **Northern Lights (1995)** – Philip Pullman.
(2) **So Long, See You Tomorrow (1980)** – William Maxwell.
(3) **A Month in the Country (1980)** – J. L. Carr.
(4) **The Siege of Krishnapur (1973)** – J. G. Farrell.
(5) **A Christmas Carol (1843)** – Charles Dickens.

واصلت بحثي في الجناح الموالي، وبينما كنت بصدد البحث بين رفوف الحرف «H»، صادفت مورين بيتري التي حلّت محلّ السيدة كين (التي غادرت إلى دار البقاء) كمديرةٍ على رأس مكتبة وارنر. تجاذبنا أطراف الحديث لبعض الوقت - ابنها أليكس الذي أعرفه منذ نعومة أظافره يخرج الآن في مواعد غراميّةٍ رفقة شابّةٍ محبّبةٍ للغاية تعمل في مطعم صغير بضواحي قريتنا - ثم سألت مورين عن سبب جذب تلك الكتب ووضعها على تلك الزاوية الغريبة، فشرحت لي أنها كانت بصدد عمليّة تقصّي واستِنقاء الأكوام، مزيلةً كل كتابٍ لم تتم استعارته خلال السنوات الخمس الماضية، لتجتمع بفريق العمل من أجل تدارس الأمر: الاحتفاظ بها، استبدالها بنسخٍ جديدةٍ، أو تطهير المجموعة من وجودها نهائيًّا؛ ثم سألت عن رأيي في الموضوع.

لكن لا فائدة تُرجى من طلب رأيي، لأنني أمريكيّ إيرلنديّ من الطبقة العاملة، كما أنني من صنف الرّوم الكاثوليكيّين الذين لم يغفروا للكنيسة قطّ أمر التخلي عن القُدّاس اللاتينيّ (وتعويضه بـ «قدّاس الغيتار») في ستّينيّات القرن الماضي، وبالتالي فأنا أعارض شتّى أنواع التغيير: من أي صنفٍ، وتحت أي ظرفٍ، ولأي سببٍ. لذا كل ما سأقوله لها هو أن تحتفظ بكتب غورديمر وتتخلّص من كتب بيكولت.

لكننا نجد أنفسنا في مواجهة مباشرة مع السؤال الآتي: لماذا توجد المكتبات؟ وأية مجتمعات نخدم؟

إن معظم الناس يقرؤون الترّهات، وتلك صلاحيةٌ مخوّلَةٌ لهم. بل قد يجادل أحدهم وينجح في إثبات أن قراءة الترّهات أفضل من عدم قراءة أي شيءٍ على الإطلاق، على فرضية أنه سينتهي بهم المطاف بأن يضيقوا ذرعًا بالتّفاهات ثم ينتقلون إلى شيء أكثر دسمًا. أعتقد أن هذا الأمر قد يحدث أحيانًا مع الشّباب، لكنني أشك أنه قد يحدث مع البالغين إطلاقًا، لأنهم لا يتعبون فجأةً من قراءة نورا روبرتس ثم يصيحون بتعجّبٍ: «سحقًا لهذا

الهراء؛ والله إنّني سأجرب القراءة لماركوس أوريليوس!» إن الناس يقرأون الكتب السيّئة لأنها تخدم احتياجاتهم؛ فالكتب السيّئة ليست كتبًا جيدةً مكتوبة بأسلوب أقلّ جودة من ناحية أدبيّة، بل هي ببساطة كتبٌ سيئة. إنها تحوي نثرًا سيئًا، أفكارًا سيئة، شخصيّاتٍ سيئة، ومواضيع سيئة؛ وهي نتاجُ عمل أشخاصٍ لم ولن يفكّروا أبدًا في كتابة كتابٍ جيّدٍ. ما الجدوى من ذلك على أية حال؟ سينتهي بك المطاف مثل غونتر غراس أو نادين غورديمر أو دوريس ليسينغ، الفائزين بجائزة نوبل، الذين صارت روائعهم الآن أمام عملية إبادة من مخزون المكتبة العامة. إن الأشخاص الذين يحبّون الكتب السيّئة ليسوا سيئين أكثر من أولئك الذين يحبون الطّعام السيّء؛ كل ما في الأمر أنهم يحبّون الكتب السيّئة؛ إنهم أناسٌ ذهبت نعمة محو الأميّة فيهم سدًى!

حين أدركت ما كانت مورين تُبيّتُه، دخلت في حملةٍ مسعورةٍ لاستعارة الكتب التي بدت لي مهدّدةً بخطر التّصفية. فكّرت أنه في حالة ما إذا أدرجتُ تلك العناوين على لائحة الكتب المستعارة، فإن ذلك سيمكّنها من البقاء على قيد الحياة لبضع سنين إضافية إلى أن تحين حملة التطهير القادمة. شعرت كما لو أنني آخر مدير مقتنياتٍ على الإطلاق بمكتبة الإسكندرية يوم الثاني والعشرين من ديسمبر سنة 640 للميلاد، يحشو بضع دزّيناتٍ من مسرحيات يوريبيديس تحت بنطاله قبل ثلث ساعة من ظهور العرب وإضرام النّار[1] في المكان برمته. في المرّة الأولى استعرت ثلاث روايات لكلٍّ من فوينتيس وغورديمر، واثنتين بقلم ماري مكارثي. لم تكن قصة فوينتيس القصيرة بعنوان **(الهالة)**[2] تتعدى سبعًا وأربعين صفحةً، وقد

(1) إن الكاتب يلمّح هنا إلى إحراق مكتبة الإسكندرية بعد دخول الإسلام لمصر على يد عمرو بن العاص سنة 641م، هذا الحدث يُعتبر مجرد إشاعة لا أساس لها من الصحة، حيث لم يُشِر كبار المؤرخين المسيحيّين إلى وقوعه، على رأسهم يوحنا النقيوسي مثلًا، الذي كان شاهدًا على الفتح الإسلامي.

(2) **Aura (1962)** – Carlos Fuentes

كانت قصّة حبٍّ مثيرة؛ كانت **(الغرينغو العجوز)**[1] محبّبَةً، على قِصرها؛ أما **(ديانا: الإلهة التي تصطاد وحيدةً)**[2]، وهي رواية ذات مفتاح، تحكي قصة الممثلة البئيسة جين سيبيرغ، وهي قصة حزينة للغاية تبتدئ بالجملة الآتية: «ليس هناك استعبادٌ أسوأ من الأمل في السّعادة». وقد كانت رواية غورديمر **(عالم البورجوازية المتأخرة)**[3] جيّدة بدورها، تضاهي جودة عملها الآخر: **(المحافظ)**[4]. وأخذت كذلك بضعة كتبٍ لإيريس مردوخ، إسحاق سينغرز، وجون أوهاراس، ثم انتقلت إلى **(بساتين الأكاديميا)**[5]، رواية ماري مكارثي من حقبتها عن أستاذٍ جامعيٍّ مرتبكٍ ذي ميولات يسارية يفقد عمله بجامعة ولاية كيستون. لم يسبق لي قطُّ أن قرأت أيّا من أعمالها، وذلك راجعٌ ربما إلى مقتي الشّديد لفيلم «**المجموعة**[6]» المبني على روايتها الصادرة سنة 1962، ولكن كذلك لأنني لا أجد في نهاية المطاف الوقت لقراءة الكتب التي رشّحها لي أصدقائي المقرّبون، مع أنه لم يسبق لأيٍّ منهم ذِكر ماري مكارثي.

شرعت في قراءة رواية **(بساتين الأكاديميا)**، وعلى الفور لم أستسغها البتّة. لقد سقطت مكارثي في التّنميق الزائد والحشو وغالت في ذلك. لقد ذكّرتني بعددٍ لا يحصى من عازفي الجاز المتبرّمين الذين سمعت عزفهم على مدار السّنين: موهوبون متفاخرون لا تصل تقنيّتهم المبهِرة في نهاية المطاف إلى أية نتيجة. لكن المشكلة الأكبر كان تتجلّى في الكتاب المادّي الملموس بين يديّ: اصطبغت أوراقه بالصُفرةً منذ زمن طويلٍ، وكان برمّته مغطّى بنمشٍ شيخوخيّ [بقعٍ كبديّةٍ بنيّة] لا مَحيدَ للكتب القديمة عن اكتسابها. وقد جعلتني هذه الرواية المنشورة سنة 1951 أشعر بأنني حُشرتُ في سنة واحدٍ وخمسين

---

(1) **The Old Gringo (1985)** – Carlos Fuentes.
(2) **Diana: The Goddess Who Hunts Alone (1994)** – Carlos Fuentes.
(3) **The Late Bourgeois World (1966)** – Nadine Gordimer.
(4) **The Conservationist (1974)** – Nadine Gordimer.
(5) **The Groves of Academe (1952)** – Mary McCarthy.
(6) **The Group (1966)**, directed by: Sidney Lumet.

وتسع مئةٍ وألف (1951)، وهو زمان لا أود أن أكون فيه. لقد ولدت قبل ذلك بسنةٍ، في 1950، وهو زمان لا أود أن أكون فيه كذلك.

لطالما كانت للكتب المجلّدة من الأيام الخوالي صفةٌ تشمئزّ منها النّفس وتتطيّر؛ فمن الممكن تمامًا أن تكون تلك الأغلفة القاسية والمَهيبة قد صمّمت خصّيصًا بغرض ترهيب الجمهور، لسان حالها يقول: «إنه محتوى جادٌّ، أيها الأخرق! فلتقتنِيه على مسؤوليتك الخاصة!». لقد كانت استراتيجيّة تسويقٍ شاذّةً ومحيّرةً: «ارفعوا أيديكم عن الوجود والعدم، وتمدّدوا؛ ستجدون كل ما تبحثون عنه هنا في قسم أعمال زين غراي. بدا الأمر كما لو أن الناشرين كانوا يرغبون ببيع الكتب حصرًا للقرّاء الذين يعلمون ما سيفعلونه بها، لكن هذه السيّاسة باتت أمرًا من الماضي. أتذكر واقعةً من زمن نشر كتاب السيرة الذاتية لهوارد ستيرن سنة 1993، حين رأيت رجلًا يمشي بالشارع الخامس [بنيويورك] وقد كان جليًّا أنه لم يكن متأكّدًا من كيفيّة حمل كتابٍ؛ لقد التبس عليه أمر التعامل مع شكله المستطيل: لم يكن متأكدًا ممّا إذا كان يجب عليه أن يتأبّطه أو يضمّه إلى صدره ككرة روغبي. إن «سفره البتول» على بحر محاربة الأميّة لم يهيّئه لهذه المغامرة المربكة؛ لم تكن مهارات التعامل مع الكتب التي اكتسبها معظمنا في وقت مبكر نسبيًا من الحياة، من ريتشارد سكاري أو جودي بلوم متاحة له، وما كان لنا أن نعرف ما حدث للمسكين حين فتح الكتاب ووجد أنه يحوي كلمات!

لم يكن من الضروري أن تكون الكتب جميلةً خلال خمسينيات القرن الماضي، لأنه لم يكن هناك شيءٌ جميلٌ عداها آنذاك. لقد كانت الكتب موجودة، ببساطة، وكنت تقرأها لترفّه عن نفسك أو لتُنير عقلك ودربك، أو لأنها كانت مفيدةً بشكلٍ ما، ولكن ليس لأنها كانت ذات بعدٍ جماليٍّ في حدّ ذاتها. غالبًا ما كانت لكتب الثلاثينيّات والأربعينيّات والخمسينيّات أغلفة سميكةٌ من جلد وحيد القرن، ويبدو أنها كانت مصنوعة على تلك الشّاكلة لغرضَين

اثنَين: كمصدرٍ لمتعة القراءة البحتة بكل تأكيد، ولكن كذلك كغرضٍ قد يستعمله الشّرطيّ داخل غُرَفِ الاستنطاق، في حالة استعجاليّةٍ، ليخبط رؤوس المجرمين ويستدرّ اعترافاتهم دون أن يترك ندوبًا ملحوظةً. خذ معك نسخة من رواية **(جود الغامض)**[1] إلى داخل غرفة الاستجواب لبضع دقائق ليس إلّا وستتوصّل إلى مكان اختباء [رجل العصابات] ليغز دايموند قبل الغذاء.

ومع ذلك، واصلت استعارة تلك الكتب بغض النظر عن قبحها. لقد كان الأمر أشبه بإنقاذ يتامى معادين للمجتمع من حريق: ليس عليك أن تحب أولئك الصّغار متقلّبي المزاج لترغب في إنقاذهم. لكنني تعبت في نهاية المطاف لأنه كان عملًا جبّارًا، كما لأن معظمها لم تكن حسنةَ المظهر. ربما يجب على المكتبة أن تكوّم تلك الكتب وترسلها إلى صديقتي الفليبينيّة، لأن الحقيقة أنني لم أستطع إنقاذها بنفسي. سيتوجّب على شخصٍ آخر أن يقدّم يد العون، ومن الواضح أن أحدهم قام بذلك بالفعل. حين زرتُ المكتبة مجدّدًا قبل بضعة أيام – وقد مضت تسعة أشهر على علمي بعملية التّطهير الجارية – كانت الكتبُ التي استعرتها (لكارلوس فوينتيس، نادين غورديمر، موريال سبارك، وجون أوهارا) ما تزال على الرّفوف، بل وحتى كتب غونتر غراس.

لقد كان انتصارًا صغيرًا، لكنّه يظل انتصارًا.

ذات يوم، منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ، دُعيت إلى حفل جوائز استضافته جمعية مكتبات المقّاطعة؛ إذ تقوم هذه المنظمة بتكريم أي شخص مازال يتنفّس، شريطة أن يكون أو تكون قد نشرت كتابًا في الآوِنة الأخيرة ويعيش أو تعيش في مكانٍ ما جنوب بير ماونتين بريدج وشمال البرونكس. حضرت هذا الحفل خلال مناسبتَين اثنتَين لأنه يساعد على دعم نظام مكتبات المقاطعة، وهي مؤسسة نبيلةً تقوم بعمل الرّب. كان البرنامج يضمّ مأدبة غذاءٍ وحفل، طُلب بعده من كل متوّج التحدث عن عمله أو عملها لمدة ثلاث إلى خمس دقائق، وكان يمكن تحمّل هذا الحدث لولا أمران اثنان.

---

(1) **Jude The Obscure** – Thomas Hardy.

أولهما ذاك المتزلّف الذي قلّد واشنطن إيرفي، الذي تم توظيفه زعمًا لتوفير «إغاثة كوميديّة». وفي هذه النواحي على وجه التحديد، لا يمكنك تلافي البُعبُع المرعب لبروم بونز، إيشابود كراين، كاترينا فان تاسيل، وريب فان وينكل. بعد رؤية العديد من هؤلاء الكوميديّين خلال تأدية عملهم – في [مقاطعة] ماونت فيرنون، [مدينة] ويليامسبورغ، ومناطق أخرى غرب البلاد – توصّلت إلى استنتاج مفاده أن الناس الذين يتأنقون في بدلات عصريّة ذات قبّعات ثلاثية الزوايا وأحذية ذات أبازيم عاليةٍ، ويتحدثون بلغةٍ إنجليزيّةٍ عتيقةٍ؛ يعانون مما يسمى بـ'توحد إعادة التّمثيل»، وهو مرضٌ يجعل المصاب به عاجزًا عن رؤية الإشارات البصرية – التي ما كانت عينٌ لتخطئها – التي تفيد بأن معظم الحاضرين بالقاعة يرغبون في رؤيته مَبقورَ الأحشاء.

أما الأمر الثاني فيتعلّق بالمتحدث الرئيسي بالحفل، وهو أحد أولئك الحثالة في منتصف العمر الذين يرتدون سروال جينز أزرق وحذاءً رياضيًّا لحضور حدث رسميٍّ، وهم يَعمَهون في ظنّهم الغشيم بأنهم يتشبّهون بجوني ديب. حمل الرّجل – وقد كان باحث أسواقٍ شهيرٍ – قرص فونوغراف أسود وسأل عمّا إذا كان أحدنا يعرف ماهيته. ها ها! يا له من أمر مضحك! لقد سمعت هذا الشريط المشروخ من قبل:

«اسمعوني، يا معشر المكتبيّين: إن الكتب المادّيّة باتت أمرًا من الماضي، أمرًا أكل عليه الدّهر وشرب. إن نظام التّسليم الذي تعملون به بائدٌ؛ لأن التحميلات الإلكترونية هي موجة المستقبل. ثم إن نموذج العمل الذي تتّبعونه ما عاد يعمل بعد الآن، ويجب عليكم إدارة مكتبتكم مثل رجل أعمال، لأنهم يتّبعون، في نهاية المطاف، نماذج أعمال ناجحة!».

أيفعلون ذلك حقًا؟ هل أنت متأكد؟ كما هو حال نموذج المجموعة العالمية الأمريكية «AIG» ؟ أو نموذج «بير ستيرنز» ؟ نموذج عمل «ليهمان برادرز» أو نموذج «وورلدكوم» ؟ أجل، فلنجلب أحد أولئك (الأذكياء

المخيفين)، أسياد الكون، الذين صمّموا نموذج عمل شركة «إنرون» أو موقع Pets.com إلى هنا للاطلاع على الإجراءات الجاري بها العمل. قد لا تحقّق المكتبات مكاسب ضخمة، أنا أعي ذلك جيّدًا. لكنني لا أعلم بوجود نظام مكتبات تطلّب عمليّة إنقاذٍ بكلفة وصلت إلى تريليونات الدولارات من أجل منع النظام المالي العالمي من الانهيار. فكما قال جيم هاريس في روايته **(المرأة التي تنيرها الخنافس)**[1]: «سيسقط رجال الأعمال مَهدودينَ لولا ظنّهم بأنهم أكثر الرجال العمليّين على كوكب الأرض.»

وبعد فترةٍ وجيزةٍ من انتهاء ذلك المغفّل المنغمس في ذاته من إلقاء قدّاسه، حان دوري في الكلام. أخبرت أمناء المكتبة المجتمعين أنه رغم أن أتيلا الهوني سيكون دومًا واقفًا ينتظر أمام بوابة روما، فأنا لا أرى الضرورة التي دعت إلى دعوته كمتحدثٍ رئيسيٍّ بالحفل. فبتخلّيهم عن التقاليد، كانوا يحفرون قبورهم بأيديهم، لأنه في نموذج الطلب الجديد المصمّم للمكتبات - كما شرحه لنا متخصّص التقنيّة الفارغ هذا على الأقل - لن يكون هناك داعٍ لوجود أمناء المكتبة، وذلك لأن الرّعاة سيعرفون مسبقًا الكتاب الذين يريدون وسيأتون إلى المكتبة لأخذه ليس إلا. لن يُرسل في طلب أمناء المكتبة من أجل النّصح والمشورة، وإنما سيقتصر عملهم على تغيير خراطيش الآلة الطابعة فحسب. إن عنصر الاكتشاف صدفةً، أخذ المطويّات، تجربة شيءٍ جديد، طلب اقتراحات وما إلى ذلك مما جعل المكتبات على الدوام جذّابةً سيختفي، فاسحًا المجال لآلةٍ لا تتزعزع، تقودها متطلّبات السّوق. مرحبًا بكم في حضرة اللوياثان![2]

---

(1) **The Woman Lit by Fireflies** – Jim Harrison.

(2) **Leviathan**: وحش بحري توراتي أشير إليه في العهد القديم، ويطلق الاسم قياسًا على أي وحش هائلٍ ومرعبٍ.

أعتقد أن مثل هذه القطيعة مع الماضي ستجعل العالم مكانًا كئيبًا، حيث لن تقودك طريقُك بعد الآن مصادفةً إلى رواياتٍ ملتهبةٍ عن أطفالٍ مستهترين بيض البشرة يعلقون على الجانب الخاطئ من بانشو فيّا[1]؛ لا مزيد من اكتشافات الحظ للكتب بأقلام موهوبة - ولو أنها مظلمة - لكتّاب فلنديّين، بيروفيين، كمبوديّين، أو بلجيكيّين؛ لا مزيد من مصادفة روايات غموض طائفة الأميش، التي تجري أحداثها في ولاية أوهايو، والتي كانت على الرّفوف أساسًا لأن أمين المكتبة المرجعيّ الذي يعمل بها منذ زمنٍ طويلٍ تم تعيينه في قسم روايات الغموض وبدأ باستلطاف روايات الجريمة الغامضة التي تقع أحداثها بأوهايو والتي تذكر الأميش.

خلاصة القول: لا مزيد من المفاجآت.

كنت ذات يومٍ بصدد التجوّل بين أكوام الكتب في مكتبة وارنر حين لمحت رواية قصيرةً بعنوان **(كودا)**[2] في قسم المقتنيات الجديدة. كانت عملًا أدبيًّا تشويقيًّا بقلم كاتب فرنسي يدعى ريني بيليتو لم أكن أعرفه؛ ترجمه [إلى الإنجليزية] أليسون واترز، ونشرته جامعة نيبراسكا بريس. أخذت الكتاب معي إلى البيت وقرأته بعد زوال ذلك اليوم. لقد كان شاذًّا، غريبًا للغاية؛ وهذا ما كنت أحتاجه بالضبط: النموذج الأمثل للطريقة التي تجعل بها الأحداث العرَضيّة العالمَ مكانًا مثيرًا. لقد وجد هذا الكتاب بطريقةٍ ما سبيله إلى مكتبتي، حتى أن أمين المكتبة الرئيسيّ لا علم له بما تم اقتناؤه من كتبٍ. ولعل ذلك جاء من باب التغيير؛ تغيير الرّتابة التي يجب أن تمضي الأمور عليها. إذا كنت تريد التنظيم والمنطق والفعالية، فلتقصد المقبرة. فكما عبّرت لي إحدى الصديقات التي تعمل في مكتبة وارنر، ولعلّها كرّرت شيئًا سمعَته في مكانٍ ما: «إن المكتبة ليست مشروعًا مربحًا، بل هي معجزة.»

---

(1) **بانشو فيّا** (Pancho Villa)، أحد أبرز القادة الثوريين المكسيكيين (1878 - 1923)، كان بمثابة " روبن هود" المكسيكي، يسرق من الأغنياء ليعطي الفقراء.

(2) **Coda (2011)** – René Belletto.

وفي ظل سيناريو «إن نموذج عملك لا يعمل، لكنّني هنا لإصلاحه»، ما كان لكتابٍ مثل **(كودا)** أن يحتال ويجد طريقه إلى مكتبتي، ولا الكتاب الذي يحكي منافسة العمر بين نيكولا تيسلا وتوماس إيديسون، ولا ذاك الذي يحكي قصة الرجل الذي أراد سرقة تمثال النصّر المجنّح[1] وإعادته إلى اليونان، أو الكتاب عن ذلك التّركي المصاب بهوس السّرقة. لن يطلب هذه الكتبَ أحدٌ؛ لن يستعيرها أحدٌ؛ ولن يقرأها أحدٌ؛ بل لن يعي وجودها أحدٌ من الأساس. سيكون الأمر مثل إحدى روايات ج. غ. بالارد حيث تم إسقاط العشوائية وصارت الأحداث العرَضيّة جريمةً قصوى، عقوبتها الموت. لن أصادف مجدّدًا وببساطة أيّ كتابٍ مثل **(كودا)**، **(سنوات ضوئية)**[2]، **(صائد ذباب الفطر)**[3]، أو **(شبح أنيل)**[4]؛ لن أصادف أي جوهرةٍ مثل روايات: **(حرير)**[5]، **(إوزّة الثلج)**[6]، **(ظل دون اسم)**[7]، أو **(صمت)**[8]؛ بل الأدهى أنني لن أصادف أيّ كتابٍ بقلم جيمس غراهام بالارد.

لن أصادف أيّ شيءٍ أبدًا.

---

(1) **Winged Victory of Samothrace.**
(2) **Light Years (1975)** – James Salter.
(3) **The fly-Truffler (2001)** – Gustaf Sobin.
(4) **Anil's Ghost (2000)** – Michael Ondaatje.
(5) **Silk (1996)** – Alessandro Baricco.
(6) **The Snow Goose: A Story of Dunkirk (1941)** – Paul Gallico.
(7) **Shadow Without a Name (2002)** – Ignacio Padilla
(8) **Silence (1966)** – Shūsaku Endō.

الفصل الثالث

فتح الكتب

بمرحلةٍ ما من مساري، اتخذت عادة قراءة عدة كتبٍ في وقت واحد؛ ثم سرعان ما استحالت «عدة» إلى «العديد»، ثم لتتحوّل هذه الأخيرة، مع مرور الزمن، إلى: «أكثر من اللازم». تقرأ بعض صديقاتي المقرّبات كتابًا أو اثنين في نفس الوقت، بينما يصرّ أصدقائي من الذّكور على أنهم يقرؤون كتابًا واحدًا على الأقل، (رغم أنني أعتقد أن هذا الرّقم قد يجسّد انتصار الأمل على الواقع).

وفيما يخصّ حياتي بعد البلوغ، لا أستطيع تذكّر ولا مرّةٍ وحيدةٍ حيث كنت أقرأ أقلّ من خمسة عشر كتابًا دفعةً واحدةً، رغم أن هذا العدد تفاقم كثيرًا خلال مرحلةٍ ما. وأنا هنا لا أقصد الكتب التي استقصيتُ أمرها وتحرّيتُه، ثم وضعتها جانبًا مثل روايتَي: **(يقظة فينيغان)** أو **(ميدل مارش)** اللتَين ألقيت عليهما نظرةً أول الأمر سنة 1978، أو **(تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وانهيارها)**، الذي أقرأه بشكل متقطّع منذ أن كنت في الثانية عشرةً تقريبًا، وسيتطلّب مني إنهاؤه تجاوز المئة سنةٍ إذا حافظت على هذه الوتيرة. لا، ليست هذه الكتب هي ما أقصد، بل تلك التي أقرأها حاليًا وبشكلٍ نشِطٍ؛ إنها الكتب الجاثمة هنا على المنضدة اللّيليّة بجوار سريري، والتي لن تغادر المكان حتى أنتهي منها، ويصل عددها في هذه اللّحظة إلى اثنين وثلاثين كتابًا.

مثل إيّ إدمانٍ آخر، فإن عادة الشّروع في قراءة كتبٍ جديدةٍ تمنحني لذةً هائلةً. ومع ذلك يظلّ سلوكًا مزعجًا تتملّكني أحيانًا الرغبةُ في التّخلّص منه؛ لأنني لا أود انتظار عشرين سنة أخرى لاكتشاف ما سيسفر عنه **انهيار**

الإمبراطورية الرومانية، كما أنني أرغب بشدّةٍ في معرفة رأي شيلبي فوت - صاحب كتاب **(الحرب الأهلية)**[1] - بخصوص عمليّة الدّفن الشّاذة والمتفرّدة لذراع ستونوول جاكسون. فحسب وتيرتي «السّلحفاتيّة» الحالية - بالكاد بلغت ألف صفحة في كلٍّ منها - سأصبح جَدًّا قبل بلوغ نهاية كتاب **(القسطنطينيّة)**[2]، وستتحلّل عظامي في بطن الأرض قبل مدّة طويلةٍ من بلوغ اللحظة التي يُقدم فيها جورج بيكيت على تلك المجازفة في معركة جيتيسبورغ.

لا أستطيع تحديد وتيرةٍ ولا سببٍ واضح لنمط القراءة المسعورة التي أتّبعها، باستثناء أن الكتبَ نادرًا ما تكون أقّل من جيدة وغالبًا ما تكون رائعةً. فخلال الشّهرين الماضيَين، أنهيت قراءة الروايات: **(الرجل ذو القبّعة الخشبية)**[3] بقلم جاين غاردن، **(القيادة على الحافة)**[4] بقلم توماس ماك-غواين، **(أحلام القطار)**[5] بقلم دينيس جونسون، **(سبعة أحبّاء)**[6] بقلم فاليري تروبلاد، **(المخبول)**[7] بقلم ها جِنْ، **(حادث في أغسطس)**[8] بقلم لورنس كوس، **(كانت النادلة حديثةً)**[9] بقلم دومينيك فابر، وكذا **(31 ساعة)**[10] بقلم ماشا هاميلتون. كما أنني أتممت كذلك قراءةً ثانيةً لروايات: **(ليس أذى جسيمًا)**[11] بقلم ألستر ماكليود، **(دماء الهاجرة)**[12]

(1) **The Civil War: A Narrative (1958–1974)** (in 3 volumes) – Shelby Foote.
(2) **Constantinople (1877)** – Edmondo de Amicis.
(3) **The Man in the Wooden Hat (2009)** – Jane Gardam.
(4) **Driving on the Rim: A Novel (2010)** – Thomas McGuane.
(5) **Train Dreams (2011)** – Denis Johnson.
(6) **Seven Loves: A Novel (2006)** – Valerie Trueblood.
(7) **The Crazed (2002)** – by Ḥa Jin.
(8) **An Accident in August (2003)** – Laurence Cosse.
(9) **The Waitress Was New (2005)** – Dominique Fabre.
(10) **31 Hours (2009)** – Masha Hamilton.
(11) **No Great Mischief (2009)** – Alistair MacLeod.
(12) **Blood Meridian (1985)** – Cormac McCarthy.

بقلم كورماك ماكارثي، **(لقاء الشّر)**[1] بقلم توماس بيرجر، **(البورنوغرافيّ)**[2] بقلم جون ماك غاهرن، **(الساموراي)**[3] بقلم شوساكو إندو، وكذا رواية إليز بلاكويل الأولى: **(جوع)**[4]. لقد تطلّب مني الأمر ما بين ثلاثة إلى ستة أسابيع لإنهاء كلٍّ من هذه المشاريع، حيث بدت قراءة رواية **(كانت النّادلة جديدةً)** أشبه بباحة استراحةٍ لمدة خمسٍ وسبعين دقيقةً ما بين قراءة كتاب عن الأضرار الجسيمة لبرنامج «باوبر بوينت»، كنت بصدد مراجعته من أجل صحيفة «بارون» Barron، بالإضافة إلى كتاب مصوّرٍ من منشورات «فايدون» عن [الفنّان التشكيليّ الفرنسيّ] أوديلون ريدون.

في الوقت ذاته، كنت أمرُّ كالإعصار على مجموعات قصص قصيرة بأقلام: ويليام تريفور، أندري دوبوس، جيمس ساتلر، ومافيس غالانت؛ شقَقتُ طريقي لحوالي مئتي صفحة برواية ويلكي كولينز: **(المرأة ذات الرّداء الأبيض)**[5]؛ كما أنني أعدت قراءة النصف الأول من رواية **(صورة دوريان غراي)**[6]، التي دعوت نفسي للاستمتاع بها مجدّدًا للمرة السابعة ربما. زيادة على ذلك، أتممت قراءة روايات ويليام كينيدي: **(سيقان)** و**(أعظم مباريات بيلي فيلنز)**، و**(خرزات شانغو وحذائه ذو اللّونَين)**[7]، إذ تلقّيت هذه الأخيرة كهدية في الكريسماس. ولا أنسى أنني انغمست في رواية هانز فالادا التي تُرجمت مؤخرًا [إلى الإنجليزية]: **(كل امرئٍ يموت وحيدًا)**[8]، التي كانت بدورها هدية أخرى أبعد عن المتوقّع أتلقّاها في أعياد الميلاد،

---

(1) **Meeting Evil (1992)** – Thomas Berger.

(2) **The Pornographer (1979)** – John McGahern.

(3) **The Samurai (1980)** – Shusaku Endo.

(4) **Hunger (2009)** – Elise Blackwell.

(5) **The Woman in White (1859)** – Wilkie Collins.

(6) **The picture of Dorian Gray (1890)** – Oscar Wilde.

(7) **Legs (1975), Billy Phelan's Greatest Game (1978), Chango's Beads and Two-Tone Shoes (2011)** – William Kennedy.

(8) **Every Man Dies Alone (1947)** – Hans Fallada.

وكم كانت روايةً لا تُنسى؛ وهذا دون الإشارة إلى كتابٍ معنونٍ: **(اكتشاف فرنسا)**[1]، كنت قد بدأته سنة 2009، على قارّةٍ أخرى، وكتاب **(تاريخ هنود الولايات المتحدة الأمريكيّة)**[2] بقلم أنجي ديبو، الذي شرعت في قراءته قبل ثلاث سنواتٍ، بلغت نصفه، ثم وضعته جانبًا. ولأسبابٍ لا يسعُني - أنا ذاتي - شرحُها، أجد نفسي حاليًّا بصدد شقّ طريقي عبر ليس كتابٍ واحدٍ فحسب، وإنما ثلاثةٌ، حول الإمبراطورية الرّومانية، زيادة على كتابِ إدوارد غيبون الكلاسيكيّ، بالإضافة إلى ثلاثة كتبٍ من تأليف بول جونسون: **(الفنّ)**، **(الأزمنة المعاصرة)**، و**(تاريخ الشعب الأمريكي)**[3]. وحين تضيف إلى كل هذا مأدُبةً خفيفةً مكوّنةً من: **(مؤامرة الورق)**[4] بقلم دافيد ليس، **(الخزنة)**[5] بقلم روث ريندل، وكذا **(ذكريات عن هاري كالاس)**[6]، وهي مجموعة من القصص الدّافئة لساردٍ خفيف الظّل لتكريم الفقيد المحبوب، مذيع فريق «فيلاديليفيا فيليز»؛ يصبح جليًّا أن الأمر يتعلّق بمشكلة عويصة، بل إنه في الحقيقة ضربٌ من ضروب الجنون الفعليّ.

إن إدماني حادٌّ لدرجة أنني لا أستطيع الاكتفاء بقراءة كتابٍ واحد بلغةٍ أجنبيّةٍ على حدة؛ لقد بلغت الآن ثلثَي رواية **(الطفل والنهر)**[6] بقلم هنري بوسكو، نصفَ مسرحية **أوندين**[8] بقلم جون جيرودوه، كما أنني على وشك

---

(1) **The Discovery of France (2007)** – Graham Robb.
(2) **A History of the Indians of the United States (1984)** – Angie Debo.
(3) **Art: A New History (2003), Modern Times (1985), A History of the American People (1997)** – Paul Johnson.
(4) **A Conspiracy of Paper: A Novel (2000)** – David Liss.
(5) **The Vault: An Inspector Wexford Novel (2011)** – Ruth Rendell.
(6) **Remembering Harry Kalas: The Life of a Phillies Icon Told by Those Who Knew Him Best (2013)** – Rich Wolfe.
(6) **L'Enfant et la Rivière (1945)** – Henri Bosco
(8) **Ondine (1938)** – Jean Giraudoux.

إتمام رواية **(صديقي ميكري)**(1) بقلم جورج سيمنون، التي أقرأها (بالفرنسية) للمرّة الثانية على الرّغم من أنها ليست جيّدة حقًّا. وهناك أيضًا مجموعة من الكتب التي أباشرُ قراءتها عشوائيًا، ومن بينها: **(عزيزي الرّاحل)**(2)، وهو الجزء الأول من كتاب السيرة الذاتية لمارغريت يورسينار، **(سيرة برتراند راسل)**، بالإضافة إلى **(سودوم وغومورا)**، وهو الجزء الرّابع والأخير من رواية بروست: **(البحث عن الزمن المفقود)**، التي شرعت في قراءتها للمرة الثانية؛ وعلى هذه الوتيرة، لن أتمكن من العودة إلى قراءة **(عوليس)** أبدًا.

إن عاداتي في القراءة لغريبةٌ، ولعلّها تأتي بنتائج عكسيّة. فأحيانًا أشعر بأنني متقاعسٌ في إتمام كتابٍ لأنني أودّ أن تستمرّ متعة قراءته معي وتدوم إلى الأبد؛ وأحيانًا أخرى، أعتقد أنني أستقي نوعًا من الإثارة من الشروع في قراءة كتابٍ ولا أحظى بها عند الانتهاء منه. ثم إن هناك احتمالًا آخر وهو أنني، وفي كلّ لحظةٍ، مشتّتٌ عن الموضوع الذي يتمحور الكتاب حوله - **حياة ماتا هاري**(3) - بموضوعٍ آخر أكثر إلحاحًا يشغل بالي: فخ المنطقة المحايدة(4) الذي طبّقه [فريق] نيوجيرسي ديفلز بنجاحٍ كبيرٍ.

يقول الأصدقاء إنني أعاني من قِصَرِ فترة الانتباه(5) - نقص في القدرة على الحفاظ على تركيزي - لكنني أظن بأن العكس هو الصحيح. وإذا وجب تحرّي الأمر، فسأقول إن لديّ فترة انتباه «أطول من اللازم» تمكنني من قراءة دستةٍ من الكتب في الفترة ذاتها دون أن أفقد اهتمامي بأيٍّ واحدٍ منها.

---

(1) **Mon ami Maigret (1949)** – Georges Simenon.

(2) **Dear Departed: A Memoir (1974)** – Marguerite Yourcenar.

(3) **ماتا هاري** (1876 - 1917) هو الاسم الفني التي اشتهرت به الراقصة الهولندية **مارجاريتا جرترويدا ماكلويد**، التي أدينت بتهمة التجسّس لصالح ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى وأعدمت في فرنسا. وقد ألهمت قصّتها العديد من الكتب والروايات والأفلام.

(4) **Neutral zone trap**: استراتيجيّة دفاعية يستعملها فريق الهوكي على الجليد لمنع لاعبي الفريق الخصم من التقدّم عبر المنطقة المحايدة (المنطقة بين الخطّين الأزرقَين) بهدف إجبارهم على الالتفاف.

(5) Attention span.

زيادة على ذلك، فأنا أمتلك ذاكرةً ممتازةً تتيح لي التوقّف عن قراءة كتاب، ثم فتحه مجدّدًا بعد ستة أشهرٍ دون أن أنسى أدنى تفصيلٍ. وقد فعلت ذلك مع الروايات الآتية: **(الجبل السّحريّ)**[1]، **(جميع رجال الملك)**[2]، و**(ابنة العم بيت)**[3]، ولعلّني سأفعل ذلك بكل تأكيد مع روايتَي: **(حجر القمر)**[4] و **(كلاريسا)**[5]، إذ إنني لا أنوي قراءة أيٍّ منهما في جلسةٍ واحدةٍ. وفي هذا الصّدد، أخبرني لاعب شطرنج مرةً أن الذاكرة الجيّدة مجرد حيلةٍ تخلق هالةً مغالِطةً من الذّكاء حول عقلٍ رتيبٍ ومضجِرٍ. وذلك صحيحٌ بكل تأكيدٍ في حالتي، وهو كذلك أيضًا في حالته.

لطالما آمنتُ أنني أصبحت مدمنًا لعادة بدء الكتب خلال طفولتي، لأن الكتب تبدأ في العادة مثل بيتٍ شبَّ فيه الحريق، ثم تبرد حوالي الصفحة السّبعين، وبعضها يبرد قبل ذلك حتّى. تبتدئ **(الإلياذة)** مثلًا بقرار أخيل غير المتوقّع بالانطلاق بعد أن ضاق ذرعًا، وهو الأمر الذي جرّد القصّة من بطلها الرئيسيّ، لذا سنتفهّم أن طفلًا يسعى إلى الإثارة قد يضع هذا الكتاب جانبًا لبضعة أيام وسيهتم أكثر بقراءة كتاب مثل **(مغامرات طرزان)**. وقد ترسّخت هذه العادةُ أكثر حينما أصبحت أقرأ أكوامًا مكوّمةً من الكتب غير التّخييليّة كجزءٍ من عملي.

من جهة أخرى، فإن معظم الكتب التي ألّفها صحفيّون تبتدئ بفصلَين جيّدَين إلى حدٍّ معقولٍ، متبوعَين بفقراتٍ طويلةٍ من الحشو، ثم يجمّعون طاقتهم من جديد من أجل تلخيص ما سبق، قبل الاختتام المهيب؛ ذلك أن المحرّرين يشجّعون الكُتّاب على تركيز المضمون في مقدّمة «البضاعة»،

---

(1) **The Magic Mountain (1924)** – Thomas Mann.
(2) **All the King's Men (1946)** – Robert Penn Warren.
(3) **La Cousine Bette (1846-1847)** – Honoré de Balzac.
(4) **The Moonstone (1868)** – Wilkie Collins.
(5) **Clarissa (1748)** – Samuel Richardson.

وتكديس أفضل ما في الكتاب في الفصلَين الأوّلَين، لأنهما كلّ ما سيُقرأ من الكتاب. وفي السياق ذاته، بدر إلى علمي أن قرّاء الكتب المتعلّقة بمواضيع السّاعة غالبًا ما يتركونها عند الصفحة السّتّين تقريبًا عاقدين العزم على أن يعودوا إلى قراءتها يومًا. لقد بدأت قراءة رواية **(لورد جيم)**(1) خلال دراستي بالثانويّة وأنهيتُها في سنّ الثانية والخمسين: إن الوصول متأخرًا خيرٌ من عدم الوصول!

لكنّني في الآونة الأخيرة بدأت أظن أن هذه العادات تشكّلت حين كنت في بداية عشرينيّاتي وكنت مستأجَرًا لدى مصنع لكتابة الأوراق البحثيّة، مقرّه بنيوجيرسي. رغم أن الوظيفة في حدّ ذاتها كانت خسّيسةً، إلا أنها كانت منحةً سماويّة. فقد حوّلتني إلى كاتبٍ سريعٍ وفعّالٍ، لأنه كان عليّ القيام بأبحاثٍ سريعةٍ على مواضيع من مجالات شتّى، ثم تسليم المنتوج النّهائي خلال مدّة قصيرة لا تتعدّى أربعًا وعشرين ساعةً. لم أبذل أدنى مجهودٍ في جعل المضمون الذي أنجزتُ سطحيًا أو بسيطًا، ولطالما اعتقدت أنه كان جليًا للأساتذة الجامعيّين الذين قاموا بتصحيح تلك الأوراق البحثيّة أنه لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن تكون نتاجًا لأولئك المتكاسلين ذوي العاهات العقليّة الذين قاموا بتسليمها [على أنها أعمالهم]. لكن، أن يفطن الأساتذة لذلك أو لا يفعلوا، فالأمران عندي سيّان؛ لأنها كانت أول مرةٍ في حياتي صرت أتقاضى أجرًا مقابل الكتابة، وذلك كل ما يهم فعلًا.

وكنت كذلك أتلقى أجرًا مقابل القراءة، إذ كنت أنهمك في قراءة كتبٍ عديدةٍ قد تصل إلى خمسة عشر كتابًا، في المتوسط، خلال يوم واحدٍ. تتمحور هذه الكتب حول مواضيع متباينةٍ قد تبتدئ **بالموت الفجائي لمونتزوما**(2)، العناصر المثيرة للحيرة في المسرحيات الأخيرة **لماكسيم غوركي**، الاختلالات التي طبعت السياسة الزراعية البوليفيّة منتصف القرن

(1) **Lord Jim (1900)** – Joseph Conrad.

(2) Montezuma: الإمبراطور التاسع لإمبراطورية الآزتيك (من شعوب الهنود الحمر) التي تسيطر على المنطقة التي تُعرف اليوم بدولة المكسيك ما بين 1430 و 1521.

الماضي، صعود الطبقة البورجوازية خلال القرن الثامن عشر بفرنسا، وكذا الصور البحريّة التي لا يُلقى لها بالٍ في معظم الأحيان في مسرحية **(هاملت)**. وبالتالي فقد قرأت مئات الكتب خلال السنتين اللّتين عملت فيهما في «مصنع الأوراق البحثيّة»، وأنا متأكد أن هذا هو السّبب في بداية مشكلة «العزل الأدبي»[1]. لقد كنت أتلقى أجرًا على الكتابة، لكنني كنت كذلك أتلقى أجرًا على القيام بعدّة وظائف في الآن ذاته، ومنذ ذلك الحين وأنا ماضٍ في دأبي على هذه الطريقة في العمل.

ذات صيفٍ، قبل بضع سنواتٍ، قرّرت القيام بتجربة: سأرى كم يمكنني أن أمضي من الوقت دون الشروع في قراءة كتابٍ جديدٍ. ومع وجود ثلاثين عنوانًا بالفعل على لائحة قراءتي، كنت آمل تخفيض العدد إلى دستةٍ من الكتب بحلول منتصف يوليو/حزيران، وهو رقم أستطيع بلوغه إذا قرأت ثلاثة كتبٍ على الأقل أسبوعيًا، شريطة ألا أفتح كتابًا جديدًا خلال تلك المدّة. بدأت الأمور على خير ما يرام، فأنهيتُ بكل ثقةٍ وهدوءٍ قراءة روايتَي غموضٍ وتشويق بقلم باربرا فاين (وهو اسم قلم للكاتبة: روث رندل)، رواية هاروكي موراكامي الفاتنة والأخّاذة: **(الغابة النّرويجيّة)**[2]، بالإضافة إلى رواية فذّة لجوانا ترولوب: **(الرجال والفتيات)**[3]. لكن عزيمتي ما فتئت أن لانت، لأفتح رواية بينيلوبي فيتزجيرالد **(المكتبة)**[4]، الذي قرأته قبل ذلك بست سنواتٍ؛ كتاب بول فاسل: **(زمن الحرب)**[5]، التي كانت هديّة من أستاذة الإنجليزيّة خلال دراستي الثانوية؛ رواية هيننغ مانكل المثيرة للأعصاب:

(1) قياسًا على مصطلح " العزل الجنسي"؛ أي الإحجام عن إتمام قراءة الكتاب.
(2) **Norwegian Wood (1987)** – Haruki Murakami.
(3) **The Men & the Girls (1992)** – Joanna Trollope.
(4) **The Bookshop (1978)** – Penelope Fitzgerald.
(5) **Wartime: Understanding and Behavior in the Second World War (1990)** – Paul Fussell.

الماضي، صعود الطبقة البورجوازية خلال القرن الثامن عشر بفرنسا، وكذا الصور البحريّة التي لا يُلقى لها بالٌ في معظم الأحيان في مسرحية **(هاملت)**. وبالتالي فقد قرأت مئات الكتب خلال السنتين اللّتين عملت فيهما في «مصنع الأوراق البحثيّة»، وأنا متأكد أن هذا هو السّبب في بداية مشكلة «العزل الأدبي»[1]. لقد كنت أتلقى أجرًا على الكتابة، لكنني كنت كذلك أتلقى أجرًا على القيام بعدّة وظائف في الآن ذاته، ومنذ ذلك الحين وأنا ماضٍ في دأبي على هذه الطريقة في العمل.

ذات صيفٍ، قبل بضع سنواتٍ، قرّرت القيام بتجربة: سأرى كم يمكنني أن أمضي من الوقت دون الشروع في قراءة كتابٍ جديدٍ. ومع وجود ثلاثين عنوانًا بالفعل على لائحة قراءتي، كنت آمل تخفيض العدد إلى دستةٍ من الكتب بحلول منتصف يوليو/حزيران، وهو رقم أستطيع بلوغه إذا قرأت ثلاثة كتبٍ على الأقل أسبوعيًا، شريطة ألا أفتح كتابًا جديدًا خلال تلك المدّة. بدأت الأمور على خير ما يرام، فأنهيتُ بكل ثقةٍ وهدوءٍ قراءة روايتَي غموضٍ وتشويق بقلم باربرا فاين (وهو اسم قلم للكاتبة: روث رندل)، رواية هاروكي موراكامي الفاتنة والأخّاذة: **(الغابة النّرويجيّة)**[2]، بالإضافة إلى رواية فذّة لجوانا ترولوب: **(الرجال والفتيات)**[3]. لكن عزيمتي ما فتئت أن لانت، لأفتح رواية بينيلوبي فيتزجيرالد **(المكتبة)**[4]، الذي قرأته قبل ذلك بست سنواتٍ؛ كتاب بول فاسل: **(زمن الحرب)**[5]، التي كانت هديّة من أستاذة الإنجليزيّة خلال دراستي الثانوية؛ رواية هينينغ مانكل المثيرة للأعصاب:

---

(1) قياسًا على مصطلح " العزل الجنسي"؛ أي الإحجام عن إتمام قراءة الكتاب.

(2) **Norwegian Wood (1987)** – Haruki Murakami.

(3) **The Men & the Girls (1992)** – Joanna Trollope.

(4) **The Bookshop (1978)** – Penelope Fitzgerald.

(5) **Wartime: Understanding and Behavior in the Second World War (1990)** – Paul Fussell.

(ما قبل الصّقيع)[1]؛ بالإضافة إلى كتابٍ حول الكارثة الفرنسية في معركة دْيينْ بين فو سنة 1954، أعارني إياه صديقٌ شارك في حرب الفييتنام. المشكلة هنا، وباختصارٍ شديدٍ، كالآتي: بغضّ النّظر عن روعة الكتاب الذي أكون بصدد قراءته – سواءً كان **(الإنيادة)**[2]، **(الحرب والسلم)**، أو **(الأحمر والأسود)**[3] – أكون مستعدًّا على الدّوام لترك ما بين يديّ والانكباب على كتابٍ عمره أربعون سنةً حول انتصار [الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام] فيت كونغ في معركة دْيينْ بين فو.

الأمر ذاته حدث معي خلال الشتاء المنصرم حين حاولت تقزيم كومة الكتب إلى عدد يسهل تدبيره. أفلحت في نهاية المطاف في تقليص العدد إلى خمسة عشر كتابًا، لكنّني ما لبثتُ أن انهمكت في قراءة الروايات: **(الببغاء وأوليفر في أمريكا)**[4] بقلم بيتر كاري، **(سيرينا)**[5] بقلم رون راش، و**(بوب 1280)**[6] بقلم جيم تومسون؛ وقبل أن أعي ما يجري عاد العدد الإجمالي ليرتفع إلى ما فوق الثلاثين، والوضع ذاته ما يزال قائمًا إلى الآن. إنه سلوكٌ مترسّخٌ، مطبوعٌ في شخصيّتي، ويأبى التّفسّخ. في المقابل، أملك صديقًا دأب على عادةٍ لستُ أتّبعها: وهي شراء الكتب التي يشك أنه قد لا يقرأها أبدًا. فرغم أن مجموعتي تضم كتبًا قد لا أصل إليها يومًا – **(تاريخ الفرنجة)**[7] بقلم غريغوري أوف تورز، **(التاريخ السّريّ للكحوليّات)**[8] بقلم جيمس

---

(1) **Before the Frost (2002)** – Henning Mankell.

(2) **Aeneid** (Poem), by Virgil.

(3) **Le Rouge et le Noir (1830)** – Stendhal.

(4) **Parrot and Olivier in America (2010)** – Peter Carey.

(5) **Serena (2008)** – Ron Rash.

(6) **Pop. 1280 (1964)** – Jim Thompson.

(7) **History of the Franks (2016)** – Gregory of Tours.

(8) **Vessels of Rage, Engines of Power: The Secret History of Alcoholism (1994)** – James Graham.

غراهام، وكذا كتاب **مذكرات نابليون بونابارت**[1] - (التي لم يكتبها بنفسه حتّى) - لكن هذه كتبٌ اقتنيتها مؤخّرًا، فأنا ما عدت أشتري الكتب على أملٍ أن أقرأها لاحقًا في مرحلةٍ ما من مسار حياتي؛ لقد بلغت الحادية والسّتين من عمري، وبالتالي فإن المسافة المتبقّية على المسار قد انحسرت.

ينطلق صديقي ذاك - الذي لا يصغرني إلا بسنةٍ وحيدةٍ، وهو كذلك أمريكيٌّ من أصول إيرلنديّة - بانتظامٍ في نوبات قراءةٍ مسعورةٍ. وحين زرته مؤخّرًا، رأيت مجموعة كتبٍ مرصوصةٍ على طاولة القهوة، بعدما أشار إليها بفخرٍ لا يخلو من قلقٍ. كان من بينها كتاب **(خطبٌ أمريكيّةٌ)** - الذي منها خطاب جون ف. كينيدي الشهير والمنمّق من سنة 1961 أمام جدار برلين - بالإضافة إلى **(ثوقيديس)**[2] بقلم دونالد كاغان، **(ملائكة وأزمنة)**[3] بقلم آدم غوبنيك، **(سوق الأفكار)**[4] بقلم لويس ميناند، و**(كذبة الأرض)**[5] بقلم فينتان أوتول.

قال لي يومها:

- يجب أن تُقرأ هذه الكتب بحلول نهاية يناير/كانون الثاني. هذا هو الأجل الأقصى، ولا بد أن تُقرأ جميعها.

كنّا حينها في منتصف يناير، وقد حسبت ستة كتبٍ على المنضدة، (أو لعلّها كانت سبعة.).

إنه أمرٌ يسيرٌ! لو أنني نذرتُ على نفسي إتمام تلك الكتب المقروءة جزئيًا، فلن يأخذ الأمر مني ستة عشر يومًا، بل سيتطلّب الأمر ستة عشر شهرًا، شريطة

(1) **Memoirs of Napoleon Bonaparte (2010)** – Louis Antoine Fauvelet de Bourrienne.
(2) **Thucydides: The Reinvention of History (2009)** – Donald Kagan.
(3) **Angels and ages (2009)** – Adam Gopnik.
(4) **The Marketplace of Ideas: Reform and Reaction in the American University (2010)** – Louis Menand.
(5) **The lie of the land (1995)** – Fintan O'Toole.

ألا أبدأ كتابًا جديدًا. وحين أنظر إلى كومة الكتب تلكَ وأحاول تخيّل التّرتيب الذي قد أتّبعه في قراءتها، أصل إلى النتيجة ذاتها دومًا: سيكون **(ميدل مارش)** آخر كتابٍ أنهي قراءته. ومع ذلك، ما كنت لأستسلم دون قتالٍ، إذ شرعت في قراءة هذه الرواية ست مراتٍ، وقد بلغت الآن حدود الصفحة الثانية عشرة بعد الثلاثمائة. لكن الأمر يظل أقرب إلى العزف على المندولين، لعب السنوكر، أو ممارسة الجنس التّانتريّ[1]: إنه أمرٌ تعتريني رغبةٌ عارمةٌ في إتقانه دون أن أفكر – ولو لوهلةٍ – أنني سأستمتع بالتجربة.

إنه لمن الممكن تمامًا أن سبب إتمامي قراءة ثلاث رواياتٍ ثم الشروع في أربع راجعٌ إلى أنني لا أود بلوغ مرحلةٍ لا يظل أمامي ما أقرأه باستثناء **(ميدل مارش)**، وذلك أن هذه الرواية من بين الكتب التي حفظتها في مكانٍ مبجّلٍ على قمة «جبل الجزيرة النائية» لقائمة قراءاتي: تلك الخلاصة الوافية للكتب المعقّدة، المحيّرة، وغير القابلة للقراءة أساسًا؛ التي لطالما رغبت في إنهائها – أو الشروع في قراءتها – إذا سمح العمر بذلك. لكنني أعلم أنه إذا ما تحطّمت سفينتي وتمكّنتُ – بطريقةٍ ما – من البقاء فوق سطح الماء عبر التشبّث ببقايا الصّاري الرئيسي المتشظّية ومسنّنة الحوافّ، وشرعت في التّجذيف عبر المياه المليئة بأسماك القرش نحو ضفّةٍ بعيدةٍ... ثم، حين أكون بصدد جرّ جسدي المبلّل المنهَك والمغطّى بالكدمات خارج الماء، فإذا بي ألمح جزيرة كتبٍ نائيةً تضم **(السيدة دالواي)**[2]، **(يقظة فينيغان)**، و**(ميدل مارش)**، فلن أتردّد في الالتفات مجدّدًا من حيث أتيت: سأقفز مجدّدًا نحو الماء، لأبدأ في التجذيف نحو الجزيرة الأخرى، وما كنت لأبالي بحجم أسماك القرش التي في انتظاري بتاتًا.

---

(1) Tantric sex: الجنس التّانتري، نسبة إلى التانترا Tantra، وهي مجموعة معتقدات بوذية؛ ويتميّز هذا النوع من الجنس "التأمليّ" بالتركيز على التأمل والتواصل الحميمي والشفاء الجسدي والروحيّ عوض التركيز على بلوغ الذروة الجنسية.

(2) **Mrs. Dalloway (1925)** – Virginia Woolf.

كنت أظن أنني أقرأ بشكل متقطّع لأنني لم أجد الكتاب المناسب بعد، وذلك غير صحيح. فنظريًا، كل الكتبِ التي أشرع في قراءتها هي «الكتاب المناسب». لكن حقيقة كون كل هذه الكتب جيّدةً للغاية هو ما يجعلني أتوقّف عن قراءتها، ذلك أنني لست في عجلةٍ من أمري لإنهائها. أما الكتب السيّئة فأنطلق عبرها – دون أن يُشقَّ لي غبارٌ – في ساعاتٍ قليلةٍ. المشكلة إذن بسيطةٌ: هناك العديدُ، العديدُ من الكتب الجيّدة، وأرغب على الأقل في تذوّق القليل منها جميعها. إن القراءة لأشبه بزيارة متحف اللوفر: لمجرّد أنك تعشق لوحات تيتيان[1] لا يعني أنه لن تراودك الرّغبة في الاطّلاع على أعمال بيليني[2]؛ لكن نواميس الحياة لا تمضي على هذا المنوال.

إن بدءَ الكتب، الواحدَ تلو الآخر، يجعلني أشعر بأن رحلةً طال انتظارها قد انطلقت أخيرًا، ورغم أن الأمر قد يتطلّب مني خمس سنين لإتمام كتاب ثيودور مومسن: **(تاريخ روما)**[3]، أو كتاب تشرتشل ذي الأجزاء السّتة: **(تاريخ الحرب العالمية الثانية)**[4]؛ إلا أنها ما عادت في نظري مشاريعَ ضبابيّة بعيدة المنال مثل تعلّم العزف على الأكورديون أو التنافس في سباق حوّاماتٍ عتيقة الطّراز، إذ إن تلك المشاريع قد صارت جزءًا من حياتي بالفعل. قد يقول الآخرون: «يومًا ما سأجد الوقت أخيرً لقراءة رواية **(عوليس)**»؛ أما أنا فقد وجدت الوقت بالفعل لقراءتها، بل كنت أجده – تحرّيًا للدّقة – على مدى الثلاثين سنةً الماضية.

ذات يومٍ قبل بضع سنين، زرت مكتبةً ضئيلةً لا يتعدى حجمها علبة أعواد ثقابٍ بمحطة غراند سنترال، حيث اقتنيت رواية أندريا باريت: **(رحلة**

---

(1) **Titian**: تيزيانو فيسيلي (1576- 1488) Tiziano Vecelli، وهو قائد المدرسة الفينيسية (البندقيّة) من عصر النهضة بالقرن السادس عشر.

(2) **Bellini**: جيوفانو بيليني (1430 - 1516)، رسام إيطالي من عصر النهضة، ولعله أشهر فرد من عائلة بيليني.

(3) **History of Rome (1854)** – Theodor Mommsen.

(4) **The Second World War** (in 6 volumes, **1949**) – Winston Churchill.

حريش البحر)[1]؛ وبما أنني كنت قد شرعت الليلة التي سبقتها في قراءة **(حوليّات روما الإمبرياليّة)**[2] بقلم تاسيتوس، وكنت ما أزال بصدد شقّ طريقي عبر مؤلّفات بروست، إدوارد غيبون، جورج إليوت، والبقيّة، لذا لم يكن اقتناء هذا الكتاب ضروريًا، لكن، ولسببٍ ما، اعترتني نزوةٌ عارمةٌ في الانقضاض على ذلك الكتاب في حينه. إن بعض النّاس يدخلون محلّات الكتب فيُفتَتنون بالكتب الكلاسيكيّة التي يجب عليهم قراءتها حتمًا؛ أما أنا فأدخل محلّات الكتب فتفتِنُني الكتب الكلاسيكيّة التي يجب عليّ حتمًا الشّروع في قراءتها.

«أنا بصدد قراءة خمسة وعشرين كتابًا آخر بالفعل، فلمَ إذن اشتريتُ هذا الكاب الآن؟» قلت لأحد أصدقائي الواقف برفقتي في محل الكتب، وأضفت متسائلًا: «هل تظن أنه مرضٌ؟»

«أجل.» جاءني الرّد، إلا أنه كان من أمين الصّندوق الذي سرعان ما أردف: «لكنّه مرضٌ حميدٌ.»

الآن، وبعد هذه الحادثة بست سنواتٍ، ما زلت لم أنتهي بعد من قراءة رواية **(رحلة حريش البحر)**.

لكنني لست الشخص الوحيد الذي يواجه صعوباتٍ في بلوغ خط النهاية، إذ إن العديد من الكتّاب يعانون من المعضلة ذاتها. ففي سنة 1921، شرع [الكاتب النمساوي] غوبغت موسيل Robert Musil في كتابة روايةٍ ضخمةٍ سمّاها **(رجل بدون صفات)**[3]. إنها تتعلّق بمحاولةٍ قامت بها مجموعة من الفيينّين المتسرّعين، الشّغوفين بجعل القرن العشرين قرنًا نمساويًّا بامتياز. وقد حدث ذلك بالفعل على نحوٍ ما: لقد كان أدولف هتلر نمساويّ الأصل،

---

(1) **The Voyage of the Narwhal (1998)** – Andrea Barrett.
(2) **The Annals** – Tacitus.
(3) The Man Without Qualities – Robert Musil.

رغم أنه حظي بالكثير من المساعدة من الألمان. لكن ذلك لم يكن «القرن النّمساويّ» الذي كانت تأمله شخصيّات رواية موسيل.

لقد كانت عادات موسيل في الكتابة سيئةً للغاية، وكان متسكّعًا ينقصه التركيز ويضيع الوقتُ منه سدًى. حين وافته المنيّة سنة 1942، كانت روايته الشهيرة قد بلغت 1130 صفحة، دون احتساب 640 صفحة من الأجزاء والمشاهد المستبعدَة، النسخ البديلة، والمواد والتفاصيل الإضافيّة؛ لكنها لم تكن مكتملةً. ومع ذلك، وعلى حالتها تلك، غالبًا ما يشار إليها على أنها إحدى أعظم ثلاث رواياتٍ في القرن العشرين مع روايتَي: **(عوليس)** و **(ذكرياتٌ من زمنٍ ولّى)**، رغم أن الأخيرة صار يُشار إليها [في اللغة الإنجليزيّة] روتينيًّا بعنوان: **(البحث عن الزّمن المفقود)**، وذلك لأنها الترجمة الحرفية للعنوان الفرنسي: À la recherche du temps perdu. لكن العنوان **(ذكرياتٌ من زمنٍ ولّى)** أكثر شاعريّةً وجماليّةً، وبما أنني شرعت في قراءة هذه الرواية قبل ربع قرنٍ، حين كان عنوانها ما يزال **(ذكرياتٌ من زمنٍ ولّى)**، فكذلك سيظل دومًا بالنّسبة إليّ. لا بدّ أن نتذكّر الماضي كما حدث، وليس كما أُعيد تشكيله لاحقًا.

في السياق ذاته، حين كان **هنري آرون**[1] العظيم يتولّى المضرب بفريق فلاديلفيا فيليز خلال خمسينيّات وسّتينيّات القرن الماضي، حيث اعتاد الاستمتاع بتسديد ضربات محاذية للأرض بملعب «كوني ماك»، كان يُعرف دومًا باسم هانك آرون؛ في الحقيقة، كان يُشار إليه بلقب: «المطرقة». وبعد ذلك بسنواتٍ، اتضح أنه كان يفضل اسم هنري. ورغم أنهم كانوا يلعبون بالبطولات الصغرى فحسب، فإن فريقه فرض عليه لقبًا شعبيًّا، سوقيًّا إلى حدٍّ ما، لأغراضٍ تجاريةٍ بحتةٍ. وبغض النظر عن كل ذلك، سيظل اسمه دومًا «هانك آرون» بكتابي. لا أبالي إذا كان يكره هذا الاسم، لأن مارسيل بروست على الأرجح كان أيضًا يكره العنوان **(ذكرياتٌ من زمنٍ ولّى)**.

---

(1) **Henry Louis Aaron (1934-2021)**: أحد أعظم لاعبي البيسبول عبر التاريخ.

لقد أمضى موسيل بقيّة حياته في كتابة – وإعادة كتابة – روايته **(رجل بدون صفات)**، دون أن يتسنّى له بلوغ حرف (الألف) الأخير ولا تنقيط حرف (التاء المبسوطة) التي تليه. لقد كان، بكل بساطةٍ، رجلًا عاجزًا عن سحب الزّناد؛ ولم تكن عبارة «هذا يكفي» يكفيه. لذا حين يسألني الناس: «كيف يمكنك قراءة 1047 صفحةً من كتابٍ ثم تتوقف عن قراءته؟» أجيب بكل بساطة: «في الواقع، إن موسيل ذاته قد بلغ 1130 صفحةً من كتابٍ ثم عجز عن إنهائه. لذا فمن كان منكم بلا خطيئةٍ فليرمه بحجر!»

إن هذه المحادثات لا تحدث في الواقع. فإذا كان هذا هو العالم حيث يستقصي الناس عن عادات غوبغت موسيل في الكتابة، فلن يكون العالمَ ذاته حيث يستقصون عن عادات ستيفاني ماير[1] في العمل. إن الأشخاص الوحيدين ممّن أعرف الذين سبق لهم مجرد السّماع باسم موسيل هم أولئك الذين تلقّوا منّي روايته كهديّة، ولا أحد منهم راضٍ عنها كفايةً كما يبدو. فليذكر التاريخ أن رواية **(رجل بدون صفات)** من صنف تلك الرّوايات التي لا تتذكر أي شيءٍ تقريبًا بعد الانتهاء من قراءتها، لكن ذاكرتك تستطيع – وبكل حيويّةٍ – استحضار استمتاعك بكل ثانيةٍ خلال تجربة القراءة، أو في حالتي: إنها من صنف تلك الروايات التي لا تستطيع تذكّر أي شيءٍ بعد أن **توشك أن** تُنهي قراءتها، لكن ذاكرتك تستطيع، وبكل حيويّةٍ، استحضار استمتاعك بكل ثانيةٍ خلال القراءة. إنه لكتابٌ (أوشك أن أنتهي) من قراءته لبقيّة حياتي؛ وقد تعمّدت أن يكون الأمر كذلك.

لا أكون دومًا في مزاج ملائم لقراءة الكتب الكلاسيكيّة، خصوصًا إذا كنت منهَكا في العمل، مكتّئبًا أو رازحًا تحت وطأة مرضٍ لعين. إن الأعمال الكلاسيكيّة لخطيرةٌ على الصحّة بحقٍّ، إذ إن بعضها قد يجعل المريضَ أكثر

---

(1) **Stephenie Meyer:** روائية ومنتجة أفلام أمريكية اشتهرت عبر العالم بسلسلة الأفلام الرومانسية عن مصاصي الدّماء: **الشفق** (Twilight)، التي بيعت منها أكثر من 160 مليون نسخة، وترجمت إلى أكثر من 37 لغة.

مرضًا. فمن منّا يستمتع فعلًا بقراءة أعمال **روديارد كيبلينغ**؟ من مازال ينتشي بقراءة مؤلّفات **إميل زولا**؟ وهل يحبّ أحدٌ **بين جونسون** أصلًا؟ أجل، إنهم كتّابٌ أفذاذٌ، لكن أحيانًا تكون العبقريّة غير كافيةٍ. لقد دأبتُ على قراءة كتب الخيال على مدى نصف قرنٍ، إلا أنني لم أستطع بعدُ حملَ نفسي على الجلوس وجهًا لوجه مع رواية **(منزل الجَمْلونات السّبعة)**[1]، وبهذه المرحلة لا أظن أن هناك سببًا قد يدفعني إلى ذلك. لكن هذا الأمر يظل محيّرًا للغاية: فنظريًّا، يجب أن يكون ممكنًا للفرد خلال «حياةٍ واحدةٍ» قراءةُ كل كتابٍ لا يختلف اثنان على عظمته. بل في الواقع، يجب أن يكون في إمكانك فعلُ ذلك خلال خمس سنواتٍ ليس إلا، لكنني لم أفعل ذلك. وفي حالة رواية هوثورن السّالف ذكرها، أعلم تمام العلم سبب عدم قراءتها – أنا أكره سكّان [ولاية] ماساشوستس، وأعلم أن ذلك الكتاب سيصيبني بالصّداع – لكنني لا أفهم سبب عدم قراءتي للكتب التي تتملّكني الرّغبة فعلًا في قراءتها، مثل كتاب **(التحقيقات)**[2] بقلم هيرودوتس، **(الكوميديا الإلهية)**[3] لدانتي، أو **(د. فاوست)**[4] لغوته. لعلّني أحتفظ بها كدراهم بيضاء لأيّام سوداء قادمة! لا بد أن يكون هذا كل ما في الأمر، لأن قراءة كتابٍ عظيمٍ في مرحلةٍ متأخرةٍ من عمرك – كما فعلت مع روايتَي: **(جين آير)**[5] و**(دونً كيخوتي)**[6] – لا ينقص من متعتها شيئًا، بل على العكس: قد يزيدها متعةً. فإذا طلب منّي تسميةُ أعزّ الكتب على قلبي، فإن الكتابين السّابقَين سيكونان على رأس

(1) **The House of the Seven Gables (1851)** – Nathaniel Hawthorne.

(2) **The Histories**: يعد هذا العمل/الكتاب الأول والمؤسس للتاريخ في أدب العالم الغربي، إذ يعتبر هيرودوتس أول كاتبٍ يُخضع الأحداث التاريخية (الحروب اليونانية-الفارسية) لتحقيقات تتبع المنهج العلمي، ويُقدّر تاريخ نشره في سنة 430 ق.م..

(3) **The Divine Comedy (1321)** – Dante Alighieri.

(4) **Faust (1790)** – Johann Wolfgang von Goethe.

(5) **Jane Eyre (1847)** – Charlotte Brontë.

(6) **Don Quijote de la Mancha (1605)** – Miguel de Cervantes.

القائمة. ومع ذلك، فأنا لم أقرأ **(دون كيخوتي)** إلا بعد أن صرت في الحادية والخمسين، أما رواية **(جين آير)** فقد قرأتها بعد ذلك بسنتين، الأمر الذي يبرهن أن الصيام عن المشهيّات يزيدها لذّة.

هذا التأخير في بلوغ الأعمال الكلاسيكيّة شبيهٌ إلى حدٍّ ما بما يحصل معي بخصوص أقراص الـ «دي في دي» DVD التي أستأجرها. فرغم أن ثلاثةً من أجود الأفلام ترقد على طاولة القهوة، إلا أنها لا تكون مطلقًا ما أرغب في مشاهدته ذلك المساء. هذه الأفلام الثلاثة تضم قصة حسّاسةً من إخراج **إريك روهمر**، فيلمًا غامضًا **لكوروساوا** بالأبيض والأسود عن عملية اختطافٍ فاشلةٍ، وكذا فيلمًا عن عمال مناجم شجعان من شمال إنكلترا، وهو فيلمٌ ملهِمٌ للغايةٌ لدرجة أنه يبثّ فيك الرغبة في القيام والتهليل لهم؛ لكن الفيلم الذي أرغب مشاهدته اللّيلة هو: **الوجه ذو النّدبة**[1].

لطالما وجدت، خلال معظم فترات حياتي، صعوبةً بالغةً في عدم إنهاء كتابٍ حالما أشقّ طريقي نحو مراحل متقدمةً من صفحاته. أحيانًا، قد أتخلّص من كتابٍ بعد قراءة فصلٍ وحيدٍ، وذلك ما فعلته مع روايتَي: **(نانا[2])** و**(أوتو دا في[3])**، لكن ما إن أحقّق تقدّمًا معتبرًا في كتابٍ، حتى يصير من المستحيل إلجام الكلب بداخلي عن مطاردة الكُرة؛ لا أستطيع التوقّف إلا إذا شعرت أن التوقّف مبرّرٌ أخلاقيًا. وفي هذا الصدد، أذكر عجزي عن إتمام قراءة روايتَي سنكلير لويس: **(إلمر غانتري)** و**(دودسوورث)**[4] حين كنت مراهقًا، لكنني أذكر الشّعور الغامر بالإنجاز خلال المرحلة الثانوية حين أتممتُ قراءة روايتَي هاردي: **(عودة المواطِن)** و**(بعيدًا عن صخب النّاس)**[5]، اللتين كرهتهما

(1) **Scarface (1983 film)** – dir. by Brian De Palma

(2) **Nana (1880)** – Émile Zola.

(3) **Auto da Fé (1935)** – Elias Canetti.

(4) **Elmer Gantry (1927), Dodsworth (1929)** – Sinclair Lewis.

(5) **Far from the Madding Crowd (1874)** – Thomas Hardy.

كلتيهما. وقد شعرت بالأمر ذاته حيال قراءة **(أوليفر تويست)**[1]، إذ إنها رواية معقّدةٌ، كون شخصيّتها الرئيسيّة ليست في الواقع الشخصية الرئيسيّة بل مجرد أخرق منحوسٍ وبائسٍ يطفو على جنبات الخطّ السّردي الرئيسيّ للقصة. لقد كانت هناك العديد من الروايات التي أُجبرت على قراءتها خلال مرحلتي الثانوية فكنت أمقتُها كل المَقت، ثم عدت لقراءتها مجدّدًا سنين بعد ذلك، فكانت النتائج مختلفةً تمامًا. لم أستمتع البتّة بقراءة رواية **(الكوميديّين)**[2] حين صادفتها أول مرّة كواجبٍ مدرسيٍّ سنة 1967، بعد صدورها بوقتٍ قصير آنذاك، لكن حين أعدت قراءتها بعد أربع وأربعين سنةً، أذهلتني وأذهبت عقلي. إنها قصة حبٍّ عنيفةٍ لكنها مشؤومةٍ ومحكومة بالفشل - أوليست العلاقات جميعها كذلك؟ - وتضم الجملة الآتية: «أحيانًا كان يبدو لي أننا لم نكن حبيبَين بقدر ما كنّا متآمرَين مرتبطَين يجمع بينهما أمر ارتكاب جريمةٍ ما». كان من المستحيل ألا ينبهر المرء بهذا النّوع من المحتوى، رغم أن السبب الذي قد يدفع أيًا كان لإعطاء روايةٍ حميميّةٍ ساخنة عن قصة خيانةٍ شاذّةٍ من هذا النوع لتلاميذ في المدرسة الثانوية يظل أمرًا أعجز عن الإحاطة به. وقد واجهت أوقاتًا عصيبةً مشابهةً كذلك في إحراز تقدّم في قراءة روايتَي: **(شارع غراب ستريت الجديد)**[3] بقلم جورج غيسينغ و**(الجنديّ الصالح)**[4] بقلم مادوكس فورد، حين قرأتهما خلال عشرينيّاتي. لكنني رجعت إلى كلٍّ منهما مرّتَين منذ ذلك الحين وتلذّذتُ بقراءتهما (مع أن النثر يظل جدّ مكثّفٍ في كلتيهما). أما الأولى فتقع في الصنف الأثير من الكتب المذهلة التي لا يجري ذِكرها مطلقًا خلال المحادثات، وتتشارك هذه السّمة مع روايات موريس ماترلينك، وبليز سوندرارس؛ مسرح بول كلوديل،

---

(1) **Oliver Twist (1838)** – Charles Dickens.
(2) **The Comedians (1966)** – Graham Greene.
(3) **New Grub Street (1891)** – George Gissing.
(4) **The Good Soldier: A Tale of Passion (1915)** – Ford Madox Ford.

وسيريل تورنور؛ الأعمال الخياليّة القصيرة للكاتب فيلبيه دو ليل آدم، وكذا شعر غالواي كينل. لم يسبق لي قطّ أن كنت طرفًا في محادثةٍ تتعلّق بأيٍّ من هذه الأسماء، حتى حين يتم استجوابي من طرف أكثر المتحذلقين تدقيقًا، لم يحدث ذلك يومًا، ولا مرة واحدة. ويمكن كذلك إضافة أليخو كاربنتييه، خوان رولفو، وروبرت بنجيه، إلى تلك اللائحة. ومن باب الإنصاف، فلنضف كذاك بوهوميل هرابال.

***

ما عدت أشعر بأنني مجبَر على بلوغ نهاية كل كتابٍ أشرع في قراءته. ففي الأيام الأخيرة أستطيع أن أضع الكتابَ الذي لا يجذبني أرضًا، ودون أن ترمش لي عين. وحين أنحّي كتابًا، فأنا أزيحه عن قائمة قراءاتي للأبد. وقد حدث ذلك في الآونة الأخيرة مع رواية **(منعطَفٌ مثير)**[1] بقلم كايت أتكينسون، والأمر الذي أزعجني بخصوصها أنني وبعد بلوغ مئة صفحةٍ كانت المؤلفة ما تزال بصدد تقديم شخصيّاتٍ جديدةٍ ولم تحدّد بوضوح عمَّ تتمحور روايتها. بدا لي الأمر كما لو أنها حدّدت لنفسها عددًا يوميًّا من الكلمات، ولم تكن تلك الصفحات المئة الأولى أكثر من مجرد إحماءٍ من أجل الحدث الرئيسيّ، وقد أثار ذلك الأمر أعصابي فعلًا. كنت آنذاك بصدد زيارة أصدقاءٍ لي في جنوب فرنسا ووجدت نفسي عالقًا في تلك الوضعية المزعجة حيث سيكون من المستحيل التخلّي عن كتاب بعد أن رشّحوه لك بمنتهى الحماس دون أن تشعر بأنك قد أهَنتهم، كما أنَّه لم يكن بالإمكان الكذب وادّعاء قراءته من الغلاف إلى الغلاف، إذ يمكن أن يختبروني فتكشف أسئلتُهم أمري، بالطريقة التي يفعل بها سكّان جنوب فرنسا ذلك في الغالب. وعلى نحوٍ ما، وجدت نفسي مجبرًا على تخفيف الضّرر عبر إيجاد كتابٍ آخر من خزانتهم قد يمنحني شيئًا من المتعة.

(1) **One Good Turn: A Jolly Murder Mystery (2006)** – Kate Atkinson.

وبعد تفكيرٍ متأنٍّ، وقع اختياري في النهاية على رواية **(آن الجلمونات الخضراء)**[1] التي لم يكن قد سبق لي إلقاء ولو نظرةٍ واحدةٍ عليها قبل تلك اللحظة، وقد شدّني الكتاب منذ أول جملة. أعلم أنه ليس من العدل الحكم على **كايت أتكينسون** بمعايير الرّواية السالف ذكرُها، تمامًا كما لن يكون من العدل الحكم على كتاب **(أيام الثلاثاء رفقة موري)**[2] بناءً على معايير كتاب بوسويل: **(حياة صامويل جونسون)**. ولكن لكون **أتكينسون** مؤلفة كتب خيالٍ تجاريّةٍ ناجحة، فقد كانت تتمتع بميزة تنافسيّة هائلةٍ مقارنة مع **ل. م. مونتغومري**، إذ إن روايتها كانت تتمتع بنوعٍ من الولاء لعلامتها التجارية من طرف القارئ الذي استمر في شق طريقه حرثًا عبر المئة صفحةٍ الأولى رغم انعدام أية أحداثٍ مميّزةٍ، لأنه كان - مثل باقي قرّائها - واثقًا بأن صبره ومجهوده سيتم مكافأتهما في نهاية المطاف. لقد كان الناس يقرأون رواية أتكنسون تلكَ لأنه قرأوا أعمالها السّابقة ولم تخيّب توقّعاتهم. لكن حين جلست **لوسي مود مونتغومري** إلى مكتبها لكتابة روايتها **(آن الجلمونات الخضراء)**، التي أوصلتها إلى الشهرة، لم يكن في إمكانها الاعتماد على هذا النوع من «الدّلال» من طرف القرّاء، لأنها ظهرت على السّاحة لتوّها، وكانت كاتبةً مغمورةً توجّب عليها إمساك القارئ من ياقته وخطف أنفاسه منذ الصفحة الأولى، وقد أفلحت في ذلك. ومجدّدًا، أؤكد أن مقارنة كايت أتكينسون مع لوسي مود مونتغومري ليست عادلةً، لكن ذلك ما يحدث حين يقارب الواحد منا الشيخوخةَ والموتَ الملازم لها: تغدو الحياة مباراةً صِفريّة النّتيجة، حيث كل لحظةٍ تمضيها في قراءة كتابٍ رديءٍ هي لحظةٌ يمكن استغلالها في قراءة كتبٍ رائعةٍ غيره.

---

(1) **Anne of Green Gables (1908)** – Lucy Maud Montgomery.

(2) **Tuesdays with Morrie (1997)** – Mitch Albom.

ومع ذلك، لم أكن قط قادرًا على التوقف عن قراءة كتابٍ ذي شأنٍ - أحد كلاسيكيّات - دون إثبات سببٍ وجيهٍ قبل ذلك. لا بد أن تكون لي ذريعة، وينطبق هذا القول الفصل ذاته على الكتب التي تكون غير مضمونة الجودة بقلم كاتبٍ عظيمٍ، ومنها على سبيل المثال رواية فولكنر: **(بايلون)**[1]، أو **(قصص بات هوبي)**[2] بقلم فيزجيرالد. فلا يمكن في مثل هذه الحالات وضع الكتاب هكذا، إذ لا أستطيع التصرّف بكل هذه اللامبالاة؛ لا بد أن يكون لي سببٌ وجيهٌ. الأمر أشبه باحترام المقابل «الأدبي» لما يسمى في عالم المافيا بمصطلح «أوميريتا» omertà، وهو أحد القوانين التي تفرض على المرء ألا يشيَ برفيقه تحت أي ظرفٍ ولأي سببٍ. فذات زوالٍ أحضرت معي إلى البيت نسخة من رواية **(العاصمة القديمة)**[3] بقلم ياسوناري كواباتا، بعد أن وجدتها في المكتبة، لأنني أحب قراءة مؤلفاته منذ أن كنت طالبًا في السنة الثانية من الجامعة، حيث قرأت مؤلّفاته: **(سيد الغو)**، **(سرب طيورٍ بيضاء)**، و**(بلد الثلوج)**[4]. وقد قرأت هذه الكتب لأنني شعرت بأنها قد تنقلني بعيدًا عن جو فيلاديلفيا الكئيب (وذلك بالفعل ما حصل)، ولكن أيضًا لظنّي بأن انتشار الأخبار عن اتساع أفق قراءاتي سيجعلني مثيرًا في نظر الفتيات (وهو الأمر الذي لم يفلح)؛ وبالتالي مرّرت المعلومة إلى ابني الذي - وإلى حد كتابة هذه الأسطر - يجتهد في الحفاظ على تجربة حياتيّةٍ خالية من كاواباتا. وقد اتضح لاحقًا أن رواية **(العاصمة القديمة)** تكاد تخلو من أي شيءٍ مميزٌ تقريبًا، وقد وجدت صعوبةً في العودة إليها. ورغم أن مقدمة الكتاب تقول إنه أحد الكتب التي أشارت إليها لجنة نوبل حين قدّمت إلى

(1) **Pylon (1935)** – William Faulkner.
(2) **The Pat Hobby Stories (1940)** – F. Scott Fitzgerald
(3) **The Old Capital (1962)** – Yasunari Kawabata.
(4) **The Master of Go (1951)**, **Thousand Cranes (1952)**, **Snow Country (1956)** – Yasunari Kawabata.

كاواباتا جائزته المستحقّة سنة 1968، إلا أنني أجد عمله هذا عسيرَ الهضم. ولم يفاجئني أن الكاتب أزهق روحه بنفسه بعد وقتٍ قصيرٍ من انتشار كتابه عبر العالم، إذ كان بالإمكان رؤية أن وقوده وموارده قد استُنزفت. ومع ذلك، لم يكن أمامي خيارٌ غيرُ إتمام قراءته، وإلا سأكون مذنِبًا بجحودٍ وحشيٍّ تجاه المؤلف. لقد كان الأمر واجبًا يفوق قدرتي، كما أنه لا يقبل النّقض، لكونه صادرًا عن عالم غير عالمنا.

خلال محاولاتي لتلافي كتبٍ شهيرٍ بعد أن أغرتْ عليه وحقّقتُ تقدّمًا كبيرًا، تظل تجربتي مع **ويليام ويليام مايكبيس تاكراي** تجربة نموذجيّةً. كنت قد بلغتُ منتصف روايته الأثيرة والمليئة بالحقد: **(سوق الأضاليل: رواية بدون بطل)**[1]، قبل أن أرفع الراية البيضاء في سن الثانية والثلاثين. لقد كرهت الكتاب، بل إنني مقتتُه تمامًا. ولكن بسبب مقام المؤلِّف العالي والمكانة المَصونة لتحفته هذه في الأدب الغربي، فقد ظلّ الشّعور بالذّنب يساورني خلال السنيّ الثلاثة والعشرين التي أعقبتها لأنني نحّيتُ كتابه جانبًا. ثم ذات يوم وبينما كنت أتمشّى عبر الشارع الرئيسيّ بأوغوستا، جورجيا، صادفت لافتةً تشير إلى أن تاكيراي قد وقف بتلك النقطة بالذات خلال إقامته المؤقتة في ديكسي [مقاطعة بروكس]. كانت على اللافتة مقولة للكاتب تفيد بأن أوغوستا قريةٌ صغيرةٌ ذات منزلةٍ رفيعةٍ لدرجة أن تقاسيم وجوه العبيد تَزدانُ بالبهجة والسّرور. وبالتالي: وداعًا يا رفيق! لقد اكتشفتُ هذه اللافتة خلال الفترة التي كانت فيها ريز ويذرسبون ذات الفكّين النحيلَين تجرّب حظّها لدور شخصية بيكي شارب في آخر الأفلام المبنيّة على رواية **(سوق الأضاليل)**. وقد خطر لي أن شخصًا يُدعى ريز ويذرسبون ستغدو لا محالة إنسانةً مزعجَةً بشراسةٍ، لأنه لا يوجد مكانٌ آخر قد تذهب إليه باسم كهذا، وأفترض أن الأمر ذاته ينطبق على [الشخصية الخيالية] بيكي شارب. وقد

---

(1) **Vanity Fair (1847-48)** – William Makepeace Thackeray.

خطر لي كذلك أنه لم يسبق وقرأت أي عددٍ من مجلة «فانيتي فير» Vanity Fair. هذا التزاوج بين ظروفٍ معقولةٍ وأخرى عبثيّةٍ أزاح عن كتفيّ كل ما بقي من شعوري بالذنب بخصوص إلقاء رواية ثاكيراي الكلاسيكية من منتصف القرن التاسع عشر؛ وأدرت لها ظهري إلى الأبد. إلا أن هذا الإنقاذ العرَضيّ المحظوظ من المساءلة الأخلاقيّة نادرُ الحدوث بالفعل.

حاولت مرةً ابتكار لفظةٍ تصف السعادة الغامرة التي يشعر بها شخصٌ حين يكاد يفرغ من قراءة كتابٍ لم يستمتع بقراءته. أظن أن اللفظة في الواقع هي «اليوفوريا»، لأن أقرب ما استطعت التوصل إليه هي [الكلمة الألمانية]: Buchendungfreudejoie. ويشاركني الآخرون هذه الحالة من عدم القدرة على رمي كتابٍ بعد إحرازِ تقدّمٍ كبيرٍ فيه، من بينهم إحدى أفضل الصديقات اللاتي حظيت بهن على الإطّلاق، والتي تقول إنه خلال قراءتها لكتابٍ لا يعجبها، ولا تستطيع حمل نفسها على التّخلي عنه، فإن البهجة تغمرها حين تقع فجأةً على مقطعٍ مَقيتٍ أو مثيرٍ للاشمئزاز أو غير أخلاقيٍّ سيجعل إمساك الكتاب بين يديها لثانيةٍ إضافيّةٍ جريمةً لا تُغتفَر.

فتُتَمتِم للكاتب بصمتٍ كلما حدث ذلك: «أنت الذي تسببت بهذا على نفسك، شكرًا جزيلًا25!»

***

لطالما كانت حياتي، كما هو الحال عليه، سلسلةً من الشّطحات الرّعناء والمخبولة التي تتضمّن الكتب. فأنا أنغمس بلا هوادةٍ في مهمّاتٍ شاقّةٍ ومتطلّبةٍ، وأحيانًا في منتهى التعقيد، والتي - لسببٍ أو لآخر - لا تبلغ قطٌّ خاتمةً مشبِعةً. على سبيل المثال، هناك جانبٌ مني يرغب في جمع لائحة كتبٍ لطالما رغبت في قراءتها، اتّباع تلك اللائحة والالتزام بها حتى أتجاوز خطَّ النهاية، لكن هناك جانبًا آخر مني يَمقت الأمر حين يشرع الشّيخ المتشدّد والمتأفّف بداخلي في إلقاء الأوامر والتّوجيهات؛ هذا الجانب منّي يعتبر فكرة

اللوائح والروزنامات وجداول الأهداف فكرةً قمعيّةً قميئةً، لأنه يُعربِد داخل العشوائي واللامتوقّع، ويستلذ تلك اللحظات التي أجد فيها نفسي في محطة «بين» Penn في انتظار لقاء شخصٍ قد يكون له تأثيرٌ هائلٌ على [إنقاذ] مسيرتي المهنيّة الآخذة في التلاشي، فتنتابني نزوةٌ عارمة في الانسلال نحو محلٍّ للكتب، اقتناء نسخةٍ من رواية **ويلا كاثر**: **(الرّوّاد)**[1]، ثم أنسحب رفقتها خلف الظلال.

أظن أنه من المهم أن يكون للمرء أهدافٌ في الحياة، شريطة أن يفهم أن تحقيق تلك الأهداف لن يجلب له السّعادة؛ من المهم كذلك بلوغ تلك النقطة الحرجة في أية «مباراة عشارية» ثقافيّة شاقّةٍ، حيث تدرك بأن الهدف برمّته قد يكون غباءً في غباءٍ. فحين كنت في الرابعة والعشرين، أمضيت سنةً برمّتها في قراءة جلّ الكتب العالميّة العظيمة، بدءًا بكتاب **(الجمهورية)** لأفلاطون، مرورًا بمجموعة قصص **(حكايات كانتربري)**[2]، وصولًا إلى رواية **(الحرب والسلم)**. وبدأت كذلك قراءة رواية **(عوليس)**، لكنني لم أفلح في إتمامها، بل بكل صراحة: ظللتُ بعيدًا للغاية عن ذلك. وبعد ذلك بسنواتٍ، اتبعت لائحة «مودرن لايبريري» لأعظم روايات اللغة الإنجليزية بالقرن العشرين، فشققتُ طريقي مرورًا بروايات من قبيل: **(زليخة دوبسون)**[3]، **(مذكرات عائلة وابشوت)**[4]، و **(السماء الواقية)**[5]، لكنني مع ذلك لم أفلح في إنهاء قراءة **(عوليس)**. بعد ذلك، مررت إلى لائحة **أنثوني بورغيس** للروايات التسعة والتسعين المكتوبة باللغة الإنجليزية ما بين عامي 1939 و1983 ولم أجد صعوبةً تُذكر في قراءة روايات: **(الفتيات ذوات الموارد الضّئيلة)**[6]،

---

(1) **O Pioneers! (1913)** – Willa Cather.
(2) **The Canterbury Tales (1387 - 1400)** – Geoffrey Chaucer.
(3) **Zuleika Dobson (1913)** – Max Beerbohm.
(4) **The Wapshot Chronicle (1957)** – John Cheever.
(5) **The Sheltering Sky (1949)** – Paul Bowles.
(6) **The Girls of Slender Means (1963)** – Muriel Spark.

(شركة الأحلام اللامحدودة)[1]، و**(الضحيّة)**[2]، فأدركت أنه حتى ولو عشتُ قرنًا من الزمن فلن يكفيني ذلك لإتمام قراءة روايتَي: **(أنين تيتوس)**[3] أو **(جيل: الفتى التّيس)**[4]، فما بالك **(عوليس)** التي لم تكن ضمن تلك اللائحة حتّى. مؤخرًا صار يساورني شك أنه في عمق سريرتي لا أنوي إتمام قراءة رواية جويس تلك. لكن وعلى أي حالٍ من الأحوال، فستكون عوليس الرواية قبل الأخيرة التي سأنهيها قبل أن يطرق حاصد الأرواح الكدِر المتجهّم بظلّه القاتم باب روحي؛ أما آخر ما سأقرأ فهي بالطبع رواية **(ميدل مارش)**.

أعجز عن قراءة كتابٍ في غياب هدفٍ طويل الأمد بذهني: أن تكون مكافأةٌ ما - أو جائزة جبرٍ للخاطر على الأقل - تنتظرني في نهاية المشوار. هذا لا يعني أنني عاجزٌ عن أخذ أي كتابٍ عتيقٍ من على أحد الرّفوف والاستمتاع بقراءته. كلّا، بل يعني أنه بمجرد أن أقوم بذلك، بمجرد الانتهاء من مغامرةٍ منهكةٍ، أعود مباشرةً إلى الرّكض مجدّدًا على آلة البساط المتحرّك. لقد كانت حياتي بعد البلوغ عبارةً عن عمليةٍ واحدةٍ طويلةٍ من إعادة ترتيب الأولويّات، تغيير السّياق، وإعادة توزيع مواردي. فعلى سبيل المثال، صار من الصعب عليّ للغاية طرد أحد الكتب من مجموعتي، ذلك أن عدم إيجاد الوقت لقراءة كتابٍ هو بالنسبة لي اعترافٌ بأن اقتناء ذلك الكتاب كان خطأً في المقام الأول (وهو إقرارٌ أمقتُ القيام به). إن رفوفي اليوم حبلى بالكتب التي بدا اقتناؤها فكرةً سديدةً فيما مضى، إلا أنني لم أجد قطّ الوقت ولا الميل إلى قراءتها. وهنا أضمّ بعض العناوين الواضحة من قبيل: قصيدة «**أورلاندو الهائج**»[5]، **اعترافات** جون جاك روسو، المجلد الثاني؛ بالإضافة إلى كتبٍ

---

(1) **The Unlimited Dream Company (1979)** – J. G. Ballard.
(2) **The Victim (1947)** – Saul Bellow.
(3) **Titus Groan (1946)** – Mervyn Peake.
(4) **Giles Goat-Boy (1966)** – John Barth.
(5) **Orlando furioso (1516)**, poem by Ludovico Ariosto.

ليست ذات أهميّة قصوى مثل: **(معجم البلهاء)**[1]، **(اللّعوب الأخير: الحياة المثيرة لبوفيريو روبيروسا)**[2]. ومن أجل تبرير الاحتفاظ بكل هذه الكتب - والكثير من الكتب الغريبة الأخرى - أنهمك بشكل دوريٍّ في تعهّدات أدبية هائلةٍ تفترض، نظريًّا، استمرار وجودها في خزانتي.

هاك بعض المشاريع التي أخذت على عاتقي إنجازها على مدى السنين الماضية:

1. **قراءة كل الكتب في مجموعتي:** أفلحت تقريبًا، لكن ظلّت تنقصني خطواتٌ قليلةٌ.
2. **إعادة قراءة كل الكتب بمجموعتي التي سبق أن قرأتها مرتين بالفعل:** جرّبت ذلك، وقد كان أمرًا ممتعًا؛ أجد الروايات التالية على أتم الاستعداد دومًا: **(إيما)**[3]، **(سباحة طائرين)**[4]، **(السُّبات العميق)**[5]، وكذا **(مغامرات بوجيست)**.
3. **قراءة كل الكتب التي أعارَنيها أصدقائي المقرّبون:** لن يحدث ذلك حتى تحلّق التيوس البرية في السماء.
4. **إعادة قراءة كل الكتب التي قرأتها ذات سنةٍ وأتذكّر تجربة قراءتها بشغفٍ كبيرٍ:** مازلت أعمل على ذلك.
5. **قضاء سنةٍ كاملةٍ في قراءة الكتب القصيرة حصرًا:** تكون دومًا أفضلَ السنوات!

---

(1) **The Dimwit's Dictionary: 5,000 Overused Words and Phrases and Alternatives to Them (2002)** – Robert Hartwell Fiske

(2) **The Last Playboy: The High Life of Porfirio Rubirosa (2016)** – Shawn Levy.

(3) **Emma (1815)** – Jane Austen.

(4) **At Swim-Two-Birds (1939)** – Brian O'Nolan.

(5) **The Big Sleep (1939)** – Raymond Chandler.

6. **قضاء سنةٍ كاملةٍ في قراءة الكتب التي أخذتها من رفوف المكتبة بعينَين مغمضتَي:** سرعان ما صار أمرًا متجاوزًا.

7. **قضاء سنةٍ كاملةٍ في قراءة كتبٍ لطالما انتابني شعورٌ بأنني سأكرهها:** جربت الأمر مرّةً، لكنني لم أمضِ أبعد من رواية فريدريك إكسلي: **(مذكرات)**[1]، قبل أن أقرّر إيقاف هذا المشروع في أعقابه. تضم لائحة الكتب التي لم أكمل قراءتها: **(بابيت)**[2] التي أحببتُ قراءتها؛ **(لوليتا)** التي كان توقيتها سيّئًا للغاية، إذ كانت ابنتي حينها في الرابعة عشرة؛ **(الطاحونة على نهر فلوس)**[3] رواية مروّعة؛ **(الأخطبوط)**[4]: أبعد ما يكون عن المزاج؛ بالإضافة إلى عناوين أخرى من قبيل: **(الغصن الذّهبيّ: دراسة في السّحر والدين)** بقلم جيمس جورج فريزر، **(تعليم هنري آدام)**، مجموعة القصص الكاملة للكاتب رابيندرانات طاغور، دون أن ننسى بالطبع رواية **(يقظة فينيغان)**. وبمنتهى الصّراحة، أقول إنني ممتنٌّ لأنني توقّفتُ عند تلك المرحلة.

8. **تخصيص سنةٍ لقراءة المؤلّفين الذين قضوا في سنٍّ مبكّرةٍ:** ف. سكوت فيزجيرالد، آرثر رمبو، رالف إيليسون، ألفرد جاري، هاربر لي. (يا إلهي، كم أن ذلك مثيرٌ للاكتئاب!)

9. **قراءة كل كتب طاولة القهوة في مجموعتي:** كنت قد بلغت ثُلثَي المسافة بالضبط في قراءة كتاب **(خدع، أكاذيب، وعروض)**[5] حين قرّرت أنه حان وقت رفع الفرامل اليدويّة.

---

(1) **A Fan's Notes (1968)** – Frederick Exley.
(2) **Babbitt (1922)** – Sinclair Lewis.
(3) **The Mill on the Floss (1860)** – George Eliot (Mary Ann Evans).
(4) **The Octopus: A Story of California (1901)** – Frank Norris.
(5) **Hoaxes, Humbugs and Spectacles: Astonishing Photographs of Smelt Wrestlers, Human Projectiles, Giant Hailstones, Contortionists, Elephant Impersonat (1990)** – Mark Sloan.

10. **تخصيص سنةٍ كاملةٍ لقراءة الكتب في مجموعتي التي بدأت قراءتها ولم أتمِمها:** هناك 138 كتابًا ينطبق عليه هذا الوصف بمنزلي ومكتبي، من بينها كتابٌ - **(ثورة الجموع)**(1) بقلم خوزيه أورتيغا - قد شرعت في قراءته سنة 1972 ثم وضعته جانبًا، ظانًّا أنني سأعود إليه يومًا، لكنني لم أفعل ذلك بعد.

11. **تخصيص سنةٍ كاملةٍ لقراءة الكتب التي لم أشرع قطّ في قراءتها:** وهي لا تتعدى في الواقع خمسة عشر كتابًا، أو عشرين على أكثر تقدير. وتضم هذه القائمة: **(صعود القوى العظمى وسقوطها)**(2) بقلم المؤرّخ بول كينيدي، رواية **(شجرة الإنسان)**(3) بقلم باتريك وايت، **(زمن جاكسون)**(4) بقلم المورّخ آرثر ماير شليزنجر، **(تجربة الحداثة)**(5) بقلم مارشال بيرمان، بالإضافة إلى ديوان يحمل عنوان: **(أقوال)**(6)، بقلم جاك بريفير. إن جميعَها كتبٌ أرغب في قراءتها، وكتبٌ أعلم أنني سأستمتع بها، كما أن العملية برمّتها لن تتطلّب مني أكثر من ثلاثة أشهر. لكن تلك الكتب جميعها ترقد هناك بقلب مكتبي، فلمَ إذن لا أستطيع إتمامها؟ أو حتى الشّروع في قراءتها؟ لا فكرة لديّ عن السّبب.

12. **قضاء بضع سنواتٍ في قراءة المؤلّفات المكتوبة بلغاتٍ أجنبيةٍ ضمن مجموعتي:** لدي 158 كتابًا منها، رغم أن العديد منها بالألمانية،

---

(1) **The Revolt of the Masses (1929)** – José Ortega y Gasset.
(2) **The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (1987)** – Paul Kennedy.
(3) **The Tree of Man (1955)** – Patrick White.
(4) **The Age of Jackson (1945)** – Arthur M. Schlesinger Jr.
(5) **All That Is Solid Melts into Air: The Experience of Modernity (1982)** – Marshall Berman.
(6) **Paroles (1946)** – Jacques Prévert.

وهي لغة لا أقرأها. لم يسبق لهذا المشروع أن أحرز أية انطلاقةٍ ناجحةٍ، إذ إن الروايات التجريبيّة الثلاثة بقلم ناتالي ساروت، وألان روب غريليه لن تساعد على الأرجح.

13. **قضاء سنةٍ كاملةٍ في قراءة مؤلّفاتٍ لكتّابٍ آيسلنديّين:** من باب الهزل ليس إلا.

سرعان ما حاد معظم هذه المشاريع عن مساره، لأنها كانت مشاريع مضجِرةً أو عقيمةً، وسرعان ما ثُبتُ إلى رشدي. ولكن حتى حين لم أتمم هذا الفرض الذّاتي – المقابل الأدبي لمهمة هرقل بتنظيف إسطبلات الملك أوغيا – فقد استقيتُ منافع لا تعدّ ولا تُحصى من هذه التجربة، أستحضر منها إحدى الحالات: قبل سنتَين، قررت قراءة كتابٍ كل يوم على مدى سنةٍ كاملةٍ. وكما سبق أن أشرت، فيُفترض أن وينستن تشرتشل كان يقرأ كتابًا واحدًا، يوميًا، على الأقل طوال حياته بعد البلوغ، ولطالما حسدتُه على ذلك. لكنني لم أرَ سبيلًا إلى مضاهاته إلا إذا التزمت بقراءة الكتب القصيرة إلى حدّ معقولٍ. وبالتالي، شرعت ذات يوم خريفيٍّ في زيارة المكتبة واستعارة الكتب التي أستطيع قراءتها خلال أقلّ من ساعتين، أو ثلاثة على أكثر تقدير. قرأت كذلك ثلاثين من الكتب التي كانت في حوزتي، دستّتان من الكتب التي أرسلها إليّ ناشري وأحد أصدقائي المقرّبين، خمسة وعشرون (25) كتابًا استعرتها من مكتبة «سنتر فور فيكشن» (وهي مكتبة خاصّة في وسط مانهاتن، ليست معروفةً جدًّا كما يجب)، بالإضافة إلى كتابَين اثنَين وجدتهما في القمامة. كانت كلّها تقريبًا رواياتٍ: «نوفيلّات»، أو مجموعة قصصٍ قصيرةٍ، لأن قراءة كتب الخيال القصيرة أيسر من قراءة كتب اللاتخييل (nonfiction)، باستثناء حين يكون ربّان السّفينة هو هنري جيمس أو توماس مان؛ لم تكن إلا بضعةٌ منها التي لا تبلغ المئة صفحة، فمعظمها كانت تضم مئةً وخمسين صفحة في المتوسّط، واثنتان منها او ثلاثة فقط هي التي جاوزت المائتَي صفحة.

كان أكثر ما أحببتُه بخصوص ذلك المشروع هو خاصيته العشوائية: كنت أتوجه إلى المكتبة - دون نظّاراتي في الأغلب - وأختار مؤلفاتٍ متينةٍ من صنف الخيال أتوقّع أنها ستروقني. كنت في الغالب أتبع ظنّي ليس إلا، إذ إن الكتابة على نسخة الجيب تكون ضئيلةً للغاية، وبالتالي عسيرة القراءة. لكن إذا وصلت إلى البيت واكتشفت بأنني اخترت روايةً تؤكد على الأمل والحياة، تنطوي على مزيج من المتعة والألم، تحكي قصة امرأةٍ مطلّقةٍ حديثًا انتقلت إلى قرية صغيرة في [ولاية] ماين، أو منطقة ماسيف سنترال [جنوب فرنسا]، أو مول أوف كينتاير [جنوب غربي اسكتلندا]، وبعد أن صُدمتْ بدءًا بالسّلوك الأخرق للسّكان المحلّيين وفظاظتهم، إذ بها تستهوي لطافتَهم غير المتكلّفة وبساطتَهم الأخّاذة؛ إذا صادفت روايةً كهذه، أعيدها من حيث أتت في الحال.

واصلت على هذا المنوال - أقرأ كتابًا واحدًا يوميًّا - لأربعة أشهرٍ متتاليةٍ، محافظًا على الوتيرة التي خطّطت لها. وقد صادفت خلال ذلك بضع اكتشافاتٍ رائعةٍ: **(نجمٌ بعيدٌ مضيءٌ)**[1]، وهي رواية حارقةٌ عن الحرب المكسيسيّة عام 1917 بقلم روبرت أولمستاد، **(العين المحيّرة)**[2]، وهي مجموعة من القصص الغريبة بقلم الكاتب البرازيليّ مواسير سكليير Moacyr Scliar، بالإضافة إلى **(خطيبة توكيو)**[3]، وهي رواية قصيرة بقلم أميلي نوثومب تحكي قصة امرأة بلجيكيّةٍ تدرّس اللغة الفرنسية في اليابان حيث يغرم بها تلميذها الكسول، وتضم هذه الرواية الجملة الآتية: «إذا همّك أمرُ أحدهم مرّةً، فسيهمّك أمره دومًا.» أرى أن هذا الشعور ملهم إلى أبعد الحدود، بالرغم أنه غير مؤكد إلا أنه شعورٌ جميلٌ. سوى ذلك، كانت هنالك بالطبع كل روايات الغموض البلهاء تلك التي تدور أحداثها بين طائفة الأميش من يكان ولاية أوهايو.

---

(1) **Far Bright Star (2009)** – Robert Olmstead.
(2) **The enigmatic eye (1989)** – Moacyr Scliar.
(3) **Tokyo Fiancée (2007)** – Amélie Nothomb.

لقد كان هذا المشروع مشروعًا نبيلًا و«منعشًا» للرّوح، وقد أحببتُ كل ثانيةٍ قضيتُها فيه. لكن كل شيءٍ تداعى حين سافرت إلى السويد، أصابني المرض، وبعده الاكتئاب، ثم برز انتفاخٌ على عنقي وبدأ يتعفّن، فحجزتُ تذكرة طيرانٍ إلى لندن، أُخذت إلى «المنظّفين» بعيادةٍ طبّيّةٍ مفتوحةٍ بهارلي ستريت، فحادوا بي عن مسار مشروعي بالطريقة ذاتها التي أحيد بها عن مشاريعي القائمة. ورغم أنني أنطلق دومًا نحو هذه الفتوحات الأدبيّة بعزيمةٍ لا تلين، عاقد العزم على عبور خطّ النهاية، إلا أن وقودي ينفد دومًا أو أن شيئًا ما يشتّتني. إن روحي عازمةٌ كما يبدو، إلا أن الجسدَ ضعيفٌ (ولستُ متأكدًا بخصوص الرّوح حتّى!).

خلاصة الأمر أن أدائي الهزيل لم يتجاوز مائتين وخمسين كتابًا، ليظلّ أبعد بكثيرٍ عن الهدف الأصلي. كان بإمكاني بلوغ العدد المنشود لو أنني غششتُ عبر القراءة السّريعة أو التهام كتب الأطفال. لكنني ما كنت لأفعل ذلك أبدًا: لأن القراءة السّريعة للسُّذّج البلهاء، أما كتب الأطفال فهي - كما يظهر من اسمها - مخصّصةٌ للأطفال. في نهاية المطاف لم يكن الأمر مهمًّا لأنه لم يكن أحدٌ كان يراقب النّتيجة؛ كان الأمر برمّته أشبه بجري سباق ماراثون لمجرد التحقّق من قدرتي على القيام بذلك، ثم حين بلغت نصف الطريق أدركت أن سباقات الماراثون ضربٌ من الحُمق. ورغم ذلك، استمتعت بلحظات التوقّف أيّما استمتاع: كان من المثير للغاية بداية اليوم على الصفحة الأولى من كتابٍ ثم الانتهاء من قراءة آخر كلماته مع منتصف الليل. خلال هذه العملية، قرأت كتبًا كلاسيكيّة من قبيل: **(صورة جيني)**[1] بقلم روبرن نيثان، **(بارون الأشجار)**[2] بقلم كالفينو، بالإضافة إلى **(معجم الشيطان)**[3] من تأليف الصّحفيّ أمبروزي بيبرس؛ قرأت ثلاث روايات «حرّيفة» من

(1) **Portrait of Jennie (1940)** – Robert Nathan.
(2) **The Baron in the Trees (1957)** – Italo Calvino.
(3) **The Devil's Dictionary (1911)** – Ambrose Bierce.

تأليف موريال سبارك واثنتَين قصيرتَين من تأليف جويس كارول أوتس، من بينها رواية **(المياه السّوداء)**[1]، حيث تتخيّل حادثة شاباكيديك[2] من وجهة نظر الضحيّة الغارقة. قرأت كذلك ثلاث رواياتٍ بقلم ألبرتو مورافيا، سيرة باولا فوكس المفجِعة: **(شخصيّات بائسة)**[3]، بالإضافة إلى رواية **(امرأة ذات حَسَب)**[4] بقلم بيتر تايلور، **(أنشودة جيمي بلاكسميث)**[5] بقلم توماس كينيلي، زيادة على مجموعة من القصص القصيرة بأقلام كتّابٍ مشهورين من طينة لوري مور، سوزان مينو، رينولدز برايس، باتريشيا هايسميث، وباري هانا؛ وأخرى بأقلام كتّاب أقل شهرةً مثل: تيم باريش، إيفا فيكز، مارك ريتشارد، براد واتسون، كريستين شوت، وجون بيغينيه؛ حيث كانت مجموعتا القصص القصيرة: **(عمّال مدينة العصا الحمراء)**[6] بقلم باريش و **(تلميذ المعذِّب)**[7] بقلم بيغينيه، على وجه الخصوص، اكتشافَين مشبِعَين.

وقد قرأت كذلك رواية ترومان كابوت الأولى والفاترة: **(اجتياز الصّيف)**[8]؛ رواية تينيسي ويليام الأولى والقاتمة: **(الربيع الروماني للسيدة ستون)**[9]؛ محاولة والاس ستيغنر الأولى الاستثنائيّة: **(تذكر الضحك)**[10]، إذ كانت روايته هذه طرفًا في مسابقةٍ للروايات الأولى من تنظيم [الناشر الأمريكي

---

(1) **Black Water (1992)** – Joyce Carol Oates.

(2) **Chappaquiddick incident**: هي حادثة غرق شهيرة في جزيرة شاباكويديك بولاية مساشوستس سنة 1969، كان السيناتور كينيدي أحد طرفيها، حيث قاد سيّارته بتهوّر عبر طريق وعرة، ثم عبر جسر ضيّق، لتسقط السيارة في الماء وتموت رفيقته المحتجزة داخل العربة غرقًا، بينما استطاع هو النجاة سباحةً. وقد تمت محاكمته لاحقًا في جلسة متلفزة وأصبحت الحادثة خبرًا وطنيًّا ذائع الصيت.

(3) **Desperate Characters (1970)** – Paula Fox.

(4) **A woman of means (1983)** – Peter Taylor.

(5) **The Chant of Jimmie Blacksmith (1972)** – Thomas Keneally.

(6) **Red Stick Men: Stories (2001)** – Tim Parrish.

(7) **The Torturer's Apprentice: Stories (2002)** – John Biguenet.

(8) **Summer Crossing (2005)** – Truman Capote.

(9) **The Roman Spring of Mrs. Stone (1950)** – Tennessee Williams.

(10) **Remembering laughter (1996)** – Wallace Stegner.

[ليتل براون سنة 1937. كان عمر الكتاب اثنتَين وسبعين سنةً، بغلافٍ عتيق مُصفرٍّ يعلن: «هذه القصة، المنتقاة من بين 1340 مسودّةً، هي أولى ثمرات بحثٍ كُلّل بالنجاح داخل مملكة الرواية القصيرة، في مسابقة تهدف إلى تشجيع المؤلّفين الذين يقدّمون أفضل ما لديهم في هذا الصنّف الأدبي المميّز.» لقد كان الغلاف في واقع الأمر يقدّم إشهارًا كبيرًا للكتاب، حتى إنه قد أشار إلى الجائزة النّقدية بوضوحٍ على رأس الصفحة: 2,500$. لم يسبق لي رؤية شيءٍ مشابهٍ؛ لقد كانت ضربةَ مغافلةٍ أسقطتني أرضًا. وجدت هذا الكتاب في مكتبتي المحلّيّة، ومن نافلة القول إن أحدًا لم يستعِره منذ سنواتٍ طوالٍ، وقد كان أحد الكتب التي أنقذتها من «تطهير مكتبة وارنر العظيم للكتب» سنة 2011، وهو ما يزال محتفظًا بمكانه هناك لحد كتابة هذه الأسطر.

لقد غُصت في قراءة الكتّاب المشهورين الذين لم تسبق لي قراءتهم، ومن بينهم نجيب محفوظ (**أمام العرش**)، جامايكا كينكايد (**لوسي**)[1]، وجون بيرجر صاحب الرواية الحرّيفة المعنونَة: (**من الألف إلى الواو**)[2]، وهي عبارة عن مجموعة رسائل معروضةٍ دون ترتيبٍ، تحكي قصة حبٍّ بين سجينٍ سياسيٍّ محتجَزٍ داخل سجنٍ إفريقيٍّ والمرأة التي تحلم بإطلاق سراحه. لقد أخذتني مغامرتي هذه إلى أماكن عديدةٍ وبعيدةٍ ما كنت أحلم بزيارتها أبدًا. ولأنني اخترت الكتب بطريقةٍ عشوائيةٍ، فقد انتهى بي المطاف بالقراءة لكتّابٍ من فينزويلا، الصين، تايلند، النرويج، السويد، الدانمارك، اليابان، الأرجنتين، إثيوبيا، الشيلي، بلجيكا... بالإضافة إلى دولٍ أخرى. وقد تمحورت القصص حَول كل شيءٍ تقريبًا، بدءًا بقصة حطّابٍ فنلديٍّ يظل عالقًا بعد أن يطبق النازيون الخناق على بلدته سنة 1941، وصولًا إلى محنةٍ شاقّةٍ لتايلانديٍّ متشبّه بالنّساء خلال فترة المهرجان الدّينيّ بالبلاد. كان الشخصيّة الرئيسة

(1) **Lucy (1990)** – Jamaica Kincaid.
(2) **From A to X (2008)** – John Berger.

بإحدى الروايات هو ناجيًا من قصف [المدينة البريطانيّة] كوفتري؛ بينما كانت الشخصيّة الرئيسّة بأخرى ناجيًا ألمانيًّا من قصف الحلفاء لهامبورغ.

كانت العديد من تلك الكتب في منتهى الرّوعة: **(حيوات صغيرة)**[1] بقلم بيير ميشون، **(عائلة مايتري)**[2] بقلم آني ديلارد، **(جري)**[3] بقلم جون إيكنوز، **(في صحبة الملائكة)**[4] بقلم نيكول ماري كيلبي، **(رجل العصابة الذي نبحث عنه كلنا)**[5] بقلم [الفيتناميّ] لو ثي ديبم ثوي، و**(حداد)**[6] بقلم أندرو هوليران؛ وقد أحببت تلك الكتب جميعها. لقد كانت جزءًا من حياتي ليوم واحدٍ – أو يومَين على الأكثر – إلا أنها جعلت تلك الأيام مميزةً لحدٍّ لا يضَاهى. كنت كلّ يوم متشوّقًا لرؤية نهاية ذلك الكنز – رواية الجيب – قبل منتصف اللّيل. إن الكتبَ القصيرة لها ضوابطها الخاصّة بها، وهي تنجح من خلالها؛ بينما تكون قراءة الكتب الطويلة – مهما كانت جودتها – مرهقةً دومًا. إن قراءة رواية ديكنز **(نيكولاس نيكلبي)** لعملٌ شاقٌّ؛ وقراءة رواية **(آدم بيد)**[7] تحتاج كدًّا ومثابرةً؛ بينما قراءة **(الأدغال)**[8] عذابٌ بحتٌ. أما قراءة تلك الكتب المئتَين والخمسين فقد كانت أبعد ما يكون عن العذاب.

لم تحظَ تلك الكتب جميعها بالمنزلة ذاتها في ذاكرتي. لقد كانت رواية **(كلبٌ أحمر)**[9]، بقلم لويس دو بيرنيير، تتعلّق بمغامرات أستراليّ أخرق متغطرسٍ وتعد بالكثير من المتعة إلا أنها لم تَفِ بذلك؛ أما كتب بانانا يوشيموتو نحيفة السُّمك فقد كان موجّهةً إلى مجموعةٍ ديموغرافيّةٍ لا أنتمي

---

(1) **Small lives (1984)** – Pierre Michon.
(2) **The Maytrees (2007)** – Annie Dillard.
(3) **Running: A Novel (2007)** – Jean Echenoz.
(4) **In the company of angels (2001)** – N. M. Kelby.
(5) **The Gangster We Are All Looking For (2003)** – Lê Thi Diem Thúy.
(6) **Grief (2006)** – Andrew Holleran.
(7) **Adam Bede (1859)** – Mary Ann Evans (George Eliot).
(8) **The Jungle (1906)** – Upton Sinclair.
(9) **Red Dog (2002)** – Louis de Bernières.

إليها؛ بينما كانت مجموعة القصص القصيرة المعنوَنة: **(سحبٌ وكِسفٌ)**[1]، بقلم كور فيدال، متشائمةً وقاسيةً؛ أما رواية **(الإذلال)**[2] فقد كانت مَقيتَةً. لكن لا شيء من ذلك يهم، لأن قراءة كتابٍ بقلم كاتبٍ رائع أمرٌ إلزاميٌّ بطريقةٍ لا تكون عليها قراءة كتابٍ رديءٍ أبدًا إلزاميّة. وقد كان الأمر أشبه برؤية ويلي مايز يسقط في منتصف الملعب في نهاية مسيرته، حين كان يلعب لصالح فريق ميتس Mets؛ لقد كان أمرًا محزنًا، إلا أنه ظلّ ويلي مايز.

إن كونَ الكتاب قصيرًا لا يعني بالصرورة أن قراءته ستتمّ بسرعةٍ. فنجد على سبيل المثال أن روايات **أنيتا بروكنر** الأنيقة غالبًا ما تكون أقصر من مائتَي صفحةٍ، إلا أنها تتطلّب أكثر من يوم كامل لالتهامها، ذلك أن كتابتها فاترةٌ ومثبّطةٌ، وسردها البطيء غير مهتمٍّ بالتَسابق مع مقطورات القطار. ومن جهة أخرى، فإنها لا تتميّز بأسلوبٍ أدبيٍّ فذٍّ أو مبهِر، ولا هي تتّبع الموضة الرّائجة؛ إن رواياتها تكاد تدور دومًا بسيّداتٍ في منتصف العمر - حيث يمكنك تمييز رائحة الكافور - وهي تقريبًا متشابهةٌ جميعها. إنها أشبه بتسجيلات فرقة «ذي شيفتنز»: باستثناء أن تكون معجبًا بهم حتى النّخاع، فإنك لن تحتاج أكثر من أغنيةٍ وحيدةٍ ضمن مجموعتك. لكن هناك شيئًا يدعو للاطمئنان حول الحفاظ على وفاءٍ لا يتزعزع لمؤلّفٍ يستمر في كتابة القصّة ذاتها مرارًا وتكرارًا؛ فإما أنه لا يعي ذلك، أو أنه ببساطةٍ لا يبالي. في هذا الصدّد، أشير إلى أن توماس ماكغوان وجون ماكغاهرن ينتميان إلى هذا الصّنف من الكتّاب؛ فهما يكتبان عن الموضوع ذاته دومًا، لكنّهما ينجحان في المهمّة على أية حال.

---

(1) **Clouds and Eclipses (2006)** – Gore Vidal.

(2) **The Humbling (2006)** – Philip Roth.

مع انقضاء تلك السنة، كنت قد مررتُ على معظم الروايات القصيرة التي تستحق القراءة في المكتبة المحلّيّة، وقد بدا لي الوقت ملائمًا من أجل إسدال السّتار على ذلك المشروع. لقد رجعت الآن إلى التعامل مع رواياتٍ أثخن من قبيل: **(أوجيني غروندي)**[1] و**(المرأة ذات الرداء الأبيض)**. إن هذه الكتب تُمدّني بنوعٍ مختلفٍ من المتعة وذلك لعلمي أنني سأفتح خزنةً من المعرفة التي ستظلّ رفيقتي الصّدوقة خلال البضعة أيام المقبلة، وربما بضعة أسابيع، بل وحتى بضع سنواتٍ مقبلةٍ. إن لهذه المتعةَ طعمًا لا يمكن المغالاة في تقديره. فحين كنت بصدد قراءة رواية **(دون كيخوتي)** للمرة الأولى، قبل عقدٍ من الزمن، رفضت الرّد على هاتفي لمدة ستة أسابيع؛ كما أنني فعلت الأمر ذاته خلال قراءتي لرواية **(جين آير)**. آهٍ كم اتمنّى لو أن هناك كتبًا أخرى شبيهةً بهذَين، لأنني في هذه الحالة ما كنت سأرد على هاتفي أبدًا.

إن الكتب القصيرة صنفٌ أدبيٌّ في حدّ ذاتها. فحين تكون الكتب جيّدةً، فإنها تكون على الطول المناسب الذي يجب أن تكون عليه ولا تتعدّاه، ولعلّ رواية ألان بينيت: **(قارئة من غير العوامّ)**[2]، خيرُ مثالٍ على ذلك. إنها رواية قصيرة فذّةٌ وساحرةٌ حيث تصادف فيها الملكة إيليزابيث شاحنة كتب في الساحة الخلفية لقصر باكنغهام ثم ينتابها شغفٌ مفاجئٌ تجاه الأدب. وتضم هذه الرواية مشهدًا مضحكًا حيث تترك الملكة كتابًا خلفها في سيارة الليموزين فينقضّ عليه أحد حرّاس المخابرات البريطانية ويلقيه بعيدًا، ظانًّا أنه قد يكون قنبلةً؛ حين تعود الملكة، تكتشف أن الكتاب قد ألقي به نحو الغابة لينفجر بعيدًا عنها.

«أتقول إنه انفجر؟» تسأل الملكة متعجّبةً، «لكنه كتابٌ لأنيتا بروكنر!»

---

(1) **Eugénie Grandet (1834)** – Honoré de Balzac.

(2) **The Uncommon Reader (2007)** – Alan Bennett.

إن فكرة هذه الرواية فكرةٌ ألمعيّةٌ بحقٍّ، ولم أجد صعوبةً تُذكر في قراءة مئةٍ وعشرين صفحة عن ذلك الموضوع. إلا أنه لم يكن بإمكاني قراءة مئتَين وعشرين؛ ولو كانت مئةً وثلاثين فستكون أطول قليلًا من اللازم. لقد شرح مايلز دايفيس الأمر ذات مرّة قائلًا: «إن العبقرية هي معرفة ما يجب عليك عدم إدراجه».

في الصفحة الواحدة والعشرين من رواية بينيت القصيرة، في مرحلةٍ متقدّمةٍ جدًّا من رحلة الاكتشاف الذاتي التي ستخوضها الملكة والتي ستقودها في نهاية المطاف إلى براوست، يظهر المقطع الآتي:

«أمرٌ آخرُ كانت بصدد اكتشافه كذلك، هو كيف أن كلّ كتابٍ يقود إلى كتابٍ آخر؛ لقد ظلّت الأبواب تنفتح أمامها حيثما ولّت وجهها، ولم تكن أيامها بالطّول الكافي لتتيح لها قراءة كلّ ما ترغب في قراءته.»

وهذا المقطع يصف مشاعري بالضبط.

الفصل الرابع

الحياة على الرّفوف

تزعُم الأسطورة أن عدد المنازل التي بيعت في خريف سنة 1982 هو الأكبر مقارنةً مع أي فترة مماثلة في تاريخ الولايات المتحدة. لقد كانت تلك هي السنة التي دخل فيها الدوري الوطني لكرة القدم الأمريكية في إضرابٍ دام ستة أسابيع متتالية، حيث لم يجد الرجال غير السعداء في زواجهم شيئًا لفعله بعد ظهيرة الآحاد أفضل من الذهاب للتسوّق لشراء منزلٍ جديدٍ رفقة زوجاتهم المنتشيات بعد أن وجدن أنفسهن متحرّراتٍ من سطوة الملاعب فجأةً؛ والأمر ذاته جرى على بيتي. فبعد أن ألقيت المنديل على شبابي وأحلامي ووافقتُ على مضضٍ على اقتناء بيتٍ وحديقةٍ وأبناءٍ (بشكلٍ متزامنٍ تقريبًا)، رافقتُ زوجتي في رحلة قصيرةٍ ومحتومةٍ على متن القطار بمحاذاة نهر هادسون: من شقّتنا بمانهاتن نحو بلدة دوبس فيري، حيث سنبدأ حملتنا لشراء منزلٍ.

كانت بلدة دوبس فيري ضاحيةً مسالمةً، حسنةَ النّوايا، على بعد قرابة عشرة أميالٍ من حي ذي برونكس [بنيويورك]. إن اسم هذا المجتمع يستحضر هالةً رعويّةً تعجز البلدةُ ذاتها عن احتشادها. وقد أخبرتنا الوكيلة العقارية التي رحّبت بنا (وهي متقاعدةٌ من أنصار الحِفظ التّاريخيّ) أنه رغم الانخفاض النّسبيّ لأثمنة المنازل، وبفضل نِسب الاهتمام الهائلة والكساد المدمّر الذي كانت البلاد تعاني منه، فإنه ليس بمقدورنا تحمّل تكلفة شراء منزلٍ في هذه البلدة أحادية اللّون الثّقافي المسمّاة: دوبس فيري. لكن بإمكاننا على الأرجح تحمّل ثمن عقارٍ في تاريتاون، وهي بلدةٌ صغيرةٌ أقلّ حيويةً، تبعد بأقل من عشر كيلومترات جنوبًا. لقد كانت أثمنة المنازل بتاريتاون منخفضةً بشكلٍ

كبيرٍ مقارنةً مع البلدات المجاورة لأنها كانت مجتمعًا مختلِط الأعراق، حيث تصل تمثيلية الأقليّات بالمدارس العامة إلى نسبة 50%. وأشارت الوكيلة ـ بطريقةٍ عابرةٍ – أنه في حالة ما إذا كنّا بصدد البحث عن صفقةٍ مربحةٍ في السوق، فيجب أن نلقي نظرة على [مدينة] يونكرز، لكن لم يحدث ولو للحظة واحدةٍ أن فكّرنا في هذه المدينة بجدّيّة، خصوصًا زوجتي المولودة بإنكلترا، لأنه لا يمكن أن يولد المرء في منطقة كوتسورلدز الرّعويّة المخضوضرة، ثم يقرّر الانتقال إلى مدينة يونكرز؛ إن أمرًا كهذا لا يحدث إطلاقًا.

وبالتالي، حوّلنا تركيزنا إلى تاريتاون.

كانت قدرتنا الشّرائية الدافع الأكبر، إلا أن عوامل أخرى جعلت هذه البلدة أكثر جاذبيّةً مقارنة مع القرى المجاورة مثل: إلمسفورد، فالهالا، ونورث وايت بلاينز. أولًا، لم تكن تحمل اسمًا غير معقولٍ كما هو الحال مع فالهالا. ثانيًا، كان بها محلّ بقالة إيطاليٍّ زكيُّ الرّائحة وكثير الضّجيج والحيويّة، وهو الأمر الذي جعلني أشعر كما لو أنني عدت إلى فيلادلفيا، حيث كانت محلّات البقالة الإيطاليّة منتشرةً بكل مكانٍ؛ بالإضافة إلى أنها كانت تضم فرعًا من محلّات «وولوورث» – مع منضدة الغذاء من النموذج الأصلي – الأمر الذي جعلني أستحضر ذكريات الأيام الخوالي. ومع ذلك، بالنسبة لشخص مدنيٍّ طوال حياته – مثلي أنا ـ والذي لا رغبة لديه في الانتقال إلى الضواحي من الأساس، فقد كان الطُّعم الذي أوقع بي هو وجود مكتبةٍ صغيرةٍ ومحبّبةٍ بقلب البلدة بالضبط. إن قطع الصّلة بالفن، بالموسيقى، وبالحضارة عمومًا هو أكثر ما يخشاه سكّان المدن الذين ينتقلون إلى الضّواحي، لأن هذه الأخيرة – مع استثناءاتٍ قليلةٍ – تقطع الصّلة فعلًا بالفن والموسيقى والحضارة. لكن بالنسبة لي، فإن وجود محلٍّ للكتب في المكان الذي خشيت في البداية أن يكون أقرب إلى «وادي ظلال الموت» قد خفّف من لسعة إلقاء الحضَر خلف ظهري والتّوجّه نحو الضواحي، نابذًا بذلك أحلامي ومودّعًا، على نحوٍ ما، شبابي الرّاحل دون عودةٍ.

اشترينا ثالثَ بيتٍ أرَتنا إياه الوكيلة - بيتٌ بخس الثمن في حاجة إلى إصلاح وإعادة ترميم، لم يقطنه إلا الأمريكيّون من أصولٍ إيرلنديّة منذ خمسينيّات القرن التاسع عشر (1850) - وانتقلنا إليه خلال شهر مايو/ أيار الموالي. كان المسكن عبارةً عن حُطام، إلا أن موقعه كان رائعًا: مباشرة على الجهة المقابلة من المكتبة العمومية، وعلى بعد أقل من مئة مترٍ عن سوبرماركت صغيرٍ ولكنه يحتوي معظم الاحتياجات، كما أنه على بعد بابَين فقط من كنيسة شايلو بابتيست التي تأسست سنة 1883؛ وكانت دار أوبرا ذات مرّةٍ، ويبدو أن يوتوربّي - ربّة الموسيقى - لم تغادر المبنى قطّ؛ وإذا لم تكن تستهويك الموسيقى الإنجيليّة فأنت بكل تأكيدٍ في الحيّ الخاطئ.

انجذبنا إلى تلك البلدة في الحال، رغم أن مردّ ذلك جزئيًّا إلى أننا رُزقنا بالمَولود الأول صباح يوم الكريسماس. ولم يتبدّد سحر البلدة رغم اختفاء عاملَين اثنَين مما أغرانا بالانتقال إلى هنا في المقام الأول: فشل مشروع محلّ البقالة الإيطاليّ في غضون سنةٍ من انتقالنا ثم تعويضه بأحد فروع متاجر «سي. في. سي.» CVS القاسية وغير المِضيافة، تحت إدارة رجلٍ ناقم لا ترى البسمة على وجهه أبدًا. (وقد اقترح أحد المحليّين المنزعجين أن CVS هي اختصارٌ لعبارة: Chuckles Very Sparingly، أي: بخل شديد في التّبسم). أما محل الأثمنة البخسة فلم يَدُم طويلًا: الزّمن في تغيّرٍ، إلا أنه لم يتغيّر معه؛ وحين بدأ «يغرق»؛ لأن محل «سي. في. سي.» قد استولى على معظم وظائفه، عوّضه محلّ يبيع لوازم تحضير الأطباق الرّاقية، لذا لم يكن اختفاؤه خسارةً كليّةً بالنسبة لنا. وعلى غير المتوقّع، ولسعادتي الغامرة، فإن محلّ الكتب ظلّ متشبّثًا بطوق النّجاة لفترة أطول بكثير من المحلّ الإيطاليّ البديع أو محل الخمس سنتات الشّهير؛ وقد ساهم ذلك في جعل سنواتي الأولى بتاريتاون مميّزة بالفعل.

كانت المكتبة تقع بين محل مجوهرات، أخصائي بصريّاتٍ، وبنك؛ وقد كانت محلًا خدومًا ولو أنها ليست بمحاذاة الطريق الرئيسيّ، اسمها الأصلي «The Book Inn» (نُزُل الكتب)، لكنها سارت على سّكّة النّجاح حين بيعت بعد خمس سنواتٍ وأصبح اسمها «Books & Things» (كتبٌ وأشياءٌ أُخَر)، وهو اسمٌ سيّءٌ لمكتبةٍ جيّدةٍ. وقد تميّزت بالتّناقض الشديد، إذ كانت مشروعًا راقيًا رفيع المستوى في بلدة سكانها من طبقة عاملة ينقصها الرّقي عمومًا، كما ينقصها المستوى الرّفيع بكل تأكيدٍ. إن سكّان تاريتاون يقرأون، إلا أن قراءتهم تظل محدودةً: لا تتعدى في الغالب الإشارات الطرّقية، إرشادات الغسيل، علب حبوب الفطور، والكتابة الدقيقة خلف أوراق التذاكر غير المدفوعة لمواقف السّيّارات. لقد كانت الإدارة الأصلية للمتجر جيدةً، إلا أن الإدارة الجديدة غدت ممتازةً، حيث صار المكلّف بالمحلّ شابًا جَهبَذًا، جذّابًا واجتماعيًّا، يعمل بأجر منخفضٍ، ويدعى: كوري فريدلاندر. كما أنها تحتوي على كل ما يتوقع المرء وجوده في مكتبةٍ تقليديّةٍ ببلدةٍ صغيرةٍ: روايات الغموض، الرومانسية، كتب التنمية الذاتية، بالإضافة إلى الكتب، وكتب أخرى موجهة إلى طائفةٍ ضيقةٍ من القرّاء من قبيل: **(معبد السُّرادق الذّهبيّ)**[1] بقلم يوكيو ميشيما، **(كم هو ألمانيّ)**[2] بقلم والتر أبيش، **(أوتز)**[3] بقلم بروس تشاتوين، و**(كثبان النمل في السّافانا)**[4] بقلم تشينوا أتشيبي.

لقد خدعتِ المكتبةُ السّكان ليصبحوا أكثر ذكاءً واطّلاعًا مما سيكون عليه الحال لو تُركوا لحال سبيلهم؛ لقد كانت تنتمي إلى مكانٍ آخر، ربما إلى حيّ إيست فيليدج [بمانهاتن]، مدينة سيدونا [بولاية أريزونا]، بلدية أفينيون [جنوب شرق فرنسا]، أو ربما إلى المرّيخ. إن وجود هذه العناوين العالميّة في

(1) **The Temple of the Golden Pavilion (1956)** – Yukio Mishima.
(2) **How German Is It (1980)** – Walter Abish.
(3) **Utz (1988)** – Bruce Chatwin.
(4) **Anthills of the Savannah (1987)** – Chinua Achebe.

مكتبةٍ ضاحَويّةٍ قد ألقى على هذه المنشأة هالةً ما كان المرء ليتوقّع وجودها في بلدةٍ تمتلئ شوارعها بصالونات تصفيف الشّعر، محلّات البيتزا، ومحلات بيع الخمور. لقد افترضتْ دارُ الكتب هذه وجود قريةٍ ليست موجودةً في الواقع، بل ثابرت على أمل أنه إذا ما اتّحد الجميع وتواطأوا وظلوا كَتومين للغاية، فلن ينتبه السكّان المحليّون إلى الأمر. كان الأمر أشبه بساحر شرّير قرر زرع محل جزارةٍ باهظ الثّمن وسط قريةٍ مملوءة عن آخرها بأشخاصٍ نباتيّين مفلسين.

وقد تمكّنت المكتبة – ولو لبعض الوقت – من تحقيق نجاحٍ تجاريٍّ واضحٍ. وقد ساعد في ذلك رعايتي لها، إذ إنني في الفترة الممتدة بين تشرين الثاني/نوفمبر 1982 إلى يوم إغلاقها سنة 1994، اشتريت منها أكثر من مائتي (200) كتابٍ، من ضمنها عناوين لتشارلز بوكوفسكي، إريس مردوخ، بول بولز، جوليان بارنز، روبرت ستون، ريزارد كابوسينكي، بينيلوبي ليفلي، ريتشارد برايس، توماس بيرنهارد، إيفان دويغ، جون ماكسويل كوتزي، إريك كرافت، مارغاريت درابل، مايكل فرين، رايت موريس، شارلز باكستر، ويليام بُويْد، دونالد ويستليك، وبيترونيوس. لقد اشتريت منها رواية همينغواي: **(ولا تزال الشمس تشرق)**[1] بالإضافة إلى رواية شيروود أندرسون: **(واينسبورغ، أوهايو)**[2] من ذلك المتجر يومَ اشترينا منزلنا، وقد قرأتهما وأعدت قراءتهما مرّاتٍ عديدةً منذ ذلك الحين، لأن قراءتها تعود بي إلى تلك اللحظة بالضبط: حين بدا أن المستقبل يمتد إلى الأمام دون نهايةٍ، وقد كان ساطعًا متوهّجًا، يومئ في الأفق.

لطالما كنتُ وَدودًا في تعاملي مع موظفي المكتبة، بما في ذلك عجوزٌ حادّة الطّباع كانت تدير مطبعةً متاخمةً لها، وكذا المدير المساعد الذي كان يقطن في بييرمونت على الجهة المقابلة للنهر، غير بعيدٍ عن المكان الذي

(1) **The Sun Also Rises (1926)** – Ernest Hemingway.

(2) **Winesburg, Ohio: A Group of Tales of Ohio Small-Town Life (1919)** – Sherwood Anderson.

شُنق فيه الضابط الإنكليزي جون أندريه بعد أن ضُبط من طرف الوطنيّين الشّجعان وهو ينقل رسالةً مخبّأةً في كعب جزمته، وهي رسالةٌ كتبها بينيدكت أرنولد يعرض فيها التّنازل عن منطقة ويست بوينت لصالح «المعاطف الحمراء»[1]. إن سبب تفتيشهم لجزمة أندريه يظل أمرًا يَعسُر عليّ فهمه أو تفسيره، وظاهر الأمر أن هؤلاء الوطنيّين الأشاوس كانوا مجرّد قطّاع طرقٍ؛ لكن ذلك التوقيف قد حصل في تاريتاون، أو على مقربةٍ منها، وهو الأمر الوحيد الذي تشتهر به هذه البلدة.

بعد صدور أول كتبي سنة 1992، أحييتُ حصّةَ قراءةٍ بتلك المكتبة، كما عملت ابنتي فيها مرّاتٍ عديدةً بعد ظهر السبت وهي ترتدي أحد أزياء دِببة بيرنستاين[2]؛ ورغم أن الجو حارٌّ وخانقٌ وسط ذلك الزّيّ، إلا أنها اخشوشَنت وتحمّلت الأمر، إذ كانت تلك أول وظيفةٍ مدفوعةِ الأجر تحصل عليها في حياتها. ثم سرعان ما اتخذ أولادي عادة الاعتقاد بأن زيارة المكتبة مرّاتٍ عديدةً في الأسبوع أمرٌ طبيعيٌّ للغاية، بل هو أحد أكثر الأمور الطبيعيّة في الحياة. وبطريقة أو بأخرى، كنت أجد نفسي داخل ذلك المحل بشكلٍ يوميٍّ على مدى الاثنتَي عشرة سنةً الموالية، وقد كان ذلك أفضل شيءٍ بخصوص العيش في تاريتاون.

كانت مكتبة «كتبٌ وأشياءٌ» مِلكًا لزوجين في منتصف العمر يديران مكتبةً أخرى أكبر حجمًا على بعد قرابة عشرة كيليومترات شرق بلدة أوسينينغ، حيث يوجد السجن المسمّى: «سينغ سينغ». إنها المؤسّسة التي أعدمت فيها أول امرأة بالكرسيّ الكهربائيّ، وهو جهاز يدين بوجوده لتوماس إديسون الذي لا تبلغ عِلمَ العموم - كما يجب - نذالتُه الاعتياديّة هذه. وقد كان للكرسيّ

---

(1) لفظة يُقصد بها القوّات البريطانيّة.

(2) **Berenstain Bears**: هو عمل شهيرٌ في أدب الأطفال وعلامة تجارية عالميّة محفوظة، من تأليف الزوج: ستان وجان بيرينستاين، قبل أن يتولى ابنهما مايك بيرينستاين إكمال المشروع، وقد بيعت قرابة 300 مليون نسخة من العمل بأكثر من 23 لغة.

الكهربائي لقبٌ شائعٌ: Old Sparky (العجوز الحيويّ)، لكن الفرع الرئيسيّ لمكتبة «كتبٌ وأشياءٌ» لم يكن بتلك المنطقة من بلدة أوسينينغ، بل كان على بعد قرابة كيلومترين في بلدةٍ مترفّعةٍ وثانويّةٍ تدعى برايركليف مانر، وتقع في قلب مركزٍ تجاريٍّ مزدحم على الشارع الرئيسيّ، ويضم سوبرماركت ومصرفًا، بالإضافة إلى العديد من الشركات القانونيّة المملّة من تلك الشّاكلة.

لقد كان للمكتبة أتباعٌ مخلصون (أو هذا ما كان يعتقده المالكون)، وكانت تضمّ صِنفًا راقيًا من المنتوجات؛ فإذا كنت تبحث عن آخر كتب تشينوا أتشيبي، فقد أتيت إلى المكان المناسب. لكن حين قرر مالك المبنى رفع ثمن الإيجار بشكلٍ متهوّرٍ ودون سابقٍ إنذارٍ، قرر أصحاب المكتبة الانتقال إلى مركزٍ تجاريٍّ عدد زائريه أقل بكثيرٍ، على بعد أكثر من كيلومترين. وقد كانوا متأكّدين من أن زبائنهم سيلحقون بهم، (وقد فعل ذلك أكثرُهم وفاءً)، لكن حساباتهم لم تكن دقيقةً، إذ إنهم استخفّوا كثيرًا بحجم الزيارات الاعتباطية وغير المخطّطة التي كانت تستفيد منها المكتبة طوال كل هذه السّنين في ذلك الموقع المثاليّ. أما المحلّ الجديد فلم يحظَ نظريًّا بأية زيارةٍ غير مخطّطٍ لها قد يعقُبها بيعٌ؛ لأنه إذا أردت الوصول إلى ذلك الموقع فسيتوجّب عليك أن تحيد عن مسارك وأن تسافر بالسّيّارة. لقد كان مكانًا مثاليًّا بالنّسبة لمطعم يابانيٍّ، أو محل للحيوانات الأليفة، أو حتى لمتعهّد دفن، لكنّه كان مكانًا سيّئًا بالنّسبة لمكتبة. ثم أعلنت إفلاسها في غضون سنةٍ، مسقِطَةً معها شقيقتها: فرع بلدة تاريتاون. لقد كان المالكون على الأرجح ممتعضين بخصوص ما حلّ بهم، ولهم كامل الحقّ في أن يشعروا بالخيانة. وبعد ذلك بسنواتٍ، حين قرأت رواية بينيلوبي فيتزجيرالد المؤلمة: **(المكتبة)**[1]، لم أستطع تجاوز الجملة الأخيرة التي تصف رحيل البطلة عن بلدة هاردبرو:

---

(1) **The Bookshop (1978)** – Penelope Fitzgerald.

«حين انطلق القطار مبتعدًا عن المحطّة، جلست مطأطأة الرأس في خزي، لأن البلدة التي عاشت فيها لمدة عقدٍ من الزمن لم تكن ترغب في محلٍ للكتب.»

لا بد أن هذا بالضّبط هو شعور أصحاب المحلّ؛ إذ إن مكتبة «كتبٌ وأشياءٌ» كانت هديّتهم للمجتمع، بل لمجتمَعَين اثنَين، إلا أن كلَيهما رغِبَ عن تلك الهديّة.

كان يومًا حزينًا حين أُغلق فرع محلّ الكتب ذاك بتاريتاون؛ لقد كانت مأساةً «أمريكيّةً ضاحويّةً معاصرةً»، إذا كان مثل هذا الوصف ممكنًا. لكنني لا أذكر ما حدث يومها، ولا شعوري، كما لا أذكر آخر مرة زرت فيها تلك المكتبة أو آخر شيءٍ اشتريته منها، تمامًا كما لا أذكر ما وقع يوم وفاة والدتي. من ذا الذي قد يرغب في التّشبّث بأحداث مثل هذا الحدث المكدِّر؟ وما الغرض من ذلك؟ لقد سرَت بين النّاس شائعاتٌ بأن المحلّ سيفتح أبوابه مجدّدًا تحت إدارةٍ جديدةٍ، لكن ذلك لم يَعدُ كونه محض تفكيرٍ إيجابيٍّ، وفي النهاية تم تعويضه بصالة شاي.

لو كان الأمر بيدي، لفضّلتُ شيئًا أقل إثارةً للقلاقل، مثل متجر لبيع الأجهزة الإلكترونية، محل حلاقة، محلّ لتحنيط الحيوانات بأثمنةٍ بخسةٍ، أو أي نوع من التجارة لا يعتمد على أندريا بوتشيلي[1] من أجل خلق جوٍّ مبهرَج من النقّاء النّابوليّ؛ لكن الاختيار وقع على صالة شاي. حين اختفت المكتبةَ فإن العديد من الناس نسوا أنها كانت هناك من الأساس، لكنّني لم أكن منهم. فقد كان إغلاق محلّ الكتب ذاك، بالنسبة لي، حدثًا بارزًا في حياتي لن أنساه ما حَييت. لقد أحببتُ تاريتاون بشكلٍ لا مشروطٍ للسنوات الاثنتَي

(1) **Andrea Bocelli**: مغني أوبرا إيطالي، وكاتب أغانٍ ومنتج، يصنّفه العديد على أنه صاحب أحد أفضل الأصوات الغنائية في العالم، حصل على وسام استحقاق الجمهورية الإيطالية سنة 2006، وتم تكريمه بنجمة في ممر المشاهير بهوليود سنة 2010. وجدير بالذكر أنه أعمى منذ سن الثانية عشرة.

عشرة الأولى التي عشت فيها هناك، واستمر استمتاعي بالعديد من أطايبِها بعد ذلك؛ لكن البلدة لم تعد كما كانت بعد إغلاق محلّ الكتب، كما أنني لم أكن الوحيد الذي شعر بذلك. لقد شاركني بعض الأصدقاء رأيي، وأرّخنا لبداية الانحدار التّدريجيّ الحتميّ لجودة الحياة داخل البلدة منذ تلك اللحظة. لقد فقدت البلدة شيئًا نادرًا، نفيسًا، وبديعًا؛ كان شيئًا أخاذًا وفتّانًا لا يمكن تعويضه أبدًا، ومع أن قلب البلدة ظل ينبض بالحياة، إلا أنه ما عاد ينبض بقوّة.

وباستثناء تجربة تاريتاون هذه، السّالف ذكرُها، لستُ في العادة عاطفيًّا إلى هذا الحدّ فيما يخصّ المكتبات ومحلّات الكتب؛ فأنا أذهب إليها لغرضٍ محدَّدٍ: أقوم بعملية الشّراء سريعًا، وبالسّرعة ذاتها أغادر. حين أزور محلَّ كتبٍ فإن ذلك لا يخرج عن أحد أمرَين: إما أن أشتري شيئًا أحتاجه في علمي (وبالتالي أفرغ منه في الحال)، أو أشتري كتابًا أنوي قراءته خلال ذلك اليوم بالذّات، كما فعلت مؤخّرا حين انتقيتُ مسرحيّة **(العاصفة)**[1] لشكسبير، وهو كتابٌ لم يسبق لي أن رأيته من قبل؛ لكن ذلك لا يكاد يكون ضروريًّا على الإطلاق، إذ إنني أملك بالفعل معظم الكتب التي أنوي قراءتها خلال الفترة الممتدة ما بين اللحظة الحالية إلى أن توافيني المنيّة.

من جهة أخرى، يندُر أن أزور المكتبات بغرض قضاء يومي داخلها، لأنني أفضّل الجلوس في حديقةٍ عموميّةٍ أو قراءة جريدةٍ على القيام بذلك. أنا لا أنغمس في عمليات شراء الكتب المدفوعة بالطّموح، الأمر الذي قد يقودني إلى ملء رفوفي بالمراسلات الكاملة بين والكر بيرسي وشيلبي فوت، وهي مجموعة كتبٍ تثير الرّهبة في النّفس ولن أقرأها خلال السنوات القليلة القادمة، إذا كنت سأقرأها أساسًا، وذلك بعد أن أقرأ الأعمال الكاملة لكلٍّ منهما. وللأسباب ذاتها لم أشترِ قطّ **(البهاغافاد غيتا)**[2]، الكتاب المقدّس

---

(1) **The Tempest (1610-1611)** – William Shakespeare.
(2) **Bhagavad Gita.**

للهندوسيّة؛ أو **(باردو ثودول)**[1]، كتاب التّعاليم البوذيّة؛ أو **(إيجينغ)**[2] كتاب الثقافة الصينيّة الكلاسيكيّة؛ ولا كتاب أوسوالد سبينغلر: **(تدهور الحضارة الغربية)**[3]؛ ذلك أنه لا نيّة لديّ في قراءة مثل هذه الكتب أبدًا وما كنت لأدّعي العكس. فخلال دراستي الجامعية في نهاية الستّينيّات، كانت الموضة أن يقتبس الشّباب مقاطع من هذه المؤلّفات، خصوصًا من كتاب **(تدهور الحضارة الغربية)**، كما لو أن استظهار بعض النظريّات التوتونيّة[4] الخرقاء في حدّ ذاته سيعجّل بانهيار الغرب. ومنذ ذلك الحين، دخل زملائي في الفصل مرحلة من الانهيار المتسارعِ، تمامًا كما حدث لسمعة مؤلّف الكتاب، إذ يبدو أن الغرب مازال متماسكًا، واقفًا على قدميه.

أنا لا أشتري الكتب في سياقٍ احتفاليٍّ ثم أتظاهر كما لو أن اقتناءها مؤشّر على رغبةٍ صادقةٍ في قراءتها. إن الأمر أشبه باقتناء سروال مقاسه أصغر بكثيرٍ على أمل أن تفقد عشر كيلوغراماتٍ من وزنك ذات يوم، فيصير على مقاسك. لديّ سروال جينز أسود اللّون، اشتريته حين كنت في الثانية والثلاثين وكان وزني 74 كيلوغرامًا. لقد كنت أظن أنه سيأتي يومٌ أستطيع فيه ارتداءه مجدّدًا، لكن منذ ذلك الوقت ارتفع وزني إلى حدٍّ أقصى بلغ 103 كيلوغرامات، رغم أنه قد انحدر الآن إلى قرابة 88 كلغ؛ بعد فترةٍ من الزّمن، قد أستطيع خفضه إلى 80 كلغ، إلا أنني لا أستطيع الرّجوع مطلقًا إلى 74 كلغ؛ وبالتالي لن يكون في مقدوري أبدًا ارتداء ذلك السّروال مجدّدًا. لذلك أحتفظ به كمعادلٍ موضوعيٍّ[5]، كرمزٍ ماديٍّ لقصيدة **(الفردوس المفقود)**[6]: إن الماضي يرحل دون رجعةٍ.

---

(1) **Bardo Thodol**.

(2) **I Ching.**

(3) **The Decline of the West** (vol. I: 1918 & vol. II: 1922) – Oswald Spengler.

(4) Teutonic.

(5) Objective correlative.

(6) **Paradise Lost (1667)**, by John Milton.

إن الاختلاف بين سروال الجينز هذا ورواية **(دانييل ديروندا)**[1] هو أنني ما زلت أحب سروالي وأعتقد أنه إذا أمكنني أن أرتديه مجددًا فإن حياتي ستتحسّن بشكلٍ واضح. لكن لا يراودني شعورٌ مشابهٌ بشأن قراءة تلك الرواية، لأنني لن أحبّها أبدًا، كما أنني لن أعتقد أبدًا بأن قراءتها ستحسّن نصيبي في الحياة بأيّ شكلٍ من الأشكال، إذ أن تأثير قراءتها على حياتي سيكون أشبه بتأثير زيارتي لبوينس آيريس: سيكون الأمر مثيرًا للاهتمام شيئًا ما، ممتعًا إلى حدٍّ ما، وسأرجع إلى البيت مع بضع قصص جميلةٍ، إلا أنها ستكون حالةً جليّةً لتحقيق حلم العمر ذلك الذي لم يكن قطّ حلمي.

ولعلّ الأمر الأهمّ أنه لا رغبة لديّ البتّة في جعل كتبي محضَ ذكرياتٍ جميلةٍ، رغم أن كتابًا أو اثنَين ينتميان إلى هذه الفئة. لقد حدث أن اشتريت رواية كوليت: **(المتحرّرة السّاذجة)**[2] [بالفرنسية]، حين كنت في الحادية والعشرين من عمري وأعيش بباريس. كانت نسخة كتاب جيب لافتة للنّظر مع رسم جريءٍ على الغلاف؛ كلّفتني 95 سنتيمًا (قرابة 80 سنتًا أمريكيًّا) في ذلك الوقت، والثمن المكتوب بقلم الرّصاص بالكاد ملحوظٌ على الغلاف الدّاخلي للكتاب. إن هذه الرّواية هي إحدى الروابط التي لا تزال لديّ مع ماضٍ بعيدٍ أذكره بشغفٍ، حيث كنتُ سعيدًا بطريقةٍ مبهجةٍ وكانت إمكانيات الحياة ممتدّة أمامي. أما الآن، في سن الحادية والسّتين، ورغم أنني أعيش لحظات سعادةٍ متقطّعةٍ، إلا أن إمكانيات الحياة ما عادت تمتدّ في أي اتجاه. لكن كلّما حدث أن وقعت عينايَ على غلاف ذلك الكتاب، أفكر في العام الذي قضيتُه في باريس قبل أن تصطحبني الحياة إلى الممرّ الخلفيّ وتجعلني أخشَوْشِن؛ لذا فهو ليس بمغادرٍ مجموعتي أبدًا. وفي ظل ما سبق، تجدر الإشارة إلى أنه لا نيّة لديّ في قراءة هذه الرّواية، إذ إنني حاولت قراءة أعمالٍ

(1) **Daniel Deronda (1876)** – George Eliot.
(2) **L'Ingénue libertine (1909)** – Colette.

أخرى لنفس المؤلِّفة إلا أن نفسي لم تألَف أيًّا منها. إنها حالةٌ كلاسيكيّةٌ تنطبق عليها المقولة الفرنسية: Chacun à son gré (أي: لكلٍّ ذوقه الخاص)؛ وكل ما في الأمر أن كوليت لم تكن على مزاجي.

بالرغم من أنني أقتني معظم كتبي من محلّات الكتب، ونادرًا من الإنترنت، إلا أن لدي حالاتٍ نادرةً جدًّا من التجارب المتعلّقة بالمكتبات ومحلّات الكتب التي تظل ذكرياتٍ بارزةً. كم كان بودّي القول إنه كانت هناك مكتبةٌ عتيقة كنت أسكنها خلال شبابي – فلنقل إن اسمها كان: «مُنعَزل القارئ النّهِم» – حيث كنت أتكوّر في أحد الأركان لأنغمس في قراءة رواية **(سيد بلانتري)**[1] وكتابًا عن رحلة كون–تيكي[2]، تحت أنظار شيخٍ منّانٍ ترك مسيرةً مهنيّةً واعدةً في المحاماة من أجل فتح مكتبةٍ ضئيلةٍ بحجمِ علبة أعواد ثقابٍ ليجعلها مأوى للمحرومين على وجه الخصوص. لكن الأمور في حياتي لم تَحدث على هذا الوجه ولا هي مضت على هذا المنوال: لم تكن هناك مكتباتٌ في الحيّ الذي نشأت فيه، كما أنها كانت معدودةً على رؤوس أصابع اليد الواحدة في المُجمَل حتى لو شملنا كلّ الأحياء التي نشأ فيها سكان فيلادلفيا العاديّون خلال خمسينيّات القرن الماضي (إلا إذا حدث أن كانوا في قلب المدينة، وهو مكانٌ يكاد لا يقصده سكّان فيلادلفيا أبدًا).

ومن أجل الوصول إلى مكتبةٍ، باستثناء إذا كنت تقطن بحيّ سنتر سيتي، فسيتوجّب عليك السفر لكيلومتراتٍ عديدةٍ سيرًا، بالحافلة، أو عبر وسيلة مواصلة أخرى، وحين تبلغ وجهتك لن تجد أي شيءٍ مميّزٍ في انتظارك، وبالطبع لن تجدَ أيّ شيخٍ لطيفٍ [أمين مكتبة] هناك. إن ما كانت تدعى مكتبات أو «محلّات كتبٍ» في تلك الفترة لم تكن في واقع الأمر أكثر من غيرانٍ لعينةٍ يَسكنها الحمقى، البخلاء الأشحّة، والفاسقون. كان هناك دومًا

(1) **The Master of Ballantrae: A Winter's Tale (1889)** – Robert Louis Stevenson,

(2) The Kon-Tiki expedition.

جزءٌ خلفيّ بالمحلّ مخصّص للقصص البذيئة، مع شريط حَجْرٍ - غير صحّيٍّ البتّة - يمنع الدخول إذا كنت دون سنّ الثامنة عشرة. ومع ذلك فقد حاول بعضنا الانسلال، يائسين لوضع يدينا على كتبٍ ورقيّةٍ قذرةٍ تحمل عناوين من قبيل: (اعترافات عاهرة)، (العربيد الكلّيّ)، (أجزاس الجحيم)،...؛ وقد تركت هذه المآزق الحرجة آثارًا على ضميري، أما تجاربي مع شاحنة الكتب التي كانت تزور حيّنا خلال طفولتي كل جمعةٍ فقد كانت تجاربَ «تأريخيّةً» في مساري وتأسيسيّة، إلا أن شاحنة الكتب تلك لم تكن تضمّ أي شيءٍ ملهمٍ، وأكاد لا أذكر أيّ كتابٍ منها تقريبًا على وجه الخصوص.

لهذا السبب لا ذكرى لديّ عن أول كتابٍ اشتريته في حياتي أو عن المكتبة التي كانت شاهدةً على ذلك؛ قد تكون رواية غموضٍ لأغاثا كريستي أو مجموعة قصص رعبٍ كتب مقدّمتَها المخرج الغنيّ عن التعريف، ألفرد هيتشكوك، الذي كانت له وظيفةٌ ثانيةٌ كمقدّم أحد أشهر البرامج التلفزيونيّة في الستّينيّات، حيث كان يعرض نوعًا من «الغرابة المهندَسة» التي كان الأمريكيّون - لسببٍ ما - يجدونها مثيرة للاهتمام. لقد كان ذلك أحد أغرب الأمور بخصوص الأمريكيين من تلك الحقبة: لم يكونوا يتميّزون بحسّ الدّعابة الشّاذة تلك، وما كانوا يستمتعون بها، إلا أنهم كانوا وَلِهين بغرابة ألفرد هيتشكوك وعروضه الممتعة.

أيًّا كان أول كتابٍ اشتريته في حياتي، فعلى الأرجح أن ذلك حصل في محلّ عقاقير طبّيةٍ خلال انتظاري وصول الحافلة لتقلّني إلى البيت من وظيفة السّبت في محلٍّ للملابس على الجهة المقابلة القصيّة من البلدة. وقبل عملية الشّراء الجليلة هذه، سأكون قد اشتريت كتاب قصصٍ مصوّرةٍ كدأبي كل مساء سبتٍ، مثل أحد أعداد سلسة **(باتمان)** أحيانًا، **(رابطة عدالة أمريكا)** أحيانًا أخرى، أو **(سوبرمان)** فيما ندر؛ لكنني في الأغلب أختار أحد إصدارات مجلة «كلاسيكس إيليستراتيد» التي بثّت الحياة في قصص [من الأعمال

الخالدة] من قبيل **(البؤساء)**، أو **(فرانكشتاين)**، أو حتى **(الحرب الغالية للقيصر)**[1]. لا بد أن ذلك حصل حوالي سن الثالثة عشرة أو الرّابعة عشرة حين بدأت أتراجع خطوةً عن الكتب المصوّرة لصالح الكتب الفعليّة، رغم أن الذاكرة تخونني فيما يخصّ تفاصيل عمليّات الشّراء هذه.

أستطيع تذكر بعض الكتب التي اشتريتها في مرحلة مراهقتي، إلا أنني لا أذكر الترتيب الذي اشتريتها وفقَه. لم تكن عديدةً على أية حال، لأنني لم أكن أكسب سوى ستّة دولارات في الأسبوع من عملي في محلّ الملابس الخرِب ذاك، وكمعظم أقراني، كنت سأفضّل إنفاق ما لديّ من مالٍ في شراء أسطوانات الأغاني، مشاهدة الأفلام، شراء الحلويّات، أو إنفاقها على الفتيات... وليس على الكتب. لقد كان ربّ عملي، وهو جنديّ بحريّةٍ سابقٍ ذو صدرٍ ضخم، يلتهم كتب التّنمية الذّاتية من قبيل كتاب **(كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر على النّاس)**، وغالبًا ما كان يعرض عليّ استعارة كتبه، إلا أنني كنت أفضل شيئًا غير وعظيٍّ بطريقةٍ تسفيهيّةٍ.

وإحدى المقتنيات التي ظلت بارزةً بذاكرتي هي رواية **(الكاردينال)**[2]، وهو كتابٌ رديءٌ من طينة رفيعةٍ بقلم هنري مورتن روبنسون. اشتريته من محلّ للعقاقير الطّبّية فيما كان آنذاك مركزًا تجاريًّا حديثًا على طراز آخر الصّيحات الفنّيّة؛ كان يبعد عن بيتنا بنحو ثلاثة كيلومترات، وما عاد اليوم موجودًا. لا بد أن عمليّة الشّراء «التّخصيبيّة» هذه حدثت قرابة يونيو/حزيران 1964. كنت آنذاك أستعد للانضمام إلى المدرسة الدينيّة لأصير مبشِّرًا مارينوليًّا[3]، وكنت آمل أنه سيأتي يومٌ أصل فيه إلى تلك الرّتبة عالية المقام [رتبة كاردينال]، رغم أنني كنت أولَع بواحدةٍ من أصل كل ثلاث فتياتٍ أصادفهنّ في الطّريق. من جهة أخرى، كان المارينوليّون يجدون أنفسهم على الدّوام ممزّقين إربًا من

(1) Commentarii de Bello Gallico.

(2) **The Cardinal (1950)** – Henry Morton Robinson.

(3) Maryknoll: مجموعة دينيّة كاثوليكيّة تأسست سنة 1911 بنيويورك، الولايات المتحدة.

طرف الشّيوعيّين الملحدين أو الفاشيين الممتعضين، وهو الأمر الذي منع «الزهرة الإكليركيّة» من التفتّح، ونتيجةً لذلك فشلت مسيرتي الكنَسيّة في تحقيق إيّ إقلاعٍ فعليٍّ ناجحٍ.

نُشرت روايةِ الكاردينال سنة 1950، السنة التي ولدت فيها، وقد كانت مبنيّةُ إلى حدّ ما على حياة فرانسيس كاردينال سبيلمان، وهو أَسقُف من نيويورك لا أعلم عنه شيئًا باستثناء أنه كان شخصًا صعب الإرضاء. وبحلول وقت شرائي هذا الكتاب، كان والدي قد اصطحبني لرؤية الفيلم المبنيّ على الرّواية، وهو فيلمٌ أخّاذٌ كما أنه مهيّجٌ للمشاعر في بعض أجزائه، من بطولة توم ترايون الوسيم ذو الفكّ الفولاذيّ الذي سبق له أن لعب دور راعي البقر الأيقونيّ «تيكساس جون سلوتر»[1] في أحد برامج التلفاز الشهيرة لديزني الذي يحمل الاسم ذاته. وخلال الوقت الذي كان تايرون يشقّ طريقه عبر الأجمات الكثيفة المرتفعة على التلفاز، كان يخفي حقيقةَ شذوذه الجنسيّ في الواقع عن رؤسائه، إذ إن الميولات الجنسيّة المشابهة لم يكن لها وجود في «الغرب القديم»، وبالطبع لم تكن موجودةً داخل الأجمات المسيحيّة العميقة والمرتفعة بولاية النّجمة الوحيدة [تِكساس]. وانتهى المطاف بهذا الممثل بأن ترك مجال صناعة الأفلام وأصبح روائيًّا ناجحًا قدّم منتوجاتٍ أدبيّةً متنوعّةً في نهاية السّبيعينيّات من قبيل: **(الآخر)**، **(بيت الحصاد)**، **(فيدورا)**، و**(الآنسة)**[2]. لقد كانت مسيرته مسيرةً حافلةً بحقٍّ. لم تسنح لي الفرصةً قطّ لقراءة أيٍّ من رواياته، لكنني شاهدت العديد من الأفلام المبنيّة عليها، وكان فيلم **(الآخر)** ممتعًا للغاية على ما أذكر، أما فيلم **(فيدورا)** فقد كان أحد مشاريع [المنتج السّينمائي] بيلي وايلدر التي تحمل لمسته الخاصّة، وقد كان فيلمًا جيّدًا بحقٍّ.

---

(1) Texas John Slaughter.

(2) **The Other (1971)**; **Harvest Home (1973)**; **Fedora (1976)**; **Lady (1974)** – Tom Turon.

وقد قضى قبل أوانه[1].

كان تايرون رجلًا استثنائيًا بكل تأكيدٍ، وقد قضى قبل أوانه.

لقد كنت فخورًا للغاية بامتلاكي رواية **(الكاردينال)**؛ فعكس باقي الكتب الورقيّة من تلك الفترة التي كانت تبدو بخسة الثّمن، كانت هذه الرّواية - طبعة روبنسون - أنيقةً وبرّاقةً، مع غلافٍ على طرازٍ «ستاندالّيٍ»[2] في الأسود والأبيض والأحمر، يتماشى مع موضوعِ الكتاب. حدث هذا في فترةٍ كانت الكتب ذات الغلاف الورقيّ تشهد تحوّلًا من كونها «مطروحاتٍ معدّةً سلفًا من أجل استعمالٍ وحيدٍ» إلى ما هي عليه اليوم: أغراضٌ حسنة المظهر، لكن ثمنها في المتناول وتصلح لأية مكتبةٍ. كان ناشر الكتاب هو «بوكيت بوكس»، ثمنها خمسة وسبعون سنتًا، أكثر من ضعف ثمن روايات أغاثا كريستي المشوّقة أو مجموعة قصص ألفرد هيتشكوك التي لم يكن ثمنها يتعدّى خمسة وثلاثين سنتًا. (لقد تحقّقتُ من الأثمنة قبل وقتٍ غير بعيدٍ، لأن شقيقتي رِي مازالت تملك العديد منها).

لقد كانت رواية **(الكاردينال)** أول كتابٍ ذي غلافٍ ورقيٍّ من نوعيةٍ ممتازةٍ أحظى به في حياتي. وكنت أتطلّع لقراءته حقًّا، إلا أن مخطّطاتي في النهاية أُحبطت. لقد بدأته وحاولت الانغماس فيه، غالبًا تحت تعليمات والدي الذي كان يحلم خلال شبابه بارتداء الزّي الكنسيّ يومًا ما، رغم أن طموحاته لم تبلغ قطّ علوّ طموحاتي: لم يكمل طريقه نحو الأسقفيّة، رغم أنه سيكون سعيدًا لو أصبح قسًّا. وسرعان ما انتبهت إلى أن المشكل بخصوص الرواية هو كونها مكثّفةً نوعًا ما، لذا تطلّب الأمر بعض الوقت حتى تسترسل القصّة. ورغم أنني أقرّ بذلك على مضض، إلا أنها كانت تميل لأن تكون مملّةً شيئًا ما؛ ولأكون صادقًا تمامًا، لم يكُن محتواها ملائمًا لشابٍّ في التاسعة عشرة، ذلك أنها تحتوي على مقاطع جريئة حيث يقوم البطل الذي يشكّك

(1) توفيّ الممثل توم ترايون عن عمر الخامسة والسّتين.
(2) نسبةً إلى ستاندال.

في معتقده الدّينيّ بترك الحياة الكهنوتيّة لوقتٍ وجيزٍ والارتباط بفتاةٍ نمساويّةٍ فاجرةٍ متغطرسةٍ.

في النسخة المرئية من الكتاب، التي شاهدتها لاحقًا ذلك الصّيف، لعبت دور الحسناء اللّعوب المدمِّرة الممثلة رومي شنايدر، وهي ثعلبةٌ ماكرة قضت بدورها أيضًا في سنٍّ مبكّرة. وفي الوقت الذي كنت أحاول فيه قراءة الكتاب، كان والدي منكبًّا على تشغيل أسطوانة أغنية «ابق معي»، الأغنية الرئيسيّة من الفيلم، وهو لحنٌ أخّاذٌ كان ثمرة إبداع كاتبَي أغانٍ لم يكتبا أي أغنيّةٍ أخرى قويّةٍ حسب علمي؛ أدّاها فرانك سيناترا بحماسٍ وصدقٍ غير معهودَين، إذكان يعامل هذا النّوع من الأغاني بخفّةٍ ولا اكتراثٍ يكاد يبلغ حدّ الازدراء أحيانًا. وقد كانت تلك إحدى المقطوعات التي لم تحقّق نجاحًا عالميًّا، إلا أنها كانت مقطوعةً أسطوريّةً داخل بيتنا: لقد أحببتُها، ومازلت أفعل. تحكي الأغنية قصة رجلٍ خارت قواه، رجلٍ يرى العالم ينسلّ من بين أصابعه، ويأمل أن قدره سينصاع له. (وقد كان ذلك أملي أنا أيضًا في ذلك الوقت، إلا أن قدري ما كان لينصاع).

لم أنهِ قراءة تلك الرواية قطّ. لقد حدث ذات ظهيرةٍ أن أطبق عليها فريسكي - الأبله، المصاب بجنون الارتياب والمعادي للمجتمع - فكّيه، ثم مزّقها إلى أشلاءٍ. أصرّت والدتي إثر ذلك على أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام، على أنه يمكننا تليين الصّفحات باستعمال المِكواة البخارية، لكنني لم أصدّق كلامها. لقد دمّر ذلك الكلب الغبيّ كل شيءٍ! أليس التّدمير العمد لكتابٍ يعالج مواضيع دينيةً شكلًا من أشكال «الآثام الكلبيّة» ؟ لقد كنت أظن ذلك بكل تأكيدٍ كما كنت آمل أن يدخله الإله إلى الجحيم المخصّص لكلاب الصّيد. تشبّثتُ بعد تلك الواقعة بالكتاب المشوّه لعدّة سنواتٍ لكنني لم أقرأه قطّ، وذلك راجعٌ في جزءٍ كبيرٍ إلى قراري في فصل الربيع الموالي بأنني رغبت عن أن أصير قسًّا، وبالتالي ما عادت هناك إمكانية أمامي لأصير

كاردينالًا أبدًا. إن الرّجوع من أجل التهام أوراقه دفعةً واحدة في تلك المرحلة سيكون أشبه بقراءة كتاب **(تمرّدٌ على متن السفينة باونتي)**[1] أو **(سنَتان أمام صارية السّفينة)**[2] بعد أن تكون قد قرّرت بالفعل الانضمام إلى القوات الجويّة [الأمريكيّة]. لقد ظل ذلك الكتاب ذو الغلاف الورقيّ بالبيت لسنين طويلةٍ كذكرى حزينةٍ ومخرّبَةٍ لأحلام حادت عن مسارها. وبعد سنين من الواقعة، حين ضلّ فريسكي سبيله ذَات مساءٍ واختفى للأيّام الثلاثة التي تلته، رفضت الانضمام إلى فريق البحث الذي جمعه والدي. ذلك المخلوق المنحوس ذو الفرو لم يكن صديقًا للفنون، وفي رأيي أنه من الأولى أن يظل بعيدًا عن بيتنا إلى الأبد؛ مثل النازيين، كان مختلًا اجتماعًا، ومثل النازيين كان يمقت الكتب.

هناك كتابٌ آخر اشتريته من محل العقاقير الطّبّية خلال الحقبة ذاتها وهو رواية جوزيف هيلر: **(الخدعة 22)**[3]. لقد كانت إحدى الروايات الأكثر تأثيرًا ومناقشةً خلال مراهقتي، كتابٌ قرأه الجميع وكان الكل يتحدث عنه. اشتريته، مثل كثيرين غيري، ليس لأن الجميع كانوا يتحدثون عنه وإنما لأنه كان له غلاف في لون أزرق فولاذيّ أخّاذ، جذّابٍ أكثر من أي شيء كنت قد رأيته سابقًا حتى تلك اللحظة. ومع ذلك، فقد ظلّ واحدًا من تلك الكتب التي لم أستطع قراءتها، والسبب مجدّدًا هو الإعاقة البنيويّة الذّاتية لمخطّطاتي، رغم أن ذلك لم يكن السّبب الوحيد. لقد كان المشكل الكبير، في البداية على الأقل، أن الكتاب كان طويلًا للغاية وكثير التعرّجات، كما أن الخطّ كان صغيرًا للغاية وقبيحًا، وهو مشكلٌ كان شائعا آنئذٍ، لكن تم – لحسن الحظّ – تلافيه بعد ذلك من طرف الناشرين. وقد كان أحد تلك الكتب التي

(1) تمرد على متن سفينة البحرية الملكية " إتش إم إس باونتي" في جنوب المحيط الهادئ في 28 أبريل 1789.

(2) **Two Years Before the Mast (1840)** – Richard Henry Dana Jr.

(3) **Catch-22 (1953)** – Joseph Heller.

تم اقتباسها كثيرًا خلال السنوات التي أعقبت صدورها لدرجة أنك صرت تشعر بأنك قد قرأته بالفعل، وتتملّك الرغبة في قراءة شيءٍ مختلفٍ تمامًا مثل: **(نادي الشّيطان للطّالبات)**[1] أو حتى **(دانييل ديروندا)** آنفة الذّكر. وقد كان هناك أمرٌ آخر سلبيٌّ للغاية: لقد كان الطّلبة النّاشطون الاجتماعيّون بالجامعة التي انضممت إليها لاحقًا يطلبون من الأساتذة على الدّوام أن يخصّصوا لنا مسرحية شكسبير: **(هاملت)**، أو رواية فولكنر: **(أبشالوم! أبشالوم!)**[2]؛ لكن اختيار المُشرفين يقع على رواية **(حوريّات تيتان)**[3] و**(الخدعة 22)**. ولكوني رجعيًّا ثقافيًّا، لطالما عاملت جبابرة الماضي بمنتهى الإجلال، لذا فكرت بأن أولئك الطّلبة النّاشطين كانوا جهلةً أمّيّين. ولكن في نهاية المطاف، جعلني الفشل الثّقافيّ الذّريع بكتاب **(بيان الفراولة)**[4] أنقلب على رواية **(الخدعة 22)** للأبد.

وقد كانت تجربتي مع رواية **(الخدعة 22)** أول مرّة أتعامل فيها مع فكرة «نموذج هذه السنة»، حيث شرع الجميع، في كلّ مكانٍ، في قراءة الكتاب نفسه في اللحظة ذاتها، رغم أن العديد منهم لم يتجاوزوا الصفحة الثلاثين قبل أن يضعوه جانبًا؛ كما أنها كانت واحدةً من تلك الرّوايات التي لا يمكن الفكاك منها، مبجّلة عبر كل أقطار العالم إلى أن يقرّروا تحويلها إلى فيلم.

الأفلام المبنيّة على هذه الأنواع من الكتب تكون مريعةً دومًا وتخدش صورة الكتاب على نحوٍ ما. ففي مرحلةٍ ما، بدا أن العالم كان بصدد الحديث عن رواية داون براون: **(شيفرة دافنشي)**[5]، إلى أن صدر الفيلم الذي يحمل العنوان ذاته من إخراج رون هاورد، حينها توقّف العالم عن الحديث عنها؛

---

(1) **Satan's Sorority (2015)** – Graham Wynd.
(2) **Absalom, Absalom! (1936)** – William Faulkner.
(3) **The Sirens of Titan (1959)** – Kurt Vonnegut Jr.
(4) **The Strawberry Statement (1969)** – James Simon Kunen.
(5) **The Da Vinci Code (2003)** – Dan Brown.

كذلك حدث مع فيلم «الساعات»[1]، حيث وضعت نيكول كيدمان ذلك الأنف الاصطناعيّ النّاشز؛ وقد حدث الأمر نفسه مع فيلم «أخبار الشّحن»[2]، حيث أُسنِدت الأدوار جميعها للممثّلين بشكلٍ خاطئٍ؛ أما فيلم «العظام الجميلة»[3] فقد أفسده عدم وجود عددٍ كافٍ من الأقزام. وهناك أيضًا الحالة المثيرة للاهتمام لفيلم «تكفير»[4]، الذي تم تدميره تمامًا بما لا يدع مجالًا لإصلاحه إثر القرار الكارثي بجعل جيمس ماكافوي الممثل الرئيسيّ، الأمر الذي دفع المشاهدين من ضفّتَي الأطلنتيّ للتّعاطف مع ذلك الحقير الخسّيس الذي دمّرت أكاذيبه حياة بطل القصّة.

ليس الأمر كونَ الأفلام السيّئة تجعل الكتب المقتبسَة عنها تبدو أقلّ جودةً، بل الأمر – بكل بساطةٍ – أن العرض الأول لهذه الأفلام الرّديئة مؤشّرٌ على أن الكتاب قد بلغ أعلى مستويات شهرته (التي لن يتجاوزها)، وأن زمنه كقامةٍ ثقافيّةٍ عظيمةٍ قد ولّى دون رجعة. إجمالًا، يحتفظ الكتاب بشيءٍ من الإجلال والمكانة ما لم يتم مسخه على شكل فيلم رديء، وحين يقع في يدي هوليود، فإن الفيلم الرّديء يدخل في منافسةٍ على أضواء الشّهرة مع الكتاب الجيّد. فقبل مشاهدتك للفيلم المبنيّ على رواية **(الخدعة 22)**، تكون بذهنك صورة آسرةٌ ليوسوريان، إلا أنها تظل صورةً مبهمةً إلى حدٍّ ما. ولكنك حالما تشاهد تلك الشخصيّة وقد أصبحت مجسّدةً في شخص المتعجرف ألان آركين، وبمجرّد ما تتوقّف **(الفتاة ذات القرط اللؤلؤيّ)** عن كونها شخصيّةً غامضةً ورومانسيّة وتتحولّ إلى سكارليت جوهانسون، ثم ما إن تقدم تلك العصفورة الهزيلة بينيلوبي كروز التي تعاني من سوء التّغذية على

(1) **The Hours (2002)**, directed by: Stephen Daldry.
(2) **The Shipping News (2001)**, Directed by: Lasse Hallström.
(3) **The Lovely Bones (2009)**, directed by: Peter Jackson.
(4) **Atonement (2007)**, directed by: Joe Wright.

تدمير رواية **(ماندولين كوريلّي)**[1] تدميرًا، فإن التعويذة تتبخّر تمامًا وإلى الأبد. إن الكتب العظيمة هي وحدها القادرة على تحمّل ما تُوقِعه الأفلام الرّديئة على سمعتها من أضرارٍ جسيمةٍ: **(غاتسبي العظيم)**، **(آنا كارينينا)**، **(كبرياء وتحامل)**؛ لطالما أجادت هوليود تحويل الهراء الحماسيّ من قبيل **(ذهب مع الرّيح)**[2] و**(جسور مقاطعة ماديسون)** إلى أفلامٍ أروع بكثيرٍ من الرّوايات التي أخرجتها إلى الوجود، إلا أنها تواجه صعوباتٍ حين تحاول فعل ذلك مع كتبٍ من قبيل رواية **(الحرب والسّلم)**. إن هوليود لا تدري ما العمل في مواجهة الأدب التّخييليّ الجاد، لذا تقوم بما تُجيد القيام به: تمحقه.

إن الكتب التي تم لتتبع نموذج السنة تستمّد قيمتها من كونها مواضيع لفتح النّقاشات. فذات يوم، وأنا أحمل نسختي ذات الغلاف الورقيّ من **(الخدعة 22)** وأتجوّل بالأرجاء بزهوٍّ، كما لو كانت جائزةً، على أمل أن تُفتتَن فتاةٌ مراهقة بلغت سنّ الرّشد لتوّها ببراعتي الفكرية، سألتني جوان - أخت صديقي جو ألتيري - عمّا إذا كانت تستطيع استعارة الكتاب؛ فكان ردّي: «أجل، بكل تأكيد»، لأنه لم يسبق لي أن أنهيت قراءة كتابٍ بهذا الطّول، ولم يكن ذلك على الأرجح سيتغيّر قريبًا. في المقابل، كنت على يقينٍ أنها ستبلغ الصفحة الأخيرة. كانت جوانا تعمل بأحد متاجر «سيرز روبك» على الشّارع الرئيسيّ، وكانت تُقلّني إلى وظيفتي الصّيفيّة في مستودعات «نايفل سبلاي ديبو»، التي كانت تقع مباشرة وراء ذلك المتجر الشّامل الهائل. لطالما راقتني تلك الفتاة، رغم أنها كانت مغترّة بنفسها إلى حدّ ما؛ لم يسبق لي أن رأيتها دون نظّارات، وقد كانت قارئة نهمةً. حين أرجعت إليّ الكتاب بعد بضعة أسابيع، كانت أوراقه شعثاء ومطويّة عند الزّوايا، فاستشطتُ غضبًا لرؤية ذلك. هل تركَته خارجًا تحت النّدف أو المطر أو الثّلج... أم ماذا؟ لكنها لم تفهم سبب

(1) **Corelli's Mandolin (1994)** – Louis de Bernières.
(2) **Gone with the Wind (1936)** – Margaret Mitchell.

غيظي وتبرّمي، وقالت إنه لطالما كان مفترضًا أن تصير الكتب ذات الغلاف الورقي هكذا في نهاية المطاف، فإذا كنت أرغب في كتاب حسن المظهر أضيفه إلى مجموعتي الصغيرة البئيسة، فيجب عليّ شراء كتابٍ مجلّدٍ. بدا أنها لم تفهم أن صدور الرواية **(الخدعة 22)** كان حدثًا فريدًا في تاريخ هذه الصّناعة، لأنه يؤرّخ للّحظة حيث ما عادت الكتب ذات الغلاف الورقي تُرى على أنها محض قطع مجمّعةٍ على عجلٍ وإنما كبضاعةٍ عالية الجودة يستطيع المرء أن يعرضها - بكل فخرٍ - داخل بيته. في الحقيقة، لم يفطَن أحدٌ لذلك حينها، وأقلّهم أنا، لأن مثل هذه اللّحظات الفريدة والتاريخيّة لا تغدو جليّةً إلا بعد مرور عقود على وقوعها. كل ما أدركته آنئذٍ أن كتابي الورقيّ الأنيق الذي كلّفني سبعة أعشار الدّولار قد تمّ - بمنتهى الوحشيّة - طيّه، ثنيُه، تعويج عموده الفقريّ، وتشويهه... وأنني ما عادت لديّ أية رغبةٍ في قراءته، وبالتالي لم أفعل. وبعد ذلك بسنين، قرأت روايتَي جوزيف هيلر: **(لقد طرأ أمرٌ ما)** و**(فرصةٌ من ذهب)**[1]، وقد أحببتُهما كلَيهما. لكنني ولسببٍ ما لم أرجع قطّ لقراءة الكتاب الذي أوصله إلى الشّهرة، وأيًّا كان ما وقع لتلك النّسخة الفاسدة والمدمّرة من **(الخدعة 22)** بعدها: لا فكرة لديّ عن السبب، كما أنني لم أستبدلها بأخرى سليمة.

نادرًا ما تلقّيتُ معاملةً حسنةً داخل المكتبات، وأظن أن ذلك راجعٌ إلى أنّني أبدو أقرب إلى شرطيّ مني إلى عاشق كتبٍ؛ من الأكيد أن مظهري ليس بمظهر شخصٍ يتردّد على المؤسّسات الثقافية المهمّة؛ خلاصة الأمر هي الآتي: لا أبدو مثل شخصٍ سبق له قراءة أيٍّ من كتب بيل ماكـ كيبن. ورغم أنه يحزّ في نفسي الإقرار بذلك، فأنا أبدو مثل شخصٍ لا يمكنه حسم قراره بالاختيار بين الكتاب الجديد لكلايف كسلر، أو ويليام إدموند بترورث غريفين. إن مديري محلّات الكتب ينتبهون لمثل هذه التّفاصيل الدّقيقة،

---

(1) **Something Happened (1974), Good as Gold (1979)** – Joseph Heller.

حيث يأتي إليّ أطفالٌ فارِعو الطّول سيئو التّغذية، يضعون نظّارات «كلارك كينت» السميكةِ ويرتدون قمصان «بولو» تتنافر مع باقي لباسهم، ولحيةٍ غير متناسقة لم تنجح قطّ في منحهم مظهر الحكمة أو الرّزانة، ويقولون: «هل أستطيع مساعدتك في شيءٍ؟» كما لو أنّني فضائيٌّ فقد بوصلته، أو آخر رجلٍ ضلّ طريق العودة إلى بيته من جيتيسبورغ.

غالبًا ما يدير المكتبات التّجارية عمّالٌ مؤقّتون منعزلون وفق دوام عملٍ اعتياديٍّ: شبابٌ مضطربون ومتقاعدون منبوذون لا يفقهون شيئًا ولا يهتمون بالكتب البتّة. لذلك تكون اقتراحاتهم للكتب عامّةً بشكلٍ مثيرٍ للشّفقة: **(نادي القتال)**[1]، **(المتميّزون)**[2]، **(الدّعابة اللانهائيّة)**[3]. إن الأمر هنا أشبه بطلب المشورة فيما يخصّ التّحلية من طفلك ذي الأربع سنوات؛ لمَ لا يخرجون عن المألوف ويختارون أحد مؤلّفات الكاتب الهنديّ راسيبورام كرشناسوامي نارايان، ألان سيليتو، أو كريتيان دو تروي ؟ آهٍ كم ليلةً سهرتها محدّقًا في النّجوم البعيدة، أحلم باليوم الذي أهبُّ فيه إلى داخل مكتبةٍ لأجد خزانةً حبلى بتوصيات عمال المحل التي قد تشمل أحد كتبي المفضّلة من قبيل: **(حديقة التعذيب)**[4] بقلم أوكتاف ميربو، **(قطار بورنهولم اللّيلّي)**[5] بقلم آيدان هيغين، أو **(سيتم اتخاذ إجراءات)**[6] بقلم هينريخ بول! سيكون الأمر أروع إذا دخلت أحد محلّات ستارباكس – الذي يكاد يكون أشبه بمكتبة جزئيّةٍ – فأعثر فيه على صفٍّ من كتب وارْدْ دْجَسْت أو نيثان إينغلاندر المرصوصُ بعضُها فوق بعضٍ وصولًا إلى السّقف؛ لكنني أظن أن هذا الأمر نادر الحدوث.

---

(1) **Fight Club (1996)** – Chuck Palahniuk.
(2) **Outliers: The Story of Success (2008)** – Malcolm Gladwell.
(3) **Infinite Jest (1996)** – David Foster Wallace.
(4) **The Garden of Torments (1899)** – Octave Mirbeau.
(5) **Bornholm Night-ferry (1983)** – Aidan Higgins.
(6) **Action Will Be Taken** – Heinrich Böll.

ويظلّ ذلك مستبعدًا أيضًا حتى بالنسبة للمكتبات المستقلّة، لأن هذه الأخيرة، مهما سَمَت فضائلها، غالبًا ما يملؤها عمّالٌ مُتَعالون ومتغطرسون لا يروقهم الأشخاص مثلي؛ أما صنف الكتّاب الذين يروقونهم فهم إمّا أولئك الميّتون أو غريبو الأطوار، أو بول أستر؛ كما أن لهم احترامًا متفاوت الدّرجات لأولئك الذين يسمّون منهم «بانانا» أو «آرنو»؛ فإذا كان اسمك يانوس، أو تشينيو، أو بيين، فهذا يعني أنك كاتبٌ لامعٌ. أما إذا كان اسمك جوزيف ت. كليمبنه Klempner أو «أو هنري» O'Henry، فأنت لست كذلك. إن الأشخاص من هذه الطّينة غالبًا ما يروقهم الكتّاب المغمورون غريبو الأطوار، إلا أنهم لا يحبّون الكتاب المغمورين غريبي الأطوار الذين أحبّهم؛ لذلك يخطر لي أحيانًا أنني ولدت على الكوكب الخطأ: كوكبٍ حيث لا أحد تقريبًا يقرأ، وحيث أولئك الذين يقرأون بالفعل يَفترضون أنني لا أفعل.

لقد بدأت تجربتي المؤسفة مع المكتبات قبل زمنٍ طويلٍ حين كنت طالبًا بباريس. آنذاك، كان أحد طقوس العبور بالنّسبة للكتّاب الشّباب أن يزوروا محل الكتب الأسطوري «شكسبير آند كومبّاني» على ضفّة نهر السّين الذي سيظل إلى الأبد مرتبطًا بإرنست هيمنغواي وجيمس جويس. في الحقيقة، إن متجر الكتب الأصلّي - ذاك الذي أصدر رواية **(عوليس)** في الوقت المناسب حتى يتاح لي عدم إتمام قراءتها قط - قد أوصد أبوابه للأبد حين ظهر النازيون بالمكان، في زيارةٍ مفاجئةٍ، سنة 1940. أما المتجر الذي زرته في السّبعينيّات فلا يعدو كونه بديلًا عنه في الجادة الخامسة الأسطوريّة التي سُمّيت على شرفه: «شكسبير آند كومباني». إن الأمر لأشبه بمجلس بوغيسيس[1] بمدينة ويليامسبورغ العتيقة: اصطناعيٌّ، لكنه أيقونيّ. كان المحلّ مكتظًا بشبابٍ زُغْبٍ، عِجافٍ، في ثيابٍ ونِعالٍ أبعد ما يكون عن الأناقة، يحاولون باستماتةٍ

(1) مجلس بورغيسيس (House of Burgesses) هو أول تجمع تشريعي يضم ممثلين منتخبين في شمال أمريكا.

محاكاة شخصيّة جورج أورويل من كتابه: **(متشرّدٌ في باريس ولندن)**[1]. كان يبدو عليهم سوء التغذية والفاقة، بل إن بعضهم كان على أعتاب الموت. لم يكن بإمكان المرء تحديد ما إذا كانوا قد تخرّجوا من جامعة فيليب إكزيتر أو جامعة أندوفر.

كان جورج ويتمان [المؤسس] حينها ما يزال على رأس إدارة المحلّ، خلفًا لسيلفيا بيتش الأسطورية، وقد زرت المحلّ مرّتين اثنتَين: سألته خلال كلٍّ من الزيارتَين ما بدا لي سؤالًا معقولًا، وفي المرّتين كلتَيهما لم يُلقِ لي ذلك النّذل الحقير الأشيَب بالًا البتّة. لعلّني بدوت في نظره مجرّد شخصٍ يحسب نفسه «هيمنغواي الضائع»، شخصٌ ضيّع فرصته ليصير «سكوت فيتزجيرالد الجديد»، أو شخصٍ يود باستماتةٍ أن يكون هنري ميلر. لكنّني لم أكن أرغب في أن أصير إرنست هيمينغواي، ناهيك عن ف. سكوت فيتزجيرالد، وأقل منه هنري ميلر الذي اشتهر عنه كونه أصلع، قبيحًا، ولئيمًا؛ كما أنني ما كنت أرغب بكل تأكيدٍ في أن أكون أنابيس نين. لكنني كنت أريد أن أصير ناثانييل ويست، الكاتب النّكِد الذي ألّف روايتَي: **(يوم الجراد)**[2] و**(الآنسة لونليهارتس)**[3]، والذي مات في حادثة سيرٍ في ولاية كاليفورنيا، في اليوم الموالي بعد أن رحل فيتزجيرالد للقاء بارئه؛ كان تاريخ وفاة ويست هو 22 ديسمبر/كانون الأول 1940، وهي الذكرى الثلاثمائة بعد الألف لآخر احتراقٍ لمكتبة الإسكندريّة.

من الجليّ أنه لم يكن بإمكان عمّال مكتبة «شكسبير أند كومباني» أن يعرفوا بأحلامي الملغّزة وبعيدة المنال، إلا أنهم عاملوني كالحثالة على أية حال. لذا توقّفت عن زيارة تلك المكتبة واشتريت كتبي من مكانٍ قريبٍ بشارع سانت ميشال: محلٌّ شاسعٌ يسمى «جيبير جون». لقد كان أشبه

(1) **Down and Out in Paris and London (1933)** – George Orwell.
(2) **The Day of the Locust (1939)** – Nathanael West.
(3) **Miss Lonelyhearts (1930)** – Nathanael West.

بحظيرة لا أكثر، يفتقر إلى أي جانبٍ سحريٍّ أو أسطوريٍّ، بل إنه كان في الواقع مجموعةً من الحظائر التي تفتقر إلى السّحر، يتخصّص كلّ منها في موضوعٍ محدّدٍ مختلفٍ، لكن كتبه كانت بخسة الثّمن. وقد اشتريت منه دستةً من الكُتب، وما زلتُ أحتفظ بها جميعها: **(أوبرا)**[1] بقلم جون كوكتو، **(الشيطان في الجسد)**[2] بقلم رايموند راديجيه، **(الساحرة)**[3] بقلم جيل ميشيليه، وكذا **(أقبية الفاتيكان)**[4] بقلم أندريه جيد؛ وخلال زياراتي إلى محل «جيبير جون»، على الأقل، لم يكن أحدٌ يتعمّد معاملتي بفظاظةٍ.

حين انتقلت إلى نيويورك سنة 1976، كان الجميع منكبّين على زيارة متاجر شركة ستراند، التي كانت تضم الآلاف المؤلّفة من الكتب المستعملة. وخلال ستٍّ وثلاثين سنة من السكن وسط «مدينة غوثام» أو بضواحيها، لم أزر تلك المتاجر سوى مرّتَين، لأن الكتب المستعملة لم ترقني قطّ. إن الأشخاص الذين نشأوا في فاقةٍ لا يحبّون شراء الأشياء المستعملة، لأنهم نشأوا وهم يرتدون ملابس مستعملةٍ ويلعبون بألعابٍ مستعملةٍ، زيادة على أنه ليس هناك أي شيءٍ مميّزٍ بخصوص شراء كتابٍ مستعملٍ، بعد أن حظي شخصٌ غيرك باختبار ذلك الاندفاع المميّز أوّلاً. لذلك لا أشتري الكتب المستعملة إلا في حالات اليأس، مثل تلك المرّة حين وجدت نفسي عالقًا في وسط مدينة ساوث بيند، ولاية إنديانا، وهي حفرةٌ من حُفَر الجحيم - إذا كان هناك شيءٌ بهذا الاسم - ثم أنقذت الوضع بأن نبشتُ نسخةً من مسرحيّة جون أنويه: **(بيكيت، أو شرف الرّبّ)**[5]، في محلٍّ للكتب المستعملة. أظن أن الإله قد شفع لي في ذلك الوضع، تعويضًا عن تلك السنة الطويلة والشّاقة التي

---

(1) **Opéra (1925-27)** – Jean Cocteau.
(2) **Le Diable au corps (1923)** – Raymond Radiguet.
(3) **La sorcière (1862)** – Jules Michelet.
(4) **Les caves du Vatican (1914)** – André Gide.
(5) **Becket ou l'Honneur de Dieu (1959)** – Jean Anouilh.

أمضيتها في تلك المدرسة المفتقِرة إلى الرّونق والألق، على بعد قرابة عشرين كيلومترًا بضواحي سكرانتون، ولاية بينسلفينيا. لكن هناك ديناميكيّة أخرى يجب الانتباه إليها هنا: إن اقتناء كتابٍ مستعملٍ لا يفيد الكاتب بأيّ شيءٍ. وفي نظري أن هناك «فقرًا روحيًا» كامنًا في عدم الرغبة في شراء الكتاب الجديد البرّاق لغابرييل غارسيا ماركيز؛ كما يجب على الناس اعتبار مسألة دفع الثمن الكامل مقابل أحد كتب دون دي ليلو، أو مارغاريت أتوود، شرفًا، شرفًا حقيقيًا.

لم تكن مكتبتي المفضّل بنيويورك ضمن الأسماء المعروفة، مثل: «غوثام بوك مارت»، «ريزولي»، أو «سكريبنر»؛ ولا كانت ضمن تلك المحلّات الرّديئة الداعمة للعملات المشفّرة في إيست فيليدج؛ بل كان اسمها «ذي كَميوتْر بوكْ سنترْ» (حرفيًّا: مركز كتب المسافر)، وقد كانت مجرد جُحرٍ حقيرٍ على شارع ليكسينغتون عند محطة غراند سنترال؛ حفرةً في الجدار - حرفيًّا - تكاد مساحتها لا تتجاوز المساحة المتوسّطة لغرفة نوم. كان يجب على الزّائر أن يصعد درجتَين مهترئتَين للولوج إليها، ولم يكنْ هناك طابور انتظار أو ما شابه، وفي الداخل تجد شخصًا ضخم الجثّة - عديم الحركة نسبيًّا - يدير المحلّ جالسًا خلف الصّرّاف بمحاذاة الباب طوال اليوم. كان يبدو أنه يستمتع بصدقٍ بكونه على رأس إدارة هذا المشروع الحقير، كما أنه كان مقتصدًا في كلامه، ولم تكن ترى حركته أبدًا. لكن كلما اشتريت منه كتابًا، ينظر إليه بعناية ثم يغمز إليك بطريقة لطيفةٍ مفادها: «اختيار جيّدٌ، يا صاح! أرى بوضوح أنني في حضرة رجل أدبٍ عارفٍ». ومن جهة أخرى، كانت الكتب تفتقدُ إلى الجدّة والتغيير، إذ يبدو أن آخر جردٍ لمخزون الكتب يعود إلى الزمن الذي وضع ديكنز فيه لمساته الأخيرة على رواية **(دوريت الصّغيرة)**[1]. كانت الكتب جميعها مدفونةً تحت طبقةٍ سميكةٍ من الغبار

(1) **Little Dorrit (1855-57)** – Charles Dickens.

والأوساخ، ولم يكن للمتجر نوافذ عرض جذّابة، كما أنه لم يكن يحتضن حفلات توقيع الكتب؛ لم يكن محلًا راقيًا بكل تأكيدٍ، ولم يكن يتميّز بتلك الخاصيّة المميّزة التي لا أدري اسمها، إلا أنه كان هناك شيءٌ ملهمٌ للغاية بخصوص هذه المؤسّسة ذات الهالة «غير المِرحابة» بمنتهى العناد، التي لم أستطع قطّ مقاومة زيارتها. لقد كان ذلك المتجر يذكّرني بعمّي السّكير، مدخّن السيجار الرّخيص، الذي يداعب بأنامله الغيتار ويغنّي في الحانات: ملعونٌ، إلا أنه جريءٌ وحيويّ؛ اشتريت من ذلك المكان عدة روايات: **(سيلاس مارنر)**[1]، **(إيثان فروم)**، **(لورد جيم)**[2]، و**(الأبله)**، بالإضافة إلى عشرات العناوين الأخرى، ولم تفارقني منذ ذلك الحين قطّ. كانت جميع هذه الكتب تحكي قصصًا حزينةً، كما في **(رواية اليقظة)**[3]، **(بيلي باد، البحّار)**[4]، و**(القصر)**[5]. أشك أن الكتب جميعها بمخزن ذلك المحلّ تفطر الفؤاد، وأن المالك أو المسيّر – أو أيًا كان المسؤول – رفض عن قصدٍ طلب أي محتوى مبهجٍ من قبيل رواية **(نساء صغيرات)**[6] أو **(صديقي فليكا)**[7] مخافة أن يفقدَ المحلّ «سحره النّكديّ» الذي كان يشكّل جزءًا من جاذبيّته وعلامته التّجاريّة. لقد كان محلًا بئيسًا للغاية وعتيقًا متهالكًا، مع هالة من السوداويّة والهلاك المحتوم التي تحوم حوله، لدرجة أنه بدا غير لائقٍ أن تشتري منه كتابًا احتفاليًا أو بهيجًا من قبيل رواية مارك توين الفكاهية: **(يانكي من كونيتيكت في بلاط الملك آرثر)**[8] سيكون الأمر أشبه بطلب تحلية فودج بالمثلّجات وسط أرمجدون [معركة نهاية العالم].

---

(1) **Silas Marner: The Weaver of Raveloe (1861)** – George Eliot.
(2) **Lord Jim (1899)** – Joseph Conrad.
(3) **The Awakening (1899)** – Kate Chopin.
(4) **Billy Budd, Sailor (An Inside Narrative)** – Herman Melville.
(5) **The Castle (1926)** – Franz Kafka.
(6) **Little Women (1868-69)** – Louisa May Alcott.
(7) **My Friend Flicka (1941)** – Mary O'Hara.
(8) **A Connecticut Yankee in King Arthur's Court (1889)** – Mark Twain.

خلال ليلة رأس سنة 1991، ودون إشعارٍ أو تنبيهٍ، أغلق المحل أبوابه إلى الأبد. لقد دام عمله ثلاثين سنةً بالتّمام والكمال، الأمر الذي يعني «أبديّةً» في نيويورك. من الجليّ أن الإيجار المتأخر استمرّ في التراكم إلى أن قرر المالك إسدال السّتار أخيرًا. حدث ذلك في الفترة التي كانت محطة القطار تستعد فيه لعملية تجميلٍ (شدّ الوجه)، لذا ما كانت تلك المكتبة البشعة لتصمد أكثر من ذلك على أية حالٍ من الأحوال. ولم أعرف قطّ ما حصل للمسيّر أو المالك أو أيًّا كان ذلك الشخص الذي كان معسكِرًا عند الباب كلّ يومٍ؛ لكنّني أعلم أن جزءًا مهمًّا من حياتي قد مضى دون رجعةٍ. كان الشعور أشبه بشعوري حين تم تدمير مطعم «غريت جونز» الصغير الذي كان بمحاذاة شارع لافاييت، أو حين تم الاستحواذ على المتجر الشّامل «ب. ألتمان» من طرف بعض الحثالة من تورنتو، ثم ما لبث أن تهاوى.

خلفَ محلّ الكتب محلٌّ آخر أنيق صغيرٌ على الواجهة المقابلة للمحطة يدعى «بوسمان بوكس». إنه محلٌّ أفضل بكثيرٍ من سابقِه، يديره عمّالٌ أكثر جاذبيّة ولطافةً، وقد اقتنيتُ منه العديد من موادّ القراءة؛ إلا أنني أفتقد محل «ذي كميوتر بوك سنتر»: متجرٌ معطّلٌ، قذِرٌ، وخالٍ من الادّعاء تمامًا، كما أنه مطرح نفاياتٍ لكل العصور.

أتساءل أحيانًا: يجب أن تنتهي قصص كل المكتبات على نحوٍ سيّءٍ؟ لقد أغلقت «سكريبنر» – وهي مكتبة راقية في الشارع الخامس [بنيويورك] – أبوابها، وكذلك فعلت المكتبة الفرنسيّة الحقيرة التي كانت تناضل داخل مركّب روكفيلر سنتر التّجاري؛ والقائمة تضم كذلك مكتبة «غوثام بوك مارت»، التي كانت مؤسّسة محترمةً في حيّ الألماس بنيويورك إلى أن وقع الفأس في الرّأس سنة 2007، بعد سبع وثمانين سنةً من المجد. زيادة على ذلك، فإن كل محلّات الكتب التي دأبتُ على زيارتها على حدود الدول الأميريكيّة قد اختفت جميعها. وكان هناك محلّ كتبٍ من الطّراز الرّفيع في

بلدة زوجتي الأم بإنكلترا؛ كنّا كلّما ذهبنا هناك خلال الصّيف لزيارة أقاربها أتوقّف عند «محل ألان تاكر» فلا أخرج منه إلا وأنا محمّلٌ بدستةٍ أو أكثر من إصدارات بينغوين الكلاسيكيّة: **(ترسانة العائلة)** و**(قصر الصّورة)**[1] بقلم بول ثيرو، **(اقتراع إلفيرا)**، **(المقلّدون)**، و**(بيتٌ للسيد بيسواس)**[2] بقلم فيديادر سوراجبراساد نيبول، بالإضافة إلى **(الحياة السّريّة للسير إدموند باكهاوس)**[3] بقلم هيو تريفور روبر. كانت الأعمدة الفقريّة لمعظم هذه الكتب برتقاليّة اللّون، وقد بدت لي - لسببٍ ما - جميلةً، لكن النّاس قالوا إنني مخبولٌ لشرائي الكتب في إنكلترا وحملها معي - كل تلك المسافة - إلى الولايات المتحدة، خصوصًا إذا كانت برتقاليّة اللّون؛ لكن النّاس الذين يفكّرون بهذه الطّريقة مجرد فلّاحين جهَلة! (رغم أنهم محقّون بخصوص كوني مخبولًا).

إن الطريقة التي أرى بها الأمور هي كالآتي: حالما تصير الكتب في ملكي، أمضي في مسار قراءتها، حتى لو أخذت منّي الطريق عشر سنواتٍ كاملةٍ. لقد كانت تلك الأيام مخضّبةً ببهجةٍ قصوى: باليوفوريا. فحين تكون في عزّ شبابك، تظن أنه بقراءتك لعدد كافٍ من إصدارات بينغوين الكلاسيكيّة، فستتعلّم كل شيءٍ. لكن ذلك لن يحدث أبدًا، زيادة على أنك ستنسى الكثير مما تعلّمته، ولن يتسنّى لك بعدها الرجوع إلى قراءة الكتب التي لطالما رغبت في قراءتها؛ ثم ستكتشف، كما لاحظ صامويل جونسون، أن ليست كل الحكمة موجودة في الكتب، لكن مقدارًا هائلًا منها مخبأ بين ثنايا الصّفحات.

---

(1) **The Family Arsenal (1976), Picture palace (1978)** – Paul Theroux.

(2) **The Suffrage of Elvira (1957), The Mimic Men (1967), A House for Mr. Biswas (1961)** – V. S. Naipaul.

(3) **Hermit of Peking: The Hidden Life of Sir Edmund Backhouse (1976)** – Hugh Trevor-Roper.

التقت ابنتي في الجامعة فتى غادر والداه الرّوسيّان اليهوديّان الاتحاد السّوفياتي في نهاية عصر حكم بريجنيف [عصر الرّكود] وانتقلا إلى ضواحي بوسطن. حين فُتّشت حقائبهما في مطار لوغان ببوسطن، ليتفاجأ الضبّاط بأنها مملوءة عن آخرها بالكتب. شرح لي والد جورجي الأمر ذات مرّة قائلًا: «لقد أخذنا كتبنا معنا حين غادرنا روسيا، لأن الكتب في روسيا أشبه بالذّهب.»

وقد كان ذلك شعوري بالضبط حيال تلك الكنوز التي جلبتها معي خلال تلك الرّحلة الطويلة من غرب إنكلترا إلى شرق الولايات المتحدة. طوال وقت الرّحلة الجويّة، كنت أخرجهم لأفحصهم وأداعبهم، وأخبر كلّا منهم – بمنتهى الحماس – بمقدار اللذة التي سيشعرون بها حين أصل إلى البيت. ولم يخيّب أيٌّ منهم أملي لاحقًا، ولم يفرّق بيننا شيءٌ منذ تلك اللحظة: إنهم يمكثون هناك في غرفة المعيشة بالبيت أو بمكتبي؛ سأكون بصدد قراءتهم مجدّدًا يوم وفاتي، ووجودهم المادّي يذكّرني بتلك الأيام التي قضيتها ببلدة ستراود، حين كنت شابًّا وكان العالم في نظري جديدًا.

وهذا أمرٌ آخر لا تستطيع أن تقوم به مع قارئ كيندل.

اعتدت تجاذب أطراف حديثٍ شيّقٍ مع مالك تلك المكتبة ببلدة ستراود، وكنت أتحرّق شوقًا لزياراتي السّنويّة للمكان. على النّقيض من ذلك، لم يسبق لي قطّ أن ناصرتُ محل كتب «و. ه. سميث» في نهاية الشّارع، لأنه كان مرتشيًا وفظًّا ويبيع الحلويّات والسّجائر وكتب جيلي كوبر. فقبل بضع سنواتٍ، وصلت إلى ستراود ووجدت أن المكتبة التي كانت تبيع كلاسيكيّات بينغوين قد أغلقت أبوابها، لكن أبواب «و. ه. سميث» مازالت مشرّعةً. إنها نواميس هذه الحياة!

لقد حدثت أروع تجاربي مع زيارة المكتبات في كندا: القلة القليلة من النّاس فقط من يستطيعون ادعاء أمرٍ كهذا، كما أنه لم يكن جزءًا مبهرًا من البلاد على وجه الخصوص. إن لزوجتي عمّةً مسنّةً تعيش في إحدى القرى

الصغيرة بأونتاريو، على بعد قرابة 170 كيلومترًا شرق تورونتو؛ أحسب أن لي معها قرابةً دمويّةً، إذ كانت أحد الشخصين الوحيدَين الخاليَين تمامًا من الضّغائن والشّرور ممّن التقيت في حياتي برمّتها. لم يسبق لها أن صادفت معجّنات ذات قيمة غذائيّة عاليةٍ لم تشترها، أو دلو دجاج كنتاكي المقليّ التي لم تقدّمها إلى ضيوفها المرتبكين أحيانًا والحزانى أحيانًا أخرى. لقد كانت العمّة «آدا» أقرب شخصٍ قد يُعتَبر جدًا أو جدّةً بالنسبة لأطفالي، لأن والدَي زوجتي توفّيا قُبَيل لقائنا؛ وكان والدي سكّيرًا يكاد ينعدم التواصل بينه وبين أبنائي، أما والدتي فقد كانت متلبّدة المشاعر، مصابة بالهوس الاكتئابي [ثنائي القطب]، ولم يكن اهتمامها الضئيل بأحفادها الثلاثة يتجاوز ذاك الذي كان لها يومًا بفلذات كبدها الأربعة. لقد كانت «إيرلنديّة للغاية»، وربما أكثر من ذلك قليلًا.

كل صيفَين، كنّا ننطلق في رحلة العشر ساعاتٍ بالسّيّارة من تاريتاون إلى أونتاريو لرؤية العمّة آدا التي ترمّلت قبل ولادة أبنائي، وظلّت تعيش لوحدها في بيت صغيرٍ جميلٍ على خليج متّصلٍ ببحيرةِ أونتاريو. لم نكن نسلك الطرق الرئيسية من أجل بلوغ وجهتنا وإنما نعرّج ناحية الشمال الغربي عبر الطرق المحلّيّة بمحاذاة «طريق الموهاوك»[1] القديم، ثم نمضي صوب [مدينة] ألباني صعودًا إلى أن نبلغ واترتاون (المدينة التي ازدهرت فيما مضى ولكنها الآن بالكاد موجودة). وعلى بعد قرابة عشرة كيلومترات شمال واترتاون تقع كيب فينسينت، وهي بلدة صيدٍ - أشبه بالسّجن - حيث يمتد طريق مواصلاتٍ بحريّة من وإلى وولف آيلند، بين الولايات المتحدة وكندا. بعد ذلك نستقل عبّارةً، نقطع بعدها قرابة عشرة كيلومترات بالسّيّارة، ثم نستقلّ عبّارةً أخرى تأخذنا إلى كينغستون، وهي مدينة مزدهرة على الضّفّة الكندية (كم كان الأطفال يحبّون تلك الرّحلات البحرية!) ومن هناك، يبقى أمامنا

(1) Mohawk Trail:

سفر ساعتَين بالسّيّارة على الطريق السّيّار رقم 401، وصولا إلى منزل العمّة آدا، حيث ينتظرنا سطل دجاج كنتاكي المقليّ ذي العشرين قطعة، وأحيانا ثلاثين. لم يكن الأطفال يستمتعون بالسّفر على الطريق السّيّار، لأنه يظلّ مملًّا بشكلٍ متواصلٍ، لكنّهم استمتعوا بالدّجاج المقليّ بكل تأكيدٍ.

آنذاك، كانت وجهة عطلتنا تزدانُ بوسط مدينةٍ حيويٍّ يتوفّر على سينما، مكتبةٍ عامّةٍ، صائغ مجوهرات، متجر للأجهزة، العديد من المطاعم الجذّابة، بالإضافة إلى مكتبةٍ. إن معظم تلك المحلّات قد اختفى، وتم تعويضها بمتاجر سلع الدولار الواحد، مشينة المظهر. إن هذه المتاجر لأشبه بتلك الأحجار البيضاء التي نراها كشواهد للقبور غير المعلّمة لمن قضوا نحبهم في الحرب الأهلية [الأمريكيّة]: «لقد كان أحدهم يعيش هنا، لكننا لا نعلم من يكون، وما عدنا نذكر متى كان ذلك». حين كانت البلدة مزدهرةً، كذلك كان المتجر: ففي سنة 1980، خلال زيارتي الأولى، انخرطت في محادثةٍ مع المالك، وحين لاحظ اهتمامي بكتب المؤلفين الكنديّين، اقترح عليّ بضعة عناوين. حتى تلك اللحظة، كانت معرفتي بالكتّاب الكنديّين محصورةً في أعمال مارغاريت آتوود، مردخاي ريشلر، وبرايان مور، رغم أن الأخير على الأرجح إيرلنديٌّ أكثر منه كنديّ. اقترح مالك المتجر أن أقرأ رواية **(الدّبّ)**[1] بقلم ماريان إنجلز ورواية **(هذا الجانب يا جوردن)**[2] بقلم مارغاريت لاورنس؛ قرأتهما ما إن رجعت إلى الولايات المتحدة وأحببتهما، رغم أنني فوجئتُ إلى حدٍّ ما كيف أن ذلك الكنديّ الوقور والملتزم قد يقترح عليّ قراءة كتاب عن مؤرّخةٍ وحيدةٍ تدخل في علاقة حبٍّ قصيرةٍ - لا يُعقَل أنها جعلتها أكثر إنتاجيّةً في العمل - مع دبٍّ، كما كان هذا الأخير [الدّبّ] تفاجأ من الأمر بدوره؛ وسيظل هذان الكتابان في مجموعتي إلى الأبد. وفي زيارتي

---

(1) **Bear (1976)** – Marian Engel.

(2) **This Side Jordan (1960)** – Margaret Laurence.

الموالية للبلدة، تسامرنا مرةً أو اثنتَين، وفي حديثنا عن الأدب الكنديّ قال إنه يجب عليّ قراءة **(معادلات الحبّ)**[1] بقلم إيثيل ويلسون و**(صديقي من عمر الشّباب)**[2] بقلم أليس مورنو، ففعلت: إنهما كتابان مذهلان يحظيان، بدورهما، بإقامةٍ دائمةٍ في مجموعتي.

وذات صيفٍ، في أواخر الثمانينيّات، سألني مالك المكتبة عمّا إذا سبق لي القراءة لمورلي كالاغان الذي كان يعيش في باريس خلال الفترة ذاتها مع إرنست هيمينغواي، ف. سكوت فيزجيرالد، وغرترود ستاين؛ وقد كتب مذكّرات بعنوان: **(ذلك الصّيف في باريس)**[3]، تُعتبر بمثابة كتاب «العيد المتنقّل[4] الكنديّ»؛ وقد أهداني هذا الكتاب. بالنسبة لي، فإن هذه العلاقة الكنديّة قد فتحت لي حديقةً سريّةً من اللّذائذ، كما أنها تكون مفيدةً للغاية حين أجد نفسي منهمكًا في محادثة مع الكنديّين النّاطقين بالإنجليزيّة، وهم أناسٌ يفترضون تلقائيًّا أنني لا أعلم شيئًا البتّة بخصوص الكنديّين باستثناء أنهم يلعبون الهوكي على الجليد ويشربون جعّة مولسون [الكنديّة]. لذلك ينبهرون - بل إنهم يُذهلون - حين يعرفون بأنني قرأت أيضًا مؤلفات العديد من الكتّاب الكنديّين النّاطقين بالفرنسيّة، أمثال غابرييل روي وماري كلير بليس. والأكيد أنهم لم يقرأوا أيًّا من مؤلّفاتهم، ذلك أن الكنديّين الإنجليزيّين لا يفعلون مثل هذه الأمور؛ فذلك ليس من طبيعتهم، خصوصًا الرّجال. وباستثناء محادثاتي الشّغوفة مع بائع الكتب الاجتماعيّ ذاك بأونتاريو، لم يسبق لي أن انخرطت في أية محادثةٍ شاملةٍ حول الأدب الكنديّ مع أي شخصٍ آخر؛ كما لا أتوقع أن يحصل ذلك يومًا.

---

(1) **The Equations of Love (1952)** – Ethel Wilson.

(2) **Friend of My Youth (1990)** – Alice Munro.

(3) **Cet été-là à Paris (1963)** – Morley Callaghan.

(4) **Moveable Feast**: رواية لإرنست هيمنغواي صدرت سنة 1964، يتحدث فيها عن الفترة التي قضاها في باريس.

بدأ أطفالي يكبرون، ولبضعة فصول صيفٍ متتاليةٍ سافرنا إلى فرنسا وإنجلترا، لذا لم نتمكن من زيارة كندا. لكن في المرة التالية التي زرنا فيها العمّة آدا، شعرت بسعادةٍ غامرةٍ لرؤية محلّ الكتب واقفًا على قدميه ما يزال. ذهبت إليه لرؤية صديقي القديم، متحمّسًا لمواصلة محادثتنا من آخر نقطة توقّفنا عندها آخر مرة، لكن بدا أنه لا يتذكّرني. ثم زرته مجدّدًا بضع مرّاتٍ خلال ذلك الأسبوع، فرجعت المياه إلى مجاريها، وفي اليوم الذي سبق سفر عودتي إلى البيت، أهداني نسخة من رواية ويليام أورموند ميتشيل: **(ذاك الذي رأى الرّياح)**[1]. لم يكن كتابًا جيّدًا للغاية، ولكن على الغلاف الدّاخلي كانت الكلمات التالية: «هديّةٌ من صاحب المحلّ». وكما هو الحال مع هداياي السّابقة، فسأعتزّ به إلى الأبد.

في المرة الموالية التي انطلقنا فيها شمالًا، رجعت إل محلّ الكتب الذي أحببته للغاية، إلا أن المحادثة لم تمضِ بيننا بانسيابيّةٍ. أدركت لحظتها أن صاحب المحل لم تكن له أدنى فكرةٍ عمّن أكون: لم يكن يذكر أيًّا من محادثاتنا السّابقة ولا الهدايا التي أعطانيها. لقد شهدتِ المكتبة أوقاتًا عصيبةً، وغدتِ الكتب معروضةً للبيع بأثمنةٍ زهيدةٍ، خصوصًا كتب بينغوين الكلاسيكيّة المؤطّرة بالأسود؛ لذا اشتريت ستة وثلاثين كتابًا منها، من بينها: **(تاريخ الفرنجة)**[2]، **(اعترافات القدّيس أوغسطين)**[3]، **(التأملات)** لماركوس أوريليوس، و**(الأمير)** لميكيافيلّي؛ وضمّت مجموعة ثانية كتاب **(شهادة إسبانيّة)**[4] بالإضافة إلى روايات أورويل: **(أيامٌ ببورما)**، **(الطريق إلى رصيف ويغان)**، و**(دع الدريقة تطير)**[5]؛ كما اشتريت يومها كذلك روايات

---

(1) **Who Has Seen the Wind (1947)** – W. O. Mitchell.

(2) **History of the Franks** – Gregory of Tours.

(3) **Confessions of St. Augustine (397 - 400)** – Augustine of Hippo

(4) **Spanish Testament (1937)** – Arthur Koestler.

(5) **The Road to Wigan Pier (1937), Burmese Days (1934), Keep the Aspidistra Flying (1936)** – George Orwell.

غراهام غرين الآتية: **(حالة إنهاك)**، **(رجلنا في هافانا)**، **(وزارة الخوف)** و**(إنكلترا صنعتني)**[1]؛ بالإضافة إلى روايتَي دافيد ه. لورنس: **(قوس قزح)** و**(نساء مغرمات)**[2]؛ واشتريت كتاب **(حوليّات روما الإمبرياليّة)**[3]، وكتبًا عن أفلاطون، هيرودوتس، هنري فيلدينغ، إسحاق بابل، روبرت غريفز، والسير فكتور ساودون برتشيت؛ كما أنني اشتريت نسخة جديدةً من **(الإلياذة)**، رغم أنني أملك منها ثلاث نسخ بالفعل. ومن أجل الأيام الخوالي بكندا، اشتريت كتابًا أخيرًا بقلم كنديٍّ: **(الدوّامة)**[4]، أولى روايات جين أوركهارت.

مازالت هذه الكتب تملأ الرّفوف في خزانة غرفة نومي إلى يومنا هذا؛ وهناك ستظل إلى الأبد.

ذات يوم، وعن عمر ناهز الرابعة والتّسعين، قضت العمّة آدا نحبها، وتوقّفت رحلاتنا إلى كندا. كانت عائلتها قد قرّرت أنه آن الأوان لوضعها في منشأة رعاية المسنّين، لكن يبدو أنه كانت لديها خططٌ مغايرة. وفي المرة الموالية التي زرنا فيها كندا، بعد ذلك بسنواتٍ، أصبحت البلدة قبيحةً إلى حدّ أنه صَعُب علينا تمييزها، وكانت المكتبة تلفظ أنفاسها الأخيرة. أما الآن فقد رحلت هي أيضًا بدورها، وكما كان الحال حين أغلقت مكتبة تاريتاون أبوابها، فإن البلدة قد تضرّرت كثيرًا بالفراغ الذي تركته خلفها.

خلال فصل الربيع الماضي، حظيتُ بتجربة زيارة مكتبةٍ عوّضتني عن كل تلك التجارب السّيّئة الماضية جميعها وأكثر، وقد حدثت بطريقة أبعد ما يكون عن المعتاد أو المتوقّع. كنت قد انتهيت حينها لتوّي من تناول وجبة غذاءٍ مع صديق أستراليّ أعرفه منذ أن التقينا بباريس سنة 1972، ثم التقيت

---

(1) **A Burnt - Out Case (1960), Our Man in Havana (1958), The Ministry of Fear (1943), England Made Me (1935)** – Graham Greene.

(2) **The Rainbow (1915), Women in Love (1920)** – D. H. Lawrence.

(3) **The Annals of Imperial Rome** – Tacitus.

(4) **The Whirlpool (1986)** – Jane Urquhart.

بحبيبته الفرنسيّة في محلٍّ قريبٍ من مكانِ إقامتي، وبمجرّد أن عرفت بأنني أمريكيٌّ، أخبرتني بأن حبيبها لا يروقه الفرنسيّون كثيرًا، وسيرحّب بمحادثة بلغته الأم، لذا دعتني للعشاء مساء ذلك الخميس. لقد أصبح ثلاثتنا أصدقاء في وقتٍ قصيرٍ؛ في الحقيقة، لقد عشنا معًا، بعد ذلك بسنواتٍ، لمدة شهرٍ كاملٍ، في مبنى مريبٍ يكاد يكون مهجورًا، في بقعةٍ ما جنوب غرب فرنسا. كان ذلك المبنى يؤوي السيّاح الألمان في الصّيف، وخلال باقي أيام السّنة لا يسكنه أحد. وقد كانت تجربة العيش هناك أقرب إلى العيش في فيلم رعبٍ فرنسيٍّ، ربما فيلم Le Shining[1]. في النهاية رجع صديقي ميك إلى أستراليا لزيارة والده العليل، وبعد ذلك بسنواتٍ انفصل عن كلاودين، ولم أره بعدها خلال الواحد والعشرين سنةً التي تلت ذلك. لكنّ حبل المودّة والاتصال بيننا لم ينقطع، كما هو الحال مع كلاودين المقيمة ببرلين منذ زمنٍ طويلٍ. وحين ذهبتُ لزيارة ميك في سيدني سنة 1997 رفقة عائلتي، اتضح لي أنه أحد أصدقائي المقرّبين، رغم أننا لم نرَ بعضنا منذ 1976، والوقت الذي قضيناه معًا في فرنسا – في الشّرب، مشاهدة عروض الأفلام الكلاسيكيّة مع منتصف اللّيل في السينما، والشرب مجدّدًا – قد أرسى أساساتٍ صلبةً لصداقتنا وجعلها متينةً للأبد. إن فرنسا هكذا!

قبل بضع سنواتٍ، وبصفته مضيف طيران لصالح شركة كانتاس، بدأ صديقي ميك يسافر إلى نيويورك كل أسبوعين. قبل ذلك، لم تكن هناك أية رحلات ثابتة بين سيدني–لوس أنجلوس–نيويورك. والآن صار بوسعنا أن نلتقي لتناول العشاء معًا أمسية الثلاثاء، ثم نجتمع مجدّدًا على الغذاء ظهر الأربعاء، وبعد ذلك يعود إلى لوس أنجلوس، ومنها إلى سيدني. ذات أمسيةٍ، وبعد تلك الوجبة الاعتياديّة التي نجتمع عليها، شاهدته وهو يختفي داخل

(1) يقصد الكاتب هنا، بطرافةٍ، فيلم "**The Shining**" مع استبدال أداة التعريف الإنجليزيّة (The) بمقابلها في الفرنسيّة (Le).

بطن سلالم قطار الأنفاق عند تقاطع الشارع 68 مع محطّة شارع ليكسينغتون.

وحدث أن كانت هناك مكتبةٌ - تدعى «Shakespeare & Co.»

- على الجهة المقابلة للشارع، وكنت آنذاك بصدد البحث عن رواية للكاتب علي سميث، إذ رشّحها لي صديق يعمل بجريدة «وول ستريت». وكما سبق أن أشرت، خلال شبابي بباريس، لم تكن مكتبة «Shalespeare and Company» مرحابةً في تعاملها معي؛ بل إن تعاملهم معي - في الحقيقة - كان في منتهى اللّؤم. لكن ذلك قد حدث منذ زمنٍ بعيدٍ، وفي بلدٍ آخر، لذا قرّرت أنه يجب عليّ طيّ تلك الصّفحة.

على أية حال، لم أكن متأكّدًا من أن المنشأتَين مرتبطتَان، لأن محلّ نيويورك قد اختار تمييز اسمه عن اسم المحلّ الباريسيّ باستعمال رمز «&» [في اسمه]، لذا ولجت المكتبة وسألت الفتى المتهكّم الواقف خلف المكتب عمّا إذا كان يتوفّر لديهم كتاب آلي سميث المسمّى... ممم، ما كان اسمه، يا ترى؟ آه، أجل: **(لولا الألطاف الإلهية)** أو شيءٌ من هذا القبيل. فكان ردّ الفتى:

- إذا كان الكتاب متوفّرًا، فستجده على الرّفوف.

ماذا أقول؟ لماذا يخطر ببالي ذلك يا ترى؟ لكنني لم أجده على الرّفوف، على الأقل ليس في الصّف المخصّص لحرف «S» [سميث] في قسم كتب الخيال، لذا رجعت إليه وسألته - من باب فتح باب النّقاش - عمّا إذا كان بإمكانه الابتعاد قليلًا عن... أيًّا كان ذلك الذي هو بصدد فعله، ويبحث عن عنوان الكتاب على حاسوبه. ففعل ذلك على مضضٍ، كما لو أنني أطلب منه تنفيذ قتلٍ رحيم لكلب كاريزماتيٍّ من فصيلة: داكشند[1]؛ فتلمّس طريقه متعثّرًا لبعض الوقت قبل أن يفلح في مسعاه.

(1) Dachshund.

قال: «إن عنوان الكتاب في الواقع هو **(هناك، لكن، من أجل، ال)**[1].»

فأجبت: «إن عنوان **(لولا الألطاف الإلهية)**[2] يظل قريبًا.»

فقال: «إنه كتابٌ حديثٌ.» قبل أن يردف: «إنه في قسم الكتب الجديدة؛ لذلك لم تجده على الرّفوف.»

بدا لي ذلك معقولًا، بدا كذلك فعلًا. لذا انطلقنا من أجل إيجاده، ومن حظّنا أنه كان على رفٍّ عالٍ، بعيدًا عن متناوله. هزّ رأسه حينها في قلّة حيلةٍ بحثًا عن سلّم، لكنني قلت له:

ـ لن يكون ذلك ضروريًّا.

مددتُ ذراعي، دون أن أقف على رؤوس أصابع قدميّ حتّى، وأخذت الكتاب من على الرّف. كان شعورًا رائعًا ومشبِعًا. قد يقول الفتي إنه لم يكن عليّ أن أكون لئيمًا هكذا عن قصدٍ، لكنني لم أستطع ردع نفسي عن القيام بذلك. لقد كان هو «الفتى المتهكّم»، وقد انتظرت تسعًا وثلاثين سنةً طويلةً وشاقّةً لمعادلة النتيجة مع هؤلاء المتعجرفين اللّقطاء (رغم أنهم لم يكونوا مرتبطين بأولئك المتعجرفين اللّقطاء السّابقين بباريس). والآن قد دقّت ساعة تسوية الأوضاع وإزالة ما لحق بي من أذى؛ لقد حانت لحظة ردّ الصّاع لهم.

دفعت ثمن الكتاب، وفي طريق خروجي لمحت كتابًا معنوَنًا: **(باريس كانت لنا)**[3]: مجموعة قصصٍ بأقلام كتّابٍ عاشوا بباريس، تضم مقالًا لي تطرّقت فيه إلى صداقتي القديمة مع ميك. خرجت من المكتبة فاصطدمت

---

(1) **There But For The (2011)** – Ali Smith.: تجدر الإشارة إلى أن العنوان الإنجليزي ليس جملة صحيحةً نحويًّا أو تامّة المعنى، لذلك تمت ترجمته حرفيًّا داخل النص؛ تنقسم الرواية إلى أربعة أقسام يحمل كلّ منها كلمةً من كلمات العنوان الأربعة، ولعل ذلك هو سبب التّسمية.

(2) **But for the Grace of God**: عبارة اصطلاحية يمكن ترجمتها إلى العربية على شكل: " لولا الألطاف الإلهية"؛ ويبدو أن تشابه الكلمات نسبيًّا في الإنجليزيّة بين الجملتين هو ما أدّى إلى التباس الأمر على الرّاوي.

(3) **Paris Was Ours: Thirty-two Writers Reflect on the City of Light (2011)** – edited by: Penelope Rowlands.

في الثانية الموالية تمامًا برجلٍ في نفس سنّي تقريبًا، إلا أن ثيابه كانت أكثر أناقةً وقوامه أكثر رشاقة. في مقالي سالف الذّكر، تحدثت عن تجوّلي في حديقة لوكسمبورغ [بباريس] ذات مساءٍ في أواخر التّسعينيّات حين التقيت مصادفةً بصديقٍ قديم من أيام الدراسة، والذي لم ألتقه منذ ربع قرنٍ. في الواقع، لقد أنهيت مقالي بوصف تلك المحادثة التي جرت بيننا، حيث سألته عمّا كان يفعله في الحديقة يومها – وضمنيًا: عمّا يفعله بباريس – فأجابني ببساطة: «لم أستطع قطّ طرد هذا المكان خارج ذهني.» لعله كان يقصد حديقة لوكسمبورغ، لكنني أظن أنه كان يتحدّث عن باريس.

كان اسم صديقي ذاك هو جاي جولي، والرجل الذي اصطدمت به خارج مؤسسةِ عدوّي اللّدود السابق «شكسبير أند كومباني» – أو صورة تمثيليّة عنه – تلك الأمسية يدعى جاي جولي أيضًا. بعد ذلك بأسبوعَين، تشارك الطعامَ ثلاثتُنا – أنا وصديقيَّ جاي وميك – لأول مرة منذ سنة 1973، وقد حظينا بلحظةٍ فخمةٍ من الأيّام الخوالي. وبدا كما لو أنه لم يمضِ أكثر من يوم على افتراقنا، حين كنّا نقرع كؤوسنا بمرحٍ في مقهى «الحِلف الفرنسيّ» الطّلّابي. وقد تسنّى لكل هذا أن يحدث لأنني جازفت بالدّخول إلى مكتبة كانت تحاول على الأرجح أن تدّعيَ أنها الفرع النيويوركيّ للمكتبة الباريسيّة الأسطوريّة التي لطالما عاملتني كما لو كنت حثالةً، ثم وقعت عيناي على كتابٍ أشير فيه إلى صديقَيَّ ميك وجاي كليهما؛ وقد حدث كلّ ذلك بعد ثوانٍ من توديعي لميك بعد أن استقل قطار الأنفاق ليأخذ طائرة عودته إلى أستراليا، وقبل ثوانٍ من مصادفتي لجاي لأول مرةٍ منذ مدة تزيد عن عقدٍ من الزّمن.

لا أظن أن هذه الأشياء يمكن أن تحدث مع أصحاب القارئ الإلكتروني.

الفصل الخامس

حضِّر نفسك للدّهشة

قبل مدةٍ من الزّمن، سلّمني صديقٌ - أضع سلوكَه غير المتوقّع عادةً في منزلة عالية - كتابًا معنونًا: (الأب جون: معالج نافاخو التّقليدي)[1]. وقد بدا من ظاهر الأمر أنه يتوقّع مني قراءته، رغم أنني لست من الأشخاص الذين قد تستهويهم سيرة ذاتية لمعالج تقليديٍّ من قبيلة نافاخو[2]. ورغم حيرتي الكبيرة إلا أنني تصرّفت بتحضّرٍ وأخذت الكتاب معي إلى البيت ثم وضعته على الرّف في ركنٍ مظلم من مكتبي، حيث يصعب الوصول إليه نظريًّا، بجوار كل تلك الكتب التي أرغمني أصدقائي على قراءتها طوال السّنين الماضية.

تضم هذه المجموعة كتبًا من قبيل: **(كراتٌ سائبةٌ: القصة القصيرة والمثيرة للرابطة الأمريكيّة لكرة السّلّة)**[3]، **(العالم الحدوديّ لدوك هوليداي)**[4]، بالإضافة إلى كتابَي ستيف آلان: **(رأي ستيف آلان في الإنجيل والدين والفضيلة)**[5]، والثاني الأقل يسوعيّةً: **(مغامراتي في العالم اللاعقلانيّ للتّلفاز)**[6]. وحتى إذا حدث، بطريقةٍ ما، أن عشتُ لأبلغ الألف

---

(1) **Father John: Navajo Healer.**

(2) **Navajo:** أحد الشعوب الأمريكية الاصلية (الهنود الحمر) بالولايات المتحدة الأمريكية، وثاني أكبر قبيلة معترف بها فيدرالياً في الولايات المتحدة الأمريكية بعد قبيلة شيروكي.

(3) **Loose Balls: The Short, Wild Life of the American Basketball Association (1990)** – Terry Pluto.

(4) **The Frontier World of Doc Holliday (1957)** – Patricia Jahns

(5) **Steve Allen on the Bible, Religion, and Morality (1990)** – Steve Allen.

(6) **Hi-Ho, Steverino! My Adventures in the Wonderful Wacky World of Television (1992)** – Steve Allen.

عام، فلن أقرأ أيًا منها، خصوصًا ذاك الكتاب الذي يتحدّث عن الرابطة الأمريكيّة لكرة السّلّة. لم أكن قطّ ناجحًا في التّعبير عن الحقيقة التالية للآخرين، لكنني جادٌّ حدّ الهوس بشأن الطريقة التي أخصّص بها وقت قراءتي: قد أجد الوقت لقراءة هذا الكتاب دون أن أجد الوقت لقراءة آخر. وحين قمت، قبل بضع سنواتٍ، بحساب عدد الكتب التي سأقرأها إذا بلغتُ أمد الحياة الذي قدّرته لي شركات التأمين، وجدت العدد الآتي: 2138 كتابًا. هذا العدد يشمل، نظريًا، مختلف أنواع الكتب انطلاقًا من سلسلة **(تريسترام شاندي)**[1] إلى رواية **(الكولونيل شابير)**[2]، مرورًا بعناوين لكبار المؤلّفين من قبيل غوته، كما لآخرين مغمورين مثل خوان فيلوي. مبدئيًا، سيكون أمامي ما يكفي من الوقت لقراءة 500 تحفةٍ أدبيّةٍ، 500 كتابٍ كلاسيكيٍّ قصيرٍ، 500 عملٍ عبقريٍّ فذٍّ لم يحظَ بالتقدير المناسب، 500 من الأعمال الغرائبيّة، بالإضافة إلى 168 نموذجًا عن حثالة الدّرجة الرّفيعة (وبكلمة «حثالة» أقصد ذلك المحتوى الذي بلغ درجة من التّفاهة والغباء تجعل ضربات قلبك تختلّ وأسنانك تصطكّ)؛ كما لن يكون لي وقتٌ بهذا المستقبل اليوتوبيّ لقراءة كتب من قبيل: **(مغامراتي في العالم اللاعقلانيّ للتّلفاز)**[3]. وفي هذا أقول إن الغباء الأصيل المصنوع بأيدي المحترفين بحقٍّ قد يكون مبهِجًا، أما الرّداءة فهي لا تعدو كونها رداءةً.

صحيحٌ أنني كنت أحد أولئك النّاس الذين لا يستطيعون الشروع في قراءة كتابٍ دون أن يُنهوه؛ لا يستطيعون أبدًا جلب كتابٍ إلى مكتبتهم دون أن يكونوا قد خطّطوا لقراءته، أو تدارسه بعد الانتهاءٍ من قراءته. إن معرفة النّاس بهذا العيب في شخصيّتي قد يكون السّبب الذي دفع الآخرين إلى استعمالي

---

(1) **Tristram Shandy (1759-67)** – Laurence Sterne.

(2) **Le Colonel Chabert (1832)** – Honoré de Balzac.

(3) **Hi-Ho Steverino!: My Adventures in the Wonderful Wacky World of TV (1992)** – Steve Allen.

كفأر تجارب ثقافيٍّ، مُثقلين كاهلي - في منتهى الانحراف السّلوكيّ - بكتبٍ من قبيل **(داميان المجذوم)**[1] بقلم والد ميا فارو، أو **(اعتياد الوجود: رسائل من فلانري أوكونر)**[2]، لاكتشاف ما إذا كانت تلك الكتب تستحقّ القراءة (الكتاب الثاني: أجل؛ أما الأول، فلا). وقد بلغتْ هذه المهمّاتُ الاستطلاعية نهايتها يومَ أرسل إليّ صديقٌ محبّبٌ نسخةً من **(صاحب الأكورديون)**[3]، وهي سيرةٌ ذاتيةٌ منشورة على نفقة المؤلف لأسطورة العزف على الإلكترو-فوكس، ديك كونتينو. ورغم أنني أبجّل السّيّد كونتينو لأدائه الذي لا يُضاهى في عزف مقطوعة «وداعًا، يا روما»[4] وعزفه المنفرد البديع لمقطوعة «آنسةٌ من إسبانيا»[5]، فقد تضايقت كثيرًا لأن صديقي قد أخطأ في فهم شغفي بموسيقى السّيد كونتينو على أنه اهتمامٌ بقراءة نثره؛ أنا لا أمانع الاستماع إلى إحدى أسطواناته: يمكنني خلال ذلك قراءة نوفيلا: **(موت في البندقيّة)**[6]، أو كتاب **(أفكار)** لبليز باسكال بكلّ يسرٍ، بينما تصدحُ معزوفة «أخرِج البرميل، لتنطلق الأفراح»[7] في الخلفيّة؛ لكن إذا عكفت على قراءة كيفيّة توصّل كونتينو أخيرًا إلى تسجيل مقطوعة «لن تسير وحدك أبدًا»، فلن يتسنّى لي الوقت لقراءة كتاب جونيشيرو تانيزاكي: **(البعض يفضّلون اللّسعات)**[8]، وهو الكتاب الرّقم 1759 على لائحتي.

---

(1) **Damien the Leper (1937)** – John Farrow.

(2) **The Habit of Being: Letters of Flannery O'Connor (1988)** – Flannery O'Connor

(3) **Accordion Man (1994): The Legendary Dick Contino** – Bob Bove & Lou Angellotti.

(4) " Arrivederci, Roma" , by: Dick Contino.

(5) " Lady of Spain" , by: Dick Contino.

(6) **Death in Venice (1912)** – Thomas Mann.

(7) " Roll Out the Barrel" , by: Dick Contino.

(8) **Some Prefer Nettles (1928)** – Jun'ichirō Tanizaki

بعد أن حسبت عدد الكتب التي أستطيع إزالتها عن قائمتي بين الوقت الرّاهن ولحظة وفاتي، غدوت أكثر انتقائيّةً بخصوص عاداتي القرائية. وبما أن الأجل يدنو منّي يومًا بعد يوم، علمت أنه يتوجّب عليّ الرّفع من الإيقاع، وهو ما جعل من المستبعد جدًّا أن أقرأ كتابًا لمجرد قراءته. إن الحياة التي كنت أجدها في شبابي ممتعةً حدّ التّخمة قد غدت الآن أكثر فأكثر شبهًا بمسدّس مصوّبٍ إلى رأسي، وبالتالي إذا كنت أرغب في قراءة **(الديكاميرون)**[1] و**(يقظة فينيغان)** قبل رحيلي النّهائي، فيجب عليّ أن أكون أكثر انتقائيّةً. وذلك يعني، منطقيًا، أن هناك كتبًا عظيمةً أعلم بأنني سأقرأها؛ وبعض الكتب من قبيل روايتَي: **(آروسميث)**[2] و**(محطة قطار مانهاتن)**[3]، هي كتبٌ أتطلّع حقًّا لعدم قراءتها، والأمر ذاته ينطبق على **(آخر سلالة الموهيكيّين)**[4].

تحسّبًا لطُروء ظروفٍ غير متوقّعةٍ، فقد مررتُ على كلّ مؤلفات ناثانيل هاوثورن، جون ستاينبيك، آبتون سينكلير، غرترود ستاين، ريتشارد شيريدان، ميخائيل شولوخوف، جورج ساند، تيتوس ماكيوس بلاوتوس، تيرينتيوس، أنتول فرانس، فرانسوا مورياك، لاورا ز. هوبسون، وهنري وادزوورث لونغفيلو. وإذا عشت حتى أبلغ الثّمانين – وهو ما لا أتوقّع حصوله – قد أخصّص سنةً كاملةً لقراءة كل تلك الكتب التي قرّرت سلفًا أنني لن أقرأها أبدًا؛ لكنّني أشكّ أن قراءة أعمال توماس وولف، توماس مان، وتوماس هاردي في السنة ذاتها قد تودي بحياتي.

أعتقد أن القرّاء الجادّين – أو فلنقُل «المهووسين» – يتميّزون بامتلاكهم لما يشبه ساعةً داخليةً أو مقياسًا من نوعٍ ما، يعمل بذهنهم طوال الوقت؛ إنّني وإيّاهم نملك فكرةً إلى حدٍّ ما عن أمدِ حياتنا، وقد هيكلنا عاداتنا القرائية

---

(1) **The Decameron (1353)** – Giovanni Boccaccio.
(2) **Arrowsmith (1925)** – Sinclair Lewis.
(3) **Manhattan Transfer (1925)** – John Dos Passos.
(4) **The Last of the Mohicans: (1826)** – James Fenimore Cooper.

وفقه. أما حين يبلغ المرء السّتّين، كما هو الحال معي، فإنه ليس واضحًا ما إذا سيتوفر لك وقتٍ كافٍ لقراءة أعمال بليني الأكبر[1]، لكن الأكيد أنه لا وقت لديك لقراءة أعمال بيرل باك، لأن أي كتابٍ تقرأه عند تلك المرحلة وما بعدها، قد يكون الأخير؛ وأنت لا ترغب في أن تكون رواية **(الأرض الطّيّبة)**[2] آخر كتابٍ تقرأه.

يقال إنه قبل بضعة قرونٍ، في زمن الرئيس توماس جيفرسون مثلًا، كان من الممكن للشخص أن يقرأ كلّ الكتب المطبوعة؛ وحتى الآن ما يزال ممكنًا قراءة كل كتابٍ «عظيم» تمت طباعته: سيتطلّب الأمر ثلاث سنوات، وربما أربعة (أو خمسةً، إذا كنتَ قارئًا بطيئًا). لكن إذا تمدّد هذا الكونُ ليَسع الكتب «العظيمة تقريبًا»، والتي «ليست عظيمة إلى ذلك الحد»، بالإضافة إلى «المجهودات التي لا بأس بها» لمؤلّفين لهم كتبٌ أخرى عظيمةٍ، فسيصبح الأمر عسيرًا، صعب المرتَقى؛ لذا يجب الحسم والتوقّف عند نقطةٍ ما. أنا شخصيًّا، أحب مجموعتَي القصص القصيرة: **(رجال دون نساء)**[3] بقلم موراكامي و **(في زمننا هذا)**[4] بقلم هيمنغواي، لكن لا تتملّكني رغبةُ كبيرة في قراءة رواية هذا الأخير: **(عبر النّهر وبين الأشجار)**[5]. وتظل روايات [ديكنز]: **(دافيد كوبرفيلد)**، **(أوقاتٌ عصيبةٌ)**، و**(آمالٌ عظيمةٌ)**، من بين المفضّلة لديّ، أما روايته **(لغز إدوين درود)**[6] فأعتذر عن قراءتها بكلّ أدبٍ. من جهة أخرى، أعتبر رواية **(الجندي الصّالح)**[7] معجزةً صغيرةً، وأشكّ أن أعمال فورد مادوكس فورد الأصغر حجمًا ليست كذلك. وماذا

---

(1) **Gaius Plinius Secundus** (AD 23/24 – AD 79).
(2) **The Good Earth (1931)** – Pearl S. Buck
(3) **Men Without Women (2014)** – Haruki Murakami.
(4) **In Our Time (1925)** – Ernest Hemingway.
(5) **Across the River and into the Trees (1950)** – Ernest Hemingway.
(6) **The Mystery of Edwin Drood (1870)** – Charles Dicken.
(7) **The Good Soldier (1915)** – Ford Madox Ford.

جون كوليه، جيمس هادلي تشايس، ساكس روهمر، وإيرل ستانلي غاردنر؟ ربما في حياةٍ أخرى. أشير هنا وأؤكد على أنه لا يوجد أي خطبٍ فعليٍّ بأيٍّ من هؤلاء الكتّاب، إلا أنه لم يعد لديّ ما يكفي من الوقت لقراءة مؤلّفاتهم.

إن القراءة لأمرٌ شخصيٌّ للغاية؛ لذلك لا أحبذ حين يحاول الناس حشرَ الكتب بين يديَّ أو إجباري على ابتلاعها. فإذا أردتُ القراءة لفيليب ك. ديك، كنت سأقوم بذلك على الأرجح من تلقاء نفسي خلال كلّ هذه السنين التي مضت من حياتي؛ والأمر ذاته ينطبق على ويليام غيبسون وأورسولا ك. لوغوين. إن محبّي الكتب منخرطون بلا هوادةٍ في إعادة ترتيبِ لانهائية للائحة قراءة أفلاطونيّة ستشغل وقتهم فراغهم خلال السنين الخمسة والثلاثين المقبلة: أولا، سأقرأ رواية **(الحرب والسّلم)**، وبعد ذلك **(عوليس)**، ثم سأمرّ إلى مؤلّف بروست الهائل ذاك، وأخيرًا **(يقظة فينيغان)**؛ لكنني لن أبلغ هذا الأخير إذا استمررتُ في التّوقّف لقراءة روايات من قبيل: **(العالم الحدوديّ لدوك هوليداي)**[1]، رغم أنها عملٌ يرفّه عن النّفس بحقٍّ.

أنا لست حتمًا بصدد الافتراض بأن كل الكتب المهداة أو المستعارة يجب تكون عرضة للسخّرية، أو أن يتم تدميرها، وضعها جانبًا من أجل استعمال لاحقٍ، أو حرقها. إن لدى شقيقاتي ذوقًا لا يُضاهى في روايات الجريمة ويعلمن تمام العلم أيُّ كتاب من كتب روث راندل يقترحنه عليّ كقراءةٍ تاليةٍ؛ لكن هذا كل ما في الأمر. فحين يتعلّق الأمر بالمعارف والجيران: أنا حتمًا لا أثق بهم. أما أولئك الذين يتمنّون الخير للآخرين على الدّوام، فأجدهم أكثر إثارة للرّيبة، وللأسف أن هؤلاء النّاس لا يَعُون مشاعري تجاههم، وفي حالاتٍ عديدةٍ يحاولون تمرير كتبٍ إليّ في إطار تقنية استقصاء أو جسّ نبضٍ للإجابة على السؤال: «هل هو فعلًا واحدٌ منّا؟» ومعنى ذلك أنه لا يمكّنك فعلًا أن تهتم لأمر المساكين الذين كانوا يقيمون بهذا الجانب من

(1) **The Frontier World of Doc Holliday (1979)** – Pat Jahns.

الكرة الأرضية قبل وصول كولومبوس إلا إذا قرأت رواية **(1491)**، بالإضافة إلى سابقتها **(1490)** لكاتبهما تشارلز س. مان (وذلك صحيح بالفعل)؛ ولن تكون مهتمًّا فعلًا بمستقبل جمهوريّتنا المعرّضة للخطر إلا إذا كنت قد قرأت **(منطقة لا دوران فيها)**[1] مع النسخة المبسّطة الموجّهة للأطفال من نفس الكتاب، بالإضافة إلى الكتاب الذي يحكي عن الـ 100 شيءٍ وشيءٍ يكرهه الليبراليّون الأغبياء بخصوص الكتاب السّالف ذكره، زيادة على كتابٍ من قبيل: **(رأي آن كولتر في سبينوزا)**.

وقد يتساءل البعض لِمَ لا أكذب ببساطة حين يسألني الناس عن الكتب التي أعارونيها؟ في الواقع، هناك مشكلتان اثنتان بخصوص هذا النّوع من الازدواجية، أولاهما أن الكذب خطيئةٌ مميتةٌ، وثانيهما أن «مُعيري الكتب المحترفين» سيُخضعون ضحاياهم في كلّ مرّة إلى استنطاقٍ مشدّدٍ: هل تفاجأت بردّة فعل الأب داميان الباردة حين بدأت أصابعه تتعفّن؟ ما كان رأيك بخصوص ذلك القاقم الصّغير الذي كان بارسيفال يرتديه حين وضع أصابعه المكتنزة على الكأس المقدّسة أخيرًا؟ هل تفاجأت بتلك الوصفات الغريبة لساشورتورت في كتاب **(نقطة التحوّل)**[2]؟ كيف كانت ردّة فعلك بعد علمك بأن أصل الأب يوحنا من قبيلة ميسكاليرو وليس من نافاخو؟ بعد قراءتك لكتاب **(العالم الحدوديّ لدوك هوليداي)**، هل أصبح احترامك أكبر أم أقلّ للسيد إيك كلانتون كمديرٍ ماليٍّ؟

كم أشفق على أولئك الأغرار، الذين أُعيرو تلك الكتب، حين يسقطون في فخ السؤال الخادع وينكشف أمرهم كمحتالين.

---

(1) **The no-spin zone (2001)** – Bill O'Reilly.

(2) **The Tipping Point: How Little Things Can Make a Big Difference (2002) - Malcolm Gladwell.**

ولأنني أعيش في بلدةٍ صغيرةٍ حيث يتقاطع طريقي مع مُقرضي الكتب المسرفين طوال الوقت، فقد لجأت في الآونة الأخيرة إلى الاحتجاب عنهم في كهوف جوفيّة، والتنكّر بذكاءٍ بينما أختبئ تحت قِبب مظلمةٍ، وكذا إلى التظاهر بإصابتي بأحد الأمراض النّادرة بغرض تلافي أن تُفرض عليّ أية موادٍّ إضافيةٍ للقراءة. لو أنني ما أزال في ريعان شبابي، سأكون سعيدًا بإلقاء نظرةٍ على كتاب (**وجوه مقدّسة وأماكن سرّيّة: المسعى البديع صوبَ وجه المسيح**)[1]، أو كتاب بوب واير حول التاريخ الحميميّ لفرقة The Greatful Dead (حرفيًّا: الموتى الممتنّون)؛ لكن الوقت ينفلت من بين أصابعي، وإذا لم أشرع في العمل قريبًا، فلن يتسنّى لي قراءة كتاب (**البارود والأسلحة النّارية في المملكة المملوكيّة**)[2]، فما بالك بكتاب: (**الغصن الذهبي**)[3].

ويظلّ أعظم المشاكل بخصوص قبول الكتب غير المرغوبة، المعروضة من طرف أصدقائك، هو أن ذلك قد يشجعهم على إعارتك المزيد منها. فما إن تخبرهم بأنك أحببت كتابًا من قبيل (**كيف أنقذ الإيرلنديّون الحضارة**) حتى يظهروا عند عتبة بابك مدجّجين بالكتب الآتية: (**كيف اخترع الاسكتلنديّون العالم الحديث**)، (**عطايا اليهود**)، (**الهنود المِعطاؤون: كيف حول هنود الأمريكيّتَين العالم**)، ثم لا يلبثون أن يضيفوا يومًا ما: (**كيف اخترع البلغاريّون موسيقى الهيب هوب**). وإذا حدث أن أخبرتهم أنك أحببت كتاب (**لماذا يظلّ سيناترا مهمًّا؟**) أو (**لماذا يظلّ أورويل مهمًّا؟**) فأنت تمنحهم التّصريح اللامشروط ليجلبوا لك: (**لماذا يظلّ فيك ديمون مهمًّا؟**) أو (**لِمَ مازال نجم ج. ك. شيسترتون لامعًا؟**). حين أقدمتُ مرّةً – بمنتهى الغباء –

---

(1) **Holy Faces, Secret Places: An Amazing Quest for the Face of Jesus (1991)** – Ian Wilson.

(2) **Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom: A Challenge to Medieval Society (1956)** – David Ayalon.

(3) **The Golden Bough: A Study in Comparative Religion (1890)** – Sir James George Frazer.

على الكذب على صديقةٍ بشأن استمتاعي بقراءة «السيرة الذاتية المحظورة» لراي دايفيز، عازف فرق كينكس الرئيسيّ المعنونة: **(إكس راي)**[1]؛ فقد زادت الطين بلّةً بجلب نسخةٍ من كتاب آخر له يحمل عنوان: **(نزوة: سيرة ذاتية: القصة الشّائنة لسنوات حياتي المتسيّبة كمؤسس وعازف الغيثار الرّئيسي لفرقة كينكس)**. وبالطبع لن يطول الوقت حتى تجلب لي كذلك كتاب: **(ميك أفوري: حياتي كعازف الطبول الأصليّ بفرقة كينكس)**، ثم لن يطول الوقت حتى يحين دور: **(تبيت كايفي: ماذا أكون؟ عازفُ البيس بفرقة كينكس أو شخصٌ عاجزٌ عن التّطوّر؟)**.

لذلك توجّب عليّ أن أخبر صديقًا آخر بأنني كرهت رواية بوليسيّةً مثيرة للاهتمام كان قد تركها لديّ. الرواية تتحدّث عن منظّمةٍ خياليّةٍ تدعى «مكتب فيرمونت للتحقيقات» وقد كانت رواية جيّدةً بحقٍّ، لكن حين اكتشفت أن هناك على الأقل إحدى عشرة روايةً أخرى في تلك السّلسلة وأدركت أنه من المحتمل أن صديقي يتوفّر عليها جميعًا، خشيت أنه لن يتسنّى لي أبدًا، إطلاقًا، بلوغ كتاب ميغيل دي أونامونو: **(بعدٌ مأساويٌّ للحياة)**[2] إذا واصلت على هذا المنوال؛ وكون هذا الكتاب يحمل رقم 2127 على لائحتي، فأظن أنني - ببعض الحظّ - سأقرأه قبَيل أن ألفظ آخر أنفاسي على أية حالٍ.

***

(1) **X-Ray: The Unauthorized Autobiography (1994)** – Ray Davies.
(2) **Tragic Sense of Life (1912)** – Miguel de Unamuno.

إن عاداتي في القراءة - سواء تم التّشويش عليها أم لا - يطبعها تحيّزٌ إقليميٌّ وطبقيّ، ما يعني أنني لن أقرأ الكتب التي ترتاد فيها الشّخصيّات الرئيسيّة مدارس خصوصيّة؛ وأما الروايات الآتية: **(الحارس في حقل الشّوفان)**[1]، **(سلامٌ منفصلٌ)**[2]، **(مدرسةٌ حسنةٌ)**[3]، بالإضافة إلى سلسلة **(هاري بوتر)** جميعها غير مقبولةٍ، كما هو الحال أيضًا بالنسبة لرواية **(الوداع، يا سيد تشيبس)**[4] ومسرحية **(طلبة التّاريخ)**[5]؛ زيادة على ذلك، لن أقرأ أعمال بيلهام غرينفيل وودهاوس، وهو أرستقراطيٌّ متغطرسٌ كانت له يدٌ مع النازيين خلال إسقاط فرنسا؛ فهناك جرائم وخطايا يمكن غفرانها - الحرق العمد، جماع الحيوانات، تزوير الضريبة على الدّخل - لكن هذه ليست إحداها. من جهة أخرى، لا أستمتع بقراءة أعمال المؤلّفين الذين يبدو أنهم يجمّعون رواياتهم لَبنةً لبنةً، مثل توماس مان وسينكلير لويس، كما أتلافى - مهما كلّفني الثّمن - المؤلّفات التي تتعلّق بميلانخوليا الطّبقات المرفّهة، المراهقين الذين يعانون من اضطرابات اجتماعيّةٍ، وكذا المهاجرين الذين لا يقبلون بالرّفض جوابًا على ما يريدون.

قبل نحو عامَين، قدّم إليّ صديقٌ نسخةً من رواية دايفيد بينيوف: **(مدينة اللّصوص)**[6]؛ كان كتابًا موصى به بشدّةٍ، وبما أنني كنت قد شاهدت بالفعل الفيلم المؤثّر من إخراج سبايك لي: «الساعة الخامسة والعشرون»، المبنيّ على رواية بينيوف الأولى، فقد كنت أتحرّق شوقًا لقراءة تلك الرواية. وتجري أحداها خلال حصار النازيين للينينغراد سنة 1941، لتحكي قصّة مراهقٍ ستُرديه شرطة ستالين قتيلًا إذا لم يستطع تدبير سرقة اثنتَي عشرة

---

(1) **The Catcher in the Rye (1951)** – J. D. Salinger.
(2) **A Separate Peace (1959)** – John Knowles.
(3) **A Good School (1978)** – Richard Yates.
(4) **Goodbye, Mr. Chips (1934)** – James Hilton.
(5) **The History Boys (2004)** – Alan Bennett.
(6) **City of Thieves (2008)** – David Benioff.

بيضةً ستُستعمل في خَبز كعكة زواج ابنة كولونيلٍ روسيٍّ. وبما أن الأحوال قد ساءت بالمدينة لدرجة أن السّكان قد بدأ يأكل بعضهم بعضًا، فسيكون إيجاد البيض مهمّةً عسيرةً؛ لذا ومع فتح الصّفحة الأولى، تنبّهت حواسّي ترقّبًا لمغامرةٍ صاخبةٍ ومثيرةٍ.

لكن، بُعَيد ذلك تبدّد انتشائي كلّيًا، إذ إن الراوي – وهو حفيد الطّفل من القصّة – يكشف في الصفحة الثانية أن جدّه سيسافر إلى أمريكا بعد انتهاء الحرب وسيصير مشّجعًا لفريق اليانكيز. لقد دّمرني هذا الكشف تمامًا: فكرة أن أحدهم قد عاصر حصار لينينغراد المريع ونجا منه، ثم يقرر بكل طواعيةٍ أن ينضمّ إلى «إمبراطورية الشّر» تلك بالبرونكس؛ إنني أجد الأمر من ناحيةٍ أخلاقيّةٍ مَقيتًا بحقٍّ. لذلك وضعت الكتاب جانبًا، ثم تبرّعت به لاحقًا لصالح المكتبة العمومية؛ لعلّ أحد جماهير اليانكيز يستمتع بقراءته، أما أنا فأكيدٌ أنني لن أفعل. وعلى ذكر ذلك، أنا لا أقف ضدّ جماهير اليانكيز من حيث المبدأ، ما داموا من السّكّان المحلّيّين، ويُفضّل أن يكونوا قد وُلدوا في حيّ ذي برونكس أو يونكرز (لأنه من نافلة القول إن جماهير اليانكيز الذين ولدوا في حي كوينز أو بروكلين هم، بكل تأكيد، إسخرطيّون[1] خوَنةٌ!) لكن الأشخاص أمثالنا ممّن نشأوا في قرًى مصابةٍ بسُعار الرّياضة بطريقةٍ فطريّةٍ مثل فيلادلفيا، كليفلاند، شيكاغو، سانت لويس، وبوسطن؛ لا يستطيعون تحمّل هذا النوع من الوصوليّين والغرباء عن البلدة الذين يتحوّلون باستماتةٍ إلى جماهير مخلصين لليانكيز دون أن تكون لهم أية صلةٍ – أخلاقيّةٍ، ثقافيّةٍ، عرقيّةٍ، جينيّةٍ، أو جغرافية – بالفريق. أما الذين نجدهم مثيرين للاشمئزاز على وجه الخصوص فهم أولئك الذين يعتمرون قبّعاتٍ ورديّةً وتصادفهم بشكلٍ دوريٍّ في شوارع طنجة، زغرب، مومباسا، ولاهاي.

(1) نسبة إلى يهوذا الإسخريوطي، أحد تلاميذ المسيح الإثني عشر، الذي – حسب الأناجيل الأربعة – خان يسوع وسلّمه لليهود.

وفي حالة رواية **(مدينة اللصوص)**، فقد صُدمتُ لأن ناجيًا من حصار لينينغراد - وهو مستضعَفٌ بامتيازٍ - سيجد نفسه مُجبرًا أخلاقيًّا على أن يصير مشجّعًا لفريق «دودجرز»، ثم ربّما قد يتحوّل إلى مشجّعٍ لفريق «ميتس» بعد أن أخلَت الإثارةُ حيّ فلاتبوش، لأن هذه الفرق باهتةُ الأداء، مضطهَدةٌ وديموقراطيّةٌ. وقد تزامن وصول الرّجل إلى نيويورك تقريبًا مع المشهد الافتتاحي من رواية دون دي ليلو: **(عالمٌ سُفليٌّ)**[1] - وهو كتابٌ قد قرأته - حيث يواجه فريق «دودجرز» فريق «جاينتس» داخل أبراج بولو غراوندس. ورغم أنني نشأت على كره كلا الفريقين، إلا أنهما ليسا ما قد يصفه المرءُ بـ «الشرّ»؛ ولا فريق «ميتس» كذلك؛ إنهم يظلّون مزعجون ليس إلا. ومع ذلك يظل من غير المعقول أن ناجيًا من الحصار النّازيّ للينينغراد سيصبح لاحقًا مشجّعًا لليانكيز. في المقابل، أعتقد أن ستالين كان سيشجّع هذا الفريق، لأنه شخصٌ يحبّ أن يتّحد ضد الضّعفاء والعُزّل، وقد كان هو ذاته المتسابقَ الأول، في الصدارة، إذا كان هناك شيءٌ من هذا القبيل.

إن رفضي لقراءة الكتب التي تأتي على ذِكر سيرة اليانكيز أو مشجّعيه القذرين تمتد لتشمل الكتب التي يكون مؤلّفوها مشجّعين للفريق. وبالتالي حين علمت أن قلب سلمان رشدي بدأ يميل إلى اليانكيز، أزلت كل فرصةٍ نهائيًّا لقراءة كتابه **(آيات شيطانية)**، بغضّ النظر عن جودته. ويعود أصل سلوكي الانتقامي هذا إلى المبدأ من جهة، ومن جهة أخرى إلى أسبابٍ مَرَضيّةٍ: لأنني، وكمعظم الأمريكيّين، أمقُت نجاح فريق اليانكيز على المستوى الرّياضيّ، متمنّيًا أن يمضي فريقي المفضّل البئيس ويشتري البطولات بمِلء اليد وبالحَفْنات؛ لكن أكثر ما أمقته هو فكرة أن مشجّعيه يختبرون بهجة الفوز وألم الخسارة بالطريقة ذاتها مثل بقيّتنا. إن هؤلاء المشّجعين لم يؤدّوا ما عليهم ليستحقّوا تلك البهجة؛ ليس الأمر أنّي أريد التأكيد على ذلك،

---

(1) **Underworld (1997)** – Don DeLillo.

ولكن أن تكون مشجّعًا لليانكيز فهذا يجعلك شخصًا تافهًا، عكسنا نحن، مشجعو باقي الفرق. إن تشجيع اليانكيز - حسب قول صديقٍ لي يشجع فريق «كيوبس» - أشبه بتشجيع الهراء؛ إن المجازفة التي يتخذها هؤلاء المشجعون أشبه بتشجيع كلاب بيتبول ضارية خلال عرضٍ يجمعها مع أرانب عرجاء، معصوبة العينَين.

إن نفوري واشمئزازي بخصوص اليانكيز لا نهاية لهما، فأنا أرفض كذلك قراءة الكتب التي يكون لشخصّياتها أو مؤلفيها أية علاقةٍ - كيفما كانت - مع فِرق الآتية: دالاس كاوبويز، لوس أنجلوسِ لايكرز، فريق جامعة «دِيوكْ» لكرة سلة الرجال، فريق كرة قدم جامعة كالفورنيا الجنوبية، أو مانشستر يونايتد، وهو التوأم الإنجليزيّ الخسّيس لليانكيز في كرة القدم. كل هذه الكيانات السالف ذكرها شرّيرةٌ ملعونةٌ، لا يمكن إنقاذها. وكرهي الذي لا يقبل الصّفح، على وجه الخصوص، موجّهٌ لمانشستر يونايتد - الفريق القديم للفتى الفاتن دايفيد بيكهام - لدرجة أنني حين التقيتُ كاتبة الغموض الموهوبة فال ماكديرميد في مهرجان دبلن للكُتّاب قبل سنتين واكتشفت أنها مشجعةٌ لمانشستر يونايتد (رغم أنها لم تكن من مانشستر، وهو أمرٌ لن يفاجئ أحدًا!)، قمت في الحال بتفريغ مكتبتي من كل مؤلفاتها وشرعت أغتابها وأذكرها بسوءٍ عند أصدقائي.

أنا جادٌّ تمامًا، ولا أمزح، في هذا الصّدد.

لحسن الحظ أن هناك رواياتٍ أثيرةٍ قليلةٍ فقط هي ما تأتي على ذكر اليانكيز، اللايكرز، الكاوبويز، أو مانشستر يونايتد. وذلك ليس من قبيل الصّدفة، إذ إن المحرّرين قد فهموا قبل وقتٍ طويلٍ بأن السماح لكاتبٍ بأن يجعل شخصيّاته مرتبطةً بعلامةٍ تجاريّةٍ رياضيّة عالميّة [اسم ذلك الفريق] قد يصدّ ملايين القرّاء المحتمَلين عن اقتناء العمل، وبالتالي حثّوا هؤلاء الكتّاب بمنتهى اللّطف على اقتصاص مثل هذه الإشارات، خصوصًا إذا كانت تظهر

في مرحلة مبكّرة من القصّة، حين يكون القارئ ما زال بصدد اتخاذ قراره بالغوص في الكتاب من عدمه. وهنا بعض الأمثلة لمقاطع حُذفت - بحكمة - من مسودّات كتّاب كبار قبل أن تصل إلى المطابع:

«لقد كانت أفضل الأزمنة، وكانت كذلك أسوأها. كان شارلز دارني مشجّعًا للطّرف المستأسِد الذي يمثّله فريق «اليعقوبيّين» (Jacobins)، بينما كان سيدني كارتون متحمّسًا للغاية لرؤية شباب الصّف الأول من مانشستر يونايتد...»

شارلز ديكينز، (قصة مدينتَين).

«لوقتٍ طويلٍ كنت أخلد إلى فراشي باكرًا وأختبئ تحت الأغطية، أمضغ قطع المادلين البائتة التي أخفتها مدبّرة البيت في مئزرها من أجلي، بينما أنهمك في قراءة آخر الإنجازات المثيرة لفريق «برونكس بامبرز»...»

مارسيل بروست، (طريق البجعة).

«كان مستلقيًا على أرضية الغابة البنّيّة ذات أشجار الصّنوبر الكثيفة، وعاليًا فوق رأسه كانت الرّيح تعصف عند أعالي الأشجار، ما جعل من الصّعب التقاط إشارة راديو بث مباراة ميشيغان ضد فريق جامعة كاليفورنيا الجنوبية لكرة القدم الأمريكيّة.»

إرنست هيمينغواي، (لمن تُقرع الأجراس).

«لم يكن بالإمكان أن نخرج للمشي ذلك اليوم، لذا اقترح روشستر أن نجلس جميعًا لمشاهدة مباراة نهائي الكأس بين «السبيرز» و«مان يونايتد».»

شارلوت برونتي، (جين آير).

«لقد توفّيت ماما اليوم. أو لعلّ ذلك حدث يوم أمس، ربما. لا أعلم. لقد تلقّيت رسالة تيليغرام تقول: «توفّيت الوالدة. حفل التأبين غدًا. تذاكر اللايكرز مازالت متوفّرة.»

الفصل السادس

متلازمة ستوكهولم

أحاول أحيانًا أن أفكّر في مرّاتٍ بعينها أنهيت كتابًا أحدث تغييرًا هائلًا في حياتي؛ وأنا لست بصدد الحديث عن الدور الكارثيّ الذي قد تلعبه كتبٌ من قبيل **(سلامٌ منفصلٌ)**[1] أو **(الحارس في حقل الشّوفان)** في تحويل أعزّ أصدقائك إلى شخصٍ انتحاريٍّ أحمقَ، أو الطريقة التي قد يجعل اكتشافُ نسخة من رواية **(الأنثى المخصيّة)**[2] على المنضدة بجوار سرير حبيبةٍ تلكَ العلاقة الملتهبة و«الأكروباتيّة» تتوقّف في أعقابها، في الحين؛ كلّا، بل أتحدث عن الكتب التي أثّرت فيّ بقوّةٍ خلال وقت قراءتها لدرجة أنها غيّرت حياتي.

صراحةً، لا يخطر ببالي الكثير من العناوين. أجل، يمكن بكل تأكيدٍ أن تتلقّف إشاراتٍ من كتبٍ من قبيل **(الإلياذة)**، وأخصّ بالذّكر المشهد المروّع حيث يقوم أخيل بتشويه جثّة هيكتور، كما حين يحذّر هومر منتهِكي حقوق الإنسان من الطّينة ذاتها عبر العصور: حين تبلغ الأمتار الأخيرة من الملعب، تصرّف كما لو أنك كنت هناك من قبل، ويمكنك تعلّم أشياء لا تعدّ ولا تحصى من **(مذكرات سنة الطّاعون)**[3] و**(ملخّص نزولٍ إلى الجحيم)**[4] بل وحتى من الكتاب الخليع **(120 يومًا في سدوم)**، وهي أمورٌ ستضعك في مقامٍ أفضل لاحقًا في حياتك، أو على أقلّ تقديرٍ، فإن التأثير التراكميّ لقراءة

---

(1) **A Separate Peace (1956)** – John Knowles.
(2) **The Female Eunuch (1970)** – Germaine Greer.
(3) **A Journal of the Plague Year (1722)** – Daniel Defoe.
(4) **Briefing for a Descent into Hell (1971)** – Doris Lessing.

عددٍ هائلٍ من الكتب العظيمة سينقذك من «الوحشيّة المبتهِجة» التي تمثّل النّظام التّلقائيّ للعديد من مواطنيك. لكن لو كان عليّ اختيار كتابٍ بعينه والقول إنه كان مسؤولًا عن هذا التطور في حياتي أو ذاك، فسأجد نفسي تحت ضغطٍ كبيرٍ من أجل تحديد عنوان ذلك الكتاب. لقد أحببت قراءة الرّوايات: **(روبنسون كروسو)**[1]، **(إقناع)**، بل وحتّى **(مونراكر)**[2] حين قرأتها أول مرة، جعلتني أشعر بأنني أكثر رقيًا وخبرةً بشؤون النّاس والحياة؛ لكن لا يمكنني القول بأن أيًا منها قد غيّر حياتي؛ لكن لعلّ حياتي كانت ستأخذ مسارًا مختلفًا تمامًا لو أنني قرأت **(ميدل مارش)** خلال سنّ مبكّرةٍ.

إن أقرب كتابٍ مرشّح أستطيع استحضاره هنا هي مسرحية هنري دو مونترلان: **(الملكة الميّتة)**[3]؛ ويكاد يكون هذا الكتاب الفرنسيّ كاتبًا خالدًا تقريبًا، مع أنه مجهولٌ تمامًا في الولايات المتّحدة. ولد مونترلان في العشرين من أبريل 1885، ولفظ آخر أنفاسه يوم الحادي والعشرين من سبتمبر/أيلول 1972، وقد كان روائيًا وكاتبًا مسرحيًا في منتهى الصّرامة، أشهر أعماله المسرحيّتان: **(الملكة الميّتة)** و**(بور روايال)**[4]، رغم أنه كتب رواياتٍ ممتازةً – ولو أنها متشدّدة – من بينها: **(الفتيات الصغيرات)**، **(العزّاب)**، و**(الفوضى والليل)**[5]. لقد قرأت مسرحيّة **(الملكة الرّاحلة)** خلال دراستي لمادة الفرنسية بالجامعة، وما زلت أجهل السّبب وراء ذلك إلى يومنا هذا؛ أذكر أنني كنت أهوى ركوب الحافلة «ج» من البيت إلى الجامعة بعد ظهر الجمعة، مهنّئًا نفسي على كوني الرّاكب الوحيد الذي يقرأ لجان جيرودو، أندريه مالرو، وهنري دو مونترلان، في لغتهم الأصليّة «الفرنسية» أو عبر

---

(1) **Robinson Crusoe (1719)** – Daniel Defoe.

(2) **Moonraker (1955)** – Ian Fleming.

(3) **La reine morte (1942)** – Henry de Montherlant.

(4) **Port-Royal (1954)** – Henry de Montherlant.

(5) **Les jeunes filles (1936), Les célibataires (1943), Le Chaos et la Nuit (1963)** – Henry de Montherlant.

التّرجمة. كنت أشعر بإثارة من اعتنق ديانةً حديثًا، إثارة قراءة محتوًى يقتصر على فئةٍ محدّدةٍ، بلغةٍ أجنبيّةٍ؛ وإثارة أن يتم قبولي ضمن نخبة العارفين (كانت تلك إثارة سنتي الثانية في الجامعة!). وإلى يومنا هذا مازالت الحافلة «ج» تشق طريقها جيئةً وذهابًا عبر شوارع فيلاديلفيا، وأنا متأكدٌ أنني لو ركبتها عصرَ هذا اليوم، فسأجد أنها مازالت خاليةً تمامًا من أيّ قارئٍ لمونترلان؛ ذلك أن فيلاديلفيا ليست نوع القرى الملائمة لهذا الكاتب.

إن معرفة أعمال هنري دو مونترلان عن كثبٍ لَهو إنجازٌ بحقٍّ، إلا أنه ليس من صنف الأعمال التي ينخرط فيها المرء متوقّعًا أن يجني منها الكثير في نهاية المطاف. ففي السّير العادي للأمور، كانت مغازلاتي لكتاباته خلال سنوات المراهقة ستظلّ مطمورةً داخل ضريح ثقافيٍّ يضمّ علاقات عابرةٍ مع مؤلّفات بول موراند، هنري ترويا، إلسا تريوليه، بالإضافة إلى باتريك موديانو، وهو كاتبٌ فرنسيٌّ موهوبٌ يحمل اسمًا عائليًا - مثل مونترلان - ليس شائعًا في البيوت الأمريكيّة. أجل، كان يمكن أن أسحب أحد هذه الأسماء من قبّعتي ذات يوم، على الأرجح لإلقاء ملاحظةٍ نبيهةٍ من قبيل: «أستعير كلماتي اليوم من الكاتب الخالد هيرفي بازين» أو «كما نجح روجر بيريفيت في صياغة ذلك بمنتهى الرّوعة في إحدى طرائفه»؛ وما كان دور هؤلاء الكتّاب في حياتي ليتعدّى مثل هذا الأمر.

لكن هنري دو مونترلان ظلّ الاستثناء، وقد حدث أنه فارق الحياة بعد وصولي لباريس سنة 1972 بوقتٍ قصير. فبعد أن فقد بصره، أطلق النّار على نفسه، ولم يكتفِ بذلك، بل ابتلع قبلها بلحظة حفنة من أقراص السّيانيد السّام ليقطع السبل على النجاة، وبذلك انتهت حياته مع بداية حياتي كبالغٍ. كنت حينها أمكث في لوكاندةٍ تديرها أرملةٌ هزيلةٌ متجهّمةٌ سأدعوها «مدامٍ س.». في المبنى يقع داخل فناء خاصٍّ، في شارع جانبيٍّ هادئٍ ومبتذلٍ لا يفصله عن بولفار مونتبارناس إلا حيٌّ وحيدٌ جنوبًا. لقد تم تحويل تلك الإقامة إلى

لوكاندةٍ تقطن بها الآن ممرّضاتٌ كنديّاتٌ «فوّارتٌ» ناطقات بالفرنسيّة كنّ حينها في تدريب عملٍ داخل مستشفى الأطفال القريب. كانت الممرّضات كلّهن أكبر منّي بخمس إلى عشر سنواتٍ وقد بدأت أروق لهنّ بعد أن صرن يحبّذن خروجي رفقتهن، كما أن وجودي بينهن كان مصدرًا للأمان حين يزرن المناطق القذرة من باريس ليلًا؛ لقد تبنّينَني كتميمةٍ جالبةٍ للحظّ أو شيءٍ من ذلك القبيل. وقبل عودتهن إلى وطنهّن تركن لي تذاكر المترو غير المستعملة التي بقيت في حوزتهن (لم تُسدِ إليّ امرأةٌ قطّ معروفًا أكبر من هذا).

ذات مساء جمعةٍ رجعت إلى البيت لأجد «مدام س.» في غرفة الجلوس، تحتسي كوب شايٍ بالأعشاب وتتابع على التلفاز برنامجًا يَدّعي تكريم روح مونترلان. لقد كانت تلك فترة الذّروة، (فترة كان يُذاع خلالها في الولايات المتّحدة مسلسلا: The Brady Bunch و Baretta). أطللتُ برأسي، وسألتها بلغتي الفرنسيّة العرجاء والمُريعة – التي لم تتحسّن في الواقع كثيرًا إلى يومنا هذا – عمّا إذا كان بإمكاني أن ألقي نظرةً على البرنامج، بعد أن تطوّعت بإخبارها عن قراءتي أحد أعمال مونترلان في الجامعة، وبالتّحديد: مسرحيّة **(الملكة الميّتة)**؛ فانصعقتْ تمامًا لسماع ذلك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن «مدام س.» لم تكن لطيفة البتّة، بل كانت متصلّبةً ومتجهّمةً، ذات صوتٍ خشنٍ، تسريحة شعرٍ متشدّدةً، سلوكٍ متسلّطٍ ومتغطرسٍ، ولها كلبٌ شرّيرٌ اسمه «موسيو ديغ». لقد كانت أول شخصٍ سليطٍ ألتقيه هناك، وكانت أشبه بأولئك الفرنسيّين ذوي التفكير التّجاري المحضَ الذين أسِفوا لمغادرة النازيين في صيف 1944، لأنهم – عكس العاهرات والأنذال من منطقة بيكاردي – يدفعون الإيجار دومًا في الميعاد. لقد كان جميع سكّان اللّوكاندة يخشونها: كانت توبّخ الممرّضات على الدّوام بسبب الخروج حتى وقتٍ متأخرٍ، ترك أنوار المطبخ بالقبو مضاءةً، أو إحداث جلبةٍ بأحذيتهن ذات الكعب العالي خلال صعودهن السّلالم خلال السّاعات الأولى من الصّباح

والنّاس نيامٌ. لقد كانت أشبه بوالدتهن، أو خالتهن، إذ منحت نفسها حقّ الوصاية الأبويّة عليهن. وعمومًا، إذا لم تكن موافقةً على أمرٍ ما، فإن معاقبتهن بعدم الخروج من البيت كان خيارًا قائمًا دومًا كما يبدو.

لكنّ «مدام س.» كانت، لسببٍ ما، لطيفةً دومًا في تعاملها معي. لا أقصد أنها كانت تدردش معي بدفءٍ وحنانٍ أموميّ؛ كلا، لكنها على الأقل لم تكن مريعة بشكلٍ مقصودٍ، كتعاملها مع القادمين من إسبانيا وفنزويلا (الذين كانت تمقتهم) أو مع الممرّضات الكنديّات الناطقات بالفرنسيّة (الذين بدا أنها تراهم كمتعلّماتٍ فاجرات، في أثوابهن القصيرة، ولكنتهنّ الرّيفيّة)، كما أنها لم تكن تبالي كثيرًا بذلك الشّرطيّ اليوغوسلافيّ المُتذاكي؛ إلا أنها، ولسببٍ غير مفهوم، لم تكن تتضايق منّي ومن وجودي: لقد منحتني صفقةً رائعةً بخصوص الغرفةً المطلّة على الحديقة حيث مكثتُ خلال أول شهرٍ قضيتُه بباريس، وكان ذلك أفضل مكانٍ أعيش فيه في حياتي برمّتها. ولاحقًا، بعد رحلةٍ كارثيّةٍ إلى غرونوبل «التطهيريّةٍ»، حيث كنت أعتزم التسجيل في الجامعة هناك، رجعت سريعًا نحو مدينة الأنوار وبالضبط إلى فندقها. لم تنزعج البتّة برؤيتي عائدًا مجدّدًا إلى شارع مايبيت، وسمحت لي بالانتقال إلى غرفةٍ ضيّقةٍ دون إطلالة على الحديقة أو أية مزيّةٍ أخرى مقابل عشرين فرنكا (2.40 دولار) لليوم، ومكثتُ هناك للأشهر الثمانية التالية في حالةٍ من النّعيم الملائكيّ بخس الثّمن.

كانت الغرفة كوّةً مبجّلةً تفوح برائحةٍ نفّاذةٍ - تصيب بالغثيان أحيانًا - قادمةٍ من مطبخ القبو، إلا أنني لم أكن أبعد بأكثر من ثلاثين مترًا عن شارع مونتبارناس الأسطوريّ، زيادة على أن محطّة قطار الأنفاق «دوروك» كانت في نهاية الشّارع؛ كما أن البناية كانت مليئة بالكنديّات المؤنسات النّاطقات بالفرنسيّة اللاتي كنّ يتلقّين من عائلاتهن سجائر «دي مورييه» الفوّاحة ويشاركننها بكلٍ فرحٍ مع مواطنهن من «العالم الجديد». لذا، ولكل هذه الأسباب، كان نزل «مدام س.» جيدًا للغاية بالنسبة لي.

وكما هو متوقّعٌ، فقد كنت عربيدًا خلال تلك الفترة، أدخل المبنى طوال الوقت على الساعة الثالثة صباحًا، ثملًا، قادمًا من نوادٍ ليليّةٍ غامضةٍ لا أفلح في إيجادها في اليوم الموالي بعد أن أصحو من سُكري. أحيانًا، كنت أواجه صعوبةً في إدخال المفتاح في القفل، وكنت أحدث جلبةً عارمةً وأنا أجرجر قدميّ وجسدي الثقيل صعودًا على السّلالم؛ كما أنّني كنت أستمع إلى أغاني فرقتَي «سليد» و«تي ريكس» خلال ساعات النهار واللّيل؛ ومن حين لآخر كنت أجلب فتياتٍ من على الرّصيف إلى عريني، عرين الفسوق، وقد كان ذلك ممنوعًا تمامًا؛ بل إنني أحيانًا لم أكن أتعب نفسي بإحضار الفتيات، إذ كنت أقضي الليلة في فراش إحدى الممرّضات الكنديّات، وهو الأمر الذي كان أكثر منعًا من سابقه؛ ولأزيد من الشّعرِ بيتًا، فقد كنت أمريكيًّا وبالتّالي: بربريًّا. ورغم كلّ ذلك، اختارت «مدام س.» أن تُشيح بوجهها بعيدًا وتغضّ طرفها عن كلّ خروقاتي لقوانينها الدّاخليّة. لقد كنت جلفًا، لا مباليًا، غِرًّا، وفاحشًا، ولم يبدُ مع ذلك أن الأمر يزعجها؛ لكنّ والحقّ يُقال: وقفت أمام بابي ذات ليلةٍ وطالبتني بتفسيرٍ للأصوات الثّاقبة والمجلجلة التي كان يشتكي بخصوصها الكاثوليكيّ الفاشيّ الملغّز الذي يقطن بالغرفة التي في نهاية الرّواق، ولا بد أنها عرفت من الطريقة التي كنت أثبّت بها الباب بأن إسبانيةً دون مليّم واحدٍ وفي حاجة إلى مكان تبيت فيه تلك اللّيلة كانت مستمّرةً خلف الباب (رغم أنها لم تدرك على الأرجح أن الفتاة كانت إسبانية، ولا أنها كانت مفلسةً)، لكنها غضّت الطّرف عن ذلك أيضًا. لو كان أيُّ شخصٍ آخر مكاني لرمته إلى الشارع حينها؛ لكنها في حالتي، لم تفعل.

في النهاية، أظن أن الأمر راجعٌ إلى هنري دو مونترلان، لأن قراءة أعمال هذا الكاتب من طرف شخصٍ فرنسيٍّ شيءٌ، وأن يكون من قرأ له أمريكيًّا وشابًّا فذلك أمرٌ آخر كلّيًّا؛ أما إذا كنت تعرف تاريخ ميلاده بالضبط، ثم جلست بمنتهى الصّبر والاحترام بغرفة المعيشة لبضع دقائق لرؤية رفاقه وهم

يقدّمون له وداعًا مهيبًا، وبدا عليك أنك تشاركهم نعيَه، فذلك أمرٌ لا يمكن تصوّره حتى. من السّهل للغاية خداع الفرنسيّين، كل ما عليك القيام به هو إدراج بعض التعليقات الإيجابيّة عن «كوكو شانيل» و«بيبان القصير[1]» معظم الوقت وستجد أنك صرت مرحّبًا بك كما لو أنك في بيتك. وخلال ذلك المساء الأثير من سبتمبر/أيلول، قدّمت تحيّة إجلالٍ لهنري دو مونترلان، وبالتالي لفرنسا برمّها.

لم أقرأ مؤلّفات مونترلان في الجامعة وأنا أحسُب قبل سنواتٍ من ذلك المزايا التي قد أكسبها بسبب هذه «الخرجة الاستطلاعية» نحو البراري الأدبيّة الفرنسيّة، لكن ذلك قد كُلِّل بالنجاح في نهاية المطاف. وفي انتقالي من أزمةٍ منزليّةٍ إلى الأزمة التي تليها، كان هنري دو مونترلان هو من ينقذ جلدي مرّة تلو أخرى.

وفي ظل كل ما سبق، لم أستمتع بقراءة أعمال مونترلان قطّ لأنه «صارمٌ» للغاية؛ لعلّ المسافرين على متن الحافلة «ج» في فيلادلفيا كانوا محقّين إلى حدٍّ ما في عدم قراءته.

خلال السنة التي قضيتها في فرنسا، اهتديتُ إلى مجموعة من العادات الثابتة، وقد كانت تتعلّق في معظمها بالكُتّاب. كنت أخصّص دولارًا ونصف الدّولار من أجل دفع ثمن مقعدٍ خلفيٍّ بخس الثمن في مسرح الكوميديا الفرنسيّة ثلاث مرّاتٍ أسبوعيًّا، على أمل أن يلتصق بي حسّ موليير الفكاهيّ. لقد كانت جدران المسرح مكتظّةً بالعديد من صور الكتّاب المسرحيّين الفرنسيّين الخالدين - كورناي، راسين، هيغو، دو موسيه، بالإضافة إلى بعض الكتّاب المسرحيّين الأقل شهرةً ممّن لم يتعدّ صيتهم حدود البلاد. لقد كان المبنى مشبّعًا - وربما «موبوءًا» - بالتّاريخ الذي كان بعضه رثويًّا؛ إذ إن موليير

(1) **بيبان الثالث** (الملقّب بالقصير) ملك الفرنجة من عام 752 حتى وفاته عام 768.

قد بدأ يسعل ويطرح الدّماء خلال عرضٍ لمسرحيّة **(المريض الخياليّ)**[1] بهذا المسرح يوم 17 شباط/فبراير 1673، وتوفّي في ليلتّها بالذّات. ولكونه قد فتح النار على الكنيسة الكاثوليكيّة فيمسرحيّة **(طرطوف)**[2] بهجوم وحشيّ على القساوسة الفرنسيّين الذين طفح منه كيلُهم، فقد تم دفنه تحت جنح الظلام في مقبرة «بير لاسيز»، المثوى الأخير لبومارشيه، لافونتين، وأبولينير، بالإضافة إلى أوسكار وايلد، وجيم موريسون.

إنها بلدةٌ استثنائيةٌ بحقٍّ!

لم يكن بإمكان المرء تلافي مشاهير الكتّاب بباريس، فحيثما ولّيت وجهك تجد دليلًا على أنهم كانوا هناك يومًا: بيت فكتور هيغو في «ساحة دي فوسغ»، الكنيسة المقابلة للبانثيون حيث دُفن راسين، فندق لافونير حيث توفّي أوسكار وايلد، اللافتات على جنبات المباني التي تخلّد بول إليوارد، أندريه بريتون، وجورج ساند. إن الفرنسيّين يقدّسون الكتّاب كما يقدّس الأمريكيّون لاعبي البيسبول البارعين في استعمال المضرب بكلتا يديهم؛ وحيثما وليّت وجهك تجد شارعًا سُمّي على اسم كاتبٍ، وتجد مكتباتٍ حبلى بكل الرّوائع والتّحف - بأقلام فلوبير، دو مونتين، ورابليه - تظل أبوابها مفتوحةً حتى وقتٍ متأخرٍ. لم تكن محلّات الكتب مختلفةً كثيرًا عن محلّات المجوهرات. إنها تجذبك، تخدّرك، وتُذهب عقلك. وبعد وقتٍ قصيرٍ، صار جليًّا أن باريس مدينةٌ خُلقت من أجل الكُتّاب، إذ إن العديد من أعلام الكتّاب قد خطّوا مؤلّفاتهم الشّهيرة بباريس، والعديد منهم دفن فيها تحت جنح الظّلام؛ كما أن الكثير منهم أصبحوا مشاهير فيها. وفي المقابل، لم يكن لدينا شيءٌ مشابه لهذا البتّة - ولو من بعيد - في فيلاديلفيا، بل لم يكن لدينا شيءٌ مشابه في الولايات المتحدة برمّتها.

---

(1) **Le Malade imaginaire (1673)** – Molière.

(2) **Tartuffe (1664)** – Molière.

خلال إقامتي بباريس، كنت أتبع عددًا من الطقوس - التي لم أفكّر فيها مليًّا - المتعلّقة بأعلام الكتّاب. لكن الجميع كانوا يفعلون ذلك على أية حالٍ، وكانت لهم الطقوس ذاتها. فإذا زارك صديقٌ من الولايات المتحدة، تأخذه إلى «كافي دو فلور» Café de Flore، المقرّ القديم لأكبر مثقّفي فرنسا من زمن ما بعد الحرب، أو إلى «لي دو ماغو» Les Deux Magots، حيث ساعد كامو كلًّا من سارتر وسيمون دي بوفوار في ابتكار مفهوم الوجوديّة ذات مساءٍ دافئ من فبراير سنة 1946؛ أو بإمكانك اصطحاب زائرك إلى بولفار مونتبارناس لتحظيا بكأس كير[1] في مقهى «لا غوتوند» La Rotonde، «لا كوبول» La Coupole، أو «لو دوم» Le Dôme، التي ستظل - بثقافتها وأسطورتها - مرتبطةً إلى الأبد بهمنغواي، فيتزجيرالد وزيلدا، وكل اللاعبين الأساسيّين في فريق «الجيل الضّائع». لقد كانت تلك الأماكن باهظةً إلى حدٍّ مرعبٍ؛ فإذا مضت الأمور على خير ما يرام، يسبقك صديقك الزائر ويتلقّف الفاتورة؛ سوى ذلك، ما دمت تعيش على مبلغ ثلاثة وعشرين فرنكًا في اليوم، اثنا عشر منها مخصّصةٌ للإيجار، فذلك يعني أنك لن تتناول شيئًا لبقيّة اليوم، الأمر الذي يجعلك تعيد إحياء مشاهد من رواية **(عيدٌ متنقّل)** و**(أيامٌ هادئةٌ في كليشيه)**[2]، أما إذا أخذت الأمور منعطفًا في منتهى السّوء، فستجد نفسك وسط أجواء **(البؤساء)**[3]؛ وقد كان ذلك يدخل بهجةً وسرورًا عظيمَين على قلبي. لقد غادر الكتّاب والمثقّفون هذه الأماكن منذ زمنٍ طويلٍ - إن المقاهي تغصّ بالسّيّاح والمزيّفين وأشخاصٍ مثلك - لكن ذلك لم يكن مهمًّا، فأنت تزور تلك الأماكن كطريقةٍ لتبجيلٍ عظماء الكتّاب من زمنٍ ولّى؛ لم تكن تتباهى، بل كنت تستحضر ذكراهم بالمكان؛ وقد كنت

(1) كوكتيل كحولي يقدّم عادةً قبل الوجبات.

(2) **Quiet Days in Clichy (1956)** – Henry Miller.

(3) **Les Misérables (1862)** – Victor Hugo.

تستعمل ضمير المخاطب المثير للسّخط لأنها الطريقة التي كان يكتب بها همنغواي، وفي النهاية ستتخطّى ذلك.

إن زيارة تلك المقاهي أشبه بزيارة كولوسيوم روما: لا يهم إن لم يعد المصارعون الرّومان بالمكان، لأنهم كانوا هناك يومًا؛ لكنهم لم يكونوا قطّ في فيلاديلفيا.

بعد وصولي إلى باريس بوقتٍ وجيزٍ، بدأت بزيارة قبور الكتّاب المشاهير. ففي «مقبرة مونتمارتر»، تستطيع زيارة قبر ستاندال وزولا، رغم أن رفات الأخير نُقل إلى البانثيون. وفي «مقبرة بير لاشيز»، كانت شواهد القبور تضمّ: موليير، وايلد، كارون دو بومارشي، أبولينير، وموريسون، بالإضافة إلى غرترود ستاين، إيديث بياف، إيسادورا دنكن، جون بابتيست كامي كورو، أونوري دومي، جيل ميشليه؛ ولن تجد فقط إلويز هنا، بل ستجد أبيار كذلك العاشقان من مسرحية[1] تحمل اسمهما. وقد كانت «مقبرة مونتبارناس»، أكثر المقابر مركزّية مع أنها أكثرها هدوءًا، تُأوي الجميع بداية بغاي دو موباسون إلى بودلير، ولاحقًا سارتر وبوفوار وصامويل بيكيت وزوجته سوزان، دون أن ننسى برانكوسي، تريستان تزارا، وزوجة ماريشال بيتان، التي عانت طويلا: «آني».

لقد قرأت كل القصص القصيرة التي كتبها دو موباسون خلال دراستي بالجامعة وأحببتها جميعًا، إلا أن قبر بودلير كان أكثر إثارةً للدهشة: منتصبًا بأحد أركان المقبرة لوحده، مع نقشٍ مهيب لجسد الشّاعر على الصّخر. وفوقه يجثم غولٌ بشعٌ يبدو كأنه غارقٌ في التّفكير، كأنه يحاول تذكّر كلمة كانت على لسانه قبل وهلةٍ، لعلّها «الكلمة المناسبة». كنت أزور المقبرة بوتيرة مرةٍ في الأسبوع تقريبًا، وقد بدا ذلك من الأشياء التي يجب على كاتبٍ شابٍّ واعدٍ القيام بها. لم يكن هناك شيءٌ في أسلوب بودلير مما قد يفيدني، لأنني لم أكن مهتمًّا كثيرًا بالشّعر، كما أن أعمال بودلير حالمةٌ، ملغّزةٌ، وملتبسةٌ بفعل تعاطيه

---

(1) **Héloïse et Abélard (1949)** – Roger Vailland.

للمخدّرات، زيادة على أنه يصعب قراءة نصّها باللغة الأصليّة (ثم إنه كان يرتدي ثيابًا سخيفةً!). لكن سمعةَ بودلير كانت عظيمةً وأسلوبه كان بديعًا، وقد ابتكر عباراتٍ من قبيل «الرّيح التي يحدِثها جناحُ البلاهة»، وبالتالي استمتعت بتلك الزيّارات إلى المقبرة أيّما استمتاع.

ولا ننسى أن اسمه كان أحد تلك الأسماءِ الرّائعة: إن اسم «بودلير» أكثر إيحاءً بسبعين مرّةً من «بيرغسون» أو «بودريار»، كما أن وقعَه على الأذن أفضل مِن وقْع «بيتّي». ولم يسبق لي أن زرت باريس – خلال المرّات الثلاثين التي تلت ذلك – دون زيارة قبر بودلير، وأفترض بأنني لن أفعل ذلك أبدًا. وعلى مستوى لا واعٍ، أشكّ أن كل ذلك لم يكن سوى طريقةٍ لتذكير نفسي بالأشواط الطويلة التي قطعتها بعيدًا عن ذلك المشروعٍ السّكني البئيس في فيلاديليفيا، وعن مدينة الحبّ الأخويّ عمومًا. ففي مشاريع كواكر سيتي السّكنيّة، حيث نشأت، لم يكن أحدٌ يبالي بشارل بودلير، وأقلّ منه بديوانه: **(أزهار الشّر)**[1]. لقد كان الجميع يشعر بالطّريقة ذاتها تجاه: جون غيرودو، وهنري دو مونترلان، ولسان حالهم يقول: «إنهم فرنسيّون؛ يا لهم من مُريعين! هلّا انتهينا منهم!»

ذات يوم، وقد مضى على قدومي حينها ستّة أشهرٍ تقريبًا، قرّرت أنني في حاجة إلىً تغيير الأجواء لأن باريس تكون رماديّةً كئيبةً خلال فبراير، كما أن صديقتي الكنديّة ـ الفرنسيّة قد غادرت لتوّها إلى مونتريال لتواصل حياتها، وعلمت أنني لن أراها مجدّدًا، وبالتالي فقد كان الوضع يتطلّب القيام بأمرٍ جللٍ. قرّرت الانطلاق في سفرٍ تطفّليٍّ صوب شرق فرنسا وزيارة بلدة آرثر ريمبو: لينيفيل، التي لم تكن وجهتي الأخيرة ولا ذات الأولويّة؛ إذ إنني قرّرت زيارة صديقٍ أعرفه منذ زمن الكلّيّة. لقد كان متخصّصًا في اللغة الفرنسيّة خلال سنة تخرّجه، وكان عاشقًا لهذه اللّغة، شغوفًا بأحد أزمنة

---

(1) **Les Fleurs du mal (1840)** – Charles Baudelaire.

تصريف الأفعال على وجه الخصوص: المستقبل الآنف؛ وقد كان في واقع الأمر يهيم وينتشي بمجرّد التفكير في فرنسا منذ طفولته. لقد حدث أن توقّف عند إقامتي في نزل «مدام س.» ذات مرّة قبل بضعة أشهرٍ، ثم أرسل إليّ بطاقةً بريديّةً يدعوني فيها إلى القدوم من أجل جولة حول جبال الألزاس لورين، (أو ربّما الألزاس فقط)، لذلك مضيتُ إلى زيارته.

لقد كانت رحلةً لن أنساها أبدًا. كان الجوّ مطيرًا خلال الصّباح الذي انطلقت فيه، لم يكن يومًا مناسبًا لمثل ذلك السّفر التّطفّليّ، لكن بعد دقائق من التّلويح على جانب الطّريق على مقربة من محطة «بورت دو فينسين»، توقف رجلٌ أربعينيّ في سيّارة فورد سيدان زرقاء لمّاعةٍ (وقد تكون فورد تورينو)؛ لقد كانت بكلّ تأكيدٍ أكبر وأكثر إثارةً من باقي السّيارات الفرنسيّة المبتذلة مربّعة الشّكل على الطّريق. كان الرّجل يرتدي بذلة ورشات ورديّة اللون ويعتمر قبّعةً من فَرو الرّاكون، كما لو أنه نسخةً أوروبيّةً مبتذلةً من البطل الشّعبيّ الأمريكيّ ديفي كروكيت[1]، تم إحياؤه بطريقة غير متوقّعةٍ عند أحد مناطق الحدود الفرنسيّة المشؤومة. وقد كان يرتدي كذلك نظّاراتٍ غامقة اللّون، رغم أن السّماء كانت ملبّدةً بالغيوم ولم تطلّ الشّمس علينا بأنفها ولو مرّةً واحدةً يومها. لم أستطع رؤية عينيه، لكنني استطعت رؤية قبّعة جلد الرّاكون والبذلة، وركبت السّيارة على أية حالٍ. كنت حينها في الحادية والعشرين، ولم أكن قد خبرت الحياة بعد: كنت ما أزال صفحةً بيضاء.

لاحظت في الحين أن رائحة السّيّارة تفوح بالجِدّة كما لو أنها خرجت لتوّها من الشّركة المصّنعة، وقد أكدّ ذلك بالفعل أن عدّاد المسافة المقطوعة لا يتجاوز بضع مئاتٍ من الكيلومترات؛ أما الرّجل – الذي لم أفلح في التقاط أو فهم اسمه – فقد كان يتحدث الفرنسيّة بلكنةٍ ألمانيّةٍ، وكان الراديو مفتوحًا على إذاعةٍ تتخصّص في النّوادر مثل مقطوعةً هورست يانكوفسكي: «نزهة

(1) Davy Crockett (1786-1836).

في الغابة السّوداء»[1]، الصادرة سنة 1965، والتي ذاع صيتها بطريقةٍ غير مفهومةٍ. لم يبدُ أن تلك الموسيقى المبهجة ذات الصّبغة الألمانيّة البدويّة تتماشى ومظهرَ الرّجل، وقد شرح لي أنه كان بصدد تسليم السيارة لصديق بشرق فرنسا، في مكانٍ ما بمنطقة ستراسبورغ، لكنه لم يخبرني بالسّبب؛ كما أنه لم يفسّر أمر بذلة العمل، ولا قبّعة جلد الرّاكون، أو النّظّارات. كان يقود بسرعةٍ، رغم أن الضّباب كثيفًا يومها، ومعظم الوقت وجدنا أنفسنا على مسارٍ أفعوانيٍّ من مسارَين اثنين على الطريق السّيّار حيث لم يكن بمقدورك أن ترى أبعد من خمسين مترًا أمامك، لكنّه مع ذلك أمضى اليوم بطوله في المناورة حتى يتجاوز العربات البطيئة. كان الأمر أشبه برجلٍ يحاول اللّحاق بقطارٍ... وقد نسي أنه يملك سيّارةً! مرّاتٍ عديدةً تجنّبنا السّحق تحت مقطورة جرّارٍ قادمة من المنحى المعاكس، لكن لحسن حظّنا أن السّيارة سريعةٌ للغاية وذات تحكّمٍ دقيقٍ، كما أنه كان سائقًا بارعًا للغاية، لذلك نفذنا بجلدنا دون أدنى خدشٍ.

ليست لديّ أدنى فكرةٍ عن فحوى محادثاتنا يومها، لكنه دعاني إلى غداءٍ لذيذٍ في فندقٍ صغيرٍ أنيقٍ بضواحي شالون سير مارن، حيث انهزم أتيلا الهوني ضد تحالفٍ مستبعَدٍ بين الرّومان وشعب القوط الغربيّين[2] سنة 451 ق. م. (ولم يبدُ أن الكثير قد حدث أو تغيّر بالأرجاء منذ ذلك الحين). كانت تلك أول مرّة أتناول فيها لحم الأرانب، ثم أخبرتُ وليّ نِعمتي وسائقي السّابق بمرحلةٍ ما أنني كنت مهتمًّا بزيارة لينيفيل لأنها المكان الذي نشأ فيه آرثر رامبو. سألني من يكون آرثر رامبو، فقلت إنه «جيم موريسون الفرنسيّ»، ثم سألني من يكون جيم موريسون، وكان يجب أن أرد بشيءٍ من قبيل: «إنه جوني هاليداي الأمريكيّ»، ثم ندع الأمر يمضي. ترجّلت عن السيّارة في قلب بلديّة لينيفيل الحافل قرابة الرّابعة بعد الزّوال، فودّعني ومضى لحال

(1) A Walk in the Black Forest by Horst Jankowski.
(2) Visigoths.

سبيله. لم أنسه قطّ رغم أنني لم أعرف اسمه ولا جنسيّته، كما لا أذكر حتّى إذا كنّا قد تحدّثنا يومها بالفرنسية أو بالإنجليزيّة؛ لكنني أذكر زيّه، لأنه بدا غير منطقيٍّ.

وبعد عدّة محاولات فاشلةٍ لتدبير حالي، التجأت إلى مكتب السّياحة المحليّ واكتشفت أن رامبو لم يولد في لينيفيل وإنما في شارلفيل، الواقعة على بعد 80 كيلومترًا شمالًا، وربما أبعد من ذلك حتى. لذا فقد كان هذا الجزء من هذه الرّحلة المجّانية مضيعةً للوقت.

إن التأكّد مسبقًا من التفاصيل ذات الصلة الوثيقة بالأماكن التي أودّ زيارتها لن يكون مطلقًا أحد الأمور التي سأبرع فيها. فبعد تلك الواقعة بسنين، قدتُ سيّارتي عبر أمريكا، لا أتناول طعامي إلا في مطاعم «هوترز»، وسلكت منعطفًا أبعدني عن مساري بمئات الكيلومترات نحو مدينة دودج سيتي حتى يتسنّى لي الاتصال بابني لأقول له: «أنا ذاهب لزيارة موقع «أوكيه كورال»[1]». لكن سحقًا، فبينما يمكنك أن تجد التمثال المعربد الصّاخب لوايات إيرب[2] المدجّج بالأسلحة في وسط دودج سيتي، كما هو الأمر بالنسبة لمقبرة «بوت هيل» المتبجّح بها، إلا أن موقع «أوكيه كورال» كان على بعد مئات الأميال نحو الجنوب الغربي، في تومبستون، أريزونا. قد تظنّون أنني قد تعلّمت الدّرس من تجربتي السابقة بلينيفيل: أنه يجب عليّ التحقّق من وجهتي مسبقًا.. لكنني لم أفعل.

(1) **النزاع المسلح في أوكيه كورال (Gunfight at the O.K. Corral)**: كان تبادلًا لاطلاق النار لمدة 30 ثانية بين رجال قانون وأعضاء مجموعة غير منظمة من الخارجين عن القانون تدعى "كاوبويز" Cowboys، سنة 1881 في تومبستون بإقليم أريزونا. ويُنظر إليه على أنه أشهر تبادل لإطلاق النار في تاريخ الغرب الأمريكي القديم.

(2) **وايات إيرب Wyatt Earp** (1848 - 1929): رجل قانون ومقامر بالغرب الأمريكي القديم، بولاية أريزونا. عمل في مجموعة واسعة من المهن طوال حياته، منها نائب حاكم في تومبستون، وشارك في النزاع المسلح في " أوكيه كورال" الشهير.

لا أذكر كيف تنقّلت من لينيفيل إلى ستراسبورغ، لكن حين وصلت بداية ذلك المساء، لم أجد صديقي مايك. أخبرني البوّاب بأنه قد حزم أمتعته قبل ذلك بشهرٍ تقريبًا وعاد أدراجه إلى الولايات المتحدة وبأنه ليس بعائدٍ مجدّدًا. واكتشفت لاحقًا بأنه ما إن وصل إلى ستراسبورغ حتى اهتدى إلى اكتشافٍ مرعبٍ: إنه يكره الفرنسيّين! لذلك رجع إلى جنوب نيوجيرسي للعمل في بيع العقارات، ولم أره مجدّدًا بعد ذلك؛ والآن صار لزامًا عليّ قضاء اللّيلة في نزلٍ طلّابيّ مكتظٍّ. في اليوم الموالي استمتعت بمناظر ستراسبورغ، المدينة الصّغيرة الحزينة، لبضع ساعاتٍ، ثم رجعت إلى باريس.

في المحصّلة، كانت المغامرة برمّتها فشلًا ذريعًا.

ومع ذلك، أظن أن رامبو كان سيتأثر بتلك السّخافة الملحميّة التي طبعت سعيي إليه. كان رامبو الموهوب حدّ العبقريّة - وأحد أكثر الشّعراء تأثيرًا على مرّ العصور، إلا أنه مخبولٌ من الطّراز الرّفيع - سينتشي بقصّتي مع السّائق الغامض، مغازلة الموت على الطّريق السيّار الضّبابيّ، اللّون الورديّ لزيّه، وقبّعة جلد الرّاكون تلك. لقد تلقى رمبو رصاصةً في أحد فنادق بروكسل من مسدّس عشيقه بول فيرلين، وانتهى به المطاف بالتّخلّي عن الشّعر من أجل المتاجرة في الأسلحة في إفريقيا، وفارق الحياة عن عمر السابعة والثلاثين حين اتضح أن ألم ركبته الذي تم تشخيصه على أنه التهاب مفاصلٍ شديدٍ كان في واقع الأمر سرطانًا. لذا ليس الأمر أنه كان بدوره يبذل بأقصى طاقته.

كان ممكنًا أن أموت يومها، لكنّ الأمر سيستحقّ لمعرفتي أنني ألفظ أنفاسي الأخيرة في تصادم ثمان سيّاراتٍ خلال طريقي إلى ما كنت أعتقد - في ضلالٍ - أنها مسقط رأس آرثر رمبو بشرق فرنسا. لو أنني كنت في طريقي إلى بلدة جويس كيلمر بنيوجيرسي ودهستني مقطورة جرّارٍ، أظن أنني سأكون في كمدٍ، ولو أنني ميّتٌ. لكن لو كنت في طريقي إلى مسقط رأس جويس كيلمر - نيو برونسويك - وهو الأمر الذي كان سيتضمّن المرور عبر

طريق نيوجيرسي السّيّار، أشكّ فعلًا أنني كنت سأقبل الرّكوب مع رجلٍ يرتدي بذلة عمل ورديّة اللّون، يعتمر قبّعةً من جلد الرّاكون، ويضع نظّاراتٍ سوداء سميكة؛ أظن أنني كنت سأحجم عن الأمر برمّته وأستقلّ الحافلة.

ومنذ تلك العشيّة من سنة 1973، لم أزر شارلفيل مجدّدًا بعد.

***

أنا لستُ، كما لم أكن قطّ، مولعًا بالكتّاب حدّ النشوة، مع استثناءٍ واضحٍ هو: بودلير. بالإضافة إلى رامبو وهيغو وموليير وبيكيت، وكاتبٍ آخر أو اثنين. لكنني عمومًا أحاول تجنّب التّمادي في الأمر. فعلى سبيل المثال، ليست لديّ أدنى رغبةٍ في قضاء أسبوعٍ في الغرفة ذاتها في أوكسفورد حيث كتب لويس كارول رائعته **(مغامرات أليس في بلاد العجائب)**[1] كما فعلت إحدى معلّمات ابنتي بالصّف الرّابع ذات صيفٍ. أنا لا أحبذ الجوّ الحارّ ولا النّاس الذين يرتدون السّراويل القصيرة المزيّنة بمربّعاتٍ، لذا رغم أنني أعظّم إرنست همنغواي، فلا نيّة لي بزيارة بيته في جزيرة كي ويست، وأقلّ من ذلك هي رغبتي في رؤية الصالونات التي كانت يرتادها في هافانا. ما كنت لأنطلق في رحلة اكتشاف أدبيّ حلوةٍ حول إنكلترا، حيث يتسنّى للمشاركين زيارة قبر جين أوستن وكوخ آن هاتاواي، بالإضافة إلى الحانة حيث كانت تلتقي أنتونيا سوزن بيات مع رفاقها للتنافس في لعبة الورق كريباج كل مساء خميس. وسيكون اهتمامي أقل بالتّجوّل عبر أطراف ألمانيا رفقة مجموعة من عاشقي هذا النّوع من «حجّ صقل مهارات الكتابة»، حيث قد يكون الرّبح الأكبر هو أن يحظى المرء بفرصة شرب بضعة كؤوس في حانة يونغ فرتر[2] المفضّلة ومعرفة سبب (آلامه) الشهيرة. وإذا صادف أن كان هناك أمرٌ مشابه برومانيا – فلنقل: رحلة أدبيّة شيّقة لمستذئبين عبر جبال الكاربات – فسيكون ضروريًّا أن أحصل

---

(1) **Alice in Wonderland (1865)** – Lewis Carroll (Charles Lutwidge Dodgson).

(2) الشخصيّة الرئيسة في رواية يوهان غوته: **(آلام فرتر)**.

على كتيّب تعريفيّ يعرض كل أنشطة الرحلة. ويراودني الشعور ذاته بخصوص أي شيءٍ يتعلّق بالأماكن المسكونة، الأثاث، الأجهزة، معدّات الكتابة، أو أنابيب غليون ك. س. لويس المصنوعة من مادّة السّيبوليت؛ فإذا كان الأمر متعلّقًا بالمؤلِّف أو **(رسائل سكروتيب)**[1]، فاتركوني بعيدًا لحال سبيلي.

صحيح أنني زرت قطار الأنفاق بباريس تخليدًا لذكرى جان فالجان والمفتش جافير[2]، وقد وجدتها للأسف نظيفةً وصحيّةً بشكلٍ مخيّبٍ للآمال. وقد حضرت العديد من الحفلات بأوبرا باريس، حيث جرت أطوار رواية غاستون ليرو: **(شبح الأوبرا)**[3]. بالإضافة إلى ذلك، استقللتُ القطار ذات مرّةٍ إلى لوهافر، حيث كتب سارتر راوية **(الغثيان)**[4]، لكنني ذهبت إلى هناك من أجل موعد مع المرأة التي ستصبح زوجتي المستقبليّة، وليس للتأكد مما إذا كانت لوهافر من صنف المدن التي قد تصيبك بالغثيان (وقد كانت كذلك بالفعل). وقد زرتِ منزل بالزاك في باريس - في الحقيقة، زرته بضع مرّاتٍ - ولكن ليس لأنني مهووس ببالزاك، وإنما لأنني أحببت البيت بكلّ بساطةٍ. إنه بيتٌ جميلٌ على بساطته، ذو حديقةٍ جميلةٍ في الخلف، يقع بشارعٍ هادئٍ في المقاطعة السادسة عشرة الرّاقية، ولا تفصله سوى خمس عشرة دقيقةً مشيًا عن قوس النّصر وبرج إيفل. صار البيت الآن متحفًا مفتوحًا للزّوّار، وله مدخلان. وقد كان بالزاك يكسب مالًا طائلًا، إلا أن إنفاقه كان أكبر، وكان دومًا في مأزقٍ مع مقرِضيه، لذا كلّما سمعهم يخبطون على الباب الأماميّ، كان يهرول من الباب الخلفي. ويُحكى أنه ذات مرّة قبض عليه اثنان من محصّلي الدّيون عند المدخل الخلفيّ لبيته، فنفى كونَه أونوري دو بالزاك، وأصرّ على أنه مجرد بستانيّ؛ بستانيّ بدينٌ في ثوبٍ أنيق! لا بد أن محصِّلَي الديون هذَين كانا ثنائيًّا رائعًا!

---

(1) **The Screwtape Letters (1942)** – C. S. Lewis.

(2) شخصيّتان رئيسيّتان من رواية فيكتور هيغو: **(البؤساء)**.

(3) **Le Fantôme de l'Opéra (1910)** – Gaston Leroux.

(4) **La Nausée (1938)** – Jean-Paul Sartre.

هناك بعض الكتّاب الذين لا تستطيع ربط مؤلّفاتهم بمحيطهم: جورج سيمنون، ويليام فولكنر، ألفرد إدوارد هاوسمان، جين جيونو، ألين جينسبيرغ، وبالطبع هنري ميلر، إرنست همنغواي، وسكوت فيتزجيرالد.. لكن بالزاك ليس ضمنهم. إن بيت بالزاك ذو ذوقٍ حسنٍ، ضيّقٌ، أخّاذٌ، ومصقولٌ بشكل رفيعٌ؛ وجميعها صفاتٌ لا يمكن أن يُنعت بها بالزاك نفسه، إذ إنه كان بدينًا قذرًا يلتهم المحار والحلزون وفطائر الكريما بالشوكولاتة وكل ما يُوضع على طاولة سوزان الكسولة وقت العشاء؛ كما أنه لم يمارس الرّياضة قطّ وكان يحمل نفسه على البقاء مستيقظًا طوال اللّيل عبر شرب كؤوس عديدةٍ من القهوة، ولم يعتنِ بنفسه مطلقًا. نتيجة لذلك، لم تدم رحلته في هذه الحياة طويلًا، وقد أوقع بجسمه قدرًا كبيرًا من الأذى لدرجة أنه حين مات كانت أعضاؤه الدّاخلية أشبه بمن هم في الثمانين، في حين أنه لم يتجاوز الحادية والخمسين.

إن ما يتعلّمه المرء من زيارة بيت بالزاك هو أن عبقريّة الكاتب لا تنبع بالضّرورة من محيطه المادّي، حيث يُفترض وجوده خلال الكتابة. ثم إن الحيثيّات التي يطّلع عليها المرء في زيارته لبيت كاتبٍ شهيرٍ هو كمٌّ هائلٌ من المعلومات المتعلّقة بالقيّم على أمر المنزل (الذي صار متحفًا)، المصمّم الدّاخلي لديكور البيت، والمرشدين السّياحيّين. إن بيت بالزاك في مجمله فضاءٌ ينضح رُقيًّا ويبثّ في النّفس شعورًا بالاسترخاء، رغم أن بالزاك ذاته لم يكن ينضح رُقيًّا ولا كان مسترخيًا؛ تتزيّن الجدران برسومات كاريكاتور ولوحاتٍ زيتيّةٍ، وعلى الأرض فُرشت سجّاداتٌ بديعةُ الألوان، دون أن ننسى الحديقة البهيّة خلف البيت، والمكان برمّته مليءٌ بسحر زمنٍ قد خلا؛ لكن ليست لبارزاك يدٌ في شيءٍ من ذلك.

والأمر كذلك صحيحٌ فيما يتعلّق بالبيوت أو الشّقق أو الأحياء التي ترتبط بفيكتور هيغو، شارلز ديكنز، صامويل جونسون، وصامويل بيكيت، بالإضافة إلى المفضّل لدي: شاترتون. بإمكانك زيارة منازلهم والتّجول داخل غرف

نومهم، وتفتيش الأقلام أو آلات الكتابة، الحبر الذي مازال راكدًا بالمحبرة، قواميس المترادفات، أو قارورة الزّرنيخ التي استعملوها، لكن ذلك لن يقود إلى فهم أعمق أو أكثر ثراءً لأعمالهم؛ ولا روحُ العمل تكون منعكسة دومًا في الأحياء التي كُتبت فيها، إذ إن الكتّاب خلال الكتابة لا يكونون في واقع الأمر في باريس أو لندن، وإنما مسافرين داخل أذهانهم. إن الدائرة البورجوازية حيث عاش بيكيت لن تكون المكان الجليّ لكتابة مسرحيّته الخالدة **(في انتظار غودو)**[1]؛ بل إن الأحياء الفقيرة البروليتاريّة على الحدود الشمالية للمدينة ستكون مكانًا ملائمًا أكثر من أجل كتابة عملٍ كذاك. ولا يوجد شيء بخصوص «ساحة دي فوغ» ممّا قد يدفعك إلى التّفكير في أن فيكتور هيغو قد كتب رواية **(أحدب نوتردام)**[2] هناك. لقد توجّب عليه أن يكتب ذلك العمل بمكانٍ ما، فلمَ لا يكون «ساحة دي فوغ».

خلال السنوات العديدة التي تلت هذه المغامرات الباريسيّة، واصلت زيارة منازل الكتّاب بفرنسا وإنكلترا، لكنني نادرًا ما فعلت ذلك بالولايات المتحدة. لعلّ ذلك راجعٌ إلى أن للبلدين الأوروبيّين مساحةً «اقتصاديّةً» كما أن معظم عظماء الكتّاب مثل: ديكنز، جونسون، تينيسون، هيغو، زولا، بودلير، كوليت، فولتير، سارتر، أبولينير، وموريسون، قد دُفنوا داخل، أو بضواحي لندن وباريس؛ في المقابل، يتوجّب عليك أن تسافر عبر كلّ أمريكا مترامية الأطراف إذا أردت أن ترى المثوى الأخير لشيروود أندرسون، وزورا نيال هرستون، أما فيما يخصّ إيدنا فيربر، فانسوا الأمر! لأنه تم حرق جثمانها ووضع الرّماد أمام الرّيح لتذروه، ولا يعلم أحدٌ أين انتهى به المطاف.

لقد تمكّنتُ – على مرّ السّنين الماضية – من اقتناص الفرصة لزيارة غرفة إدغار ألان بو بجامعة فيرجينيا، ومتحف إدغار ألان بو الواقع على بعد بضعة أحياءٍ سكنيّةٍ منها، وكذا متحفٍ آخر يحمل اسمه ببالتيمور، ماريلاند، كوخه

---

(1) **Waiting for Godot (1953)** – Samuel Beckett.

(2) **Notre-Dame de Paris (1831)** – Victor Hugo.

بفيلاديلفيا، وكوخه الآخر بحي ذي برونكس، رغم أنه لم يتسنّ لي قطّ السفر - إلى أقصى أطراف الأرض - نحو تلك المكتبة الواقعة ببافالو التي كانت تعرض ساعته إلى أن سُرقت في السابع من يوليو/تموز 1906. لقد يكن دافعي للقيام بكل تلك الرّحلات هو كوني معجبًا شغوفًا بإدغار ألان بو، لكن يبدو أن هذا الأخير - مثل فيكتور هيغو، كريستوفر كولومبوس، وستونوول جاكسون - تم دفنه بسبعين مكانًا مختلفًا في الآن ذاته. لذا، إذا صادف أن وجدت نفسك بستوبنفيل، أوهايو، أو إل باسو، تكساس، ذات عشيّةٍ دون التزاماتٍ، فإن هناك احتمالًا كبيرًا أن تجد أحد متاحف إدغار ألان بو حيث يمكنك التّجول لبضع ساعاتٍ. وبالنسبة لكاتبٍ لم يترك خلفه مؤلّفاتٍ كثيرةً ومات شابًّا، معدَمًا وسكرانًا، فإن له عددًا هائلًا من المتاحف المرتبطة باسمه. ربما لو كان بإمكانه الالتزام بعمله بحزم والاستقرار بمكانٍ واحدٍ، لكان أكثر إنتاجيّةً (لكن ربما ليس بحي البرونكس).

كان ألان بو ضمن صنف الكتّاب ذوي التأثير الحاسم عليّ خلال طفولتي، لأنه بعد قراءتي قصّته القصيرة المرعبة **(الدّفن قبل الأوان)**[1] في سن الثانية عشرة، رجوت شقيقاتي الثلاث أن تَخزِنَ جثّتي بدبابيس القّبعة قبل أن يغلق متعهّد الدّفن التابوت عليّ، من باب التّأكد من أنني قد رحلت بالفعل. وقد كنت أعي أيضًا منذ سنٍّ مبكّرةٍ للغاية أنه مع صدور قصّته: **(جرائم بشارع مورغ)**[2]، فهو بذلك قد ابتكر الرواية البوليسيّة، رغم أن ذلك في حدّ ذاته نعمةٌ غير نقيّة، إذ إن الروايات البوليسيّة - مع استثناءاتٍ قليلةٍ - تظل مبهمةً؛ ورغم تلك الاستثناءات فإنها بالكاد تُرى على أنها أدبٌ، لكن أعمال بو ترقى لذلك وتزيد، كما أنه كان يتوفّر على تلك الهالة الغامضة المميّزة، وقد كان له تأثير هائلٌ على بودلير والرّمزيّين؛ ومثل بودلير، كان له اسم جذّابٌ للغاية.

---

(1) **The Premature Burial (1844)** by Edgar Allan Poe.
(2) **The Murders in the Rue Morgue (1841)** - Edgar Allan Poe.

لقد كان واحدًا من الأمريكيّين، مثل فرانك زابا، جيم جارمش، وجون فانتي، الذين غالى الفرنسيّون في تقديرهم، واضعين إيّاهم فوق قاعدة مطليّة بالذهب على بانثيون مصنوعٍ يدويًّا لـ «ولاياتٍ متحدةٍ أمريكيّةٍ موازيةٍ» يطغى عليها المغنّي جاي هوكينز، ريتشارد بروتيغان، لاورنس فيرلينغيتي، وتشيستر هايمز؛ وهو بانثيون لا يضمّ رونالد ريغن، منظمة «بنات الثورة الأمريكيّة»، المغنّية فايث هيل، ولا سباقات «ناسكار». لقد كانت تلك أمريكا مبتكَرةً - لا، بل مختَلقةً - مناسبة للفرنسيّين وحدهم دون سواهم، لأنها لا تحترم سلّم القياس، كما لأنها مغلوطةٌ وسخيفةٌ. لقد تمادى الفرنسيّون في فعلهم دون حسيبٍ ولا رقيبٍ؛ لكن هذا هو دأبُهم!

أتذكّر أول عمل لي في مجال الصّحافة، حيث كنت مكلّفًا بتحرير مجلة يتم إرسالها عبر البريد، تدعى «أنكل سام» (حرفيًا: العمّ سام). لقد كانت مجلّةً تتغنّى بأمريكا، وتفعل ذلك بأبخس الطّرق وأكثرها وضاعةً. ومن أجل إصدار المجلة كل شهرٍ، كان علينا الاعتماد على صورٍ حقيرة، مثل صورٍ ضبابيّة لـ «نصب كريزي هورس التّذكاري»، أو رسومات الغرافيتي التي نشرها المخرّبون على طول جبل سانت هيلين. وقد حصلنا على تلك الصّور عبر مداهنة حرّاس المنتزهات وربّات البيوت - اللاتي لا يقدّر جدواهنّ أحدٌ - للذّهاب والتقاطها من أجلنا، مجّانًا. وذات يوم من ربيع سنة 1982، قرأت عن «شبح» دأب على زيارة قبر ألان بو في متحفه بكراباك كورنرز كل سنةٍ منذ 1949، تاركًا خلفه دومًا ثلاث ورودٍ وقنّينةً براندي بعد أن يشرب نصفها كهديّة عيد ميلادٍ؛ وقد بدا لي أنها نكتةٌ داخليّة من نوعٍ ما. فاتصلت بجيف جيروم، المشرف على المتحف، وسألته عمّا إذا كانٍ بإمكانه إبقاء نظره على المقبرة، ففعلَ، وحين لم يظهر أحدٌ بالمكان بحلول الحادية عشرة والرّبع ليلًا، مضى باحثًا عن شيءٍ يسدّ به رمقه. وحين عاد، اكتشف أن الزائر الغريب قد قدِم إلى المكان ثم غادر، تاركًا خلفه التّكريم المعتاد. وبعد أيّامٍ،

بلغتني صورة من جيروم يبدو مظهره فيها أسوأ بسبب الخوف، واقفًا بجوار شاهد قبر ألان بو، حاملًا قنينة البراندي. ومازلت أحتفظ بتلك الصّورة؛ إنها الدّليل الظّاهريّ لأول حقيقة تعلّمتها عن هذا النوع من العمل الذي اخترته: أنه حين تصير الأمور عسيرةً ويجد الصّحفيّ نفسه محاصرًا، فإن «مستر فلان ابن علّان» سيأتي دومًا لإنقاذه. لقد كان جيروم – الذي حاول دون أن يفلح في الإمساك بالزّائر خلال السنين العديدة التالية – مرتابًا بخصوص فكرة أن شخصًا واحدًا فقط، أو زائرًا واحدًا من خارج المقبرة، هو المتورّط في القضيّة؛ قال لي حينئذٍ: «إن الناس في الواقع يظنون أن هذا الشخص يأتي ويشرب نخب ألان بو فوق قبره، لكنني أعلم أنه يجب أن يكون هناك أكثر من شخصٍ واحدٍ، لأنني لو شربت نصف قنينة البراندي تلك، ما كنت لأبلغ بوّابة المقبرة واقفًا على رجليَّ.»

في سنة 1998، توقّف الزائر عن القدوم، ويُعتقد الآن أنه ميتٌ، في حالة ما إذا كان آدميًا؛ أو أنه استأنف سُباته بالعالم الآخر، في حالة كونه طيفًا؛ لكن لا يمكن لأحدٍ الجزم بشيءٍ. إنها واحدة من تلك القضايا التي يُفضّل ألا تعرف حقيقة أمرها، وألا تراها تتم مناقشتها بطريقةٍ ساخرةٍ على يوتيوب. نحن لا نعرف بعد سبب قتل إنغرام فريزر للكاتب كريستوفر مارلو أكثر الكتّاب التراجيديّين شهرةً بعد شكسبير في بيتٍ تموينيٍّ سنة 1593، ولسنا بحاجةٍ لمعرفة السبب؛ بل إننا لا نعرف ما هو البيت التّموينيّ حتى. لا نعرف لمَ لمْ يتسنّ لجين أوستن كتابة رواية بعنوان: (المغامرات الرائعة والمثيرة للفضول لعائلة ساكس كوبورغ). لا نعرف ماذا كان يدور برأس خادمة جون ستيوارت ميل المعتوهة حين استعانت بأوراق كتاب توماس كارلايل: **(تاريخ الثورة الفرنسيّة)**(1)، من أجل إشعال النّار بالمدفئة؛ كما لا نعلم لماذا لم يعتني كارلايل بالمسوّدة بشكل أفضل أو يسأل جون ستيوارت

(1) **The French Revolution: A History (1837)** – Thomas Carlyle.

ميل مسبقًا عمّا إذا كان فريق الخدم ببيته يضمّ بُلَداء من الطّراز الرّفيع. ولا نعلم كذلك ما إذا كانت مسرحيات شكسبير قد كُتبت بقلم شكسبير ذاته أم رفيقٍ من الدّرجة الأولى قد درس بكامبريدج وإيتون، كما قد يرغب رفيقٌ من الدّرجة الأولى أن يدفعنا إلى الاعتقاد بأن ذلك ما حدث. لكننا لسنا في حاجة إلى معرفة كل شيءٍ، لأن ذلك يسرق من الحياة رونقها وبهجتها. شخصيًّا، أفضّل أن أعتقد بأن شبح ألان بو ذاته هو من واظب على زيارة تلك المقبرة كل شتاءٍ طوال كلّ تلك السّنين، وأنه لسببٍ ما قرّر أخيرًا أن ذلك المقلب قد استُهلكِ تمامًا؛ لطالما صَعُب فهم ألان بو خلال حياته على أية حال.

هناك كاتبان آخران قد زرت منزلَيهما: منزل إميلي ديكنسون في أمهيرست، ماساشوستس؛ وبيت واشنطن إيرفين، في نهاية الشارع حيث أقطن بتاريتاون، نيويورك. لكن لم يكن لأيٍّ منهما وقعٌ على نفسي، إذ لا يبدو أيٌّ منهما مثل مكانٍ عاش فيه كاتبٌ ما أو مارس عمله، بل يبدوان أقرب إلى ضريحَين. لكن واشنطن إيرفين يبقى مصدر إزعاجٍ بالنّسبة لي، ويرجع ذلك أساسًا إلى التّداعيات الإقليميّة المستمرّة منذ صدور قصّته القصيرة: **(أسطورة سليبي هولو)**[1]. لقد كان إيرفين، حسب ما قيل لنا، أول كاتبٍ أمريكيٍّ يأخذه الأوروبيّون على محمل الجد، لكن سرعان ما تخطّاه كُتّابٌ أكثر إثارةً من قبيل جيمس فينيمور كوبر، وآخرون أكثر براعةً مثل: ناثانيال هاوثورن وهيرمان ميلفيل. وقد قرأت مرّةً أن فرانز شوبرت، وهو على فراش الموت، ترجّى أخاه أن يهرع أحدهم لإحضار آخر روايات جيمس فينيمور كوبر قبل أن تغلق المكتبة أبوابها؛ أما فيما يخص موضوع واشنطن إيرفين، فقد ظل شوبرت صامتًا. ومن جهة أخرى، إن سكّان سليبي هولو، نيويورك، القرية المتاخمة لتاريتاون لهم معلومات مغلوطة بخصوص مقام إيرفين، إذ يعتقدون أنه يقف على قدم المساواة مع هوميروس. وإن هذا لهذيٌ وضلالٌ بعيدٌ.

(1) **The Legend of Sleepy Hollow (1820)** – Washington Irving.

على مدى 122 سنة، كانت سليبي هولو تُعرف باسم «نورث تاريتاون» (أي: تاريتاون الشّمالية)، وقد كانت تجمّعًا جلّه من الطبقة العاملة، يضم مصنعًا مترامي الأطراف لشركة «جنرال موتورز». لكن سنة 1996، بسطت مجموعة من الشّباب من الطبقة المتوسّطة حديثي العهد بالنّفوذ سيطرتهم على المناطق الأكثر ثراءً من القرية: عزبتَي «فيليبس مانور» و«سليبي هولو مانور». ثم أعقب ذلك بوقتٍ قصيرٍ استفتاءٌ شعبيٌّ سُئل خلاله سكّان القرية عما إذا كانوا يرغبون في تغيير اسم البلدة إلى «سليبي هولو»؛ أما الشّيوخ فرفضوا، وأما الشّباب فوافقوا؛ وبما أن عدد الأخيرين كان أكبر - بما في ذلك المنتقلين حديثًا من نيويورك - وبالتالي فقد أضحى اسم «نورث تاريتاون» من التّاريخ، وأمسى الأشخاصُ الذين ترعرعوا فيما كان يُعرف بـ «نورث تاريتاون» في كمدٍ، ولم يكن اعتراضهم راجعًا في شقٍّ كبيرٍ منه إلى كون الاسم الجديد - «سليبي هولو» (أي: التّجويف الغائر الخامل) - يوحي بتحفّظٍ شيطانيٍّ، ولكن لشعورهم بأنهم فقدوا «علامتهم التجاريّة» التي كانت جزءًا من هويّتهم. نتيجةً لذلك، حين توفيّ كبار السّن، أصرّت عائلاتهم على تدوين الاسم القديم للبلدة - «نورث تاريتاون» - على صفحات النّعي بالجرائد كمكان ولادتهم. إن «سليبي هولو» اسمٌ جيّدٌ لكتابٍ، لأسطورةٍ، أو لمركز إعادة تأهيلٍ لتقويم العظام، بل وحتى لمدرسةٍ ثانويّةٍ؛ لكنّه بكل تأكيدٍ لا يليق اسمًا لبلدةٍ.

هناك اسمٌ آخر أكثر إثارةً للضحك، وهو ذاك الذي صاغه أحد الأغبياء لمجموعة شققٍ سكنيّةٍ خاصةٍ ومعزولةٍ بمحاذاة النهر: «إيكابودز لانديغ» (أي: مَحَطُّ إيخابود[1]). ظاهر الأمر أن المطوّر العقاري لم يكن على درايةٍ بأن إيخابود كراين هو أحمق كانت نهايته على يدَي «الفارس مقطوع الرأس». إن إضفاء ثوب المسيحيّة على مجمّع شققٍ سكنيّةٍ أمريكيٍّ عبر تلك التّسمية أشبه

(1) **إيخابول**: شخصيّةٌ توراتيّةٌ مذكورةٌ في سفر صموئيل الأول على أنه ابن فينحاس.

بتسمية مجمّع سكنيٍّ أوروبيٍّ بأسماء من قبيل: بولونيوس[1]، سانشو بانسا[2]، أو يورايا هيب[3]. على أية حالٍ، فذلك لا يهم ذلك؛ لعلّ أولئك القرويّين الحمقى كانوا يظنّون أن اسم «سليبي هولو» سيجعل المشترين المحتمَلين يغضّون الطّرف عن حقيقة أن نسبة الأقلّيّات داخل الجسم الطّلّابيّ بمدرسة سليبي هولو الثانوية تتجاوز 50%، وأن الطريق الرئيسيّ بالبلدة كان مملوءًا بمحلّات بقالةٍ – «بوديغاس» – إيكوادوريّةٍ، بيروفيّةٍ، شيليّةٍ، ومكسيكيّةٍ.

لا مجال لأن يفلح ذلك، يا خوسيه!

إن لتاريتاون كذلك كِسرةَ علاقةٍ بالشّهرة الأدبية: لقد اشترى مارك توين قصرًا يدعى «هيلكريست»، يقع على تلٍّ مطلٍّ على القرية، عاش فيه لمدة سنتَين، أو لمدّة معيّنةٍ خلال تلك السّنتَين، أو ربما أنه قضى فيه ليلةً واحدةً ليس إلا؛ الأمر يعتمد على أيّ جزءٍ من هذه الرّواية المقدّسة تختار تصديقه. وعلى أية حالٍ، سرعان ما اختار إجهاض المشروع بعد خلافٍ مع مقيّمي الضّريبة المحلّيّين، وقد تحول المبنى اليوم إلى مطعم. لطالما كنت معجبًا بمارك توين منذ نعومة أظافري لأنه، مثلما كان فرانك سيناترا المغنّي الوحيد الذي لم أكرهه من بين المفضّلين لوالدي، فإن **(مغامرات هكلبيري فين)**[4] كان أول كتابٍ أجبرنا معلّمٌ على قراءته وكانت قراءته ممتعةً بحقٍّ.

ذات يوم، حين كنت في الأربعينيات من عمري، سافرت رفقة صديقةٍ لي إلى مدينةٍ هارتفورد، كونيتيكيت، لزيارة منزل مارك توين. لقد نشأت صديقتي في هارتفورد وكانت حريصة على التّباهي بجواهر تاج «ولاية اليانكي» [إنكلترا الجديدة]، لكن ذلك لم يدم طويلًا. ورغم أن منزل هارييت بيشر ستو كان ملاصقًا لمنزل توين، إلا أن أقدامنا لم تطأه قطّ، ذلك أن زيارة

(1) شخصية خياليّة من مسرحيّة شكسبير: **(هاملت)**.
(2) شخصيّة خياليّة في رواية **(دون كيخوتي)**.
(3) فرقة روك إنكليزيّة.
(4) **The Adventures of Huckleberry Finn (1884)** – Mark Twain.

توين قد أنهكتنا تمامًا. وقد كانت هارتفورد كذلك موطنًا للشاعر الكبير والاس ستيفنس الذي حين طلبت منه مجلّةٌ أدبيّةٌ جملة تعريفيّة بنفسه، أجاب: «أنا محام وأعيش في هارتفور؛ لكن هذه الحقائق ليست بالشّاذّة ولا هي بالتّثقيفيّةً.» وقد قامت زوجته، إلسي فيولا كاشيل، بتغيير جدول أعمال أمسياتها الدّستوريّة حتى لا تكون مضطرّةً لقضاءٍ وقتٍ أطول من اللازم معه. لكنها، قبل أن تتكدّر الأجواء بينهما، كانت أجمل فتاةٍ بمدينة ريدينغ، بنسلفينيا، وقد استُعملت صورتها كنموذج لوجه الإلهة ليبيرتي المطبوعة على عملة العشر سنتات التي ما عاد لها وجودٌ الآن. وهذه، على حدّ علمي، هي الحالة الوحيدة التي تم فيها تخليد شخص يرتبطٍ ولو بشكلٍ ضعيفٍ بشاعرٍ أمريكيّ على قيد الحياة على عملةٍ نقديّةٍ؛ أما في فرنسا فيقومون بذلك طوال الوقت.

كان بيت مارك توين مظلمًا وكئيبًا؛ يضمّ العديد من المنحوتات الخشبيّة والعديد العديد من المدافئ، لكن ذلك لم يغيّر من حقيقة كونه مظلمًا وكئيبًا. وما إن تطأ قدماك المبنى حتى يغلق فريق العمل الباب ليحتجزوك بالدّاخل ويجبروك على المضيّ في جولةٍ رسميّةٍ رفقة دليل السّيّاح الذي لم يكن - لحسن حظّنا - يرتدي بذلةً بيضاء وقبّعةً خفيفةً من الألياف المجدولة ويدخّن سيجارًا رخيصًا ناتئًا من أسفل شفة يعلوها شاربٌ كثيفٌ. لم يكن ذلك ليبدو جيّدًا عليها - مرشدتِنا - البتّة؛ ولم تكن واحدة من مقلّدي مارك توين الذين يهذرون بأشياء من قبيل «إن تقارير موتي قد بالغت كثيرًا» طوال تلك العشيّة.

بعد ذلك بسنوات، حضرت عشاءً في هارتفورد حيث تولّى أحد مقلّدي توين عديمي الضّمير أمرَ تعذيب الحضور «العُزّل» أمامه طوال تلك اللّيلة. وقد استفسره أحد رفاقي - كاتبٌ مبدعٌ بحقٍّ - بمرحلةٍ ما عما إذا كان يستطيع تقليد شخصيّاتٍ أدبيةٍ أخرى: المرور إلى هنري دايفيد ثورو، مثلًا، أو كليفورد أوديتس، أو حتى ميلان كونديرا، ليمنحنا متنفّسًا. وحين أجاب الرّجل بأنه لا يستطيع، نسجت أنا ورفيقي - دوغ - خطّةً لمهاجمته في

موقف السّيّارات وقطع وريده. وقد كنّا متأكدَين تمامًا أنه لن تُرفع ضدّنا أية قضيّةٍ، لأن الشرطة ستعتبر أنه لا وجود لضحيّةٍ في هذه الجريمة؛ لكن برودة الأعصاب خانتنا في النهاية، وتوجّب على هارتفورد العيش مع تبعات جُبننا منذ ذلك الحين.

ورغم أن دليلتنا خلال ذلك اليوم لم تنتحل شخصيّة صامويل تايلور كليمنس، وحمدًا لله أنها لم تكن ترتدي ملابس ثقيلةً من العصر الذّهبي، فقد كانت امرأة متوسّطة العمر، تعوزها الفطنة؛ بدت أكثر اهتمامًا بالبيت منه بمارك توين ذاته، وقد بدأتُ أشك خلال أطوار تلك الزّيارة أنها لم تكن تملك صورةً واضحةً تمامًا عن هويّة الكاتب الإنكليزيّ. بدا أنها تظن أنه كان عجوزًا غَضوبًا نكد المزاج، أكثر ما اشتهر به هو طرده المشين لألكسندر غراهام بيل حين ظهر بالمكان حاملًا قبّعته في يده، عارضًا عليه الاستثمار عبر تمويل إحدى اختراعاته السّخيفة؛ عجوزٌ غَضوبٌ أكثرُ ما جلب له الشهرة أنه خلّف بعد رحيله منزلًا رائعًا (وقد كان أقلّ روعةً منه إثارة للكآبة). خلال جولتنا بالمنزل، ظلّت تختبرنا بخصوص مجموعة الكنوز المتنوّعة التي رأيناها بالغرف السابقة، ولعلّها كانت تحتفظ بتقييمٍ لأدائنا في ذهنها.

كم نافذةً رأينا؟

كم مكتبا؟

كم من الرّخام المرصّع؟

وحين صرنا بالطابق العلوي، الذي كان يضم غرفة بيلياردو توين، حدّقت فيّ مباشرةً وسألتني:

- كم مدفأةً رأينا؟

فأجبت: مئتَين وأربعة وسبعين.

هزّت رأسها وهي تقول: «أنت مخطئ».

كان العدد الصحيح هو سبعة حسب ما أذكر. وقد اكتست صوتُها خيبة أملٍ طفيفةً مصحوبةً بالاستسلام عوض السّخط. لم يخطر لها أنني كنت مستهترًا أو لئيمًا حين قلت إن البيت يحوي 247 مدفأة؛ بل إنها ظنّت أن معلوماتي غير دقيقة، وذلك كلّ ما في الأمر.

لن أنسى أبدًا ذلك الوقت الذي قضيناه داخل حجرة النّوم التي تشاركتها ابنتا مارك توين الصُّغرَيَين. أما إحدى بناته الأكبر منهما – محبوبته سوزي – فقد أسقطها التهاب سحايا النّخاع الشّوكيّ في سنّ الرابعة والعشرين خلال وجوده بأوروبا، رغم أنني – بعد رؤية الطريقة التي أثّثَ بها البيت وزيّنه – تفاجأت إلى حدٍّ ما لأنها صمدت كلّ ذلك الوقت. وبعد وفاتها، لم يعد توين قادرًا على العيش في ذلك البيت، والأرجح أن قدماه لم تطآ غرف النّوم بالطّابق العلويّ مجدّدًا، ولا يَصعُب فهم سبب ذلك. وقد كانت جدران غرفة نوم الأطفال مغطّاةً بورق جدران باهتٍ ومروّعٍ، يصوّر مشاهد من أغنية أطفالٍ شهيرةٍ. وبعد أن استرسلت دليلتنا في كلامها المعسول المحفوظ عن ظهر قلبٍ، التفتت إلينا وقالت:

– كلّكم بالتأكيد تذكرون الأغنية الشهيرة: «حين تودّد السيّد ضَفدوع»[1]، أليس كذلك؟

كلّا، في الواقع، ليس كلّنا يذكرها.

وقد اتخذت ذلك كإشارةٍ لتثبّت نظرتها الثّاقبة علينا، تميل كلّ الميل إلى «نظام الأستاذ»، ثم شرعت في الغناء بصوتٍ نديٍّ[2].

«Now, Mister Froggy went a'courtin, uh-huh. Mister Froggy, went a'courtin, uh-huh.»

«Now, Mister Froggy...»

---

(1) Mister Froggy Went a'Courtin'.

(2) Soprano: هو الصوت ذو طبقة الأوكتاف الأعلى بين أصوات النساء.

وهكذا دواليك إلى أن بلغت تلك الأغنية القصيرة نهايتها.

نظرت داخل عينيها، وداخل شبكيّتَيها - قليلًا ناحية اليسار- فرأيت بوّابة الجحيم، وقد كانت مواربةً. في الواقع، بدا الآن أنها شُرعت على مصراعيها. لقد بثّت تلك المرأة الرّعب في نفسي ونفوس كلّ الحاضرين بالغرفة، وبعد ذلك اليوم لم أزُرْ قطّ بيت كاتبٍ بصحبة مرشدٍ سياحيٍّ.

لكن كانت هناك مرةٌ حيث كان مجرد وجودي ببيتٍ كاتبٍ كفيلًا ببثّ الرّعب في نفسي لدرجة جعلت دماغي تعطّل وذكائي يتبخّر. حدث ذلك حينما دُعيت لإلقاء كلمةٍ في بيت جيمس ثوربر، بكولومبوس، أوهايو. في الحقيقة، لقد سألوني قبل ذلك بأشهرٍ عمّا إذا كنت أرغب في قضاء الليلة في بيت ذلك الفكاهي المرموق. أجبت أن أجل، وقد بدا لي أن الأمر سيمرّ «بخفّة ظلٍّ»، لكن الأمور لم تمضِ على ذلك المنوال بكلّ تأكيدٍ. آنذاك، لم أكن أعلم أن بيت ثوربر كان بنايةً من العصر الفيكتوريّ في حيٍّ يصير مقفرًا بعد أن يُسدل الظّلام ستاره،؛ إذ إنني سرعان ما اكتشفت بأن كل البنايات المجاورة تخلو تمامًا مع المغيب، كما لم أعلم كذلك أن ريحًا عاتيةً ستهبُّ عبر البلدة ليلتَها. وقد مضى عرضي ببيت ثوربر بشكلٍ جيّدٍ كفايةً، وكذلك كانت كلمتي في مركز الفنون المحلّيّ؛ لكن بعدها، وبينما كنت بصدد توقيع الكتب، قدم إليّ شابّان وتمنّيا لي عيد ميلادٍ سعيدٍ. سألتهما كيف عرفا ذلك بأمر ذلك، فأجابا بأنهما يعرفان أمورًا شتّى. بل أكثر من ذلك، جلبا لي هديّة عيد ميلادٍ: شيءٌ دقيقٌ مثل الشّفرة ملفوفٌ في ورق تغليف متجر بقالة. ورغم أنهما استمتعا بقراءة كتابي: **(كركَند أحمر، قمامةٌ بيضاء، والهَور الأزرق)**[1]، حيث أمضيت سنةً في الغوص بالأعماق السّحيقة للثقافة الشّعبيّة الأمريكيّة في محاولة لإيجاد شيءٍ أسوأ من فرقة الرّوك الهولنديّة «ذي كاتس»

(1) **Red Lobster, White Trash, & the Blue Lagoon: Joe Queenan's America (1998)** – Joe Queenan.

ثانيةً، فقلت إنني سأفكّر في الأمر، رغم أنني كنت بالكاد أذكرها. فقد شعرا بأنني كنت لئيمًا دون داعٍ لذلك تجاه فرقة الرّوك The Cats. كانا يأملان أنْ أمنح تلك الفرقة فرصةً المفضّلة لديهما: «راش» Rush.

وبُعَيد أن أوصلني مضيفيَّ إلى بيت ثوربر في خضم موجة الرّيح الموسميّة القوية، غادر الجميع وبقيت وحدي بالبيت.

والآن شرع المنزل في مهمّة إخافتي، وقد كان ذلك ليُرعب دراكولا ذاته لو أنه في مكاني. بدأت أسمع صوت خطواتٍ خافتةٍ في الطابق العلويّ، فحسبت أنها أشباحٌ أو أرواحٌ شرّيرةٌ؛ يُحتمل أنه كان طيفًا أو اثنين، وبالتأكيد كانوا عَصبة من الزومبي. صار النّوم مستحيلًا، لذا قمت إلى المكتب لأعمل على حاسوبي. وبمنتهى الحماقة خطر لي الشّروع في بحثٍ طفيفٍ بخصوص المنزل لأكتشف أنه بُني في موقع مشفى عقليٍّ سابقٍ التهمه حريقٌ فأحاله رمادًا سنة 1868. وقد لقي سبعة من السّجناء حتفهم في ذلك الحريق، ويُحتمل أن رجلًا قد نسف دماغه في حمام الطابق العلوي بعد إقامة هيكل المنزل قرابة نهاية القرن. ثم إن ثوربر نفسه (الذي هرع إلى مغادرة كولومبوس في العشرينيّات من عمره ولم يبدُ أنه في عجلةٍ من أمره للعودة) قد كتب قصة أشباحٍ حول هذا البيت.

ظلت العاصفة الهوجاء ثائرةً على البيت طوال اللّيل، والرّيح تعوي بالخارج، بينما كنت أنتظر أن تزحف تلك الأشباح والأرواح الشّريرة من القبو لتأخذني إلى الجحيم أو – إذا فشلت في ذلك – إلى سينسيناتي. ثم تمكنت من إطباق جفنيّ أخيرًا قرابة الرابعة صباحًا وكدت أفوّت رحلة العودة التي انطلقت نحو واشنطن العاصمة على السّاعة الثامنة. على متن الطائرة، نقّبت داخل حقيبة اللّيلة الفارطة، ووجدت الهدية التي أعطانيها الشّابان؛ حين أزلت التغليف اكتشفت أنه قرصٌ مضغوطٌ نسخا لي عليه أفضل أغاني فرقة «راش»، مرفوقًا بكلمات أغانيهم الخالدة من قبيل: «توم سوير» و «الرجل

العامل»[1]. ولأول مرةٍ في حياتي، شعرت بأن قلبي قد توقّف، حرفيًا. لقد قاسيتُ طوال اللّيل وعانيتُ من رعبٍ مَقيتٍ في منزل جيمس ثوربر القارس، لكن لو أنني فتحت ذلك التّغليف تحت جنح ظلام تلك اللّيلة وأنا محتجَزٌ داخل ذلك البناء المشؤوم، فأظن أن موجة الرّعب في حدّ ذاتها كانت أقوى ممّا يستطيع قلبي المسكين تحمّله.

إن قضاء ليلةٍ في بيتٍ مسكونٍ شيءٌ، لكن قضاء ليلةٍ في بيتٍ مسكونٍ في حيٍّ مقفرٍ خلال عاصفةٍ هوجاء وأنت تعلم أن معجبَين اثنَين بفرقة «راش» هناك بمكانٍ ما في الخارج (معجبان يعلمان أنك تقضي اللّيلة لوحدك في بيتٍ مسكونٍ خلال عاصفةٍ هوجاء في حيٍّ مقفِرٍ حيث لن يستطيع أحدٌ سماع صراخكَ) لهو أمرٌ مختلفٌ كلّيًا.

أذكر كذلك إحدى الخرجات الأثيرة التي تضمّنت كُتّابًا، وتطلّبت خرجةً صيفيّةً إلى بينسلفينيا، وهي ولايةٌ قد فررتُ منها قبل وقتٍ طويلٍ إلا أنني لم أتوقّف عن حبّها، مثل زوجةٍ أولى يتذكّرها المرء بشغفٍ، إذ كان يمكن أن تكون رفيقة العمر لو أنها كانت أغنى. إن المال عنصرٌ مهمٌّ هنا، إذ إنه خلال فصول الصّيف الأخيرة، التجأ العديد من الأمريكيّين الذين يعوزهم الدّولار إلى ما يسمى «التعطّل المحلّيّ»: وهي فترة استراحةٍ قصيرةٍ حيث يلتزم الناس بالذهاب إلى أماكن لا تبعد كثيرًا عن منازلهم؛ إن هذا «التعطّل المحلّيّ» قد يقودك إلى كوبرستاون أو ماناساس، أو إلى بلدةٍ ترتبط بالسّاحرات غير المحظوظات، لكنه لن يقودك إلى ماتشو بيتشو [البيرو] أو إلى بومبي [إيطاليا].

في العادة، يجمع «التعطّل المحلّيّ» بين التّثقيف والبيع بالتجزئة: زيارة موقع معركةٍ تاريخيّةٍ أو متحفٍ، تتلوها زيارة حديقةٍ ترفيهيّةٍ، وأخيرًا المتاجر التّجارية؛ وقد بدا لي كل ذلك مملًّا ومبتذلًا. فصمّمتُ «تعطّلًا أدبيًّا محلّيًّا بالولاية التأسيسيّة» أي: بنسلفينيا. وقد كانت وجهتي كالآتي: ريدينغ، حيث

---

(1) "**Tom Sawyer**"; "**Working Man**" by Rush.

تجري أطوار رواية جون أبدايك: **(اركض، يا رابيت)**[1]؛ بوتسفيل، حيث تجري أطوار خمسين قصةً قصيرة بالإضافة إلى عدة روايات بقلم جون أوهارا، رغم أنه كان يشير إلى بلدته الأمر دومًا باسم جيبسفيل؛ وأخيرًا سكرانتون، حيث نشأ جايسون ميلر الفائز بجائزة بوليتزر عن صنف المسرح سنة 1973 لمسرحيته التي حملت عنوان: **(موسم البطولة ذاك)**[2]. كانت كل الأماكن، التي أنوي زيارتها، على بعد ساعتَين بالسيارة عن بيتي بنيويورك، والفكرة هي الجمع بين الألوان والطبخ المحلّيّين مع الثقافة، مع خفض الإنفاق إلى حدّه الأدنى عبر المكوث في نزلٍ. وقد خطّطت خلال رحلتي لقراءة الأعمال التي جعلت من أولئك الرّجال مشاهير، وقد كنت أظن أن الأمر سيكون ممتعًا للغاية، لكن في النهاية توجّب عليّ القيام بالرّحلة وحدي؛ لأنني لم أنجح في إقناع زوجتي أو أيٍّ من أبنائي بالقدوم معي. ولسان حالهم يقول: سحقًا لفكرة «التعطّل المحلّيّ»؛ إننا نفضّل «العطلة المنزلية».

كانت سركرانتون محطّتي الأولى. حين ولجت البلدة، وجدت نفسي وجهًا لوجه مع المدرسة الإعداديّة المهجورة حيث جرت أطوار مشهدٍ مؤثّرٍ من نسخة الفيلم من **(موسم البطولة ذاك)**. ثم توجهت إلى وسط البلدة إلى «بارك أوغ ناي» - من تصميم فريديريك لاو أولمستيد - حيث تم تصوير المشهد الافتتاحي من الفيلم. بعد ذلك، أمضيت ساعة في التجوّل بالسيارة عبر الشوارع القذرة شمال البلدة، حيث جرت معظم الأحداث. لقد أنار ذلك ذهني بحقٍّ، لكن مع انتقالي من مكانٍ لآخرٍ، بدأت بعض الأفكار المقلقة تكدّر صفاء ذهني، أولاها أن تلك مسرحيّةٌ كئيبةٌ: يجتمع أربعة نجوم كرة سلة الثانويات مع مدرّبهم بعد خمسٍ وعشرين سنةً من تتويجهم بلقب الولاية، ولم تكن النتائج حسنةً. لم تمضِ الحياة على خير ما يرام بالنسبة لأيٍّ منهم: أحدهم صار سياسيًّا أخرقًا، أحدهم سكّير، آخر يضاجع زوجة أعزّ أصدقائه، أما المدرّب

---

(1) **Rabbit, Run (1960)** – John Updike.
(2) **That Championship Season (1972)** – Jason Miller.

فهو شخصٌ عنصريٌّ حقيرٌ؛ وعلى نحوٍ ما، كانت بتلك المسرحيّة نُذُرًا عن حياة المؤلّف [ميلر]: بدايةٌ مذهلةٌ، عجزٌ عن تكرار النجاح الذي حقّقته مسرحيّة (**موسم البطولة ذاك**)، مسيرةٌ في التمثيل بدأت بفيلم الرّعب الكلاسيكيّ (**طارد الأرواح الشّرّيرة**)[1] وانتهت بفيلم (**رودي**)[2]؛ ثم في النهاية رجوعٌ إلى سكرانتون، حيث توفيّ، بعد أن دمّره الكحول، في سن الثانية والسّتّين.

ظلت كل هذه الأفكار تتزاحم وتتصادم برأسي خلال قيادتي عبر شوارع سكرانتون. لقد كان العنصر الثقافي في «تعطّلي المحلّيّ» يعمل بشكلٍ جيدٍ، لكن، على المستوى العاطفي، بدأ الأمر يتحوّل إلى بداية اكتئابٍ طفيفٍ، فقوّمتُ ذلك عبر زيارة «ستيمتاون» Steamtown (قرية البخار)، متحف القطارات البديع وسط البلدة، حيث مضيت في جولة على قطارٍ عتيقٍ يعمل على الدّيزل مقابل 3 دولارات. (يا له من ثمنٍ بخسٍ!) بعد ذلك واصلتُ جولتي متهاديًا نحو متحف المقطورات، الذي يزخر بعربات شوارع فيلاديلفيا العتيقة التي قد أكون استقللتها حين كنت طفلًا؛ رقم 47 ربما، أو رقم 6. يا إلهي، ها هي متعةٌ أخرى بخسة الثّمن! أنهيت ذلك اليوم بوجبة في مطعم «كافي كلاسيكو»، أتبعتُها باحتساء شرابٍ في «راديسون لاكاوانا»، الفندق الأنيق الذي انبعث قبل وقتٍ غير بعيدٍ من رماد محطة القطار المهجورة الخَربة في نسخة الفيلم من (**موسم البطولة ذاك**). ومع نهاية اليوم، كنت قد نسيت كم أن المسرحيّة وظروف رحيل الكاتب المبكّر قد بثّت الكآبة في نفسي.

صبيحة اليوم الموالي، بعد رحلة استكشافيّة تحويليّةٍ على الطريق رقم 6، وهي طريق محلّيّة تقود في نهاية المطاف إلى غراند كانيون بنسلفينيا، انطلقت نحو الجنوب الشرقيّ صوب بوتسفيل التي، كانت لها في بداية القران العشرين مطالبتان بالشّهرة: أولاهما أن الرّوائيّ الشهير جون أوهارا نشأ هناك، وثانيهما

(1) **The Exorcist (1973)**, directed by: William Friedkin.
(2) **Rudy (1993)**, directed by David Anspaugh.

أن فريق «بوتسفيل مارونز» قد تُوّج بالبطولة الوطنية سنة 1925، إلى أن تم تجريده منها إثر أمور تقنيّةٍ سخيفةٍ من طرف الملّاك الأقوى والأقل شرفًا؛ وقد كان ذلك كلّ تاريخ ذلك الفريق. لكن كان يمكن للزائر رؤية اللافتات التي تحتفي بأبطال البلدة المنسيّين المنتشرة بكلّ مكانٍ. ومن خلال زيارتي القصيرة للبلدة، يمكن القول إن فريق «المارونز» مازال أشهر من الرّوائي.

«لقد كان فتًى شقيًّا ومدلّلًا.» يعلّق د. بيتر ياسينشاك، المدير التنفيذيّ لموسسة «المجتمع التاريخي لمقاطعة شويلكيل»[1]، التي يقتصر تكريمها الفاتر للرّوائي على عرض مكتبةٍ تحتوي على ما يناهز عشرةً من مؤلّفاته، لا يحتوي أيٌّ منها على توقيعه؛ أوهارا الذي لم يكن لديه الكثير من الكلام الجميل ليقوله عن البلدة التي وُلد فيها، غادر مبكّرًا ولم يرجع قطّ. لقد قدتُ للتوّ على طول شارع ماهانتوغو، الشارع الذي يظهر تحت اسم «شارع لاتينتينغو» مرارًا وتكرارًا في قصص أوهارا، وقد أبهرتني المنازل المصطفّة على جانبَيه. لقد كانت هناك لافتةٌ خارج البناء الذي ولد فيه المؤلِّف، لكن لم تكن هناك أجواء وجود شاعرٍ ملحميٍّ بهذه البلدة المتواضعة. ففي نهاية المطاف، كان لبوتسفيل مركزٌ كبيرٌ للإحصاء والدّعارة خلال فترة ما بعد الحرب، حين كانت للفحم السّيادة، وبشكلٍ تلقائيٍّ تقريبًا ركّزت أعمال أوهارا الخياليّة على رجال العصابات، مرتادي الحانات الأوفياء، منظّمي القمار، القتَلة، النساء الفاسقات، الخونة في العلاقات، الخسّيسين الوُضعاء، الأطباء المهووسين بالكحوليّات، الخوَنة الرّعاديد، وكذا شتّى أصناف المنحرفين والمخبولين. ولم يسبق لكاتبٍ أمريكيٍّ أن قدّم شخصيّاتٍ خياليّة أقل إثارة للإعجاب من شخصيّات أوهارا؛ لا أحد، حسب آخر مرّة تحقّقت فيها من الأمر. ولعل ذلك راجعٌ إلى أن أوهارا درس بجامعة «رتجرز»، إذ إن

---

(1) Historical Society of Schuylkill County.

وفاة والده المبكّرة قد قضت على حلمه بالدراسة في جامعة «يال»، فأضحى في كمدٍ، ناقمًا للغاية؛ ولا يبدو أن ذلك الألم قد خمد أو خفّ مع مرور السّنين.

يضيف ياسينشاك: «لم يكن أحدٌ يعرفه حقّ المعرفة؛ يظل بشارع ماهانتوغو ولا يعود إلى البلدة أبدًا قبل الغروب. كما أنه لم يكن مهتمًا بالكتابة إلا عن أولئك الذين كان يلامس أقدامَهم أسفل الطاولة بالنادي الرّيفيّ. لقد كان غريب أطوارٍ بحقٍّ.»

ظلّ الذعر الذي ولّدته كراهيةُ أشهر كتّاب بوتسفيل يلقي بظلاله على نفسي، لذا قرّرت الانسحاب نحو مطعم محلّي صغيرٍ من أجل مخفوق حليبٍ بالشوكولاتة (مزيلٍ للرّجفان السيكولوجيّ). كان مطعم غارفيلد يحتوي على شتّى أنواع التذكارات المتعلّقة بـ «القطّ غارتفيلد» - لافتات، إشارات، ساعات، وحيوانات محشوّة - لكنّ تسميته لم تكن في الواقع على القط غارفيلد[1]، وإنما على الرئيس الشهيد جيمس غارفيلد. كان مكانًا صغيرًا، من نوع الأمكنة البهيجة الفاتحة للشّهية التي لا تصادفها مطلقًا بكتابات أوهارا السّقيمة. لو أن جوليان إنغليش، البطل الملعون في قصة **(موعدٌ في سَمارا)**[2] كان ذا حِسٍّ سليم وتوقّف في مطعم غارفيلد ليدعو نفسه إلى تناول هامبرغر مزدوج مع بطاطسٍ مقليّة بجانبه، ثم صبّ على كلّ ذلك مخفوق حليبٍ بالشوكولاتة؛ ربّما كان سيعيد التّفكير في قراره باستنشاق مادّة خانقةٍ في سيّارته.

أجل، لهذه الدّرجة كان مخفوق الحليب ذلك لذيذًا!

ثم انتهى خط سير رحلتي عند ريدينغ. وتحرّيًا للدّقة التاريخيّة، لقد زرت شيلينغتون أولًا، لأنه المكان حيث وُلد أبدايك وأمضى جزءًا من شبابه، لكنها كانت ضاحيةً عاديةً للغاية، تخلو من أي شيء يميّزها. لعلّ ريدينغ كانت مدينةً ولّى زمنُها الجميل دون رجعةٍ - ولعلّ زمنَها الجميل لم يكن مميّزًا إلى

(1) Garfield.

(2) **Appointment in Samarra (1934)** – John O'Hara.

ذلك الحدّ أيضًا - لكن المدن، حتّى المضغوطة منها بشدّةٍ، تظل بطبيعتها أكثر إثارة للاهتمام من الضّواحي. إن أهم مَعلم جاذبٍ للسّيّاح هو المعبد الشّرقيّ متعدّد الأدوار - الباغودا - الذي يقبع وسط جمالٍ أخّاذٍ خلّابٍ فوق جبلٍ على حافة المدينة. ورغم أن أبدايك قد تخلّص منه في روايته **(اركض، يا رابيت)** لصالح فندقٍ جبليٍّ أنيقٍ وغيّر اسم البلدة إلى «بروير»، إلا أن ذلك لم ينطلِ على أحد. لقد ظلت قمّة الجبل تظهر مرارًا وتكرارًا داخل الرّواية؛ إنها ترمز إلى القمّة التي لا يستطيع البطل بلوغها، وكذا إلى الظلّ الذي لا يستطيع الإفلات منه، على ما أعتقد.

لقد كان قرارًا في منتهى الذّكاء من طرف مؤسّسي المدينة حين أعطوا الضوء الأخضر ببناء ذلك الباغودا سنة 1908؛ ففي اليوم الذي زرت المكان، كان السّيّاح من سنغافورة واليابان وغرب البلاد يلتقطون الصور أمام تلك المَعلمة، وقد ساعد مزاجُهم الرّائق - الذي لا يكدّره شيءٌ - على تحسين مزاجي بعد كل مشاهد معاقرة الكحول والفشل والخيانة الزّوجيّة التي تطفح بها رواية أبدايك، دون الإشارة إلى المشهد حيث تقوم زوجة رابيت المخمورة بإغراق طفلهما عن غير قصد. فأشكر السّماء على أنه لم يكن أحدٌ مصدر كآبةٍ وتكدير لي في ذلك اليوم.

هناك شيءٌ آخر يستحق الزّيارة بذلك الجزء من الولاية التأسيسيّة [بنسلفينيا]. خلال زيارتي لجامعة سكرانتون، أخبرتني «كاثلين ريناغيو»، القائمة على التّداول المكتبيّ، أنها ظهرت كأحد الممثلين الصامتين نسخة الفيلم[1] **(موسم البطولة ذاك)** الصادر سنة 1982: «لقد كانوا لطفاء جميعًا - روبرت ميتشوم ومارتن شين - وقد لعبت ابنتي الدّور لخمسة أيّام رفقة ابن سورفينو». ثم وجّهتني السيدة ريناغيو صوب «بلازا ديل آرت» (أي: ساحة الفن)، التي تقع جوار محكمة مقاطعة لاكاوانا مباشرةً. تضم السّاحة

---

(1) **That Championship Season (1982)**, directed by: Jason Miller.

تذكارات لتشكيلة متنوّعة من كتّاب وفنّاني سكرانتون المحلّيين - جين كير، و. س. ميروين - ولكن تمثال جيسون ميلر كان هو الطاغي على المكان؛ وأسفله كُتبت الكلمات الآتية: «ليس في مقدوري الشعور بفخرٍ أكبر من هذا بجذوري. فبعودتي إلى وطني اكتشفت من تكونون: أنتم أُناسي.» وبعد أن تحرّيت الوجه الخلفيّ، وجدت أن اسم النحّات هو: بول سورفينو.

لقد كانت هذه اللحظة غير المنتظرة هي ذروة «تعطّلي المحلّيّ». فرغم أن مدينة سكراتون تتلقّى سخريةً قاسيةً في مسلسل «ذي أوفيس»[1] (المكتب)، إلا أنها أقامت ساحةً صغيرةً بديعةً تكريمًا لأحد أبنائها الأبرار الذي أشاد بها على الخشبة وعلى الشاشة، وبقي على رأيه حين دفعته هوليود لاختيار مكانٍ آخر من أجل تصوير أحداث قصّته. وبمناطق أخرى من السّاحة انتصبت تماثيل بالحجم الطبيعي لكريستوفر كولومبوس، تادوز كوشيوزكو، وفيليب شيريدان؛ لقد كانوا رجالًا رائعين جميعهم، لكن لا أحد منهم ينحدر من سكرانتون، كما أن أيّ شخصٍ يستطيع أن يقيم تمثالًا لمستكشفٍ، لشخصٍ محبٍّ لوطنه، أو لجنرال. أماّ إقامة تمثال لكاتبٍ فهو أمرٌ ينمّ عن الخيال الخصبِ والرُّقِيّ، وهو أمر قد دأبوا على فعله في فرنسا.

***

هناك أماكن على سطح هذا الكوكب لا تتملّكنا رغبةٌ كبيرةٌ في زيارتها، لكننا حين نفعل ثم نرجع، تعود علينا التجربة بفائدةٍ كبيرةٍ. هذا ما حصل معي حين زرت ستوكهولم، حين شددتُ الرّحال إلى الشّمال البعيد المتجمّد من أجل حضور حلقة إذاعية حول المدن التي خلّدها كتّاب الجريمة. وفي هذه الحالة، كان الأمر يتعلّق بمدينة ستيج لارسن. لقد كنت أحد السبّاقين إلى الدّفاع عن أدب «النّوار الاسكندنافيّ[2]» داخل حلقتي الاجتماعيّة،

---

(1) The Office (2005-2013).

(2) **Scandinavian noir**: صنف من أدب الجريمة، غالبًا ما يُكتب من منظور الشّرطيّ، وتقع أطوارها بالدّول الإسكندنافيّة.

فكنت أثرثر دومًا بخصوص مانكِل، هوكان نيسير Håkan Nesser، كييل إريكسون Kjell Eriksson، أوك إدواردسون Åke Edwardson، وكذا كارين فوسام Karin Fossum، النرويجيّة الوحيدة ضمن المجموعة - قبل أن يكون أي من معارفي على دراية بوجودهم من الأساس. وقد كنت أيضًا أول شخصٍ يقرع الطبول للكاتب الآيسلندي أرنالدور إندريداسون Arnaldur Indriðason، ثم سرعان ما اطّلع أصدقائي على كتاباته؛ هل هو أحد أجود كتّاب صنف الغموض الذين يعيشون في ريكيافيك [آيسلندا]؟ كفاك.

لقد صادفت صنف «أدب المحقّقين الإسكندنافيّين» في منتصف تسعينيات القرن الماضي خلال تسكّعي بإحدى المكتبات بفيلاديليفيا. أخبرت واحدة من القيّمين على المكتبة بأنني ضقت ذرعًا من روايات الغموض التي تجري أحداثها على طريق «مولهولاند درايف»، في حيّ «ليتل إيتالي» بنيويورك، أو في الرّيف الإنكليزيّ الأنيق، حيث تتخفّى فظائع لا توصف خلف كل أجمةٍ لزهرة الرّبيع؛ فسألتها عمّا كان بإمكانها اقتراح كتبٍ أكثر إثارةً.

فكان ردّها: «جرّب **(كلاب ريغا)**(1).»

ففعلت ذلك. ورغم أن **(كلاب ريغا)** بدت أشبه برواية تشويق بقلم مارتن كروز سميث، إلا أنها كانت في الواقع رواية غموض بقلم الرّوائي السّويديّ هينينغ مانكل، وقد كانت بالفعل رواية غموضٍ من الطّراز الرّفيع، الأخيرة ضمن سلسلة بطلها المحقّق المكتئب إكلينيكيًا، كورت والاندر: رجل في منتصف العمر، مطلّقٌ، له ابنةٌ حياتها في فوضى عارمة، علاقته بوالده الشيخ متوتّرةٌ، وصحّته متدهورةٌ. إنه شرطيٌّ مجتهدٌ، دؤوبٌ، ومتأنٍّ في عمله يحتاج في الغالب لأن يبتسم له الحظّ حتى يحلّ القضيّة. وبناءً على هذا الوصف، كان يصعب أن ترى كيف أن روايات ماندل ستتفرّد بأي شكلٍ من الأشكال وسط القطيع.

(1) **The Dogs of Riga (1992)** – Henning Mankell.

لكن ماندل - الذي يشتغل أيضًا كمدير لمسرح «تياترو أفينيدا» في الموزمبيق - أثبت أنه كاتبٌ موهوبٌ يستعمل رتابة نسق الغموض من أجل معالجة مواضيع من قبيل تفكّك المجتمع السّويدي، أهوال أرذل العمر، والمعنى الحقيق لأن يكون المرء شرطيًا. وهو في ذلك يشابه - دون أن يضاهي - الرّوائي الخلّاق، الفرنسيّ-البلجيكيّ جورج سيمنون، الذي لا يتفوّق على شخصيّته الرئيسة، المفتّش ميغري، أحد باستثناء شخصيّة شارلوك هولمز لآرثر كونان دويل في صنف الغموض. لقد بلغ تأثير رواية **(كلاب ريغا)** عليّ أن اقتنيت بعدها مباشرةً ثمان روايات أخرى لمانكل، وفي ظرف أشهر معدودةٍ أتممت كل مؤلّفاته. وبعد ذلك، انتقلت إلى سلفَيه الرّائعين: ماي شويفال Maj Sjöwall، وبير واهلو Per Wahlöö، إذ إن روايتهما **(الشرطيّ الضّاحك)**[1] قد تحوّلت إلى فيلم فاترٍ من بطولة والتر ماتو قبل بضع سنوات.

وعلى مدى السنوات التي تلت، رُحتُ أزدرِدُ مؤلّفات مَحميّيه من الكتّاب و/أو مقلّديه: ماري يونغستدت Mari Jungstedt، ينس لابيدوس Jens Lapidus، وكاميلا ليكباري Camilla Läckberg. بل إنني شرعت في تقديم روايات الغموض السّويديّة لرفاقي من عشّاق صنف الغموض كهدايا خلال الكريسماس، وقد لقت ترحيبًا أكثر حرارةً من رواية **(رجل بدون صفات)**. ووجدوا جميعًا أن الجوّ الكئيب الذي يطغى عليها خدّاعٌ، كما أنهم أحبّوا أن القصّة تُروى أحيانًا من منظور القاتل. وقد اكتشفوا، بعد وقتٍ وجيزٍ، بأن روايات الغموض الاسكندنافيّة تتميّز بنوع من السّحر الأخّاذ والمتفرّد. ويعود جزءٌ من هذا الإغواء إلى ما أسمّيه «الاستغراب المعكوس»: الكآبة الشّديدة، عدم إطاقة أدنى ضحكة ولو كانت خافتة، وكذا ضراوة الجرائم وشناعتها، إذ إن السّويديّين يميلون كلّ الميل إلى قطع الرؤوس، سلخ فروتها، بقر الأحشاء، وإلقاء الجثث البشريّة الموشومةٍ في برَكٍ مشؤومةٍ لتطفو لاحقًا

(1) **The Laughing Policeman (1968)** – Maj Sjöwall & Per Wahlöö.

على السطح. كل هذه العناصر تجعل الروايات أكثر سوداويّةً وإثارة للفزع من قصص رجال العصابات «الفُصَحاء» التي تجري أحداثها في بولونيا وبنسونهرست. كما أن السويديّين لا يكتبون روايات الجرائم التي لا يُكشف فيها القاتل الغامض إلا في نهاية القصّة؛ لأنهم مهووسون أكثر بفهم السّبب الذي يدفع الناس إلى حمل الفأس وإيقاعها بالرّأس في المقام الأول. وغالبًا ما يكون ذلك راجعًا إلى شيءٍ حدث خلال نشأتهم بالشوارع الرئيسيّة لمدينة... فلنَقل: ستوكهولم.

إن النثر الذي يفتقد إلى نسقٍ، تفادي الدوافع المبتذلة من عالم العصابات، وكذا غياب الفطنة وسرعة البديهة في إلقاء النّكت والملاحظات النّبيهة، مما يميّز العديد من أعمال صنف الجريمة الأمريكيّ المعاصر؛ كلها كانت تغيراتٍ مرحّبًا بها. لم يكن «والاندر» يرتدي ثيابًا ذات ألوانٍ صارخةٍ، ولم يكن يملك مجموعةً فاتنةً من الأغاني التي تضم تسجيلات (غير قانونيّة) لحفلات فرقتَي «هوسكر دو» و«كرافتفيرك»؛ كما أنه لم يكن يملك أصدقاء رائعين، ولم يكن طبّاخًا محترفًا، خبيرًا في الفطر، أو شغوفًا بالخمور العتيقة. بل كان مجرد شرطيّ عتيق الطّراز، يحاول أن يكشف النّقاب عن سبب الظهور المتتالي لأجسادٍ تغطّيها الوشوم، مبقورة الأحشاء، ومسلوخة الرأس؛ بمناطقَ متفرّقة من البلدة. وقد كان ذلك صحيحًا أيضًا بالنسبة لأقران مانكِل ومَحميّيه: لم تكن لشخصيّات رواياتهم أية سِمةٍ رائعةٍ؛ كانت جميعها دنيئةً.

منذ اللحظة التي اكتشفت فيها مانكل، واظبتُ على إخبار أصدقائي أنهم يفوّتون الكثير إذا استمرّوا في تجاهل روايات الجرائم والتّشويق الاسكندنافيّة؛ إلا أن ردّهم ظلّ محصورًا في ابتسامةٍ ساخرةٍ في وجهي. وقد استمروا في تجاهل هذا الصنف إلى أن طغت **(الفتاة ذات وشم التنّين)**[1] على أوراق الصحف والمجلات. ثم لم يعودوا قادرين على الاكتفاء من

(1) **The Girl with the Dragon Tattoo (2005)** – Stieg Larsson.

شبيهاتها، وانضمّوا جميعًا للحديث عن «موضة الفايكينغ» الجديدة. بعد ذلك سنواتٍ، رجعت إلى تلك المكتبة بفيلاديلفيا من أجل شكر تلك الموظفة على تعريفي بمانكِل، فكان ردّها أن لا فكرة لديها عن الأمر.

وكما أشرت في فصلٍ سابق، لقد كانت معظم تجاربي مع المكتبات أقل من مثاليةً.

لم أحجم عن الثرثرة بشأن هذا الموضوع لوقتٍ طويلٍ جدًا إلى أن استسلمت هيئة الإذاعة البريطانيّة [بي بي سي] أخيرًا وسمحوا لي بتقديم برنامجٍ عنه. كانت الفكرة الأساسيّة هي تحديد مدى استحضار رواية الجريمة - أو الجرائم المتعدّدة - للمدينة التي تقع فيها الأحداث. كنت أعتزم تقديم سلسلةٍ كاملةٍ عن الموضوع، لكن لا بد أن مسؤولي الـ «بي بي سي» قد فطِنوا لأن الأمر برمّته لا يعدو كونه احتيالًا من أجل زيارة أماكن بديعة مثل ريو دي جانيرو وطوكيو، وبالتالي لم يدفعوا إلا مقابل تصوير حلقتَين فقط. كانت الأولى بخصوص عاصمة أمّتنا، حيث تحدّثت إلى عميل «إف. بي. آي» متقاعد يحمل اسم مستعارًا «دكتور ديث» Dr. Death، وهو أروع شخص أجري معه مقابلةً في حياتي. وقد أجريت كذلك مقابلةً أخرى مفعمةً بالطاقة والحيويّة مع الكاتب الغامض جورج بيليكانوس في بيته بسيلفر سبرينغ، ماريلاند؛ وقد حاول جاهدًا تذكيري بأنه لا أحد ينفي بأن رواياته المظلمةُ والعنيفةُ نجحت في تصوير جوهر مسقط رأسه، واشنطن العاصمة، لكنه مازال يحبّ المدينة فعلًا.

أما ستوكهولم فقد كانت أمرًا مختلفًا تمامًا: توصف أحيانا على أنها «صقلّيّة الشّمال»، وهي ليست مدينة قاسية. فبغض النظر عن كل العنف الذي نجده داخل الروايات التي تجري أحداثها هناك، فهي لا تتمتّع بقسوة مارسيليا أو غلاسكو أو الطرف الشّرقيّ من لندن، الذي حكمته عصابة الأخوَين كراي - The Krays - ذات مرّة؛ كما أن تلك العاصمة الشّماليّة ليست مخيفةً

بطريقةٍ شبيهةٍ بشرق نيويورك، شرق لوس أنجلوس، شرق سانت لويس، وغرب فيلاديليفيا. وللعين المجرّدة، يبدو أنها تتميّز بقسوة وتهديد [ولاية] سانتا في. أشك أن الأمر ينطبق على البلاد برمّتها: إن السويد ليست مكانًا مخيفًا.

وبحلول الوقت الذي حللتُ فيه بستوكهولم، كان جنون الناس بعالم **(الفتاة ذات وشم التنين)** قد بلغ ذروته: صار المتحف الوطنيّ للفن يعرض مكتب الشّخصيّة الرئيسيّة برواية لارسن للزوّار، بالطريقة ذاتها التي كان القيّمون السابقون على أمر المكتبات يكرّمون الشخصيات التي اختلقها السّويديّان أوغست ستريندبيرغ وإنغمار بيرغمان. كانت ثلاثية **(الفتاة ذات وشم التّنين)** قد بيع منها حتى تلك اللّحظة 27 مليون نسخة، بمعدّل ثلاث نسخ عن كلّ مواطنٍ سويديٍّ، وقد صار النّاس يلتجئون إلى حصصٍ ليليّةٍ لتعلّم كتابة روايات الجريمة الاسكندنافيّة (مع نتائج مبهرة)؛ لقد بدأت الأمور بالفعل تخرج عن السّيطرة.

باستثناء أن يكون القارئ أحمق تمامًا، فإنه سيتعب من صنف الخيال في نهاية المطاف؛ سيضيق ذرعًا بمصّاصي الدماء، المستذئبين، السّحرة، والأرواح الشّريرة، بل وحتى بالسّقوبة؛ سيكتفي، لا محالة، من فصيلة «الكلينغون»[1]، السّحرة المشعوذين، فارس الظّلام، فرسان الهيكل... والفرسان بصفةٍ عامّةٍ. والشيء ذاته يحدث معي فيما يتعلق بروايات الجريمة التي تجري أطوارها في أجواءٍ غريبةٍ. إن أهم ما يميّزها هي أجواءها الأخّاذة؛ لا نثرها ولا حبكتها: إن بعض الكتّاب من إيطاليا، هولندا، البرازيل، أو أي مكانٍ آخر، بوسعهم مضاهاة هارلان كوبن، مايكل كونيلي، ودينيس ليهان في البراعة، الإيقاع الدرامي، والتّشويق؛ أو مضاهاة إلمور ليونارد في الحوار، أو روس ماكدونالد في خلق أجواء القصّة بإتقانٍ؛ أو مضاهاة جيمس إلروي ورايموند شاندلر في البراعة، الإيقاع الدرامي، التشويق، أجواء القصّة، خيوط

(1) فصيلة فضائيّة خياليّة من سلسلة **(ستار تريك)** Star Trek.

الحبكة، الحوار، والأسلوب. إن الأمريكيّين من قبيل ألان بو وداشييل هاميت هم من اخترعوا هذا الصّنف الأدبيّ، وإلى حدود يومنا هذا ليست هناك إلا قلّة قليلةٌ من الكتّاب القادرين على منافستهم داخل هذه العُصبة.

حين حانت لحظة الاختيار، لم أجد أيّ شيءٍ مميّزٍ بخصوص مشاهد أليسيا خيمينيث بارليت البوليسيّة التي تجري أحداثها ببرشلونة، ولا بروايات الغموض بيوركشاير بقلم باتريشيا هال؛ التي كان يمكن أن تقع بأي مكانٍ آخر؛ وروايات التشويق الفرنسية التي ألّفتها كارا بلاك كذلك لم تكن جذّابة على نحوٍ مميّز، ولا كانت معبّرةٍ عن باريس بشكلٍ متفرّد، كما أنها لم تكن تملك مقوّمات الكاتبة الجيّدة. أما سلسلة روايات **(وكالة تحقيق الأوانس رقم 1)**[1] بقلم ألكسندر ماك كال سميث فلم تكن مشوّقةً على وجه الخصوص: إن كون أحداثها تجري ببوتسوانا هو كلّ ما جعلها تتفرّد عن البقيّة. وقد صار الآن جليًّا أكثر فأكثر أن روايات التّشويق المتفرّدة لا تعدو كونها خدعةً متقنةً، حيلةً لجعل قصّةٍ باهتةٍ تبدو أكثر إثارةً، في حين أن الأمر الوحيد الذي يجعلها ناجحةً هو أن أحداثها تجري بأماكن غريبةٍ وغير مألوفة: أوسلو، ترنسلفينيا، لاوس، موطن سلسلة **(دكتور سيري)**[2] المشوّقة.

وتظل الحقيقة أنني أيضًا قد بالغت في ترشيح صنف الغموض الاسكندنافيّ. لقد عكفت على مدى سنين طويلةٍ على إخبار الناس أنهم يفوّتون على أنفسهم شيئًا رائعًا إذا لم يجرّبوا قراءة كتبٍ من هذا الصّنف؛ لكن الحقيقة أنهم لم يفوّتوا شيئًا رائعًا؛ إن رواية **(الفتاة ذات وشم التّنين)** مكتوبةٌ بطريقة سيّئةٍ وهي - لكل المقاصد والأغراض - عبارة عن محتوى إباحي لأولئك الذين يستمتعون بالتّلصّص على المشاهد من ذلك النوع. إن كون ليزبيث سلاندر [بطلة الرّواية] نموذجًا يُحتذى به للمرأة النّسوية هراءٌ محضٌ؛ إنها مخبولةٌ،

(1) **The No. 1 Ladies' Detective Agency (1998-2002)** – Alexander McCall Smith.

(2) **Dr. Siri Paiboun Series (2002-2020)** – Colin Cotterill.

معتلّةٌ اجتماعيًّا، تملأ جسدها الثّقوب. وكل ما في الأمر أن كتب ستيغ لارسن قد صدرت في المكان المناسب وفي اللّحظة المناسبة، حين كانت «روح العصر» جاهزة من أجلها، لكن لارسن يظلّ أقل رتبةً من مانكِل. وعلى أية حال، كنت حينها قد ضقت ذرعًا بهم جميعًا، إذ كان عيد ميلادي السّتون يدنو بسرعةٍ، ما يعني أنني صرت متقدّمًا في السّنّ من أجل مثل هذه الأمور.

لطالما استمتعت – لمعظم فترات حياتي – بأعمال الغموض من الطّراز الرّفيع – ب. د. جيمس، يان رانكين، روث رندل – ولكن فقط كفسحةٍ لالتقاط للأنفاس. لم أعتقد يومًا أن روايات الجريمة قد تسامت عن غيرها ضمن صنف الرّواية؛ قد تمثّل قراءة شاطئية على أعلى مستوى، لكنها تظل «قراءة شاطئية». والآن أدركت بأنني قضيت كل ذلك الوقت رفقة شرطيّين في منتصف العمر، هاكرز معتلّين، وقتلة متسلسلين سويديّين. الآن، بعد أن بدأت أستعيد شريط حياتي بطريقة عكسيّة وأعدّ أيّامي الباقية، لم يعد لديّ وقتٌ أضيّعه على روايات «النوار» noir الاسكندنافيّة، إذ إن كل دقيقةٍ قضيتها في القراءة عن أوشام ليزبيث سلاندر كان يمكن قضاؤها في القراءة عن أوشام [الشخصيّة الخياليّة] كويكيغ.

لقد كانت تلك حالةً كلاسيكيّةً لخيبة الأمل التي يولّدها اكتشاف شيءٍ مذهلٍ للغاية، ثم يبدأ الجميع في الانضمام إلى الحدث، فيصير الشخص أو الشيء الذي تستمتع به أكثر شهرةً مما يحقّ له، ثم تخرج الأمور عن النّطاق تمامًا، وينتهي بك المطاف بالضّجر من الأمر برمّته. ومع ذلك، عشت تجربةً لا تنسى في السّويد. كنت يومها قد ذهبت لمقابلة ضابط شرطةٍ مكلّفٍ بالتعامل مع الصحافة، وكانت بادرةً حسنةً منه أن قام بالتّجهيزات اللازمة لتنضمّ إلينا ضابطتا شرطةٍ، فانخرطنا في محادثةٍ جميلةٍ ومطوّلةٍ عن الجريمة وروايات الجريمة، ثم قدّم إليّ كيك شوكولاتة كانوا قد اقتنَوها على شرف زيارتي. أخذت منها قطعة أولى فثانيةً، مؤكّدًا له على أن هذا الأمر لن يحدث أبدًا في نيويورك، كما أن احتمال حدوثه أقل في لوس أنجلوس. وحين أوشكت

محادثتنا على النهاية، عرضت عليّ الضابطتان أن تأخذاني في جولة بقلبِ ستوكهولم، فركبنا سيّارة المناوبة وقضينا ثلاثة أرباع السّاعة في بحثٍ عن المجرمين الأشدّاء. طفنا بالمكان شرقًا وغربًا، لكن التّوفيق لم يكن حليفنا: لم نصادف أية قضيّة فعليّة بأي مكان. شعرت بشيءٍ من الأسف تجاههما، لأنهما كانتا تعلمان أنني كنت في رحلة صيدٍ بحثًا عن فِراخ القتلة والنازيين الجدد والمخبولين ذوي الشّغف في قطع رؤوس مُرتّلي القدّاس خلال غنائهم؛ لكننا لم نفلح في إيجاد ولو منتشل محافظَ لعينٍ حتى! في النهاية، بلغهما نداءٌ بخصوص جلبةٍ داخل أحد مطاعم «برغر كينغ» ثم انطلقتا في طريقهما؛ ومضيتُ كذلك في طريقي. بناءً على تجربتي، أظن أن الأمريكيّين الذين قرأوا لستيج لارسون، هينينغ مانكِل، أوكي إدواردسون والبقيّة؛ سيخيب ظنّهم إذا ذهبوا إلى ستوكهولم بحثًا عن جرائم القتل، التمثيل بالقتلى، والتشويه الدّائم.

من أجل نتائج أفضل، المرجو الالتزام بواشنطن العاصمة.

***

قبل وقتٍ بعيدٍ، سافرت إلى باريس من أجل زيارتي الاعتياديّة لقبر بودلير. قد كنت واقفًا هناك، أنظر إلى القبر الذي أعرفه جيّدًا حين اقترب مني رجلٌ، قادمًا من الخلف.

«تدرك أن هذا ليس قبر بودلير، أليس كذلك؟» قال الرجل، وأضاف:» إنه محض قبرٍ تذكاريٍّ أجوَف، فجسده مدفونٌ في قبر العائلة على الجهة الأخرى من المقبرة.»

كان في منتصف ثلاثينيّاته تقريبًا، حسن المظهر، وبدا جليًّا أنه فرنسيٌّ. شكرته وانخرطنا في المحادثة المعتادة والدردشة بخصوص الشعراء الفرنسيّين العظماء الرّاحلين. عرض عليّ أن يُريَني قبر عائلة بودلير، فأجبت أن ذلك سيكون معروفًا كبيرًا، غير متأكدٍ تمامًا من السّبب الذي دفعني إلى قول ذلك. تساءلت عمّا إذا كان هذا القبر التّذكاريّ لبودلير أحد الأمكنة التي يضرب

فيها الفرنسيّون المواعيد؛ وعمّا إذا كان يتم اقتيادي نحو «شَرَكٍ مقبراتيٍّ» أفقد فيه حافظة نقودي قريبًا. لكن كان من المطمئن أن الرّجل بدا فاعل خيرٍ عالم بأمور القبور، كما أن المقبرة كان بها عددٌ معقولٌ من الزّوّار، لذا قرّرتُ المضيّ قدمًا في صحبته. وحين بلغنا قبر عائلة بودلير، قمنا بتفقّده سريعًا، ثم واصلنا دردشتنا.

ثم سرعان ما انضمّت إلينا امرأة في ستينيّاتها، ذلك أكيد، وبدا أنها في عملٍ روتينيّ للاعتناء بالضّريح. انبهرتْ كذلك بدورها لكوني أعرف من هو بودلير، وسألتني عما إذا كنت أرغب في زيارة مكان دفن زوجة ماريشال بيتان.

فأجبت: «آني، أتقصدين آني؟ آني بيتان؟ بالطبع أرغب في ذلك. من ذا الذي قد لا يرغب في ذلك؟»

في طريقنا، توقّفنا وهلةً عند قبر قسطنطين برانكوسي، جون بول سارتر، سيمون دي بوفوار، وغاي دو موباسون؛ وقد انبهر رفيقاي بأنني لست فقط أعرف هويّة أولئك الكتّاب وإنما سبق لي أن قرأت أعمالهم. (باستثناء أعمال برانكوسي.)

لكن الفرنسيّين – سحقًا لهم – لا يَسَعهم تحمّل التواضع لفترةٍ طويلةٍ. فبينما واصلنا موكبنا الجنائزيّ الأدبيّ ذلك وسط المقبرة، شرعا في تأنيبي بخصوص كل أولئك الفرنسيّين المستنيرين الذين لم أسمع عنهم قطّ. أكان ممكنًا أن ديلفين سيريغ، نجمة سينما متلألئة من «عصر الموجة الجديدة»، كانت مجهولة في أمريكا؟ بَخٍ، بَخٍ! ألم يسبق لي أن سمعت بالناقد الاجتماعيّ اللاذع رولان توبور؟ يا إلهي، (أوَ على قول الفرنسيّين: Oh mon dieu!). هلِ يمكن أن تصل الأمور إلى هذا المأزق الرّهيب حيث هذا الأمريكيّ مدّعي الكونيّة – الذي هو أنا – لم يسمع بأعمال إيف موروسي Yves Mourousi، الذي اعتبره «وولف بليتزر Wolf Blitzer الفرنسيّ» ؟ بعبارةٍ أخرى،

حين بلغتْ جولتنا القصيرة نهايتها، تم إنزالي إلى مرتبة «هاوٍ»، واعتباري مشروع مهووس بالثقافة الفرنسية فاشل، مجرد متعجرفٍ سيّء البخت ليس إلا، وأحمقٍ راغبٍ في أن يبدو خبيرًا عالمًا. مرةً أخرى، استسلمت لتكتيك الملاكمة الغاليّ المتمثّل في الانسحاب نحو الحبال وتفادي اللّكمات حتى يستنزف الخصم طاقته، مُبقيًا رأسي ناتئًا قليلًا فقط بما يكفي.

ثم أشارت المرأة إلى المثوى الأخير لجيزل فرويند، مصوّرةٌ التقطت صورةً شهيرةً لـ... – احزروا من؟ – رفيقي العزيز ومخلّصي: هنري دو مونترلان.

لقد جعلت هذه المصورة – التي رأيتها في عدّة معارض – دو مونترلان يبدو مريعًا للغاية؛ ففي قمّة قنوطه، وبعد أن تآمرت عليه تهيّؤاته وكآبته السّوداويّة، كان هو في الواقع من طلب منها التقاط صوره على تلك الطّريقة.

«يا إلهي، كم كان ذلك الرّجل يجيد مغازلة الورقة بقلمه!» صِحتُ متعجّبًا. «دعاني أخبركما أمرًا: إن الحادي والعشرين من سبتمبر سنة 1972 كان أحد أشد الأيام قسوةً على قلبي؛ فبعد أن قرأت مسرحيّة **(الملكة الميّتة)** خلال مرحلة دراستي الإعداديّة، ما عاد بإمكاني مقاومة ذلك الكاتب إطلاقًا. لسأكون صادقًا معكما تمامًا، فأنا لم أتعافَ بعدُ كلّيًا من رحيل هنري دو مونترلان. وبالطبع، أظن أن ذلك حال العديدين غيري.»

لقد وقفا حينها مذهولَين تمامًا، كأن على رأسيهما الطّير.

ألبير كامو، (الغريب).

«خلال سِنِيّ شبابي وضعفي، أسدى إليّ والدي بعض النّصائح التي مازلت أقلّبها بذهني منذ ذلك الحين؛ قال لي: «كلّما راودتك الرّغبة في انتقاد أحدهم، كلّ ما عليك فعله هو تذكّر أن كلّ النّاس في هذا العالم لم يحظوا بالامتيازات التي حظيتَ بها، مثل قوة مضرب لو جيرج.»

ف. سكوت فيزجيرالد، (غاتسبي العظيم).

والآن بإمكانكم أن تروا قصدي بوضوح.

***

ذات يوم، قبل بضع سنواتٍ، صادفت روايةً مميّزةً تدعى: **(طلسم طروادة)**[1]، بقلم ماسيمو مانفريدي. يحكي الكتاب قصة ديوميديس - وهو شخصيّة ثانويّة من **(الإلياذة)** - بعد سقوط طروادة، ويصطخب بنثرٍ من قبيل: «ارتعد أنخيالوس قائلًا: بذلك الفتى شيءٌ من قوة ابن بيلوس، ولكنه يفتقر لأدنى كَسرةٍ ممّا عُرف عن والده من تقوى وأخلاقٍ مِضيافة». ويقدم الكتاب نظريةً تقول إن هيلين طروادة لم تكن في واقع الأمر ضحيّة عملية اختطافٍ من طرف باريس، ابن بريام، لكنّها ذهبت إلى آسيا الصّغرى بملءِ إرادتها وعن قصدٍ بُغيةَ الحصول على طوطم مقدّسٍ - طلسم طروادة - سيمكّن النّساء من حكم العالم. وبالتالي فقد كانت إحدى ملذّات الحياة التي لا تشوبها شائبةٌ: روايةٌ غبيّةٌ دون حدودٍ، في عالم مليءٍ بالروايات الغبيّة التي تقدّم التّنازلات؛ وبموجب سفاهتها الهيلونيفيليّة[2] الزّائفة وكذ تنبّؤاتها الدّيلفيّة[3] الخرافيّة، فقد أضحت سلاحًا قويًا في أيدي هؤلاء الذين يعملون ليلًا ونهارًا من أجل مقاومة صعود «الجيّد».

إن معظمنا قد سبق له لقاء أو معرفة أشخاصٍ يجدون لذّة كبرى وشاذّة في السّعي نحو الجودة: لا يقرأون إلا أجود الكتب، لا يشاهدون إلا أجود الأفلام، لا يستعمون إلا للموسيقى الجيّدة، ولا يناقشون السياسة إلا مع الديموقراطيّين؛ كما أنهم لا يخجلون من معرفتك بذلك، لأنهم يظنون أن ذلك يجعلهم أذكى وأفضل من البقيّة، لكن ذلك غير صحيح؛ بل إن ذلك يجعلهم لئيمين، مفرطين في إصدار الأحكام وشحّيحين في إنفاق الوقت، كما لو أن

---

(1) **The Talisman of Troy (1994)** – Valerio Massimo Manfredi.

(2) Hellenophilia: الفكرة القائلة بأن كل العلوم الغربية نشأت مع الإغريق، ومنه العمي عن احتمال نشوء العلم في باقي الحضارات.

(3) Delphic: نسبةً إلى عرّافي ديلفي باليونان القديمة.

قضاء خمسَ عشرةَ دقيقة في تقليب صفحات رواية (**شيفرة دافنشي**) جريمةٌ شنيعةٌ لا تُغتَفر - انتهاكٌ خطيرٌ لـ «القوانين العابرة للسّماء» لإدارة الموارد الفكرية - ستجعل خَزَنة قسم مراجعات الكتب بمجلة نيويورك يلقون بهم في غياهب وظلمات نيرانها الميتا-خياليّة. في نظرهم أن كلّ وقتٍ يقضونه في قراءة كتابٍ سيّءٍ هو وقتٌ لا يمكن استرجاعه، والأدهى من ذلك أن إساءة استغلال هذه الدقائق الثمينة، بل والثّواني، يشكّل جريمةً ضدّ الإنسانيّة؛ هذه الطّينة من الناس تظن أن الآخرين يحيطون جدولهم الزّمني بأسلاك شائكة.

إن أولئك الذين ينغمسون منّا في قراءة كتبٍ سيّئةٍ لحدٍّ يفوق الوصف من قبيل رواية (**طلسم طروادة**)، يدركون أن مثل هذه السّلوكيّات التعفّفيّة ضربٌ من العُصاب والانهزاميّة، لأن الكتب السيّئة جدًا - للغاية، وإلى حدٍّ يفوق الوصف والتّحمّل - جزءٌ ضروريّ من الحياة، كما أنها ممتعة ولا يمكن الاستغناء عنها تمامًا مثل الملابس السّيّئة للغاية (أقمصة البوليستير، وقمصان الهوكي الأصغر بقياسَين من مقاس أولئك البُدن الذين يرتدونها)؛ مثل الموسيقى السيّئة للغاية: جون تيش John Tesh في فرقة «ريد روكس»، وفيل كولينز Phil Collins في كل مكان؛ مثل الموضات السيّئة للغاية: «غندور المدينة»[1] أو عدم استعمال ورق الحمّام لمدة سنةٍ كاملةٍ؛ بالإضافة إلى السّياسيّين السيّئين إلى حدٍّ مذهل (اختر من شئت منهم، حسب ذوقك). لقد شرعت في قراءة الكتب السّيّئة خلال طفولتي حين أعارني العمّ جيري - الحبيب والمختلّ بشكلٍ طفيفٍ - أحد كتب الشّيوعيّين المتخفّين الكلاسيكيّة: (**لم يجرؤ أحدٌ على وصفها بالخيانة**)[2]، فواظبت على قراءة الكتب السّيّئة منذ ذلك الحين.

---

(1) **Metrosexual**: لفظة مستحدثةٌ في الإنجليزيّة عبر دمج كلمتَي "Metropolitan" و"heterosexual" لوصف الرجل الذي يعيش بالمدن الكبرى، الذي يخصّص نسبة كبيرة من وقته وماله للتسوّق والظّهور بهيئةٍ جذّابة.

(2) **None Dare Call It Treason: 25 Years Later (1964)** – John A. Stormer.

وبالفعل، فإن أحد الأسباب التي دفعتني لاتخاذ مُراجعة الكتب مهنةً هو أنها تتيح لي فرصة قراءةٍ متواصلةٍ وثابتةٍ لمجموعة من الكتب الحمقاء والمخبولة إلى حدٍّ يفوق الإصلاح، وتلقّي مقابلٍ ماديٍ على ذلك. وقد كان من بين الكتب الأولى التي راجعتها كتاب ويس روبرت الغبيّ بابتهاجٍ شديد: **(أسرار قيادة أتيلا الهوني)**(1)، الذي كان يحتوي على المقتطف الآتي:

«يجب أن تظل أغانينا، رقصاتنا، ألعابنا، فكاهتنا، واحتفالاتنا هي ذاتها راسخةً دون تغيير، كفرصةٍ مواتيةٍ لتجديد ولائنا وهويّتنا كشعب الهُون.»

مازلت أذكر صدمتي حين قدّم إليّ محرّري هذا الواجب، فقلت له: «دعني أستوضح الأمر جيّدًا.. سأقوم بقراءة جملٍ من قبيل: إن قيادة شعب الهون لهو عملٌ يُشعر بالوحدة معظم الأحيان. وستدفع لي مقابلًا على ذلك؟» لأنه – حتى أكون صادقًا تمامًا معك – كتابٌ سيءٌ للغاية لدرجة أنني قد أقرأه مجّانًا.

لكن الناس الذين لا يقرأون إلا الكتب الجيّدة لا يستطيعون فهم عقليّةٍ مماثلةٍ!

ويسألني البعض: «ما الذي قد يدفعك لقراءة رواية **(نجمة)**(2) بقلم باميلا أندرسون، في حين يمكنك قراءة **(المحققون المتوحّشون)**(3) بقلم روبرتو بولانيو؟»

جوابي هو: «ماكنت لأقرأ الأولى عِوَضَ الثانية، لكنني سأقرأ رواية باميلا تلك عوض أية رواية أخرى عن امرأة غامضةٍ في ورشة رسم شهيرةٍ، أو أي كتابٍ آخر حيث تعاني الشخصيّة الرئيسيّة من متلازمة أسبيرجر أو متلازمة توريت وتستمر في إثارة أعصاب الجميع على مدى ثلاثمائة وخمسين صفحة.

---

(1) **Idiotic Leadership Secrets of Attila the Hun (1988)** – Wess Roberts.
(2) **Star: A Novel (2004)** – Pamela Anderson.
(3) **The Savage Detectives (1998)** – Roberto Bolaño.

وعلى أية حالٍ، فقد قرات رواية **(المحقّقون المتوحّشون)** بالفعل، وأحتاج إلى أخذ هذه الليلة راحةً من العمل.»

أنا لا أقرأ الكتب السّيّئة بشكلٍ دائم، والآن وقد دنا خريف حياتي، صرت أميل إلى حصر هذا النّوع من الترفيه عن النّفس بكتبٍ بخسة الثّمنِ في تلك الكتب السّيّئة التي بلغت درجة «البذخ في السّوء»، والتي تكلّفت مشقّة اختيارها بنفسي. لكنني لن أتوقّف تمامًا عن قراءة الكتب السيّئة، كما لن أتوقّف عن طلب البطاطس المقليّة المحدّبة المقزّزة من مطاعم «آربيز»؛ إن للكتب السيئة لحدٍّ صادم مكانةً مهمّةً في حياتنا، لأنها تُبقي أدمغتنا فعّالةً. أما الكتب الجيّدة فلا تدفعكَ إلى التّفكير، لأن المؤلّف قد قام بذلك بدلاً منك؛ لكن الكتب المريعة يمكن أن تكون بمثابة الصّالة الرّياضيّة لدماغك، إذ إنك تمضي الكثير من الوقت في التّفكير: ما الأمر الغبيّ التالي الذي سيقوله هذا المؤلف السّفيه؟

تنبيه: كما هو الحال مع الأفلام السّيّئة، فإن الكتاب الذي يكاد يكون سيّئًا دون أن يبلغ درجة «بالغ السّوء» هو مضيعةٌ للوقت، في حين أن الكتاب المريع بحقٍّ وأصالةٍ يظل متعةً خالصةً لا تُضاهى. الأمر أشبه بالفرق بين الأفلام من بطولة ستالون والأفلام من بطولة فان دام؛ وهذا هو ما جعل الروائيّ ميكي سبيلين بارزًا: لم يحاول قطّ أن يكون (ريموند شاندلر المُعوزِين)، بل إن أعماله ظلّت أشبه بلذّة الشّراب الخالص الذي لا يخالطه شيء. ويراودني الشعور ذاته بخصوص الكتابَين الآتيين: **(خاصِرتا تيليماخوس)** و**(درع المرميدّيين)**[1]؛ إن كونهما عتيقَين وساذجَين هو ما يجعلهما ممتعَين إلى ذلك الحد، لأنه كلّما كان الكتاب غير قابلٍ للقراءة، كلّما كان ذلك أفضل.

(1) أغلب الظّن أنهما كتابان – جزء – من (الإلياذة): تيليماخوس هو ابن هوميروس، وقبيلة المرمدّيين هم أتباع أخيل في الحرب الطّرواديّة.

دعوني أوضّح أنه خلال دفاعي عن الكتب السّيئة إلى حدٍّ يفوق الوصف، فأنا لست من أنصار ذلك الموقف الازدواجيّ ثقافيًا، المستمَدّ من الفكرة القائلة إن الكتاب الذي لا يختلف اثنان على أنه سيّئٌ يمكن أن يتحول بقدرة قادرٍ إلى كتابٍ جيّدٍ بموجب معرفة القارئ لذلك، لأنه منظورٌ «تهكّميٌّ» من حيث فظاعته التي تقطع الأنفاس؛ وليس هذا هو التوجّه الذي اتّخذه هنا. لم يغِب عن ذهني قطّ، ولو للحظة، مسألة رداءة كتابٍ خلال قراءتي له، لكنّ رداءته تلك هي ما يذكّرنا بالكتب الجيّدة التي فشل في مضاهاتها ولا يعدو كونه نسخةً باهتةً عنها؛ إن الأمر أشبه بالوحل الذي يذكّرنا وجوده بغياب روعة الشّمس السّاطعة. إن رواية **(جسور مقاطعة ماديسون)** لا تعدو كونها محاولة استمناء فاشلةٍ بائسةٍ مقارنةً مع رواية **(مدادم بوفاري)**؛ إن رواية **(طلسم طروادة)** هي **(الأوديسة)** لكن دون أوديسيوس؛ أما رواية نُوتْ غينغريش: **(1945)**، حيث يفوز النازيون بالحرب في أوروبا، فهي نسخة العالم الغرائبيّ الشاذّ لرواية فيليب روث: **(مؤامرة ضد أمريكا)**[1]؛ فأحيانًا تُشعرك قراءتها بأنك مخبول، وأحيانًا لا يحصل ذلك.

وتنقسم الكتب السيّئة إلى ثلاثة أصنافٍ عامّةٍ: الكتب الغبية، الكتب التي بلغت منتهى الغباء، والكتب التي كتبت بقلم أرونتال جيمس سيمبسون؛ لكلٍّ منها سحرها التي تمتاز به عن الأخرى. أولًا، الكتب السيّئة تضم أي شيءٍ بداية من تلك التي تحتوي على كلمة «نشوة» في العنوان إلى دلائل الاستثمار التي تربط منحنى العائد [الاقتصاديّ] بتعاليم نوستراداموس؛ ثانيًا، الكتب التي بلغت منتهى الغباء هي تلك التي يحاول أصحابها أن يشرحوا لك كيف تحسّن من أدائك في الاجتماعات أو يحمّسون المتكاسلين عبر تقليد منهج ساخا زولو القاسي وشديد التنظيم؛ وأخيرًا، هناك هذا الصنف من الشذوذ الثقافيّ المتمثّل في كتبٍ من قبيل كتاب أ. ج. سيمبسون القذر: **(أريد أن**

---

(1) **The Plot Against America (2004)** – Philip Roth.

أخبرك: ردّي على رسائلك، نصوصك القصيرة، وأسئلتك)[1]، حيث يقول الكاتب – الذي كان سجينًا حينها – عن زوجته التي قضت في ظروفٍ غامضةٍ ما زال الخبراء يقفون حيارى أمامها:

«مثل باقي الناس، كانت لِنيكول عيوبُها الخاصة؛ فقد كانت تلوم الناس على مشاكلها حين تكون غير سعيدة؛ لكن الطريقة التي عاملت بها أطفالنا حين وُلدوا تعوّض عن كلّ الباقي.»

لا يوجد أيّ رجلٍ محترم، أو عاشقٍ للكتب الرّديئة إلى حدٍّ مذهل، لن تعتريه الرغبة في الحصول على نسخته من هذا الكتاب الفذّ.

أنا بالتأكيد لا أقصد أن كلّ الكتب تُجزل في توفير المتعة إلى هذا الحدّ بمقدار ما توفّره هذه الفظائع. فنأخذ مثال رواية **(أطلس هازًّا كتفيه)**[2] التي وإن كانت أحد أسوء الكتب في التاريخ على الإطلاق، إلا أنها ليست ممتعةً البتّة؛ أما التّرّهات الخاملة المتدفّقة – دون انقطاع – من قلم جيمي كارتر فهي توفّر ضحكاتٍ أقل مما فعل خلال فترته الرّئاسيّة؛ ذلك أن المشاهير يميلون إلى كتابة كتبٍ سيّئةٍ بأسلوبٍ متوقَّع وكئيبٍ، أو أن تكون لهم كتبٌ سيّئةٌ على طرازٍ معتادٍ بأقلام الكتّاب المأجورين المنحطّين ذاتهم، بينما يفعل الباحثون عن المكانة الاجتماعية والمغفّلون كلّ ما في وسعهم من أجل التألّق وحصد الذّهب، فيغامرون باختراق المناطق المحظورة التي يخشى ذوو المناصب المرموقة الخوض فيها؛ لكن جيمي كارتر ما كان ليكتب بمثل سوء أ. ج. سيمبسون حتى ولو سعى إلى ذلك.

إن أحد الأسباب الرّئيسيّة التي تدفعنا – نحن معشر مُحبّي الكتب السّيّئة – للتّعبير عن مشاعرنا للآخرين هو كونها أحد أشكال مقاومة هيمنة الذّوق الرّفيع. فلو كانت لـ «عبيد الجودة» هؤلاء اليدُ العليا دومًا،

---

(1) **I Want to Tell You: My Response to Your Letters, Your Messages, Your Questions (1995)** – O. J. Simpson.

(2) **Atlas Shrugged (1957)** – Ayn Rand.

ما كنّا لنرى وروايات تشويق بقلم مارلين كوايل: **(تقبّل الثعبان)**[1]، كتب أطفالٍ بقلم المغنّية الشهيرة مادونا: **(لوتسا دي كاشا)**[2]، ولا سِيَر ذاتيّة بقلم جيرالدو ريفيرا: **(كشف ذاتي)**[3]؛ لو أن هؤلاء الذين يستلذّون الجودة كانوا المسيطرين على صناعة النشر، ما كان أي كتابٍ يشعرك بالقشعريرة أكثر من سيرة داريل هانا الذاتية ليبلغ الطابعة ويرى ضوء النّهار أو يوضع على الرّفوف؛ وبالتأكيد ما كنّا سنرى كتبًا بقلم نجم السّلة الأمريكيّشاك أونيل، ولا مذكّرات نجمة برنامج مواهب بريطانيا سوزان بويل، مغنّي الرّوك دايفيد لي روث، أو الممثلة والفكاهية رو ماك- كلانهان، وما كنّا كذلك سنرى مجموعة تأملاتٍ عنصريّةً بقلم دينيش ديسوزا.. أيبدو لك ذلك مثل عالم تودّ أن تعيش فيه؟

كتب غاريسون كيلور ذات مرّة: «إن الصّحيفة الجيّدة لا تكون أبدًا جيدّة بما يكفي، لكن الرّديئة تظلُّ مبهِجةً إلى الأبد»، والأمر ذاته، في نظري، ينطبق على الكتب. قد يرى بعض الناس شغفهم بالكتب الرّديئة على أنه متعةٌ يحفّها شعورٌ بالذّنب، إلا أنني أراه متعةً لا يراودني بشأنها أدنى شعورٍ بالذّنب (رغم أنه يجب عليّ الشّعور به). إن الأفلام السّيّئة، قصّات الشّعر السيّئة، العلاقات السيّئة، وكذا القرارات السّيّئة الصادرة عن المحكمة العليا؛ تستدرُّ منّي جميعها ابتسامةً وضحكةً خافتةً، أما الكتب السّيّئة فتجعلني أضحك حتى تظهر نواجذي، وإذا توقّفوا يومًا عن إصدار الكتب التي تضم عباراتٍ من قبيل «إن قيادة شعب الهون عملٌ غالبًا ما يبعث في النّفس شعورًا بالوحدة»، فلا أظن أنني أود أن أظلّ بهذا العالم بعد الآن.

كنت فيما مضى أتساءل عن سبب استغراقي وقتًا طويلًا للغاية قبل أن أتفرّغ لقراءة بعض الكتب في خزانتي الشّخصيّة، لماذا أعيد قراءة رواياتٍ من

---

(1) **Embrace the Serpent (1992)** – Marilyn Quayle & Nancy T. Northcott.

(2) **Lotsa de Casha (2005)** – Madonna.

(3) **Exposing Myself (1991)** – Geraldo Rivera.

قبيل: **(احتجاج بورتنُوي)**[1]، **(الرواية الأمريكيّة العظيمة)**[2]، **(الموت يأتي من عند كبير الأساقفة)**[3]، و**(المضيّ بين عالمَين)**، و**(فلاشمان)**[4]، في حين أنني لم أجد الوقت بعد لقراءة رواية نابوكوف: **(الحزام المعكوس)**[5]، وكتاب إرنست رينان: **(حياة يسوع)**[6]؟

ثم صادفت الجواب ذات يوم حين أخذت معي نسخةً من **(مغامرات هاكلبيري فين)**[7] خلال رحلةٍ إلى لوس أنجلوس. لم أكن قد قرأت تحفة توين هذه منذ سنوات مراهقتي، لكنني أحتفظ بذكرياتٍ دافئةٍ عن تلك التجربة الاستثنائيّة والمستبعدة من فترة مدرستي الثانوية، أي: قراءة كتابٍ تم تحديده كفرضٍ دراسيٍّ دون أن أمقته. الآن، وبعد مرور عقودٍ من الزّمن، كنت متأكدًا تمامًا من أن تلك التجربة ستتكرّر.

لكنّ ذلك لم يحدث للأسف، مع أن ذلك لم يكن خطأ مارك توين؛ لأنني وببساطة شديدةٍ لم أستطع أن أدخل في جوٍّ من الألفة الحِسّية مع الكتاب الماديّ الذي كان بين يديّ. لقد كان الغلاف هو سبب المشكل، إذ إن نسختي من الكتاب كانت راقدة في مركز إيواء للعجزة كانت زوجتي - لطيبة قلبها، عكس قلبي - قائمةً على أمره؛ لقد كانت نسخة تقليديّة من إصدارات «بانتام كلاسيك»، إلا أن الغلاف كان صورةً من فيلم[8] والت ديزني الصادر سنة 1993 والمبنيّ على الرّواية: إنها إحدى صور ديزني المثيرة للغثيان، حيث يظهر هاك المنحلّ جميل الطّلّة (يلعب دوره الممثّل إليخا وود الشّاب)

---

(1) **Portnoy's Complaint (1969)** – Philip Roth.
(2) **The Great American Novel (1923)** – William Carlos Williams.
(3) **Death Comes for the Archbishop (1927)** – Willa Cather
(4) **Flashman is a (1969)** – George MacDonald Fraser.
(5) **Bend Sinister (1946)** – Vladimir Nabokov.
(6) **The Life of Jesus (1991)** – Ernest Renan.
(7) **Adventures of Huckleberry Finn (1884)** – Mark Twain.
(8) The Adventures of Huck Finn (1993).

رفقة جيم (كورتني فانس) الأنيق بشكلٍ مفاجئٍ، وهو يشقّ طريقه متهاديًا عبر الغابة صوبَ غروبٍ بديع. وبداخل الكتاب كانت هناك صور لهاك وهو يدخّن غليونًا ويعبث مع الدّوق ووليّ عهد فرنسا المتنكر في زيّ خادم إنكليزيٍّ. كلما حملت الكتاب إلا وجذبتْ نظري صورُ هاك البغيضة تلكَ. لا أعلم كيف تخيّله مارك توين، تمامًا كما لا أعلم كيف تخيّل ف. سكوت فيتزجيرالد جاي غاتسبي؛ لكن لا يمكن لغاتسبي أن يبدو مثل الممثل روبرت ريدفورد، كما أن أشهر شخصيّة خياليّة في الأدب الأمريكيّ لا يمكن أن يبدو مثل الممثل الفتّي المحبّب: إليخا وود! هذا غير ممكن، غير ممكن!

تخلّصت من نسخة «بانتام» تلك، وحين عدت للبيت بحثتُ عن نسخة ثانية ضمن مجوعتي، لكن التجربة ظلّت هي ذاتها، لم تختلف عن سابقتها. لقد كان غلاف هذه النسخة من إصدار «سيغنيت كلاسيك» عبارة عن رسم لفتًى مشاكسٍ متورّد الخدّين، ذو سنَّين أماميَّين بارزَين، يمسك بتفاحةٍ، إذْ كان شبيهًا للغاية - وبطريقةٍ مزعجةٍ - مع الفتى جيري ماترز من مسلسل «ليف إيت تو بيفر»[1] (حرفيًّا: دعْ ذلك لبيفر)؛ وقد كان أمرًا مثيرًا للاشمئزاز بحقٍّ! لذا تمّ إحباط جهودي مجدّدًا لإتمام هذه الرّائعة الكلاسيكيّة التي لا تُضاهى. في نهاية المطاف، لم أتمكن من التّقدّم لأكثر من بضع صفحاتٍ قبل أن يدفعني اشمئزازي من رسم الغلاف لوضع الكتاب جانبًا.

حفّزني ذلك للتفكير مليًّا في كل تلك الكتب الرائعة التي قاومت قراءتها على مرّ السّنين، وأول عنوانٍ يتبادر إلى ذهني من بينها هو: **(موت بائع متجول)**[2] بقلم آرثر ميلر. فخلال دراستي في المرحلة الثانوية، اخترت مسرحيّة ميلر هذه - أبرز أعماله - كفرضٍ دراسيٍّ وجب علينا قراءته، وقد تميّزت تلك النسخة من الكتاب بغلافٍ يعرض رجلًا دَحْداحًا عليه أمارات الهلاك الوشيك، يولي الناظر ظهرَه، ويحمل حقيبةً ملأى بالبضائع التي لم ولن

(1) Leave It to Beaver (1957-63).
(2) **Death of a Salesman (1949)** – Arthur Miller.

يجد من يشتريها. كنت أعيش في حيٍّ أقلّ من المتوسط آنذاك، وكان والدي خارج البيت - في عمله - لذا لم يَبدُ لي أن تلك المسرحية ستكون مبهجةً مثل رواية **(السّهم الأسود)**[1]؛ وبالتالي لم أقرأها قطّ. وقبل بضع سنواتٍ، حين نظّمت مكتبة نيويورك العامّة عرضًا لأغلفة الكتب الشّهيرة - **(الحارس في حقل الشّوفان)**، **(الخدعة 22)**، **(روحٌ على الثّلج)**[2] - تجنّبت المرور بمحاذاة ذلك المبنى إلى أن انتهى الحفل تمامًا.

وقد حمّستني هذه الذكرى للقيام بجردٍ لمجموعة كتبي بهدف الوقوف على عدد الكتب غير المقروءة التي تتميّز بأغلفةٍ قبيحةٍ ومنفّرةٍ، لكن النتيجة كانت صادمةً. ففي إحدى خزاناتي وجدت صفوفًا وصفوفًا من إصدارات بينغوين الكلاسيكيّة، وأسفلها تقبع رواياتي المفضّلة التي كان لجميعها أغلفةٌ جميلةٌ، منها الأخّاذة (**الغابة النرويجيّة**، هاروكي موراكامي) والأنيقة (**حمّى السّفينة**[3]، أندريا باريت)، ومنها المشؤومة (**حصان الفحم الأسود**[4]، روبرت أولمستاد)؛ وأسفل هذه تقبع العشرات من كتب الفنّ الخلّابة.

لكن، في الغرفة المجاورة، حيث أحتفظ بكتبي غير المقروءة، صُدمت حين أدركت بأن العديد من هذه المؤلّفات المهمَلة بشعةٌ المظهر، تنفر منها العينُ. كان بعضها باهتًا دون أدنى خصائص مميّزةٍ، أو قبيحةً ببساطةٍ، لأنها تعود إلى حقبٍ سابقةٍ أو لأنها قادمةٌ من إنكلترا؛ أما الأكثر ترويعًا على وجه الخصوص فهي الكتب الآتية: النّسخة المجلّدة إصدار 1951 من كتاب إدوارد بيلامي: **(النظر إلى الوراء)**[5]، مجموعة قصصيّة لباتريك وايت في لونٍ

---

(1) **The Black Arrow: A Tale of the Two Roses (1888)** – Robert Louis Stevenson.

(2) **Soul on Ice (1965)** – Eldridge Cleaver.

(3) **Ship Fever: Stories (1996)** – Andreá Barrett.

(4) **Coal Black Horse (2000)** – Robert Olmstead.

(5) **Looking Backward: 2000–1887 (1888)** – Edward Bellamy.

زَبَرجَديٍّ آسنٍ تحت عنوان: **(ببغاوات الكوكاتو)**[1]، بالإضافة إلى كتاب يضم مجموعة قصص ومقالات وقصائد بعنوان: **(دوروثي باركر المتنقّلة)**[2] ذو غلافٍ لا شيء فيه مميّز، مُزدانٍ بصورةٍ جعلت باركر تبدو مثل أكثر امرأة شمطاء عاشت على هذا الكوكب، مع استثناءٍ محتملٍ للعمّة نورا، العنيدة المتصلّبة.

كان أكثر ما صدمني هو أن بعض الأغلفة الأقل فتحًا لشهيّة القراءة كانت حديثةً نسبيًّا، مثل رواية **(قوّة الحبّ)**[3] بقلم لويز إردريتش، الصادرة في نسخة 1985 الورقيّة، على غلافها أخضر مائل إلى الصّفرة، برتقاليّ، وأزرق فاتح، وهي تركيبة ألوانٍ قاتلةٍ لدرجة أنه حتى الفنان التشكيليّ ميلتون أفيري كان سيتحاشاها؛ وفيما يخصّ نسختي من عهد رئاسة ريغن لكتاب غرايس بالي: **(تغيراتٌ هائلةٌ في آخر لحظة)**[4] فقد اقترحت كتيّبًا إرشاديًّا للموظّفين قد عفا عليه الزّمن: **(المرشد المفيد في نظام تقاعدك - 401ك النّسويّ!)**، أما نسختي الرّثة العَوهاء من كتاب غرترود ستاين من إصدار «فينتيج»: **(ثلاث حيوات)**[5]، فإن مظهرها أبشع من مظهر كاتبتها.

ثم تجلّى الأمر برمّته في ذهني: حتى هذه اللّحظة، كنت أظن أنني وضعت تلك الكتب جانبًا طوال كلّ هذا الوقت لأنني كنت أتهيّب قراءتها، أو – في حالة توماس مان – لأنها ستصيبني بالضّجر. والآن أدرك أن ذلك ليس هو التّفسير المنشود لهذا التأخير الطويل؛ فالأمر المشترك بين كل تلك الكتب هو أنها بشعةٌ (جدًّا، جدًّا، جدًّا)؛ إن النّسخة المجلّدة من رواية جورج بيريك: **(الحياة: دليل استخدام)**[6]، وهي نسخةٌ شاحبةٌ من لوحة بالتوس: «مشهد من الشّارع»؛ وفيما يخصّ النّسخة المجلّدة من كتاب توماس س. ريفز:

---

(1) **The Cockatoos: Shorter Novels and Stories (1974)** – Patrick White.
(2) **The portable Dorothy Parker (1944)** – Brendan Gill & Dorothy Parker.
(3) **Love Medicine (1984)** – Louise Erdrich.
(4) **Enormous Changes at the Last Minute (1974)** – Grace Paley.
(5) **Three Lives (1909)** – Gertrude Stein.
(6) **Life: A User's Manual (1978)** – Georges Perec.

(مسألة خلُقٍ: حياة جون ف. كينيدي)[1] إصدار سنة 1991، فيبدو أن مخبولًا في قسم التّصميم قد قام بلصق أقرب صورةٍ جاهزةٍ اعتباطيّةٍ وجدها قُبَيل تحضير ألواح الطّابعات بثوانٍ؛ أما إصدار سنة 1997 من كتاب **(البذرة السّيّئة)**[2] فقد صدرت مزيّنةً بصورةٍ لدميةٍ تبثّ الرّعب في النّفس، لها شبهٌ غريبٌ بفتاةٍ كانت تجلس بجواري في الصّف الخامس.

وهكذا، شيئًا فشيئًا، بدأت أدرك أن ما يوحّد هذه الكتب التي أجّلت قراءتها طوال هذه السنين ليس راجعًا إلى كونها متطلّبةً أو منمّقةً للغاية، ولكن حقيقة أن أغلفتها الشّنيعة كانت تصرخ في وجهي: «اسحقني! دمّرني!» لقد ظلّ كتاب جورج لويس بورخيس، **(أنطولوجيا شخصّية)**[3]، في ملكي لمدة خمسٍ وثلاثين سنةً إلا أنني لم أفتحه قطّ، لأن غلافه يبدو كما لو أن أحدهم قد أفرغ عليه قنّينة خردل «غالدن» ولطّخه تمامًا.

إن الأغلفة البشعة قد تكون بالفعل سبب عدم اقترابي من الكتب الآتية: **(قصص خياليّة سيلتيّة)**، **(تاريخ الأسهم العالمية من روما القديمة إلى السيليكون فالي)**، أو رواية كينغسلي آمي الكلاسيكيّة المنحلّة: **(فتاة، عشرون سنة)**[4]. وقد كان الأذى البصريّ، مرّة أخرى، هو العامل المشترك الذي يجمع بين: **(منطق سوق الأسهم)**، **(ثلاث مسرحيات بقلم شون أوكاسي)**[5]، **(180 سؤالا رائعًا مع أجوبتها حول العلوم، الصحة، والطبيعة)**[6]، **(تاريخ**

---

(1) **A question of character (1991)** – Thomas C. Reeves.
(2) **The Bad Seed (1954)** – William March.
(3) **A Personal Anthology (1965)** – Jorge Luis Borges.
(4) **Girl, 20 (1971)** – Kingsley Amis.
(5) **Three plays (1957)** – Seán O'Casey.
(6) **Can You Drill a Hole Through Your Head and Survive?: 180 Fascinating Questions and Amazing Answers about Science, Health, and Nature (2007)** – Simon Rogers.

احتلال البيرو)[1]، (**صيحة القطعة رقم 49**)[2]، (**السّكّير**)[3]، بل وحتى (آيات شّيطانية)؛ رغم أنه في حالة الكتاب الأخير، كان شغف المؤلّف بفريق نيويورك يانكيز عاملًا مؤثّرًا ثانيًا ساهم في القرار (إنه تظافر العاملَين، كما يقال).

لقد غمرتني بهجةٌ فيّاضةٌ بهذا الاكتشاف، إذ إنني كنت أعتقد طوال السّنوات الماضية أنني أؤجّل قراءة التحفة الأدبيّة الرّوسيّة (**أرخبيل غولاغ**)[4] بسبب مخاوف بأنه قد يصيبني بالاكتئاب (اتّضح أنه اعتقادٌ خاطئٌ!)، لكنني الآن أدرك لماذا لم أحقّق تقدّمًا كبيرًا في قراءة مجموعة القصص القصيرة: (**حديقة الفخاخ**)[5]؛ وأخيرًا يتجلّى أمامي – بوضوح – سببُ مقاومتي للشّروع في قراءة كتبٍ من قبيل: (**مناخ: مفتاح فهم الدّورات التجارية**)، (**تاريخ الضّرائب والإنفاق في العالم الغربيّ**)، (**تاريخ الغباء: تاريخ البله الغربيّ من أيام الإغريق إلى اللحظة التي رأيت فيها هذا الكتاب**). لم يكن موضوع الكتاب – بل كان الغلاف – هو ما ردعني كلّ هذه السّنين عن فتحه!

وفي ظلّ ابتهاجي الشّديد بانجلاء الغموض عن هذه القضيّة، سارعت إلى اقتناء نسخة من رواية (**هاكلبيري فين**) ذات غلافٍ لا بأس به (وقد أحببت الكتاب!)؛ فعلت الأمر ذاته مع رواية ثانية لديكنز: (**نيكولاس نيكلبي**)[6] (مذهل!)؛ ثم مررت إلى مسرحيّة (**فاوست**)[7]، وهو كتابٌ حاولت أن أشقّ طريقي عبر صفحاته عدّة مرّاتٍ. (لم أواجه أدنى مشكلةٍ إطلاقًا!)؛ والآن لم يتبقّ أمامي إلا جبلٌ سحريٌّ وحيدٌ أخيرًا! هرعت إلى المكتبة وبحثت عن

---

(1) **History of the Conquest of Peru (1847)** – William Hickling Prescott.
(2) **The Crying of Lot 49 (1966)** – Thomas Pynchon.
(3) **L’Assommoir (1876 -77)** – Émile Zola.
(4) **The Gulag Archipelago (1958-68)** – Aleksandr Solzhenitsyn.
(5) **The Troll Garden (1905)** – Willa Cather.
(6) **Nicholas Nickleby (1838-39)** – Charles Dickens.
(7) **Doctor Faustus (1592)** – Christopher Marlowe.

نسخة من كتاب **(موت بائعٍ متجوّلٍ)** صدرت بغلافٍ غير مؤذٍ، ثم انزويت بغرفتي، على سريري، من أجل حصّة قراءة مطوّلة.

لقد كرهت كلّ كلمةٍ منه.

بِئس النّظريةُ الفاشلة هذه!

***

معظمَ حياتي كنت أثق بعبارات الثّناء والمديح السّطحيّة التي تظهر على الغلاف الخلفيّ للكتب، وألجأ إليها قبل أن أقرّر قراءة الكتاب الذي بين يديّ من عدمه. فإذا قالت باري هانا، (وهي كاتبةٌ أقدّرها كثيرًا)، أن جيمس كرملي، (وهو كاتبٌ لم أكن أعرفها آنذاك): «يعمل حتى ولو كانت جبهته مستعرةً بالحمّى»، فأمضي من أجل التّحقّق من صحة الأمر (وقد كان كذلك بالفعل)؛ وإذا قال مايكل أونداتيي أن ألستر ماكلويد هو أفضل أسرار كندا المحفوظة، فسأقتني أحد كتبه لأرى إن كان الأمر كذلك حقًّا (وقد كان بالفعل كذلك). لقد كانت هذه الملاحظات الصادرة عن كتّابٍ مميّزين، صادقين، يمكن الاعتماد عليهم، هي ما قادني إلى اكتشاف أسماء مؤلّفين من قبيل: وينفريد ج. سيبالد، آن مايكلز، جيمس سالتر، بريمو ليفي، دارا هورن، هيلمار سودربرغ، وجان باتريك مانشيت.

حين كنت شابًّا في منتصف الثلاثينات، كان أحد التعليقات الحماسيّة لجون آبّدايك هو ما عرّفني بالكاتب ويليام تريفور، إذ لم يسبق لي إلى تلك اللّحظة - قبل قراءة ذلك التّعليق - أن سمعت بذلك الكاتب. وقد أخذت ذلك التعليق على محمل الجدّ تمامًا لدرجة أنني انهمكت في قراءة كافّة مؤلّفات تريفور على مدى الأشهر الثمانية عشر التي تلت ذلك، ليغدو - سريعًا - أحد كتّابي المفضّلين. ومن المثير للاهتمام بحقٍّ أنني لطالما رأيتُ آبدايك بعين التّقدير والإعجاب، خصوصًا كناقد للفن، لكنّ نفسي لم تألفه قطّ ككاتبٍ (بسبب قلقه البنسلفينيِّ الزائد عن اللّزوم). أظن أن تريفور كاتبٌ أفضل من آبدايك،

ولعلّ الأخير كان يعي ذلك، إلا أن ما كال له من المديح قد بلغ عنان السّماء على أية حال؛ ولم يسبق لي أن صادفت كاتبًا وثقت برأيه إلى هذا الحدّ.

لقد أحببت شخصَ آبدايك كذلك حين التقيته ذات مرّةٍ في غرفة انتظار الضيوف بأحد البرامج التّلفزيّة وتجاذبنا أطراف الحديث لمدة نصف ساعةٍ، كان معظم حديثنا خلالها عن الفن. أذكر أنه تم يومَها تأخير مقطع ظهوره حتّى يتسنّى لعُصبةٍ من السّياسيّين أن يهذروا ويتظاهروا بوقوع كربٍ بينهم بخصوص وفاة أحد زملائهم. لاحقًا، سُمّي أحد شوارع واشنطن العاصمة باسم ذلك الرّجل الذي مات، ورغم أن آبدايك لم يحظ بذلك الشّرف بعد أن وافته المنيّة، إلا أن ذكراه كروائيٍّ - عكس ذلك البيروقراطيّ الميّت إلى الأبد - ستظل حاضرةً بيننا. لقد كان آبدايك، كما أذكر، أبعد ما يكون عن الغطرسة أو التعالي، وهو في نظري الشخصية المشهورة الوحيدة التي التقيت في حياتي والذي لم يتصرّف بعنجهيّة (كان بكل تأكيدٍ الوحيد بين من عرفت من الكتّاب).

لقد حدث بضع مرّاتٍ على مدى السنين أن اكتشفت كاتبًا أو كاتبةً بسبب تقديرٍ حماسيٍّ لعلمه أو عملها على صفحات جريدةٍ أو مجلّةٍ. فذات يوم كنت بصدد قراءة مراجعةٍ تعلن أن بينيلوبي فيتزجيرالد أفضل كاتب ناطقٍ بالإنجليزيّة. (لأكون صادقًا تمامًا، فالمنافسة لم تكن شرسةً البتّة: كان ويليام تريفور منافسها الوحيد). لقد كانت تلك أول مرةٍ أسمع فيها باسم بينيلوبي فيتزجيرالد، وبحلول الوقت الذي وقعت فيه يداي على روايتها **(المكتبة)**(1)، كان قد وارى جسدَها التّرابُ. لم تشرع في كتابة الخيال إلى أن بلغت السّتّين من عمرها، ويا لها من خسارةٍ لنا جميعًا! قرأت روايتها آنفة الذّكر أولًا وأعجبتني للغاية لدرجة أنني مررتُ مباشرةً إلى باقي رواياتها: **(الطفل**

---

(1) **The Bookshop (1978)** – Penelope Fitzgerald.

الذّهبيّ)، **(بعيدًا عن الشاطئ)**، وكذا **(أصواتٌ آدميّة)**[1]، المفضّلة لدي من بينها؛ وخلال سنةٍ واحدةٍ قرأت ثمانية من رواياتها التّسعة.

تركت روايتها التاسعة: **(براءة)**[2] – وهو كتابٌ لم يقع نظري عليه بعدُ – لوقتٍ لاحقٍ؛ أما رواياتها الأخرى فقد قرأت كلًّا منها مرّتين على الأقل. من الواضح أنني لو كنت أريد إتمام المجموعة، فيمكن أن أفتح متصفّحي حالًا وأطلب الكتاب من أحد المواقع الإلكترونيّة، لكن ذلك سيكون «سوقيًا»: إن طلب كتابٍ أونلاين، والحصول عليه عبر الشّحن في اليوم الموالي، سيدمّر كلّ شيءٍ؛ إن أمرًا كهذا لكفيلٌ بتجريد حياتي من كل الخصائص السّحريّة غير العِلميّة (التي هي أكثر شيءٍ أقدّره فيها)، وسيُخرجني من مملكة الصّدفة والتّلقائيّة، وهو المكان الوحيد الذي أشعر فيه براحةٍ فعليّةٍ. فإذا خرجت عن مساري هكذا واقتنيتُ تلك الرواية، عوض انتظار أن أصادفها ذات يومٍ أو أن أجعل أحدًا ينهار أخيرًا ويقرّر أن يشتري لي نسخةً حتّى أغلق فميَ وأتوقّف عن الحديث عنها طوال كل هذه السّنين، فإن ذلك سيلقي بظلال الشّك والرّيبة على كلّ شيء محبّبٍ إلى قلبي؛ ونتيجةً لذلك، سيصبح العالم مهيكَلًا، منطقيًا، لا يُحتمل. ذاتَ يومٍ، حين لا أتوقّع حدوث ذلك البتّة، سألتجئ إلى مكتبةٍ للاحتماء من المطرٍ الذي غافلني في هاريسبورغ أو شاطئ لاغونا أو «والا والا»، فأصادف رواية **(براءة)**؛ سيكون ذلك أحد أعظم أحداث حياتي، وسيؤكّد اعتقادي بأن الكتاب كان قابعًا هناك في انتظاري طوال كل هذه السنين، مؤخّرًا زمنه، مُحافظًا على مخبئه، واثقًا من أنني سأجد طريقي إليه ذاتَ جولةٍ عشوائيّة تقودني إليه، فأنتشله.

إن السعي إليه هو المقصد، أما عناء الطريق فلا يكاد يعني شيئًا.

---

(1) **The Golden Child (1977), Offshore (1979), Human Voices (1980)** – Penelope Fitzgerald.

(2) **Innocence (1986)** – Penelope Fitzgerald.

وإلى أن تحين تلك اللحظة، يجب عليّ الاكتفاء بما لديّ من احتياطات الحالات المستعجلة. فقبل أن تجرّب فيتزجيرالد ريشتها في كتابة الخيال، ألّفت ثلاثة سيَر ذاتية حظيت باستقبالٍ حميدٍ: كانت إحداها عن الفنّان التشكيلي إدوارد بورن جونز من العصر ما قبل الرّافاييلي؛ وهو كتاب أملكه، إلا أنني أمقت فنّاني ذلك العصر كلهم: متى أحجم أولئك اللّقطاء الحمقى عن انتقاد رافائيل؟ ثم إن أندرو لويد فيبر يجمع لوحات بورن جونز، وليس من الصّعب فهم السّبب وراء ذلك. لكنني سأقرأ ذلك الكتاب في نهاية المطاف، لأن فيتزجيرالد منحتني متعةً بالغةً على مدى السّنين الماضية، وقد تنجح في تغيير رأيي بشأن فنّاني العصر ما قبل الرّافاييلي، مع أنني أشك في ذلك؛ لكن الأكيد أنها لن تغيّر رأيي بشأن أندرو لويد فيبر.

إن حصول المرء على خريطةٍ تقود إلى كنزٍ مخبّئٍ مثل بينيلوبي فيتزجيرالد لهي تجربةٌ أضحى من النّادر جدًّا حدوثُها في وقتنا الرّاهن، إذ إن معظم النّقّاد أغبياء متزلّفون وأذلّاء، كما تعوزهم الجسارة لمواجهة الكتّاب المشهورين حين تكون حبكاتهم سخيفةً أو بليدةً أو حين يكون نثرهم رثًّا مُلَهوَجًا؛ إن الأكاديميّين منهم يخشون أن كلمةً غير متوقّعةٍ قد تودي بمسيرتهم بمرحلةٍ لاحقةٍ: حين يخضع أحد كتبهم السخيفة للمراجعة؛ أما كلمة الناشر أو أية كلمة تعريفيّة بالكتاب فهي ما يجب – على وجه الخصوص – ألا يثق المرء في محتواه بعد الآن، لأنها عادةً ما تكون بأقلام الكذّابين والسّيكوباتيّين وتهدف إلى دفع مسيرة النّذل والعاهرات خطوةً إلى الأمام. وفي الكثير من الحالات، يقوم المؤلّفون بطلب خدمةٍ من أصدقائهم الذين يمدحون كتبًا يعلمون أنها غير لائقةٍ إلى حدٍّ مريع، وهذا أمرٌ – لو تعلمون – في منتهى القسوة ولو أنه يتمّ بطواعيّةٍ. فالكتّاب يعلمون أن زملاءهم من الكتّاب يكرهون كتابة الكلمات التّعريفيّة بالكتب: إنهم يكرهون فعل ذلك حين يطلبه منهم المحرّرون كما يكرهونه حين يطلبه منهم عملاؤهم، ويكرهونه أشدّ الكره إذا جاء الطّلب

من أصدقائهم. فأن يُطلب منك كتابة كلمة تعريفيّة بكتاب أحد الأصدقاء هو أشبه بأن يُطلب منك أن تجد عملًا صيفيًّا لابن صديقك الفظّ الغليظ؛ ولسان الحال هنا يستنكر: قد تروقني بالفعل كشخصٍ، لكن ذلك لا يعني أنه يجب عليّ أن أحب نسلَك الخنزيريّ أيضًا! وسبب رفض الكتّاب الإقدام على كتابة هذه الكلمات التّعريفيّة بمؤلّفات أصدقائهم راجعٌ إلى سببٍ بسيطٍ: أنه مهما قالوا في حقّهم، فإنهم سيظلّون منزعجين لأنهم لم يكيلوا لهم مديحًا بكلماتٍ ثاقبةٍ قويّةٍ، كلمات تبلغ عنان السّماء. وفي كل الأحوال، فإن تلك المخلوقات البشعة والهجينة منهم التي لم يتح لها أن تكون في موقفٍ عُهريٍّ مشابهٍ يتيح لها تبادل هذا النوع من الخدمات – «هذه بتلك» – ستتّهمهم بأنهم منخرطون في هذا النوع من عُهر تبادل الخدمات. وفي المقابل، يرفض الكتّاب كتابة كلمةٍ تعريفيّةٍ لأشخاصٍ لا يعرفونهم لأنهم سيجدون أنفسهم مضطرّين لقراءة كتبٍ لا يرغبون في قراءتها، في مرحلةٍ ما من حياتهم حيث يكون الوقت قد بدأ ينفد منهم. إن كل الكلمات التعريفيّة يجب أن تُكتب قبل سنّ الخمسين. أما بعد ذلك، فلا يجب على المرء أن يقرأ كتابًا يكره قراءته، إلّا إذا اتخذ على ذلك أجرًا.

يستطيع النّقائيّون رؤية التشويهات العميقة المدسوسة وسط تلك الدّعاية المغلوطة في الكلمات التّعريفيّة بالكتب، والتي وجب على الكاتب أن يطيقها حتى يتمكّن من كيل المديح لصديقٍ دون أن يمدح كتابه فعليًّا. «لا أحد يفوق فلانٍ في تحضير المشاهد بإتقانٍ...» هكذا كان وصف تريفور ذات مرّةٍ لكتابٍ يضمّ مجموعة قصص قصيرةٍ بقلم كاتبٍ أشعر برغبةٍ عارمةٍ في انتقاده هنا. قد يكون ذلك صحيحًا كما قد لا يكون. بغض النّظر، فقد كانت القصص سخيفةً، لا شيء فيها مميّز. وتجدر الإشادة بفعل تريفور هنا الذي لم يقل مطلقًا إن الكتاب جيّدٌ: كل ما قاله إن المؤلّف يجيد إعداد المشاهد، لكنّه لم يقل قطّ إنه يجيد إنهاءها. إن القدرة على مدح صديق دون ترشيح

كتابه يُشار إليه أحيانًا داخل أروقة حِرفتنا على أنه «آخر لمسات بيرانديلّو[1]»؛ إذ إن الرّفاق سيحدّقون في براعة ذلك التّلاعب اللّغوي المستَتِر باندهاش.

سيقولون: «هذا الرّجل لم يفقد شيئًا من براعته؛ مازال في مقدوره إحداث الرّعد الملتبِس!»

إن الاقتباسات «المقتَطَعة» من نص مراجعة كتابٍ والتي لا تشير إلى اسم المؤلّف، لا قيمة لها بتاتًا. لم تكن جريدة «سان فرانسيسكو كرونيكل» من قال إن هذه الرّواية المنشورة حديثًا تستحضر لاو تسو وغروشو ماركس كلَيهما، بل قال ذلك كاتبٌ ما؛ لم ترَ جريدة «ذي كليفلاند بلاين» الكتاب الفلانيّ على أنه ذو بصيرةٍ ثاقبةٍ وإعجازيّةٍ، وإنما قال ذلك أحد الصّحفيّين العاملين بها. إن كل الجرائد – «إل كوريّو»، «ويست دوتش أليمان زايتونغ»، «الموندو»، «بْليكينْيي لانس تينين»، وبالطبع، «ليبين أند غلوبن» – ليست في الواقع في موقفٍ يسمح لها بإصدار حكمٍ على أي شيءٍ، لأنها تفتقر إلى شكلٍ أو منظومةٍ واضحةٍ. لذا فإن كان الاقتباسُ غير مرتبطٍ باسم مؤلّفٍ بعينه، فلا قيمة له؛ ولا معنى كذلك لأن يُقدم أحد الأفظاظ العاملين في جريدة «إل غلوب أند مايل» على انتقاد رواية إيزابيل أليندي الأخيرة انتقادًا لاذعًا، من يعلم، قد يكون كاتب تلك المراجعة هو باكو: الحفيد الحقود اللّقيط لأوغستو بينوشيه.

***

كان يا مكان في قديم الزّمان... كان المراجعون يستعملون مجموعة وافرةً من النّعوت والصّفات لوصف الكتب، لكن كل ذلك تغيّر يوم الحادي عشر من فبراير/شباط 1997، حين صدر توجيهٌ سريٌّ للغاية من الأكاديميّة الوطنيّة للفنون لمراجعي الكتب الأمريكيّين ينصّ على إدراج كلمة **مدهش** بمكانٍ ما في نصّ المراجعة وإلا فلن يتلقّوا أجرهم على العمل. إن كلمة «مدهشٍ»

(1) **Pirandillo**: كاتب ومسرحي وشاعر إيطالي (1867 - 1936)، حاصل على جائزة نوبل للآداب سنة 1934.

أفضل من كلمة «نَيِّر» أو «وضّاء»، لأنها لا تحيل على جنس الكاتب، في حين أن كلمات «نيّر»، «وضّاء»، بل وحتى «حكيم» هي كلمات مَرمُوزةٌ تحيل على الآتي: «إن النساء المطلّقات في منتصف العمر اللاتي يعشن رفقة قططهن وينصتن إلى البرنامج الإذاعي «فْريش إير»[1] كل ظهيرةٍ هنّ فقط من سيعجبهن هذا الكتاب.» إن مشكلة الكتب النيّرة أو الوضّاءة أنها تميل إلى المواضيع الإقليميّة والعويصة المُستغلِقة، كما أنها تركّز بوتيرةٍ مقلقة على النّحل، المنطقة الإقليميّة، أو على الفنّان التشكيليّ فيرمير. أما أنا فأُحبّ الكتب التي تنطلق مثل ألعاب ناريّة. وحين أشتري كتابًا، فأنا لا أرغب في أن «يُنير» ذهني، بل أريده أن يُريني الانفجارات والألعاب النّارية التي تجعلني فاغر الفاه؛ ببساطة: أريد أن أندهش.

قبل بضع سنين، وأمام هذا السّيل الهائل من المواد القرائية التي تصبّها صناعة النّشر سنويًّا، قررتُ وضع نظام مسحٍ أقوم من خلاله بقراءة الكتب التي وصفها مراجِعٌ واحدٌ على الأقل بأنها «مدهشة». وبالتالي، فقد غمرتني السّعادة لاكتشاف الأخبار المفرحة بأن رواية أليس ماك ديرموت الجديدة، **(بعد هذا)**[2]، كانت مدهشةً بحقٍّ، لأنه ورغم سماعي مدحًا بديعًا لكتبها السّابقة، لا أستطيع تذكّر أي مصطلح محدّدٍ لوصفها، ونتيجة لذلك، لم أجرّب أيًّا منها. وبما أنني اشتريت مؤخّرًا مجموعة قصص قصيرةٍ بقلم أليس مونرو: **(المنظر من كاستل روك)**[3]، بعد أن وصفتها جريدة «ذي سياتل تايمز» بأنها «مذهلة»، ورواية **(رجلٌ بطيءٌ)**[4]، بقلم الكاتب الجنوب إفريقي المتوّج بجائزة نوبل ج. م. كوتزي، والتي وُصفت على أنها «عملٌ فنّيٌّ مدهش

(1) **Fresh Air**: أحد البرامج الإذاعيّة الشّهيرة التي تُعنى بالكتب، ويبث منذ 1985 من فيلادلفيا، ولاية بينسلفينيا على أكثر من 624 قناة لأكثر من 5 ملايين مستمع.

(2) **After This (2006)** – Alice McDermott.

(3) **The View from Castle Rock (2006)** – Alice Munro.

(4) **Slow Man (2005)** – J.M. Coetzee.

للغاية» من طرف مجلّة «أو ذي أوبرا» فسأكمل هذه السّنة بقراءة هذا الثّلاثيّ من التّحف التي تَعِدُ بألا تنزل عن مستوى الإدهاش.

ثم استمرّت الكتب الرّائعة في الظهور. وقد كان تعاملًا نموذجيًا ذلك الذي حظي به أورهان باموك، الفائز بجائزة نوبل للآداب سنة 2006، إذ وصفت جريدة «ذي تايمز ليتيراري سابليمينت» روايته **(الحياة الجديدة)**(1) على أنها «إنجازٌ مذهل». وقد حدث ذلك تقريبًا في الوقت ذاته حين أصدرت آيلت والدمان روايتها: **(الحب، ومَساعٍ أخرى مستحيلةٌ)**(2)، التي وإن لم تكن مدهشةً في حدّ ذاتها، إلا أن أحد جوانبها كان «مدهشًا» في رأي المراجع أندرو شون. وفي الوقت ذاته تقريبًا، أصدرت أبيغيل توماس روايتها **(حياة ثلاثة كلاب)**(3)، التي ميّزتها مجلّة «إنترتاينمت ويكلي» على أنها «مدهشة»، وهي قصة حبٍّ «خارقةٌ» من «الصّنف (أ)». لكنّني شخصيًا، أجد أمر هذه الملاحظة بخصوص الصنف (أ) زائدةً؛ فإذا كان الكتاب «مدهشًا»، فمن الجليّ أنك لن تضعه في الصّنف (ب).

قد يحتجّ البعض قائلين إنه من السّخف اتخاذ قرار شراء أو قراءة كتاب بناءً على كلمة نعتٍ وحيدةٍ. وقد يكون ذلك صحيحًا، لكن دعوني أؤكّد أنه رغم ميل قلبي إلى الكتب التي وصفت على أنها «مدهشة»، فأنا لا أقرأ كل كتابٍ «مدهشٍ». على سبيل المثال، لقد عزفتُ عن قراءة كتاب م. ت. أندرسون: **(الحياة المدهشة لأوكتافيون ناثين، خائن الأمّة)**(4)، رغم أنه تُوّج بالجائزة الوطنيّة للكتاب عن صنف أدب الشّباب. ثم إن قيام الكاتب ذاته باستعمال كلمة «مدهش» لوصف موضوعه أو مؤلّفه فإن ذلك لا يجعل

---

(1) **The New Life (1994)** – Orhan Pamuk.

(2) **Love and Other Impossible Pursuits (2006)** – Ayelet Waldman.

(3) **A Three Dog Life (2006)** – Abigail Thomas.

(4) **The Astonishing Life of Octavian Nothing, Traitor to the Nation (2006)** – M. T. Anderson.

الكتاب - بطريقةٍ أوتوماتيكيّةٍ - مدهشًا؛ فقد لا يعدو الكتاب كونَه ممتازًا، مثيرًا للحواسّ؛ كتابًا لا تستطيع التوقّف عن تقليب صفحاته أو لا تستطيع بكلّ تأكيدٍ تركه من بين يدك. ومن أجل أسبابٍ مختلفةٍ نوعًا ما، تجنّبتُ قراءة «رواية تشويقٍ مذهلةٍ» قرأت عنها في إعلانٍ في مجلة «ذي نيويوركر»، لأن هذا التقييم صدر عن امرأةٍ تدعى ليندا غرانا من مكتبة لافاييت بمدينة لافاييت، كاليفورنيا. وقد تكون ليندا غرانا هذه ناقدةً من الطّراز الرّفيع، لكن إذا لم تظهر كلمة «مدهش» ضمن نصّ مراجعةٍ قام بها شخصٌ فهيمٌ ثم نُشرت للعموم، فأنا لا أشتري ذلك المنتوج الذي اشتُهِر على أنه مدهش. وليس في مقدوري شراء الكتب لمجرّد أن شخصًا ما، بمكتبةٍ ما، بمكانٍ ما، قال إنه مدهش؛ وإلا سأُفلس.

هل تأتي عليّ أوقاتٌ أخشى فيها أن يمنعني هوسي بكلمة «مدهش» من قراءة كتبٍ عظيمة؟ أجل، بكلّ تأكيدٍ! لكن الحقيقة هي الآتي: إذا لم يصف أحدٌ كتابًا ما بأنه مدهشٌ، فالأرجح أنه ليس كذلك. وإذا لم يكن مدهشًا فما حاجتي إليه؟ حين صدرت رواية ماريلين روبنسون: **(جِلعاد)**[1]، أخيرًا بعد أن طال انتظارها، تم وصفها بنعوتٍ وعباراتٍ عديدةٍ منها: «لاذعة»، «أخّاذة»، «موسيقيّة شاعريّة»، «تدعو للتأمّل»، و«مثاليّة». وتم وصفها أيضًا بأنها «بديعةٌ»، «معجزةٌ أدبيّةٌ»، «من الطراز (أ)»، دون أن ننسى بالطّبع: «نيرة». لكنّني لم أرَ أحدًا بأيّ مكانٍ يشير إليها على أنها رواية «مدهشة». لقد سبق أن شرحت شعوري بشأن الكتب النّيّرة؛ ولو أنني أخذتُ خمسة قروشٍ عن كلّ رواية نيّرةٍ قرأتها في حياتي، لتقاعدتُ غدًا. لكن ذلك لم يحدث، لذا لا أستطيع التّقاعد، وأنا متأكدٌ جدًّا بأنني سأستمر في الوقوع أسيرًا لنفس هذه العادات القديمة؛ وإذا لم يجعلني الكتاب الأول مندهشًا فعارٌ عليك، أما إذا لم يجعلني الكتاب الثاني مندهشًا فالعار عليّ أنا.

(1) **Gilead (2004)** – Marilynne Robinson.

أنا لا أمانع حين تكون الفقرات الدّعائية أو الاقتباسات مضلّلةً، لكنني أمانع حين تكون سخيفةً. فخلال الآونة الأخيرة، اكتشفت بأن تلك الكلمات التّعريفيّة التي تزّين الكتب باتت تأخذ نبرةَ مبالغةٍ غير معقولةٍ، إذ إن هؤلاء المخبولين صاروا يلجؤون - وبشكلٍ دوريٍّ - إلى تشبيهاتٍ يتعذّر الدّفاع عنها، وأحيانًا أخرى إلى تشبيهاتٍ تكاد تكون مَسخَرةً، تؤذي المؤلّف والقارئ على حدٍّ سواء، ومنها مثلًا ما رأيته مرّاتٍ لا تعد ولا تحصى حين يوصف أحد الكتّاب المعاصرين على أنه «تشيخوف هذا العصر»؛ لعل كُتّاب تلك الفقرات الدّعائية وصلوا إلى استنتاج مفاده أن الجميع بهذا المجتمع أغبياء ولا أحد يتابع ما يحدث، لكنّ بعضنا يتابع فعلًا وعن كَثبٍ؛ ونَدين بذلك لأنفسنا، للقرّاء الآخرين، كما ندين بذلك لأنطون تشيخوف.

خلال السنة الماضية، قرأت مجموعة قصصٍ قصيرةٍ معنونةٍ: **(بِبَيتي يهودٌ)**[1]، من تأليف كاتبةٍ روسيّةٍ شابّةٍ هاجرت إلى نيويورك سنة 1994، إذ كان الأمر الذي جذبني إلى الكتاب أوّل الأمر هو كمّية التعليقات الحماسيّة التي ظهرت على الغلاف الورقيّ الذي يعلو الكتاب: «إن لارا فابنيار هي جاين أوستن بروح روسيّةٍ»، هذه هي الكلمات التي اختارها لويس ميناند، حكيم مجلّة «ذي بيويوركر»، لوصف ذلك العمل؛ يليه وصف أندري آسيمان، مؤلف كتاب **(خارج مصر)**[2]: «إن المرء ليكاد يستسلم لإغراء القول إنه أنتون تشيخوف، نينا بيربيروفا، أو كاثرين مانس، لكن الكتاب الذي يبزغ بالذّهن هو **(أناسٌ من دبلن)**.»

رويدكَ لحظةً: ذهنُ من هذا الذي يشعر بالإغراء لقول ذلك؟ ليس ذهني أنا طبعًا. وهل نحن هنا بصدد الحديث عن **(أناسٌ من دبلن)**[3]، الرواية التي ألّفها جيمس جويس؟ أعظم مجموعة قصص كُتبت على الإطلاق؟ أم أننا

(1) **There Are Jews in My House (2003)** – Lara Vapnyar.

(2) **Out of Egypt: A memoir (1994)** – André Aciman

(3) **Dubliners (1914)** – James Joyce.

نتحدّث عن (أناسٌ من دبلن) بقلم كاتبٍ مختلَقٍ يُدعى فاست إيدي ماك-غيتيغان؟ لأنه في حالة ما إذا كنا نتحدّث عن كتاب جيمس، سيكون ردّي: هلّا تروّيت قليلًا، يا أحمق! يجب عليك الاطّلاع على محتوى العمل وأخذه بعين الاعتبار. إن القصة التي يحمل العنوان اسمها - **(بِبِيتي يهودٌ)** - تتعلّق بامرأة روسيّةٍ غير يهوديّة تعرض على صديقتها اليهوديّة أن تخبّئها خلال الاحتلال النّازيّ لروسيا، رغم أنها في قرارة نفسها تحقد على زواجها السّعيد، جسمها الأكثر إثارةً، وشخصيّتها الأكثر انفتاحًا وإقدامًا، ولم تكد تشعر بشيءٍ البتّة حين رحلت صديقتها؛ القصة الثانية تتمحور حول أستاذ رياضيّاتٍ شابٍّ خجولٍ يتم تكليفه بمهمةٍ مرعبةٍ تتمثّل في تدريس مادّة التربية الجنسيّة لقسم من الطالبات الشّابّات؛ أما القصة الثالثة فتحكي عن طفلٍ من بروكلين يشكّ في أن جدّه قد أحيا شُعلة حبٍّ قديمةً من أرض البابوشكا المتّقدة. إن جميعها قصص حسنةُ، مكتوبة بطريقة جيّدةٍ، وجميعها مؤثرة بطريقةٍ ما، عاطفيّة بحقٍّ، لكن دون أن تبلغ درجة المغالاة أو الادّعاء. لكن لا واحدة منها، بأيّ شكلٍ من الأشكال، تجعل الذّهن يستحضر الأعمال السّاخرة، غير العاطفيّة، ذات الأسلوب الرّفيع، والمستوى «فوق الرّفيع» لجين أوستن؛ ولا قصّةً واحدةً منها تشير - ولو من بعيدٍ - لأعمال جيمس جويس. وتبرز على وجه الخصوص جُمَلٌ بعيدة عن الشّاعريّة من إحدى القصص بالكتاب، عنوانها **(سؤالٌ لفيرا)**: «لم تكن فوفا ليبمان مهتمّةً ما إذا كان فتًى أو فتاةً؛ لقد كان يبكي طوال الوقت؛ كان يبكي، وحين يهدأ أخيرًا، كان ينبش أنفه ويأكل مخاطه.»

لا أعلم كم توجّب على لويس ميناند أن يقرأ من روايات أوستن: **(إيما)**، **(إقناع)**، و**(عقل وعاطفة)**(1)؛ لكن دعوني أخبركم بالآتي: لم يُذكر الـ «مخاطٌ» في أعمال جين أوستن ولا مرّةً واحدة! كيف يُعقل - باللّه عليكم

(1) **Emma (1815), Persuasion (1818, posthumous), Sense and Sensibility (1811)** – Jane Austen.

- أن يقفز ناقدٌ من لارا فابنيار إلى جين أوستن دون أن يتوقّف ولو وهلةً عند يودورا ويلتي أو كاثرين آن بورتر؟ كيف انتقلوا من **(ببيتي يهودٌ)** إلى **(أناسٌ من دبلن)** دون أخذ استراحةٍ للتّوقف عند مجموعة القصص القصيرة **(طيورُ أمريكا)**[1] بقلم لوري مور أو **(رقصة المقهى الحزين وقصص أخرى)**[2] بقلم كارسون ماك- كالرز؟

إن هذا النّقد ليس تأمّلًا في موهبة لارا فابنيار، بل هو تأمّلٌ في عُصبة النّقّاد و«سادةِ الفقرات الدّعائيّة» الذين أصابهم الخبل وفقدوا عقولهم تمامًا.

وبغضّ النّظر عن مدى اللّطافة والسّخاء الكامنَين وراء مقارنة كتّابٍ شبابٍ تجاوزوا لتوّهم بوّابة هذا العالم مع جبابرة الأدب الغربيّ بدون منازعٍ، فالأمر ليس عادلًا للكتّاب أنفسهم، كما أن ذلك لا يساعد أحدًا. إن لاعبي البيسبول المبتدئين الذي يوقّعون مع فريق اليانكيز لا يتم مقارنتهم أوتوماتيكيًّا مع الأسطورة لو غيرغ؛ إن الرؤساء الذين يتولّون المنصب لأول مرةٍ لا يتم تشبيههم بالمخلص الأمين: أبراهام لينكولن؛ إن رسّامي الألفية الثالثة لا يتم على الإطلاق ذكرهم في الجملة ذاتها مع دييغو بيلاسكيس؛ إن العلماء الذين نالوا لتوّهم شهادة الدكتوراه لا يتم مناقشة إنجازاتهم مطلقًا كما تُناقش إنجازات ألبرت آينشتاين. وفي معظم مجالات التخصّصات الإنسانيّة، يجب عليك كسب بعض النّقاط قبل أن يبدأ أحدٌ في الحديث عنك كما لو كنت النّسخة الثانية من ألكسندر الأكبر، ليوناردو دافنشي، فيرنر هايزنبورغ، بيليه، أو حتى المغنّية الأمريكيّة «شير».

إن مقارنة الكتّاب حديثي العهد بالنّشر - الذين لم ينبت ريشهم بعد - مع كتّابٍ من طينة جيمس جويس، جين أوستن، أو أنطون تشيخوف ليس أمرًا مُجحِفًا في حق الموتى فحسب، وإنما هو كذلك بالنّسبة للأحياء أيضًا.

---

(1) **Birds of America (1998)** – Lorrie Moore.

(2) **The Ballad of the Sad Café (1951)** – Carson McCullers.

فلا أحد يستحق ذلك النّوع من الثّناء والإجلال، ولا حتّى الرّوائيّ الأمريكيّ جوناثان فرانزن.

وهذا يقودنا إلى الموضوع الأقلّ مناقشةً في عالم الأدب البحت: إن مراجعات الكتب التي يعرفها أي كاتبٍ جيّد في عمله هي مراجعاتٌ حماسيّةٌ بدرجةٍ غير مبرّرَةٍ؛ لكن الكُتّاب يشتكون بشكلٍ متكرّرٍ من أن النّاقد الذي راجع كتابهم لئيمٌ، فظٌّ، وجاهلٌ (مع أن ذلك لا يحدث إلا حين يكونون بصدد الحديث عنّي). لكن في تجربتي الشّخصيّة كقارئٍ يولي المراجعين اهتمامًا كبيرًا، فأنا أتّخذ نهجًا مختلفًا: في نظري أن مراجعات الكتب، على العموم، ألطف بكثيرٍ مما يجب، وأنا أعلم تمامَ العلم عمّا أتحدّث. فقبل بضع سنواتٍ، كتب بروس ماك- كال ملاحظةً تَعبَق بالإطراء بخصوص كتابي: **(رحلة بحث متهكّمٍ قصيرةٍ عن القداسة)**[1]. لقد قرّت عيني بهذا الثناء، خصوصًا أنه صادر عن شخصٍ أقدّره وأغبطه؛ لكنه قال شيئًا في الأسطر الأخيرة من المراجعة فاجأني كثيرًا: «إن وجه مِنكِن الآن – حيثما كان – يُشعُّ ألقًا.»

كلّا، هذا غير صحيح! لأن هنري لويس مِنكِنْ، المتغطرس حادّ الطّباع، والمترفّع عمومًا، ما كان ليُولِيَ مجهوداتي التّافهة أيّ اهتمام. لقد كان ينظر بترفّعٍ إلى الجميع بدون استثناء، خصوصًا منهم أولئك الذين لم يولدوا بملعقةٍ ذهبيّةٍ في أفواههم، كما أنه كان يكره الإيرلنديّين. لذا في محاولة ماك- كال لإقرار أن وجه مِنكِن كان يشعّ ألقًا وهو يرى عملي، فقد كان خاطئًا تمامًا؛ لأنه، الآن أو فيما مضى، حيًّا أو ميّتًا، ما كان ليهتم بما كتبه شخصٌ إيرلنديٌّ - مثيرٌ للشّفقة - من الجيل الثالث. ما كان ليبتهج برؤية مؤلّفي حتى ولو كانت حياته تعتمد على ذلك، لأنه من بالتيمور: حيث يُبقون الابتهاج بأعمال الغير في حدّه الأدنى.

(1) **My Goodness: A Cynic's Short-Lived Search for Sainthood (2001)** – Joe Queenan.

كما أن الكتاب لم يكن جيّدًا إلى ذلك الحدّ، على أية حال.

وليس هذا ما ستسمعه من معظم الكتّاب، لأنهم يَهوَون التذمّرَ والتّباكي. إن المؤلّفين يشتكون على الدّوام من أن النّقاد فاتتهم أهم نقطة في الرّواية الفلانيّة؛ أنهم أخرجوا ذلك المقتطف بشأن راقصات باليه المصابات بالجذام عن سياقه؛ أنهم لم ينتبهوا للإشارة إلى جون ميلتون سينيي وهيلدجار فون بينجين؛ أو أنه سبق للمؤلّفة هجر الناقد بعدما استمر في التّوسّل إليها طلبًا للخروج في موعدٍ غراميٍّ مزدوجٍ وهي ترتدي زيّ واحدة من الأخوات بولين مع تعديلٍ طفيفٍ ربما، يتمثّل في إضافة رقعة عين. كما يشتكي الكتّاب دومًا كذلك من أن المراجعين اختاروا - بخبثٍ - المقاطع الأقل توهّجًا والأقل «بوشكينيّةً» في الكتاب، أو أنهم يبيّتون لهم العداء والضّغائن بسبب ما حدث ليلة انهيار حزب الخمير الحُمر[1] أو فرقة الرّوك: «جوي ديفيجن»؛ أو أن المراجعة كانت لئيمةً بسبب أن المؤلّف قد ارتاد جامعة جورج تاون بواشنطن العاصمة، بينما كان على المراجِع أن يكتفي بارتياد جامعة فيلانوفا.

إن ما يجعل هذا التّذمر غير لائقٍ هو أن الغالبية العظمى من مراجعة الكتب تكون إيجابيّةً، رغم أن السّواد الأعظم من الكتب لا تستحّق أدنى ثناءٍ. ويعلم المؤلّفون أنه حتّى ولو كره أحدّ المراجعين كتابهم فإن المراجعين العشرة التاليين سينبطحون مثل جِراءٍ أليفةٍ ويؤكّدون على أن تلك الرّواية هي أعظم كتابٍ محفزٍ للأفكار منذ صدور رواية دوستويفسكي **(الأبله)**. وغالبًا ما يحوم المراجعون حول تخوم الحذر، إذ إنهم يخشون أن يُؤخذ منهم الثّأر يومًا ما حين تكون أعمالهم معروضة على المراجعة أو النّقد. ثم إن هناك سببًا آخر كذلك يتمثّل في أنهم لا يتلقّون إلا مبلغًا زهيدًا مقابل مجهوداتهم، وبالتالي فإنهم ينظرون إلى هذه المهام على أنها عملٌ روتينيٌّ،

(1) **Khmer Rouge**: الحزب السياسي الحاكم في كمبوديا - المسمّاة آنذاك كمبوتشيا الديمقراطية - بين سنتَي 1975 و1979.

وينتجون مراجعاتٍ مكتوبةً على طريقة الأوراق البحثيّة التي يجد الطّالب نفسه مجبَرًا على تسليمها، أو البلاغات الصّحفيّة التي أعيدت صياغتها بشكلٍ طفيفٍ، ليتولّى بعد ذلك مندوبو المبيعات المساعدون - الذين ينتحلون صفةً نقّاد - إنتاجها بالجُملة. ونجد أن هذا الأمر صحيحٌ على وجه الخصوص بالنسبة لصنف الغموض، حيث أن آخر مراجعة سلبيّة تعود إلى سنة 1943.

لا يوجد خطبٌ في أية ملاحظةٍ منفتحةٍ وعاطفيّة للغاية دون داعٍ لذلك، كما أنه ليس هناك باب للشّكّ في أن المراجع يتصرّف بمنتهى التّزلّف لأنه يرغب في طلب يد الكاتبة للزّواج؛ أو أنه يتوقّع معاملةً بالمِثل حين يصدر كتابه الذي سيحمل عنوانًا من قبيل **(هل كان على الخدّيوي ألّا يستغرق في النّوم)** في نسخة مجلّدةٍ. إن ذلك لا يغيّر حقيقة أن مثل هذه المراجعات غير عادلةٍ بالنسبة للقارئ الذي قد يُغرّر به إلى الظن بأن رايموند شاندلر سيبتسم فعًلا ويرفع قبّعته للمؤلّف، أو أن ذلك الرّوائيّ الغِرّ قد وقف ندًّا لِندٍّ مع جوزيف كونراد، ثم سدّد لذلك العجوز الهَرِف ضربةً قاضية. إن الكتب توصف على أنها «تجعلك تدمن قراءتها» في حين أنها لا تعدو كونها «متوسّطة»، «جيّدةٌ للحدّ الذي يجعلك تفتح فمك مشدوهًا» في حين أنها في الواقع «ليست سيّئة»، «يستحيل أن يضعها القارئ من يده» في حين أنها «ليست أسوأ من الثلاث السّابقات». ثم إن الكتّاب يوصفون بأنهم توليفةٌ كيميائيّةٌ من مدام دو ستاييل، ألكوين أوف يورك، وآرثر كونان دويل، أنهم يكتبون مثل «شارلوت برونتي» تحت تأثير عقار الـ «إل. إس. دي.»، وأنهم فاقوا «دوستويفسكي» دوستويفيسكيّةً أو جلدوا الشّاعر الألمانيّ «هاينه» بالسّوط جلدًا؛ في حين أنهم في الواقع ليسوا أكثر من محض التقاءٍ بين «كنديس بوشنيل» و«نغايو مارش»، يكتبون مثل «نورا روبرتس» وقد تعاطت دواءً للسّعال، ففاقوا «ليزا سكوتولين» «سكوتولينيّةً» وكانوا محظوظين باللّعب مع «أنيتا شيرِف» في مباراةٍ لا غالب فيها ولا مغلوب.

إن الكتّاب ذواتهم الذين يتباكون ويشتكون بخصوص تعليقٍ سلبيّ هنا أو هناك، تجدهم في قمّة السّرور بقبول تقديرٍ «غير مرخَّصٍ» وأوسمةٍ لا يستحقّونها. لكن، كم مرّةً قام كاتبٌ بالاعتراف بأن التّقدير الهائل الذي حظي به كتابه كان مفرطًا، غير مدروسٍ بعنايةٍ، غير لائقٍ، أو بصريح العبارة: خاطئًا؟ إن مثل هذا الأمر يتطلّب إحساسًا أخلاقيًّا حقيقيًّا وعاليًا، نزاهةً وشجاعةً حقيقيّتَين؛ مثل القول إن مِنكِن قد شُوهد والألَقُ بادٍ على مُحيّاه من أثر كتابك.

إن أسوأ شيءٍ بخصوص هذا النّوع من التّملّق شبه الهستيريّ هو أنه يُثقل كاهل الكاتب بعِبءٍ هائلٍ يتمثل في الارتقاء إلى مستوى التّطلّعات التي لم يضعها بنفسه. فعلى سبيل المثال، تمت الإشادة بالكاتب أنغوليّ المولِد خوزيه إدواردو أغوالوسا – عن روايته: **(كريول، كتاب الحَرابي)**(1) – على المنوال الحماسيّ ذاته: «اجمع ج. م. كويتزي مع غابرييل غارسيا ماركيز وستحصل على خوزيه إدواردو أغوالوسا، مرشح البرتغال الموالي لجائزة نوبل.» وردًّا على ذلك أقول: اجمعوا «دعونا لا نتحمّس هنا!» مع «انتظروا لحظةً واحدةً لعينةً!» وستحصلون على «أجل، حين ينبت للمَعزِ جناحان، حينها فقط سيحدث ذلك.»

وكما يخشى المؤلّفون أن يُنعتوا بألقابٍ من قبيل «فرانسين دي بلاسيكس غراي الغلابى» أو «مبعوث مِرسال مولوخ»، فإنهم يخشون كذلك كلمات المديح الحميميّة المقلقة أو التي تصيب بمغصٍ مَعويٍّ. أنا شخصيًّا لا أرغب في أن تتم الإشارة إلى أيٍّ من أعمالي على أنه «طبقٌ كبيرٌ من كافيار بيلوغا، يُبحر على سرير من الأرزّ المتلألئ، مع ملعقةٍ صَدَفيّةٍ» كما حدث مع كتاب أليس مونرو **(الهاربة)**(2)؛ لن أرغب في أن يحدث ذلك

---

(1) **The Book of Chameleons: A Novel (2008)** – Jose Eduardo Agualusa.

(2) **Runaway (2004)** – Alice Munro.

معي البتّة وكفى. في وجهة نظري، أشعر أنه غير مقبولٍ أن يوصف عمل كاتب كطبقٍ كبيرٍ من كافيار بيلوغا المُبحِر على سرير متلألئ من الأرزّ، حتى ولو كان كذلك بالفعل! إن هناك نوعًا من الألفة المشؤومة في هذا النّوع من الكتابات، إذ إنها تقترح أن ذلك المُراجع تنتابه أحلام يقظةٍ بخصوص الكاتب من خلال مصطلحاتٍ «بحريّةٍ»؛ فلو كنتُ في مكان أليس مونرو لأضفت قفلين إضافيّين لباب منزلي، ذوَي مِتراسَين قويَّين. ثم، إذا لم يعد بمقدور المرء الوثوق بالمراجعين، فإلى من سيلتجئ؟ في الواقع، إن أحد أروع ابتكارات الزّمن المعاصر هو قسم مراجعات القرّاء على موقع Amazon.com، حيث يدلي رجل الشارع والأشخاص الاعتياديّون بأصواتهم وآرائهم، يتصرّفون بكلّ نكرانٍ للذّات كمراقبين ثقافيّين جَسورين يسهرون على حماية رفاقهم – عشّاق الكتب – من الحمقى. وقد بنى بعض الأفراد سمعةً طيّبةً على الأنترنيت، حيث تُنافس ملاحظاتهم الدّقيقة، النّبيهة وواضحة المعالم الكلامَ المجترّ لأولئك المترفّعين المتفنّجين الذين ينتحلون صفة «مختصّين» داخل أروقة أرقى الصّحف والمجلّات العالميّة.

بالطبع، إن بعض المراجعين قد يتجاوزون الحدود ويصبح الأمر شخصيًّا داخل حلبة البصق والشّتائم الإلكترونيّة التي لا ضوابط لها ولا قواعد (الأمر الذي ينتهي بإرسال المؤلّفين الأفذاذ المصعوقين إلى بيوتهم لِلَعق جراحهم). لكن هؤلاء الهواة الموهوبين – مراجعو الأنترنيت – يَضُخّون، في معظم الأحيان، نفسًا من الهواء النّقي في عمليّة المراجعة، وإن أكثر شيءٍ جاذبيّةً بخصوصهم هو الجسارة التي تميّزهم حين يتعلّق الأمر بتوبيخ المؤلّفين البارزين الذين يتردّد المراجعون السّائدون في العبث معهم؛ إنهم غير مَدينين لأيٍّ كان؛ ملتحفين بعباءة مجهوليّة الهويّة الصّالحة، لا يتردّد هؤلاء المراجعون في قيادة المؤلّفين حتّى ولو كانوا نجومًا كبارًا – جويس كارول أوتس، إليزابيث باريت برونينغ، ماييف بينشي – نحو «قفص الاتهام» ليأخذوا جزاءهم، وهذا

ما يجعل مراجعة المواطنين إضافةً قيّمةً للجسم السّياسيّ: إن قنصهم الشّجاع من وراء الأدغال، مقلّدين فعلة [الوطنيّ] إيثان آلين و[الجنرال] فرانسيس ماريون سنة 1776، يؤكّد من جديدٍ على أن الدّيموقراطيّة تعمل بطريقة أفضل وبكفاءةٍ حين يطلق المرء النّار من بندقيّته ثم يفرُّ بعيدًا.

إنه لمن الممتع دومًا العودة بالزّمن والتّكهّن بما كان سيحدث لو كان لجاك السّفاح أو القدّيس بيدا حسابٌ على تطبيق فايسبوك، أو إذا كان جيش فرعون مجهّزًا بأحدث المعدّات البرمائيّةٍ؛ لهذا السّبب لا أستطيع الإحجام عن التّفكير كيف كانت مراجعةٌ عاديّة على موقع أمازون ستبدو، لو أن الأنترنيت كان متوفّرًا قبل بضعة قرونٍ:

(الملك لير)[1]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★★.

«إن الكاتب يقول لنا: «كمَثل الذّباب أمام الأطفال العابثين، كذلك نحن بالنّسبة للآلهة؛ إنهم يقتلوننا في خضمّ لعبهم ولَهوِهِم.» أوه، معك حقٌّ، كما لو أنني لم أكن أعرف ذلك بالفعل؟ كما لو أنني لم أعرف أن: أن تكون أو لا تكون هو السؤال؟ كما لو أنني لا أعلم أن الخطأ في أقدارنا وليس فينا؟ أخبرني شيئًا لا أعرفه، يا مِستر بارْضْ، أو أيًّا تكن.»

(أوديب ملِكًا)[2]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★★★★.

«إن سوفوكليس كاتبٌ يشفي الغليل، نثرُه واضحٌ وأنيقٌ؛ والشّباب على وجه الخصوص يستطيعون أن يتعلّموا الكثير عبر تقليد السّيّد أوديب، إلى أن يحيد عن المسار قرابة النّهاية. من جهة أخرى، ليس هناك أيّ شيءٍ خارقٍ هنا [بهذه المسرحيّة]، لكنّها رشيقةٌ ومفعمةٌ بالنّشاط؛ ولا بد أن أشير إلى أنني مازلتُ حائرًا بشأن الحبكة الفرعيّة الرّديئة التي تتضمّن والد السّيّد أوديب».

---

(1) **King Lear** – William Shakespeare.
(2) **Oedipus Rex (429 B.C.)** – Sophocles.

(120 يومًا في سدوم)[1]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★★★★★.

«إذن، فقد التجأت إلى خدمة الطلب المسبق لهذا الكتاب بناءً على عنوانه، إذ صادف أنه شبيهٌ باسم ولادتي: «ماركيز دو». أجل، أعرف أنه سببٌ سطحيٌّ للغاية لشراء كتابٍ، لكنني لم أستطع إلجام حماسي؛ إلا أنني حين شرعت في قراءته لم أفهمه بتاتًا: لم يصل الكتاب إلى أية نتيجةٍ، ظلّ يكرّر نفسه فحسب. حاولت قراءته بضع مرّاتٍ بعد ذلك، بحثًا عن معنى أعمق أو أروع، لكنني انتهيت بأسًى وخيبة أملٍ. في الواقع، إن بعض الأجزاء مقرفةٌ حقًّا.»

(الإنيادة)[2]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★★.

«اشكِ وابكِ وواصل شكواك! حسن إذن، لقد أُحرقت قريتك واستحالت حطامًا ومُحيت عائلتك عن بكرة أبيها، لكن أيجب عليك أن تواصل شكواك بخصوص ذلك؟ إلى أين سيوصلك هذا، أيها السيّد النّكد الحسّاس؟ إن فيرجيل، مبدئيًا، هو «تاسيتوس الغلابى»، يستمرّ في حديثه المطوّل عن الملك بريام والإلهين ديدو وزيوس، في حين أن كل ما يرغب فيه القارئ هو بلوغ الجزء الرّائع من القصّة حيث يشرع الطّرواديّون في حرق أعصاب عذارى فيستال. ثم دعونا لا ننسى أن هناك سرقةً موصوفةً: إنه لم يُدرج حتّى قصة العمالقة ذوي العين الوحيدة الذين يحوّلون الخنازير إلى إغريقيّين.»

(حول ثورات المدارات السّماويّة)[3]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★★★½.

«إن أولئك الذين قرأوا مراجعاتي العديدة السّابقة، التي لا تعد ولا تُحصى، بأماكن أخرى يعلمون بأنني عالم رياضيّاتٍ وفلكيٌّ، متعدّد الألسُن، كما أنني فيلسوفٌ عصاميٌّ، وبالتّالي فأنا الوحيد الذي في مقدوره مناقشة كل شيءٍ بداية بمفارقات زينون إلى العقدة الغورديّة. عمومًا، أظن أن زميلي

---

(1) **The 120 Days of Sodom (1904)** – Marquis de Sade.
(2) **Aeneid (19 B.C.)** – Virgil.
(3) **On the Revolutions of the Heavenly Spheres (1543)** – Nicolaus Copernicus.

كوبرنيكوس، المثّقف الموسوعيّ، قد قام بعملٍ جيّدٍ للغاية هنا؛ والأمر الذي يعجز معظم العوامّ عن إدراكه - عكس علماء الرّياضيّات/الفلاسفة/الفلكيّين/ متعدّدي الثقافات مثلي (كما سيخبركم أولئك الذين اطّلعوا على مراجعاتي السّابقة) - هو أن الأشخاص مثل كوبرنيكوس بارعون للغاية في التّعامل مع الأرقام؛ وكذلك أنا، بارعٌ جدًّا، جدًّا. (أقصد نفسي). وبالنسبة للقرّاء الذين يرغبون في الاطلاع على المزيد من أفكاري الفريدة، تستطيعون التّواصل معي على حسابي الإلكتروني: Igor@mymommysbasement.com.[1]»

(سِفر التّثنية)[2]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★★★.

«لقد استعصى عليّ فهمه! قرأت معظم الكتب في هذه السّلسة، وجميعها كتبٌ رائعةٌ، لكنّ هذا الكتاب استغلق عليّ ولم أفلح في فهمه. هل هناك قصّةٌ هنا؟ هل فوّتتُ شيئًا؟ لم كلّ هذا الكلام عن الوحوش النقيّة وغير النّقيّة؟ لقد لاقى الكاتب نجاحًا واسعًا مع [الكتابَين السّابقَين] **(سِفر التّكوين)** و **(سِفر الخروج)**، وقد كنت متحمّسًا للغاية خلال قراءتي **(سِفر العدد)**؛ لكن يبدو أن طاقة هذا الكتاب تنفد سريعًا؛ والآن أنا سعيدٌ لأنني تجاوزت قراءة **(سِفر اللاويّين)**.»

وأخيرًا:

(كفاحي)[3]: التقييم المتوسّط للقرّاء: ★.

«كتابٌ ينضح طاقةً وحيويّةً، لكنّه مثير للكآبة جدًّا، جدًّا؛ ولِمَاذا يواظب على استعمال كلماتٍ كبيرةٍ لا يستطيع العوامّ فهمها مثل Lebensraum وOberkommandant و Wienerschnitze؟ يا رجل، أنا أيضًا أملك قاموس المترادفات؛ ثم، ما خطبك مع اليهود، يا رجل؟»

---

(1) حرفيًا: إيغور في قبو والدتي.كوم

(2) **Book of Deuteronomy.**

(3) **Mein Kampf (1925)** – Adolf Hitler.

في النهاية، مازلت راغبًا في الاعتقاد بأن المديح المطبوع على أغلفة الكتب لا يخلو من قيمة؛ يجب أن يكون له منها ولو نزرٌ يسيرٌ. وإذا كان أملنا سيخيب في نهاية المطاف، فسيكون جيّدًا معرفة أننا لم ندخل إلى جُحر الضّبّ بملء إرادتنا، ولكن تم خداعنا للدّخول مَعمِيّين باليقين، ولذلك انتهى بنا المطاف منهوشين بأسنانٍ حادّةٍ، منقوعين في سُمّ الكورار[1]، سُمّ الأصَلة، والرّوث. إذا كان يجب عليّ تضييع بضعة أيّام من عمري في قراءة كتاب سأكرهه في نهاية المطاف، فأنا أفضّل فعل ذلك بناء على ترشيح أحدهم لذلك الكتاب؛ لا أريد للأمر أن يكون وليد الصّدفة، ولا أريد تحمّل وِزر ذلك بنفسي.

وأحيانًا تدهشنا تجاربنا حدّ الصّدمة؛ فقد قرأت قبل عامَين روايةً رائعةً معنونةً **(صالون تجميل)**[2] وتحكي قصّة مصفّف شعر مِثليٍّ الجنس، يرتدي ملابس نسائيّة، يحوّل محلّ عمله إلى مركزٍ لإيواء المصابين بالإيدز. وقد حملت ذلك الكتاب عن الرّف لسببٍ وحيدٍ يمثّل في الكلمة التعريفيّة المكتوبة على الغلاف بقلم فرانسيسكو غولدمان التي يقول فيها إن كتاب ماريو بيلاتين يبدو كما لو أنه «هديّةٌ من المستقبل». وقد وجدت هذا الوصف بديعًا وأخّاذا، وبدا كما لو أن غولدمان كان يقصد ذلك بالفعل؛ لقد أبدع في صياغة هذه العبارة البديعة ثم تخلّى عنها لصالح كاتبٍ آخر: يا له من سخاءٍ يخطف الأنفاس!

وبما أن غولدمان كان محقًّا بخصوص بلاتين، قرّرت المضيّ قدُمًا وقراءة رواية غولدمان: **(الملّاح العاديّ)**[3]. وهي تحكي قصّة مجموعة من الأمريكيّين المنبوذين الذين يجدون أنفسهم عالقين على متن سفينةٍ تغزوها الجرذان قبالة مرافئ بروكلين؛ لن ترى السّفينة أعَالي المحيط مجدّدًا،

---

(1) Curare.

(2) **Beauty Salon (1994)** – Mario Bellatin.

(3) **The Ordinary Seaman (1997)** – Francisco Goldman.

لأنها لا تعدو كونها جزءًا من حيلةٍ تأمينيّةٍ. إن الرّواية مبنيّةٌ على قصّةٍ حقيقيّةٍ وقد كانت حزينةً للغاية، لكنّ الكتاب رائعٌ واستثنائيٌّ بحقٍّ. لذا قرّرتُ حينها قراءة الرواية التالية بقلم مؤلّفٍ (ليس ناقدًا) رافق مدحُه (الذي لم يكن عملًا حقيرًا، من فضلكم) النّسخة الورقيّة من رواية **(الملّاح العاديّ)**، لا لشيءٍ إلا لأرى كم ستمتدُّ هذه المغامرة وتطول قبل أن يردعني في نهاية المطاف كتابٌ لا أحبّه؛ لكن ذلك لم يحدث قطّ. إن الخيط الذي اتّبعته من غولدمان قد قادني إلى أوسكار هيخويلوس وبعدها إلى سيلدن رودمان، وشون فيرغو، ومنه إلى كاتب آخر والذي يليه لخمسة أدوارٍ أو ستّةٍ أخرى، وفي كلّ مرّةٍ تقدّمني سلسلة الأقحوان العشوائيّة هذه إلى كتابٍ آخر رائعٍ.

قادتني الرّحلة على سكّة الكلمات التعريفيّة في نهاية المطاف إلى روايةٍ صغيرةٍ خلّابةٍ عنوانها: **(البيت الورقيّ)**[1]، بقلم الرّوائي الأورغواياني كارلوس ماريا دومينغيز. إنها رواية من صنف الغموض الأدبيّ، حيث يعثر رجلٌ على إحدى روايات جوزيف كونراد التي وصلت عبر البريد إلى صديقةٍ توفّيت حديثًا، فيتحمّل مشقّة السّفر إلى الأرجنتين لاكتشاف سبب إرسال تلك الرّواية إليها. ويقوده بحثه إلى عاشق قراءةٍ مهووسٍ بمجموعة كتبه لدرجة أنه قرّر ذات يوم استئجار حِرفيّين ليبنوا له بيتًا مُطلًّا على السّاحل يتكوّن كلّيًا من كتبه ولا شيءٍ غيرها. لكنّه يتلقّى رسالةً من امرأةٍ – كان قد قضى رفقتها ليلةً وحيدةً حين التقيا في نيو مكسيكو خلال ندوةٍ أدبيّةٍ قبل سنين طويلةٍ – تطلب منه كتابًا محدّدًا، لكنّه لم يستطع إيجاده. لذا سيستشيط غضبًا ويفكّك البيت (يدمّره حرفيًّا خلال بحثه)، وحين يجد العنوان المبحوث عنه أخيرًا، يرسله إلى لندن. ولكن... اللّعنة! فالمرأة التي طلبته – المرأة التي قضى رفقتها تلك اللّيلة الأثيرة في نيومكسيكو قبل 15 سنة – قد دهستها سيّارةٌ للتوّ في الشّارع حيث كانت تمضي سارحةً في أحلام يقظتها بخصوص إميلي ديكينسون.

---

(1) **The House of Paper (2002)** – Carlos María Domínguez.

أستطيع بالفعل تخيّل نفسي كإحدى الشخصيّات بهذه الرّواية؛ سيكون ذلك أفضل بكثيرٍ من الحياة التي أعيشها الآن. كم كنت أرغب في بناء بيتٍ باستعمال الكتب عوض اللّبنات، وكم كنت أرغب في أن تدهسني سيّارةٌ بينما أكون غارقًا في أحلام يقظةٍ موضوعها إميلي ديكينسون؛ ربما ليس أن «تدهسني» بقدر ما أودّ أو أن «تشطِرني»، أو ربما فقط أن «تخدشني بشكلٍ سطحيٍّ». على أية حالٍ، إن هذا الرّحيل الدّراماتيكيّ سيتفوّق على سرطان الرّئة في كلّ مرّةٍ.

وكم أحبّ قراءة الكتب التي أصادفها بهذه الطّريقة، لأنها تجعل حياتي ذاتها أشبه بأحجية.

لقد وجدتُ رواية **(البيت الورقيّ)** منعشةً للغاية لدرجة أنني لم أعد في حاجة إلى تتبّع ذلك المسار بعدُ. لقد أثبتتُ فكرتي بنجاحٍ، وربما أعيد التّجربة يومًا ما؛ لكن ليس الآن. لعلّ ما أخشاه، على الأرجح، هو أن يتحوّل الأمر إلى هوسٍ جديدٍ: أن أمضي وقتًا طويلًا في تتبّع كتابٍ مرشّحٍ بقوّةٍ إلى الكتاب الذي يليه ولا أنهي قراءة عشرات الكتب التي أعمل على قراءتها حاليًا؛ ألا يتسنّى لي إنهاء «قائمة مودرن لايبريري لأعظم 100 روايةٍ باللغة الإنجليزيّة بالقرن العشرين»، ألا أنهي قراءة **(عوليس)** مطلقًا؛ ألا أكتشف كيف سينتهي **(تاريخ انحطاط الإمبراطوريّة الرّومانيّة وسقوطها)**؛ وألا أبلغ الصفحة الأخيرة من **(ميدل مارش)**.

إن لديّ بالفعل ما يكفيني من الهواجس والعادات الهوسيّة.

الفصل السابع

أصواتٌ أخرى، غرفٌ أُخَر

إن حياة القراءة، كما قال لي صديق ذات مرّةٍ، هي مغامرةٌ دون خريطة، تلتقي خلالها توائم روحك غير المتوقّعين الذين قد يكون أبناؤك من ضمنهم. فحين تُرزق بذرّيّة، ليس من المحتوم بأيّ حالٍ من الأحوال أن يشاركوك أذواقك أو قيَمك: إن احتمال حدوث ذلك ليس أكثر من احتمال تقاسمهم الميراث بينهم بالعدل. وفي حالتي، لا يبدو أن أحدًا من طفلَيّ يعشق الجاز، كما أن ابني لم يُظهر حتى اللحظة أيّ اهتمام ملحوظٍ بالفنون البصريّة؛ لكن كليهما قارئٌ شغوفٌ منذ نعومة أظافرهما، الأمر الذي أتاح لنا – حين كَبُرا قليلًا – أن نتبادل الطّرائف بيننا بخصوص تجاربنا القرائيّة، من بينها نفورنا الفطريّ من مواد منهج المدرسة الثانويّة.

كان الحنق جليًّا – وظلّ صرير الأسنان مستمرًّا – حين أحضر ابني ذو الخمس عشر سنة معه نسخة من رواية ديكنز **(حكاية مدينتَين)** إلى البيت كواجب قراءة صيفيّ. حسب وصفه، فإن هذه المسيرة القسريّة عبر هذا العمل قد أفسدت يونيو، دمّرت يوليو، ومحقَت أغسطس تمامًا؛ فجاء تقريره على الشكل الآتي: «لقد كانت أفضل الأزمنة؛ وكانت كذلك أسوأها. أعتذر، يا صاح، ولكن إمّا أن يكون هذا الأمر أو ذاك. يجب أن يحسم الكتاب رأيه.» لذا، خلال أمسية الدخول المدرسيّ في سبتمبر، حين قالت المعلّمة للآباء المجتمعين بأن أبناءنا الموهوبين المتحمّسين – الذين كانت تهوى العمل مع كلّ واحد منهم دون استثناء! – قد أحبّوا ديكنز، علمتُ أنها كانت تكذب في وجوهنا دون استحياءٍ.

لا عِلم لي مشاعر باقي الأطفال بخصوص تلك الرّواية، لكنني أعلم أن ابني قد مقتَه.

ولعقودٍ من الزمن، دأب المعلّمون المتزمّتون ذوو النّوايا الحسنة على عرقلة العطل الصّيفيّة عبر إرغام «الأطفال» بالثانويّات على قراءة رواياتٍ من قبيل: **(أمير الذّباب)**[1]، **(عالم جديد شجاع)**[2]، **(شارة الشجاعة الحمراء)**[3]، و **(عناقيد الغضب)**[4]. لعلّ هذه الكتب تمثل أحجار أساس حضارتنا، لكنها ليست بالممتعة البتّة. إن أحد الأسباب التي تجعل الفرد الأمريكيّ لا يتجاوز قراءة أربعة كتبٍ في المتوسط قد يكون راجعًا إلى الصدمة التي قاساها وهو يحمل نفسه على مواصلة قراءة رواية **(مرتفعات ووذرينغ)**[5] في سن الرابعة عشرة. أنا شخصيًا لم أتعاف قطّ من قراءة رواية **(عودة المواطن)**[6]، ليس فقط لأن رؤية توماس هاردي المتشائمة ونثره الخانق قد بثّا في نفسي شعورًا بالكآبة والاختناق، ولكن لأنها كانت أول مرة أتعرّض فيها لهذه «الهمجيّة المفرطة» التي في وُسع المعلّمين ارتكابُها. لو كانت لمعلّمي مقدار أوقيةٍ من الكرامة الإنسانيّة، لأوكل إلينا قراءة مسرحية شكسبير: **(ماكبث)**، رواية **(روب روي)**[7] أو الكتاب التّاريخيّ **(حروب القيصر الغالية)**[8] خلال الثانوية، مدركًا أن تلك المجازر الشّنيعة ستحافظ على اهتمام الصّبيان لبعض الوقت؛ أو كان بإمكانه اختيار رواية **(الغريب)**[9] ذات السّحر الأخّاذ الذي يجمع بين كونها مثيرة للكآبة وصعبة التأويل في آنٍ واحد، وبالتالي ستُبقي

---

(1) **Lord of the Flies (1954)** – William Golding.
(2) **Brave New World (1932)** – Aldous Huxley.
(3) **The Red Badge of Courage (1895)** – Stephen Crane.
(4) **The Grapes of Wrath (1939)** – John Steinbeck.
(5) **Wuthering Heights (1847)** – Emily Brontë.
(6) **The Return of the Native (1878)** – Thomas Hardy.
(7) **Rob Roy (1817)** – Walter Scott.
(8) **Caesar's Gallic Wars (58-49 BC)** – Julius Caesar & Aulus Hirtius.
(9) **The Stranger (1942)** – Albert Camus.

الأطفال الذين كان من الجليّ أنه سيواصلون دراستهم بجامعتَي أنتيوش أو أبرلين سعداء. ولكن عبر التأكيد على ضرورة كتابة تقرير شامل حول رواية كئيبةٍ بلا هوادةٍ من القرن التاسع عشر – لم يسمح كاتبها ولو لشعاعٍ واحدٍ من الشّمس بأن ينير عمله – فإن السلطة بـ «مدرسة كاردينال دوبرتي» الثانويّة كانت تسخر من الجسم الطّلّابيّ، حرفيًّا.

بدا أنهم يقولون لنا: «لا تعبثوا معنا، لأنه لا يوجد عذابٌ أشنع من أن نفكّر في اللجوء إليه. وإذا اشتكيتم، ولو لمرةٍ واحدةٍ، من كون رواية **(عودة المواطن)** مملّة وغير ذات صلة، فسنحرص على جعلكم تقرؤون رواية **(تِس سليلة دُربرفيل)**[1]. فلتحاولوا وسترَون، يا أنذال!»

الآن، وبعد مرور خمسٍ وأربعين سنةً من إخضاعي بالسّوط لقراءة توماس هاردي، أندهش من أن قائمة القراءة الصّيفيّة المريعة تلك مازلت مستمرّة. ففي مجتمعٍ أمريكيٍّ تخلّى عن كل القيم الثقافية الأخرى التي تستحق الإشادة، يدهشني أن التلاميذ مازالوا يسمحون للبالغين بإفساد عطلهم عبر إرغامهم على ازدراد الطّلاقة السّخيفة لرواية **(الحارس في حقل الشّوفان)** أو الابتذال العاطفيّ والرّوحانيّ المخدّر للذهن من قبيل رواية باولو كويلو: **(الخيميائي)**[2]. أنا لست بصدد القول إنه شيءٌ سيّئٌ بالضّرورة أن تطلب المدارس من التلاميذ قراءة كتبٍ خلال الصّيف، لأن مفعول الثقافة – مثل الفيتامينات – يكون أكبرَ حين تُفرض على المرء عوض أن يختارها بنفسه؛ بل كل ما في الأمر أنني أسجل انبهاري أنه خلال زمن تستعمل فيه المدارس الثانوية الحضريّة أجهزة الكشف عن الأسلحة للتحقّق من أن تلاميذها لا يحملون مسدّسات «أوزي» الإسرائيليّة الصغيرة في جيوبهم، فإن المعلّمين مازالوا يحاولون حمل الأطفال على قراءة رواية **(الحرف القرمزيّ)**[3].

---

(1) **Tess of the d'Urbervilles: A Pure Woman (1891)** – Thomas Hardy.
(2) **The Alchemist (1988)** – Paulo Coelho.
(3) **The Scarlet Letter: A Romance (1850)** – Nathaniel Hawthorne.

ومع ذلك يبدو أن النظام مازال يعمل بكفاءةٍ، فقد أجريت قبل مدّةٍ فحصًا استطلاعيًّا غير رسميٍّ بين تلاميذ المدرسة الثانويّة ممّن أعرف، وقد طلبت منهم تقييم الكتب التي قرأوها خلال العطل الصّيفيّة المنصرمة. ويظل مسلَّمًا به أن عيّنة استقصائي كانت مَعيبة، إذ إنني رفضت التحدّث إلى أولئك الأمّيين المتباهين بذواتهم أو الفتيات ذوات تسريحات الشّعر الشّبيهة بليزبيث سلاندر[1]. ومع ذلك، فقد كانت النتائج مذهلة؛ ومع أن قائمة القراءات باتت اليوم ذات تشكيلاتٍ متنوّعةٍ ومغريةً تتضمّن بشكلٍ منتظم أعمالًا لغير الحائزين على نوبل بالإضافة إلى أوعيةٍ تطفح بالكلام العاطفيّ من قَبيل روايتَي: **(مِضرب شكسبير)**[2]، **(الأرض، مؤخّرتي، وأشياء أخرى مستديرة)**[3]؛ فقد أمضى الأطفال الذين تحدثت إليهم فصول الصّيف الأخيرة في قراءة كتبٍ يمكن وصفها بـ: «جيدة». ورغم أنهم لم يتحدثوا عن هذه الكتب بحماسٍ شديدٍ، فإنهم لم يستعملوا أي مصطلحٍ أكثر تعسّفا - بطريقة خفيّةٍ - من «مثير للاهتمام» لوصف القصيدة الملحميّة: **(بيوولف)**[4]. وفي حين أن لا أحد أشار إلى رواية **(عودة المواطن)** - مع أنها ما تزال ضمن العديد من قوائم القراءة - فإن إحدى التلميذات أخبرتني أنها استمتعت بالفعل بقرءاة **(ميدل مارش)**، رغم أن قراءتها قد تطلّبت منها الصّيّف بطوله.

قالت لي: «إن ما لم يرقني هو وجوب أن أكتب تلخيصًا لكل الفصول؛ وميدل مارش تحتوي على ستة وثمانين فصلًا!» (أنا أعلم ذلك؛ لستِ في حاجةٍ إلى تذكيري به، يا صغيرتي!)

---

(1) الشخصيّة الرئيسيّة في ثلاثية **(الفتاة ذات وشم التّنّين)**.
(2) **Shakespeare Bats Cleanup (2003)** – Ron Koertge.
(3) **The Earth, My Butt, and Other Big Round Things (2003)** – Carolyn Mackler.
(4) Beowulf.

أما التلاميذ الآخرون فقد أبدَوا حماسًا أقل، ومع ذلك صرّحوا بأنهم استمتعوا بقراءة تلك الكتب المخصّصة للصّيف، وكان بودّهم قراءتها في سلام، دون أن يُكرهوا على معاينتها عن طريق أسلوب التّشريح الدّقيق الذي يُعدّ السّمة المميزة لقسم الأدب بالمدرسة الثانوية. بالطبع يظل احتمال كذب هؤلاء الأطفال قائمًا، وكذا احتمال أنهم يخبرون شخصًا بالغًا بما يظنون أنه يودّ سماعه خشية أن يتم إبلاغ المسؤولين بأي تعليقٍ «غير ملائم»؛ لكن حتى ولو كان ذلك صحيحًا، فقد انتهى بي المطاف بالشعور بإعجابٍ يدفئ صدري بما كان معلّمو الإنجليزيّة يحاولون تحقيقه. بدا أن النظرية تقول بأن الأطفال الأذكياء سيتجاوزن، في نهاية المطاف، الخطب الدّينيّة الخفيفة مثل رواية **(لا تقتل عصفورًا ساخرًا)**[1] وينتقلون إلى كتبٍ تتميّز بأصالةٍ ثقافيّةٍ أكبر مثل مؤلّفات جيمس بالدوين، ريتشارد رايت، توني موريسون، أو إسماعيل ريد Ishmael Reed؛ أما إذا نجحت في إقناع الأطفال الموهوبين بقراءة أي شيءٍ على الإطلاق، فأنت متقدّمٌ في اللعبة بأمتارٍ. في هذا السياق، فإن بعض الكتب المفضّلة خلال مرحلةٍ عابرةٍ، مثل رواية **(الحادثة المثيرة للكلب خلال اللّيل)**[2] ورواية هاربر لي الملهمة – مع أنها مثيرة للشّكوك تاريخيًّا – بخصوص ألطف رجلٍ أبيض على الإطلاق؛ قد تعملان كجسر حيويٍّ بين الكتب التي تُمتع وتلك التي تصعق. وفي حالتي، حتى بلوغ السادسة عشرة، كنت أحسب أن أغاثا كريستي أعظم من عاش من الكتّاب على الإطلاق، ثم اكتشفت أنها ليست كذلك؛ وحين كنت تلميذًا في الثانوية، كنت أظن أن رواية **(ليباركك الرّبّ، يا سيّد روزواتر)**[3] لا يمكن أن يتفوّق عليها أيّ كتابٍ آخر.

---

(1) **To Kill a Mockingbird (1960)** – Harper Lee.
(2) **The Curious Incident of the Dog in the Night-Time (2003)** – Mark Haddon.
(3) **God Bless You, Mr. Rosewater (1965)** – Kurt Vonnegut.

زيادة على ذلك، لا أحد يبلغ بالزاك وبروست دون أن يمرّ أولًا بكامو؛ ولا أحد يبلغ **(موبي ديك)**[1] قبل أن يجالس **(الشّيخ والبحر)**[2] أولًا.

إن الأمر الوحيد الذي مازال يحزّ في نفسي بخصوص قوائم القراءة الصّيفيّة هو مجاورتها بين العمالقة والحمقى، كما لو أن **(دافيد كوبرفيلد)**[3] ودافيد بالادشي [الرّوائيّ الأمريكي] من نفس الوزن. صحيح أن الكتب الضئيلة يمكن أن تجذب القرّاء نحو الكتب العظيمة، فتعمل بذلك كما لو أنها «مصيدة فينوس[4] ثقافية»، لكن الكتب الرّديئة لا تقود إلا إلى مثيلاتها في الرّداءة. فهناك سطرٌ مباشر من رواية **(المسلَخ رقم خمسة)**[5] يقود نحو رواية **(الحرب والسّلم)**؛ آخر من قصّة **(المُهر الأحمر)**[6] إلى رواية **(الأحمر والأسود)**؛ وبينما تفسح رواية **(الأخت كاري)**[7] الطّريق لرواية **(أنا كارينينا)**.

وحتى ابني الذي انتهى به المطاف بدراسة الكتب الكلاسيكية بالجامعة يبدو أنه أدرك بأن القراءة الصّيفيّة تظلّ – في ظل ممارسةٍ متوازنةٍ – تجربةً قيّمةً. وقد أخبرني بعد مرور سنواتٍ:

- لقد كرهت قراءة **(حكاية مدينتين)** إلى أن بلغت نهايتها. لم أكن مهتمًّا بالشّخصيات، ولم أصدّق تلك القصّة، لكنني حين بلغت المشهد حيث يصعد سيدني كارتون على المنصّة، قلت في سرّي: ‹واو، ما أعظمها من نهاية!› وقد أحببت الكتاب في ثاني قراءة له.

---

(1) **Moby-Dick (1851)** – Herman Melville.

(2) **The Old Man and the Sea (1952)** –Ernest Hemingway.

(3) **David Copperfield (1850)** – Charles Dickens.

(4) Venus Flytrap: نبتة آكلة للحوم، تطبق على الحشرات – بما يشبه الفكّين – ما إن تقع فوقها.

(5) **Slaughterhouse-Five (1969)** – Kurt Vonnegut.

(6) **The Red Pony (1933)** – John Steinbeck.

(7) **Sister Carrie (1900)** – Theodore Dreiser.

سألته متعجّبًا في عدم تصديقٍ:

ـ هل أعدتَ قراءة **(حكاية مدينتين)**؟ بعد كل ذلك النّحيب والتّشكّي عن مقدار كرهك لها؟

فكان ردّه:

ـ أجل، لم تكن بمثل جودة **(آمال عظيمة)**، لكن الصفحات الخمسة والعشرين الأخيرة كانت بديعة.

لقد جعلني هذا الإقرار أعيد تقييم كل ما كنت أعتقده بخصوص القراءة الصّيفيّة. فعلى مدى أكثر من أربعة عقودٍ، كنت ألعن اليوم الذي وُلد فيه معلم الإنجليزية بمدرستي الثانوية، مقتنعًا بأن الوقت الذي قضيته في قراءة رواية **(عودة المواطن)** قد سلبني كل أملٍ في السعادة البشريّة؛ لكن في حالة لم تكن تجربةُ ابني عارية عن الصّحة، فيُحتمل أن تجربتي لا تعدو كونها حالة صِغَر سِنّي الذي منعني من تقدير عبقرية هاردي. وبالتالي عقدتُ العزم على فكّ هذا اللّبس وحملت نسخة من تحفة هاردي الرّيفيّة هذه لأمنحها فرصة ثانية، وحين بلغت الصفحة السّادسة حين لمعت عينايَ لرؤية هذه الفقرة:

«أن تتكّئ على جذعٍ شائكٍ وسط وادي إيغدون، وقت الأصيل أو العشيّ، كما هو الحال في هذه اللّحظة، حيث لا يمكن لعينك أن تبلغ العالم الخارجي، أبعد من قمم وأكتاف الأراضي البوريّة المكسوّة بالبَراح، التي تملأ مجال نظرك بأكمله؛ وتعلم بأن كل ما على الأرض من حولك وما بجوفها يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، قد ظّل على حاله هذه دون تغيير، مثل النجوم البعيدة في السّماء؛ فذلك يقيّد الذّهن الهائم من أثر التّغيير والمتضايق من الجِدّة التي لا يمكن إلجامها.»

حينها قمت بإرجاع الكتاب إلى المكتبة. لقد دمّر توماس هاردي سِنيّ شبابي، ولا مجال لأن أسمح له بتدمير عصري الذهبيّ الحاليّ كذلك.

إن علاقة المرء بالكتب لا تظل ثابتة مع مرور الوقت، فحين يصير الشّباب ناضجين، يمكن أن يشعروا بأنهم صاروا «أكبر» من أن يقرأوا مؤلّفات كتّاب أحبّوهم خلال شبابهم؛ لكن هجر بواكير المعشوقين من الكتّاب عمليّةٌ يجب مقاربتها بالكثير من الحذر والاحترام والعطف. فلا يمكن مثلًا أن ترمي بكتب هانز كريستيان أندرسون أو الأخوين غريم في القمامة لمجرد أنك اكتشفت لويس كارول، لأن ذلك ليس عدلًا!

يحدث أحيانًا مع الجميع، حتى مع أشد القرّاء وفاءً، أن يرغبوا في هجر كاتبٍ كانوا فيما مضى يضعونه في أعلى مراتب التّوقير والتّبجيل. والأمر حينها يكاد يكون أشبه ببدء شجارٍ، بحثًا عن ذريعةٍ للانفصال عن حبيبٍ قديم. وقد حدث لي ذلك شخصيًّا مع هنري ميل، جون شيفر، وفي الآونة الأخيرة مع هينينغ مانكِل الذي كانت كتبه الأخيرة محض عملٍ فاترٍ يفتقر إلى روح. كنت قد بلغت منتصف رواية يان ماك-إيوان: **(السبت)**[1]، حين أدركتُ فجأةً بأن كل شخصيّات الرّواية تثير اشمئزازي؛ وكذلك كان الأمر مع شخصيّات روايتَيه السّابقتين: **(أمستردام)** و**(تكفير)**[2]. ثم حاولت جسّ نبضِ الرأي العام فاكتشفت أن العديد من أصدقائي يشاطرونني الرأي. لقد كان إجماعًا على أن ماك-إيوان أحد الكتّاب الذين يصبحون أقل إثارة للاهتمام - وبشكلٍ ثابتٍ - كلّما زادت شهرتهم أكثر. ولسببٍ ما، ذكّرني ذلك بجملةٍ من رواية همنغواي **(عيد متنقّل)**: «ينتهي به المطاف ثريًّا، بعد أن تحرّك بقيدِ دولارٍ - بعيدًا عن نفسه - وتغيّر مع كلّ دولارٍ كسبه.» أنصت لهذا، يا ف. سكوت! لا شيء مما كتبه ماك-إيوان خلال العشرين سنةً الماضية يقف على قدم المساواة مع [مؤلّفاته السابقة] **(كلاب سوداء)**

(1) **Saturday (2005)** – Ian McEwan.
(2) **Amsterdam (1998), Atonement (2001)** – Ian McEwan.

أو **(الطفل في الزّمن)** أو **(ارتياح الغرباء)**[1]؛ ولم يساعده في ذلك أن صار متعاليًا، كما لم يساعده أنه صار يحسب نفسه فلوبير الجديد.

لم أكن أتوقع ردّة فعلٍ مشابهةٍ من أصدقائي، رغم أنني لم أكن فيما مضى مهتمًا إلى حدّ كبيرٍ بآراء النّاس بشأن الكتب؛ لكن ربما لأنني بدأت أدخل الدقائق الأخيرة من مباراة حياتي، فقرّرت توسيع دائرة قراءتي لتشمل عددًا أكبر من الأعضاء القدامى الدّائمين الذي لم يتجاوز عددهم عضوًا واحدًا هو: أنا. لقد أسعدَتني معرفة أن العديد من أصدقائي ترجّلوا عن القطار في المحطّة ذاتها، أن ما لم يعجبني لم يعجبهم كذلك. لذا قررت أن أشرع في طرح أسئلة عليهم بخصوص هذا الموضوع، رغم أن الأمر في الواقع كان أقرب إلى استجوابٍ مكثّفٍ. أرسلت إلى خمسة وسبعين صديقًا استبيانًا مفصّلًا عن عاداتهم، أحلامهم، ما لا يروقهم، وشغفهم... إلخ، فيما يتعلق بالقراءة. هل توجد كتبٌ تخيّم دومًا على تفكيرهم؟ هل أثّر ذوقهم في الكتب في علاقتهم بالآخرين؟ وقد حذّرتهم كذلك بخصوص تبعات عدم الرّد: رسائل إلكترونيّة، اتصالات هاتفيّة، إضافة إلى هجاءٍ لا يرحم. ثم أتبعتُ ذلك برسائل إلكترونيّة مزعجة واتصالاتٍ تَتَبّعيّةٍ لتوضيح بعض الأمور. وقد تراوحت أعمارهم في الغالب بين أربعين وخمس وستّين سنةً، رغم أنه كان هناك بضعة من أصدقاء طفليّ الذين تعلّموا - بشكلٍ غير مفهوم - نزرًا يسيرًا من الاحترام. حاولت تحرّي أن يكون هذا المسح علميًا إلى أقصى استطاعتي، رغم أنه كان من الجليّ أنه ليس كذلك، لأنني لم أتعامل إلا مع الأشخاص الذين تتميّز علاقتهم بالكتب بالهوسيّة - مثلي تمامًا - بينما اجتهدتُ في تجاهل الجُموع [الجاهلة].

(1) **Black Dogs (1992)**, **The Comfort of Strangers (1981)**, **The Child in Time (1987)** – Ian McEwan.

لا بد أن استفساراتي قد بدت بالنسبة للبعض واجبًا ثقيلًا وشاقًّا يتداخل مع قراءتهم. كانت بداياتهم في الغالب تتميّز باقتضابٍ ميكانيكيٍّ لا يتعدّى الرّد بـ: (نعم) أو (لا) على أسئلةٍ من قبيل «هل هناك كتبٌ تشعر أنه يجب عليك قراءتها قبل الوفاة؟» دون أن يكلّفوا نفسهم عناء توفير عناوين تلك الكتب، وهو الغرض الرّئيسيّ من التمرين؛ أو - إذا فعلوا ذلك - يشيرون إلى أحد مؤلّفات هالدور لاكسنس أو إليزابيث كوبلر روس، وهو الأمر الذي دفعني إلى الاعتقاد بأنهم لم ينخرطوا فعليًّا في أجواء ما كنّا بصدد فعله. لكن عاجلًا أم آجلًا، خلال إجابتهم على الأسئلة، يتحرّك فيهم شيءٌ ما ويقدح زناد الشّغف؛ عاجلًا أم آجلًا، ينجح سؤالٌ ما في جذب اهتمامهم فيُقبلون عليه بكلّ ما أوتوا من كلماتٍ، فيهذرون بخصوص **(لوليتا)**، **(نارٌ شاحبةٌ)**، أو **(الحزام المعكوس)**[1]، كما لو أنه تمّ انتدابهم من قسم التّسويق التّابع لـ «شركة نابوكوف المحدودة».

كان الجواب على سؤال «هل سبق لك البقاء بالبيت، متغيّبًا عن العمل، من أجل إنهاء قراءة كتابٍ؟» هو: «أجل»، من قلّة قليلة، بينما أجاب آخرون: «أتمنى لو أنني فعلت ذلك بوتيرة أكبر». وقد قال أربعة أشخاص يعملون بمجال النّشر إنهم اختاروا هذه الوظيفة عن قصد حتى يتسنّى لهم المكوث بالبيت من أجل القراءة والتظاهر بأن ذلك هو «عملهم». وأنا أعلم تمامًا ما يقصدون، إذ إنني قد تجاهلت العمل ذات مرّة لمدة أسبوعٍ كاملٍ حتى أستلقي على الأريكة وأقرأ عشر روايات لروث رندل، ثم انتقلتُ بعدها إلى ثلاث روايات أخرى كتبتها تحت اسمها المستعار: باربارا فاين. إن العمل الذي كنت أقوم به حينها كان مزعجًا إلى حدٍّ لا يُطاق، وكنت أمقت الذهاب إلى المكتب (رغم أنني كنت لحسابي الخاص). وفي هذا الصّدد تذكر صديقةٌ تعمل صحفيّةً:

(1) **Lolita (1955), Pale Fire (1962), Bend Sinister(1947)** – Vladimir Nabokov.

ـ ذات مرّةٍ، كنت منهمكةً في قراءة [رواية الرّعب] **(طفل روزماري)**[1] لدرجة أنني تركت زوجي يذهب إلى حفل الكريسماس لوحده.

ويضيف رجلٌ إنكليزيّ أصدر قبل وقتٍ قصيرٍ فيلمًا عن محقّقي الحيوانات الأليفة المشكوك في أمرهم أخلاقيًّا:

ـ خلال عملي بشركة برينسيس بلاستيكس في يوفيل بالمناوبة اللّيليّة، كنت أتدخّل في برمجة الطابعة المعدنيّة حتّى يتسنّى لي أن أقرأ.

ـ «لا أستطيع تذكّر مرّة بقيت فيها بالبيت متغيّبةً عن العمل، لكنني تسلّلت مرّةً خارج حفل تأبين حتى أنهي قراءة كتاب»، قالت امرأة عرفتها لمدّة أربعين سنةً دون أن أشك ولو لمرّة واحدةٍ أن أثمن ممتلكاتها هي نسخة إصدار «غولدن بوكس» من قصة **(ذات الرّداء الأحمر)** التي كانت جدّتها تقرأ لها منها حتى «انعقد لسانها».

سألتُها: «لماذا تسلّلتِ خارج حفل التأبين»

ـ لقد كانوا بصدد دفن عمّةٍ لم ترُق لي يومًا.

ـ أهناك سبب محدّدٌ لذلك؟

ـ لقد كانت سليطة اللّسان، وتعليقاتها بخصوصي جافيةٌ على الدّوام.

ـ هل تذكرين الكتاب الذي قرأتِه يومها؟

بدا أن سؤالي هذا قد أربكها.

ـ لقد كانت رواية من القرن التاسع عشر: ربما لوالتر سكوت، أو هاردي؛ وقد يكون ترولوب.

ـ كم كان عمركِ حينها؟

ـ اثنتان وأربعون سنةً.

---

(1) **Rosemary's Baby (1967)** – Ira Levin.

كان أصدقائي يحدّدون على الدّوام أولئك الكتّاب الذين تجاهلوهم أو «كبروا» على قراءة مؤلّفاتهم، وقد كانت الأسماء ذاتها تظهر باستمرارٍ: كورت فونيغورت، ج. د. سالينغر، أناييس نين، جاك كيرواك، هيرمان هيس، هنري ميلر، وفي مناسبتين: ماري رونو، قد أخذني الاسم الأخير على حين غرّة؛ أما ما صدمني أقل من ذلك هو أن لا أحد قال إنه كبر على قراءة مؤلّفات شكسبير.

قال صِهري – وهو رسّامٌ أرسلت إليه على مرّ السنين اثنين وسبعين كتابًا لم أعد راغبًا في قراءتها – إنه أحبّ رواية (**الخدعة 22**)، لكنّه كره كلّ أعمال جوزيف هيلر الباقية. وقد أشار آخرون إلى حالاتٍ خاصّةٍ مثل ألبرت بايسون تيرهون وإدوارد إستلين كامينغز، حيث يطفو على السّطح لاحقًا شيءٌ من خلفيّة الكاتب يدعو للاعتراض ويدفع القرّاء إلى إعادة تقييم علاقتهم باه. في هذا الصّدد، يقول صديقٌ فرنسيٌّ رسّامٌ وقيّمٌ على متحفٍ، لكنه يقوم أيضًا بنشر كتبٍ أخّاذةٍ عن تاريخ نبتَتَي الرواند والكرّاث على نفقته الخاصة: «بعد أن شرع جون دوس باسوس وإركسين كالدويل في الدّعوة إلى قصف فيتنام، أحجمت عن قراءة أعمالهما.» من جهة أخرى، يضيف صديقي الفرنسيّ المثقّف المستنير ذاته: «حين تلتقي بأحد معجبي ريتشارد بروتيغان، فالأمر يكاد يكون أشبه بالتحدث عن أحد أقربائنا المشتركين.»

إن نصف أصدقائي على الأقل يملكون نسخةً من كلّ كتابٍ أحبّوه يومًا، ومعظمهم مازالوا يملكون النسخة ذاتها من الكتب التي كانوا يبجّلونها خلال طفولتهم. وبخصوص ذلك، يقول منتجٌ إذاعيٌّ نشأ بشمال إنكلترا: «أنا أملك كلّ كتبي المفضّلة [في نسخة ورقيّةٍ]، وحين أرى نسخًا مستعلمةً منها في المكتبات، أشتريها وأجبر أصدقائي على قراءتها.»

«أنا أجمع مجلّداتٍ من مسرحيّة **(سيرانو دو بيرجيراك)**[1]» تقول وكيلة أدبيّة، كانت هي من أقنعتني بأن أصير كاتبًا حرًّا وبالتالي غيّرت حياتي؛ لقد كانت تعمل نادلةً حينها، أو ربما كانت تعمل في مصلحة خدمة الزّبائن. وتؤكد: «أنا أحبّ ذلك الكتاب للغاية، لدرجة أنني كلما رأيته أشتريه.»

ويقول محرّر مجلّة من لندن: «إن كلّ الكتب التي تعدّ مفضّلة لديّ منها نسخةً، مع استثناءٍ وحيدٍ: ما عدت أملك رواية **(تحالف البلهاء)**[2]، لأن النسخة التي كانت في حوزتي، وقرأتها مرّاتٍ عديدةً، قد اختفت من مقرّ العمل ولم أرغب في استبدالها بنسخةٍ أخرى تفتقر إلى تاريخ شخصيّ لي معها.»

ويقول ابني: «مازلت أحتفظ بكلّ الكتب التي نشأت في صحبتها. لكن، بما أنني لم أتجاوز الخامسة والعشرين، فالوقت مازال مبكّرًا لأقول أيّ منها قد حدّدت شكل حياتي.»

هل كانت هناك كتبٌ شعرَ الناس أنه يجب عليهم قراءتها قبل مماتهم؟ أجل، بالطبع. فقد ظلّ أصدقائي يشيرون مرارًا وتكرارًا إلى **(البحث عن الزمن المفقود)**، **(عوليس)**، **(يقظة فينيغان)**، **(الجبل السّحريّ)**، **(الحرب والسّلم)**، **(الإخوة كارامازوف)**، **(تريسترام شاندي)**، **(بودنبروك)**[3]، **(تاريخ انحطاط الإمبراطوريّة الرّومانيّة وسقوطها)**، **(حياة جونسون)**[4] بقلم بوسويل، **(صعود الرايخ الثالث وسقوطه)**[5]، بالإضافة إلى رواية **(ميدل مارش)**؛ كقِمم يجب عليهم بلوغها يومًا، مع أنهم يشكّون في أنه سيتسنّى لهم القيام بذلك. وقد أشار اثنان منهم إلى هالدور لاكسنس، ولكن مجدّدًا، لم آخذ ذلك على محملٍ شخصيٍّ. كما أشار أكثر من نصف دستةٍ منهم

---

(1) **Cyrano de Bergerac (1897)** – Edmond Rostand.
(2) **A Confederacy of Dunces (1980)** – John Kennedy Toole.
(3) **Buddenbrooks (1901)** – Thomas Mann.
(4) **Life of Samuel Johnson (1791)** – James Boswell.
(5) **The Rise and Fall of the Third Reich (1960)** – William L. Shirer.

إلى الإنجيل، واصفين إيّاه بالمشروع المغبّش، للمدى البعيد، من ضمنهم مؤلّف رواياتٍ جنسيّةٍ كان في السابق يكتب أغاني ميلامخوليّة في صنف «الكانتري» Country. وفي السّياق ذاته، قال عازف الغيثار الرّئيسيّ في فرقة الرّوك بمدرستي الثانويّة - الذي صار الآن أخصّائيًّا نفسيًّا: إنه استمتع بقراءة **(العهد القديم)** لكنه وجد أن **(العهد الجديد)** «غبّي»؛ ويجب أخذ رأيه هذا بشيء من الرّيبة لأن اسمه العائلي: غولدبرغ[1]. كما أنه يحبّ أعمال الخيال العلمي، لذا فإن سبب قوله إن **(كلمة الرّب، النسخة 2.0.)** كتابٌ «غبيّ» يظل أمرًا يعسر عليّ فهمه.

وقد أدرج أصدقائي كذلك عناوين مَهيبةً من مصادر حديثة، من بينها الروايات الآتية: **(قوس قزح الجاذبيّة)**[2]، **(المحقّقون المتوحّشون)**[3]، و**(يوميات طائر الزنبرك)**[4]، كقلاع - تلوح في الأفق - قد يتّضح أنها منيعةٌ. لقد كانت تلك جبالًا يتمنّون تسلّقها، لكن إذا أرادوا فعل ذلك حقًّا، فسيكونون في حاجة إلى مرافقٍ من [قبيلة] شيربا Sherpa [المتمرّسين في التّضاريس والمسالك الجبليّة]، بل إنه سيحتاجون إلى فيلقٍ منهم. قال معظم النّاس إن هناك ما بين كتابٍ واحدٍ إلى خمسة كتبٍ يشعرون بأنه يجب عليهم قراءتها قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة، رغم أن أحدهم قام بإدراج ثلاثة عشر عنوانًا بما في ذلك: **(بنين)**[5]، **(فيكتوريّون بارزون)**[6]، و**(صخرة القمر)**[7]، بالإضافة إلى مجموعة من أعمال فيتا ساكفيل ويست (دون إعطاء عناوين محدّدة)، بالإضافة إلى أصناف عامّة من قبيل «كل مؤلفات

---

(1) أحد أسماء النّسب الشّائعة من أصول ألمانيّة يهوديّة.
(2) **Gravity's Rainbow (1973)** – Thomas Pynchon.
(3) **The Savage Detectives (1998)** – Roberto Bolaño.
(4) **The Wind-Up Bird Chronicle (1994)** – Haruki Murakami.
(5) **Pnin (1957)** – Vladimir Nabokov.
(6) **Eminent Victorians (1918)** – Lytton Strachey.
(7) **The Moonstone (1868)** – Wilkie Collins.

بروست»، «كلّ «مؤلفات غرترود ستاين»، «المزيد من مؤلفات بالزاك»، «المزيد من مؤلفات تولستوي»، و «المزيد من مؤلفات دوستويفسكي»، منهِيين الأمر بـ: «كل مؤلفات فيفكاناندا»، وهي كاتبة من بالتيمور، ترقص على إيقاعاتها الذّاتية دون أن تُلقي بالًا لأيٍّ كان.

ثلاثة أشخاص فقط لم تكن لهم لائحة كتب للقراءة على جزيرةٍ نائية؛ اثنان منهما لا يباليان البتّة ما إذا لم يتمكّنا من قراءة أيٍّ من مؤلّفات جويس وبروست، أما الثالث – وهو شابٌّ عاد لتوّه من خدمة عسكريّة لمدة سنة كضابط استخبارات مشاة البحريّة [الأمريكيّة] بأفغانستان – فقد علّق قائلًا: «سأكون حينها مكتئبًا بما يكفي لأموت».

وقد جاء سؤالٌ آخر من استبياني على الشكل الآتي:

كم عدد الذين تقدّرون من آراء الآخرين بالكتب؟

– «اثنان، وواحدٌ منهما وافته المنيّة» كان جواب المرأة التي ظلّت بالبيت خلال تأبين عمّتها من أجل قراءة كتابٍ لوالتر سكوت (أو توماس هاردي، أو أنتوني ترولوب).

بينما كانت إجابات آخرين كالآتي: «لا أحد»، «لا أحد»، «البعض»، «ليسوا كثيرين»، «لا أحد»، «بالتأكيد أنها ليست من بينهم؛ ليس بعد أن سافرت بحثًا عن تلك المغامرة الآيسلنديّة».

وقد كانوا في الغالب يعتمدون على مراجعات الكتب أو نصائح أصدقائهم من أجل اختيار كتابٍ، رغم أن واحدًا منهم، وهو قيّمٌ على مكتبةٍ، أكّد على وجود «جوقةٍ من التّرشيحات».

– جوقة؟ قلتُ متسائلًا.

– أجل، جوقة، كما في عبارة ‹الاستماع إلى قرع الطّبول القَبَليّة›؛ أتعرفها؟

– حسنٌ، طبعًا، كما تشاء.

وقالت إحدى الصّديقات الفنّانات إنها لا تشتري كتابًا إلا إذا كان غلافه جميلًا، الأمر الذي يُقصي الإنجيل. صديقتي هذه ترسم لوحاتٍ جميلةً، وأنا أملك ستةً منها. بل إنها في الواقع ترسم لوحاتٍ جميلةً للكتب ذات الأغلفة الجميلة، من بينها **(الأميرة كاساماسيما)**.

كل هذا يندرج ضمن «الفنّ ما بعد الحداثيّ» الحديث للغاية.

وقد أخبرني أحد أصدقائي الذي يعمل في مَجال طباعة المواد التعليميّة بأنه لا يناقش مواضيع الكتب مطلقًا مع الغرباء، لأنه يرى أن ذلك «تطفليٌّ»؛ بينما قال العديدون إنهم سيطلقون هجماتٍ استباقيّةً ضد الأشخاص الذين التقوهم لتوّهم واستمتعوا برفقتهم، لكن لهم أسبابًا للتّشكيك في أذواقهم القرائيّة. لقد أوقفوهم عند البداية بأن قالوا إنهم لا يقرأون كثيرًا، كما أنهم لا يقبلون مطلقًا بترشيحات الكتب من أيّ كان، لأنه إذا حدث أن اكتشفوا أن أصدقاءهم يعتبرون **(سيّد الخواتم)**[1] أو **(هاري بوتر)** أدبًا حقيقيًّا، فسيكون من الصّعب عليهم الحفاظ على المودّة القائمة بينهم.

يقول أحد معارفي الذي يعمل محرّرًا بإحدى المجلّات: «لقد اضطررت للتّخلّي عن صديقةٍ لأنها ألحّت عليّ من أجل قراءة مؤلّفات لي تشايلد Lee Child. وأنا أحتاط دومًا وأتحاشى السؤال عن كتاب **(طعامٌ، صلاةٌ، حبّ)**[2]، لأنني أود الحفاظ على علاقتي قائمةً مع بعض صديقاتي.»

ويقول أستاذ لغةٍ متقاعدٌ: «لن يتبقّى لديّ أصدقاءٍ إذا أفصحت لهم عن رأيي في ذوقهم في الكتب؛ لن يبقى أحد!»

«لم يسبق لي أن أنهيت علاقتي بأحدهم بسبب ترشيح كتابٍ» تقول كاتبة إعلانات تائبةٌ أجبرها مرض والدها على قضاء بضع سنواتٍ في منطقة مُعادية للفكر – حتى بمعايير تلك الولاية – شمال فلوريدا. خلال مكوثها

(1) **The Lord of the Rings (1954-55)** – J. R. R. Tolkien.
(2) **Eat, Pray, Love (2006)** – Elizabeth Gilbert.

هناك، جربت الانضمام إلى خمسة نوادٍ للقراءة، فندمت على ذلك أشدّ الندم؛ تقول مستحضرةً ذلك: «أتذكّر أنه كلّما شرعت امرأة في الحديث باعتباطيّةٍ عن رواية **(جسور مقاطعة ماديسون)**[1]، أستطيع أن أرى أن معدّل ذكائها ينخفض أمام ناظريَّ، حرفيًّا.»

يقول أحد أصدقائي القليلين الذين تضاهي أذواقهم أذواقي: «كانت لدي صديقة (صارت الآن صديقةً سابقةً) تقترح عليّ أفضل ما قرأتْ من كتبٍ؛ وقد طالت صداقتنا أكثر مما يجب لمجرّد أنني كنت أرغب بإمكانية وصولٍ منتظم إلى ترشيحاتها من الكتب. أتساءل عمّا تقرأه الآن؛ لعلّه الوقت من أجل إعادة تطبيع العلاقات.»

خلال الحديث عن الكتب التي يمكن أن تخنق صداقةً مزدهرةً في منامها، لطالما برز اسم آين رند Ayn Rand على الدّوام؛ حتى إنني حذّرت إحدى صديقات ابنتي المحبوبات التي يبدو عليها الذكاء ورجاحة العقل والقبول بين النّاس، والتي حدّدت – بكلّ انحلالٍ – رواية **(النافورة)**[2] ككتابها المفضّل، ودعوتها إلى إزالة ذلك فورًا من على بروفايلها على فايسبوك. سوى ذلك، بعد ثلاثين سنة من الآن، حين تكون في موقف يتم فيه دراسة ترشيحها لمنصب أول امرأة تتقلّد رئاسة مجلس البنك المركزي الأمريكي، فإن تلك المعلومة قد تعود لتقضّ مضجعها؛ والأمر ذاته يسري على روايتها الأخرى **(أطلس هازّا كتفَيه)**[3].

وقد كان اثنان فقط من المشاركين في الاستبيان من أقرّ بالتدوين على صفحات الكتب خلال قراءتها.

---

(1) **The Bridges of Madison County (1992)** – Robert James Waller.

(2) **The Fountainhead (1943)** – author Ayn Rand.

(3) **Atlas Shrugged (1957)** – Ayn Rand.

«لا يُفترض بك التّدوين على الكتب!» علّقت بانفعالٍ الصديقة التي تملك نسخة من رواية **(الربيع الصّامت)**[1] التي قرأتها في سن السادسة عشرة؛ لأن الكتب في نظرها «مقدّسةٌ»، إلا أن رجلًا كان فيما مضى يكتب خطابات لجورج بوش - ولم يفلح الأمر - يخالفها الرأي.

يصرّح هذا الأخير: «أنا أدوّن الملاحظات على كتبي جميعها دون تمييز، وكذلك كان يفعل جون آدامز. هل رأيت الملاحظات الهامشيّة على نسخته من **(رسالة جورج واشنطن الوداعية)**[2]؟ إنها لئيمةٌ بشكلٍ هستيريٍّ.»

وشقيقتي إلين كذلك تدوّن على الكتب، مع أنها - على خلافي - تعمل في قطاع الصّحة؛ لكن لعلّ الأمر جينيّ.

أخبرتني ذات مرّة: «إذا كان التّحرير سيّئًا، أقوم بتصحيح الأخطاء. وإذا كان هناك خطأ جسيمٌ، مثل تضاربٌ مباشرٍ مع أمرٍ سبقتِ الإشارة إليه، أقوم بالتّسطير أسفله، مع إضافة ملاحظاتٍ غير مهذّبة. سوى ذلك، لا أدوّن أية ملاحظات؛ وحين أصادف مقطعًا مكتوبًا بشكلٍ جيّدٍ للغاية، كلّ ما أفعله أنني أقرأ السطر أو الأسطر بذهني مرارًا وتكرارًا.»

لقد بدتِ الكتب للناس حقيقيّةً ملموسةً مثل باقي الأشياء في الحياة: الأكل، المسيرة المهنية، العلاقات، والرّقص العصريّ. «إذا فقدتُ بصري، فلا أظن أنه بمقدوري العيش بعد ذلك» تقول محرّرة كتبٍ شابّة ابتكر والداها خلال طفولتها نظام نسبةٍ يشترط أن تجلس أمام الطاولة للحديث إلى أشخاصٍ بالغين لفترة محدّدةٍ من الزمن ليسمحوا لها بالذهاب للقراءة؛ وتضيف: «لقد فقدت جدّتي بصرها في بداية ثمانينيّاتها وأمضت الخمس عشرة سنةً التي تلت ذلك دون القدرة على القراءة. وكانت تقول لي: «لا تشيخي، ولا تفقدي بصرك، لأن لا شيء أكثر إثارة للملل من معرفة أنه لن يكون في مقدورك

---

(1) **Silent Spring (1962)** – Rachel Carson.

(2) **George Washington's Farewell Address (1796)** – Alexander Hamilton, George Washington & James Madison.

القراءة مجدّدًا أبدًا!». وقال آخرون إنهم سيشعرون بأنهم ثكالى ومفجوعين إذا وجدوا أنفسهم فجأة بغزّة.

ويقول أحد أصدقائي الفيزيائيّين: «إن القراءة تذكّرني بما يعنيه أن يكون المرء آدميًّا.»

بينما يقول أحد كتّاب أدب الأطفال: «القراءة تعني أنني أستطيع عيش أربع حيواتٍ دفعة واحدةً في كلّ مرةٍ أفتح فيها كتابًا. إن ما تعلّمته عن الناس، الثقافة، العلم، التاريخ، السياسة، وبلدان أخرى – أو أكوانٍ غريبةٍ مدهشةٍ – من الكتب يضاهي ما تعلّمته من حياتي الواقعيّة؛ ولأعيد صياغة مقولة إيميلي ديكنسون: لا توجد حاملة طائراتٍ أشبه بالكتب.»

«إن القراءة مصدر للأمل»، حسب وصف أحد رفاقي الصّحفيّين.

«إن القراءة تعني أن الغد قد لا يكون مظلمًا مثل اليوم»، تقول ابنتي.

- ماذا تعني القراءة بالنسبة لك؟ سألت صديقًا كان قد أنتج فيلمًا النسخة الأفغانيّة من برنامج «أميريكان آيدول».

فكان ردّه باقتضابٍ: «أن تكون إنسانًا».

ولكن مركزّية الكتب داخل وجودنا البشريّ لها جوانب محمودةٌ وأخرى مذمومة. هناك كتابان، أو على الأقل مقطعان من كتابَين، أتمنى لو أنني لم أقرأهما قطّ. أولهما مشهد الجرذ في الصفحات الأخيرة من رواية **(1984)**[1]؛ الجميع يشيرون إليه، بما في ذلك صديقٌ مقرّبٌ، وهو جنديّ حارب بفيتنام، استيقظ صديقه ذات صباحٍ ليجد جرذًا جاثمًا على وجهه. وقد كان جرذٌ آخر يسكن داخل مكتبه هناك بجنوبٍ شرق آسيا إلى أن اضطر في نهاية المطاف إلى ضربه بمطرقة حتّى الموت. أما المقطع الثاني الذي ظلّ مميّزًا بالنسبة لي فهي سلسلة أحداثٍ في رواية هاروكي موراكامي: **(سبوتنيك الحبيبة)**[2]؛

---

(1) **1984 (1949)** – George Orwell.

(2) **Sputnik Sweetheart (1999)** – Haruki Murakami.

حيث يناقش موت المقاتل اليونانيّ المناضل من أجل الحرّية، أثاناسيوس دياكوس، بالخوزقة سنة 1821. فقد وضعه الأتراك - على سبيل الاحتياط - فوق نارٍ مشتعلةٍ، وتطلبّ الأمر ثلاثة أيام حتى يلفظ أنفاسه. لم يتضمّن كتاب موراكامي كلّ ذلك، لكنّني بحثتُ عنه في ويكيبيديا والآن ما عدت - لسببٍ ما - قادرًا على التّوقّف عن التفكير فيه. ربما كنت سأستطيع لو تطلّب الأمرُ يومَين فقط. لكن من جهة أخرى، يظل مدهشًا أن مشهد السّلخ الذي يقع في رواية أخرى لنفس الكاتب - **(يوميات طائر الزنبرك)** - لم يزعجني البتّة.

وفي إطار مشاركة الآخرين لتجاربهم المقلقة في القراءة، قالت إحدى النّساء إنه، بعد انقضاء ستة عقودٍ، مازالت رسومٌ منقوشةٌ على الخشب لضحايا مشنوقين، تتدلّى أقدامهم في الهواء، رأتها في نسخة من قصيدة «رقصة سجن ريدينغ»[1] حين كان عمرها سبع سنوات؛ كما أنها أصيبت بصدمةٍ عابرةٍ إثر قراءة كتابٍ عن امرأة عاشت علاقة عاطفيّةً مع سحليةٍ.

- «هل هناك جزء من الكتاب يظهر في كوابيسك بشكل متكرّرٍ؟» سألتُ المشاركة.
- «أجل، ولهذا السّبب أكره جيرزي كوزينسكي»، ردّت شقيقتي.
- «وصفُ الحياة المنزليّة في **(قضيّة بول)**[2]، قصّة قصيرة بقلم ويلا كارتر، قد ذكّرتني بطفولتي، ولكن ليس بطريقة جيّدةٍ.» ردّ أحد أصدقائي الذي يعمل محرّرًا.
- «يكاد يكون مؤكّدًا أنه مقطع من كتاب: **MCDP-1**[3]، المنشور العقائديّ لسلاح مشاة البحريّة.» يقول الجنديّ الأمريكيّ الشّاب بأفغانستان.

---

(1) " **The Ballad of Reading Gaol**" , by Oscar Wilde.
(2) **Paul's Case (1905)** – Willa Cather.
(3) **Warfighting: McDp 1 (1989)** – Department of Navy

- «مشهد الحادث برواية **(العالم من وجهة نظر غازب)**[1]»، تقول امرأة ترفض قراءة الكتب الحزينة، ويُفترض أنها لم تكمل الكتاب الآنف ذكره.

ثم، من حيث لا يتوقّع المرء، أتت هذه الملاحظة من رجلٍ يعمل في مجال يتعلّق بالتأمينات الصّحية، وهو الذي وفّر لابني أولى وظائفه:

- «تستحضر ذاكرتي من حين لآخر، وباستمرارٍ، إحدى جُمَل غاتسبي: *لذا فقد انطلقنا في طريقنا، قواربنا تمضي عكس التيّارات، لكننا مشدودون بلا هوادة نحو الماضي الذي تركناه خلفنا.* ولسببٍ لا أكاد أدركه، لا أستطيع التّوقّف عن التفكير فيها.»

وكانت أحد المواضيع التي أشار إليها أكثر من فردٍ هو الاختلاف بين الزّوجين الناجم عن عاداتٍ قرائيّةٍ متباينةٍ أو أذواقٍ غير متناسقةٍ.

- «لطالما كره زوجي الأمر حين يعود إلى البيت ويجدني منهمكةً في القراءة.» تصرّح صديقةٌ لي، وهي معلّمةٌ من أنصار البيئة، تصف نفسها على أنها «أرملة كتابٍ»، رغم أن الوضع في الواقع كان أقرب إلى كون زوجها الكاره للكتب «مرمِّل كتبٍ». وتضيف: «لقد كان يظن أنه يجب عليّ أن أعيش الحياة الواقعيّة عوض القراءة عن حياة الآخرين؛ كان يظن أنه يجب عليّ تخصيص وقتي وانتباهي له، وأن الكتاب الذي أكون بصدد قراءته منافسٌ له؛ الآن أدرك أنه كان يجب عليّ الحصول على الطّلاق منه في وقتٍ أبكر.»

وفي السّياق ذاته، تطوّعت أخرى بالقول:

- «حالما رأيت زوجي المستقبليّ يقرأ رواية **(سلامٌ منفصل)** آنذاك بالجامعة، كان يجب عليّ أن أهتدي إلى تجنّب الزواج منه.»

---

(1) **The World According to Garp (1978)** – John Irving.

وتقول معلّمةٌ متقاعدةٌ من نيويورك:

- «ما كنت لأنهي علاقةً أبدًا بسبب ترشيح كتابٍ، لكن زوجي الأول كان يهوى قراءة رواية **(النّافورة)**؛ اممم... «

عمومًا، لم تتقاطع أذواق أصدقائي وصديقاتي مع أذواق أزواجهم أو شركائهم، وحتى حين يحدث ذلك، لا بد أن يكون هناك منعطفٌ غريبٌ بمكانٍ ما يشذّ فيه رأي أحدهما عن الثاني.

يقول صديقٌ يتطلّب عمله بالقطاع التعليميّ معرفة كلّ ما يجب معرفته حول كلّ شيءٍ:

- «إن الاستماع إلى أذواق زوجتي بخصوص الكتب هو إحدى المتع الخالصة من زواجنا الممتد لأكثر من ثلاثين سنة معًا؛ لم يكن الأمر كذلك مع زوجتي الأولى خلال السّنوات الأربعة الأولى من تعاسةٍ تشاركنا في صنعها.»

وتقول المرأة التي علِقت معي مرةً في بيت مارك توين:

- «لقد التقيت زوجي في مادة دراسة شكسبير، لذا كانت تلك بدايةً مبّشرةً. كان بيننا الكثير من الكتّاب المفضّلين الذين تشاركنا حبّهم: مارك توين، أوسكار وايلد، صامويل بيكيت، جيمس جويس، جون شيفر، وغراهام غرين؛ وقد زاد حبّي لهم لأنه يحبّهم. كما أنني أبجّل الكاتبات العظيمات: ويلا كيثر، جورج إليوت، إديث وارتون، وأليس مونرو؛ إلا أن زوجي لا يبالي البتّة بالكاتبات. سحقًا، إن ترشيحات الكتب تمضي في منحًى وحيدٍ لا غير: منه إليّ.»

ومع ذلك، فإنه يظل أمرًا مميّزًا.

- «هل أقدّر ذوق زوجي في الكتب؟» تقول صديقةٌ تعمل في مجال النشر، يكتسي نبرتَها شيءٌ من التّشكيك، ثم تضيف: «لقد التقيتَه بنفسك!»

أما داخل بيتي، فإن هناك ديناميكيّةً مختلفةً إلى حدٍّ ما: أنا أقدّر ذوق زوجتي في الكتب بالفعل، لكنني أختار ألا أقلّدها؛ فأنا وهي نقيضان تمامًا فيما يخص «مزاج القراءة»، كما أن لدينا أذواقًا مختلفة تمامًا في الكتب، وذلك مفيدٌ للغاية في تقسيم العمل. هي تقرأ مؤلفات أنتوني ترولوب حتى لا أكون مضطرًا لقراءتها، بالطريقة ذاتها التي تتكلّف بها بالأعمال التّطوعيّة في محيطنا حتى لا يتوجّب عليّ القيام بأيٍّ منها. ولكونها امرأةً إنكليزيّة المنشأ، فهي تقرأ من حينٍ لآخر كتبًا عن الرّاج البريطانيّ، بعضها جلبتهم لها، لكن أحد منها قد أقرأه بنفسي يومًا. إنها تقرأ كتبًا عن المستكشفين الجريئين – ولو أنهم مختلّون – كما عن الأمراض المستعصية، عن القابلات اللّندنيّات المرهَقات، عن السنوات الإصلاحيّة بحياة صامويل بيكيت قبل أن يستقرّ الظلام بحياته للأبد؛ كما أنها الشخص الوحيد، ممّن أعرف، الذي قرأ ليس فقط رواية واحدةً وإنما روايتَين اثنتَين لويليام غاديس William Gaddis. وأحيانًا تحدّثني عن مثل هذه التجارب القرائيّة، لتجنّبني ويلةَ قراءة تلك الكتب بنفسي، فتعمل مثل مُراجِعة كتبٍ متمرّسةٍ وموثوقةٍ، تخبرك بما يكفي من المعلومات عن روايتَي ويليام غاديس: **(التمييزات)** و**(النجّار القوطيّ)**[1]، سلسلة روايات **(سجلّات بارستشاير)**[2]، أو رواية **(2666)**[3] لشد انتباهك للجلوس والإنصات بانتباهٍ، ولكن ليس بما يكفي لترغب في شراء نسخة من الكتاب، أو في قراءته.

إن زوجتي، ذات القدرة الرائعة على القراءة وهي ممدّدة في السّرير ورأسها مُسنَد على وسادةٍ – إذ تكاد تكون هذه «مهارة تانتريّة» لم أنجح قطّ في إتقانها – لا ترشّح لي كتبًا للقراءة، لأنها لا تستطيع تحديد ذوقي؛ زيادة على أنها لا تهتم. وعلى مدى سنين طويلةٍ، ظلّت تهديني كتبًا عن وينستون

---

(1) **The Recognitions (1955), Carpenter's Gothic (1985)** – William Gaddis.
(2) **The Chronicles of Barsetshire (1855-67)** – Anthony Trollope.
(3) **2666 (2004)** – Roberto Bolaño.

تشرتشل كهدية كريسماس استعجاليّة إلى أن وجدت نفسها ذات سنةٍ محاصرةً في الزاوية مع انتهاء كل «التشرتشليّات» من خزائن مكتبة «بارنز أند نوبل»، باستثناء: **(مجموعة الخُطَب الكاملة لوينستون تشرتشل)**، الذي أهدتني إياه بعدها. شخصيًّا، يروقني تشرتشل الرّجل، كما أحبّذ الكتب التي تتحدث عنه ـ لقد قرأت كتابه: **(تاريخ الشّعوب النّاطقة بالإنجليزية)**[1]، الصادر في أربع مجلّدات، مرّتَين – لكن الإفراط في أي شيءٍ جيّدٍ يمكن أن يصير أمرًا سيّئًا، وقد كان ذلك الكتاب الأخير بخصوص تشرتشل جافًّا شيئًا ما. لذلك التجأت، في السنة الموالية، إلى طفلَينا ليتوسّطا في إخبارها بالتّوقف عن شراء كتبٍ عن تشرتشل ومنح المقابل الماليّ لقضيةٍ نبيلةٍ: الصليب الأحمر، جمعية مساعدة الأطفال، أو «أطباء بلا كتبٍ ترتشل». بعد ذلك، توقفت عن إهدائي أيّ شيء خلال الكريسماس. نقطة، ورجوعٌ إلى السّطر.

يندُر أن تقرأ زوجتي كتابًا رشحته لها، ونادرًا ما تجد التّجربة ممتعة؛ ومع ذلك كنت متأكدًا من أنها ستستمع أيّما استمتاع بسحر البساطة والمكر في رواية بينيلوبي فتزجيرالد: **(الطفل الذّهبيّ)**[2]، إلا أنها لم تستمتع بقراءتها على الإطلاق، إذ وجدت الأمر برمّته «كماليًّا، يركّز أكثر من اللّازم على تفاصيل ليست ذات شأنٍ، كما أنه مغالٍ في إضفاء اللّمسة البريطانيّة.» وقد خاب أملها في قراءة إحدى روايات سلمان رشدي، وكانت بالبرود ذاته تجاه أعمال ف. س. نايبول. لكنها استمتعت بقراءة سيرةٍ ذاتيّةٍ قصيرةٍ لكاري غرانت كنت قد مرّرتها إليها، بالإضافة إلى تأريخ مسموع لفرقة «البيتلز». لقد دام زواجنا خمسًا وثلاثين سنةً، وطوال هذه المدّة لم تقرأ أكثر من سبعة كتبٍ آثرتُها، بمعدّل كتابٍ واحدٍ كل خمس سنوات. ومع ذلك، يبدو أنها تحبّ الكتب التي أشتريها من أجلها، ولعلّ مردّ ذلك أنني أحرص أشدّ الحرص على

(1) **A History of the English-Speaking Peoples (1956)** – Winston Churchill
(2) **The Golden Child (1977)** – Penelope Fitzgerald.

شراء الهدايا التي يستمتع بقراءتها الناس فعلًا، ما يعني أنني أشتري ما أعلم أنني لن أستمتع به شخصيًّا مطلقًا. لذا، كل سنة، حين يحلّ عيد ميلادها، أحاول إيجاد إحدى روايات أنثوني ترولوب التي لم تقرأها بعد أو - إذا فشلت في ذلك - أحاول إيجاد أحد أعمال هنري جيمس الأقل شهرة. من جهة أخرى، أعتقد أن زوجتي هي أكثر الأشخاص تفاؤلًا ممّن التقيت في حياتي (متفائلةٌ حدّ العناد)، لكنها قبل أن تطفئ أنوار غرفة النوم كل ليلة، يروقها أن تقرأ لهنري جيمس لمدة خمس وأربعين دقيقة أو نحوها؛ ولا أستطيع إيجاد تفسير لذلك.

لديَّ وابني الذّوقُ ذاتُه في الأفلام - تلك التي يتم فيها تفجير الأشياء - لكن أذواقنا في الكتب ليست متماثلة. فكلانا يحبّ الكتب التي تتحدّث عن ألكسندر الأعظم، مارك أنتوني، وجورج أرمسترونغ كاستر، إلا أننا نختلف بشأن الخيال العلمي، فابني يعشق الروايات التي تجري أطوارها في الفضاء الخارجي والأكوان الموازية وكذا الأحداث التي وقعت قبل زمنٍ بعيدٍ جدًّا في مجرّاتٍ بعيدةٍ. إن فشلي في وأدِ شغفه هذا في مهده لهو ربما إخفاقي الوحيد كأب. وقد دأب منذ سنين على محاولة إقناعي بقراءة مؤلفات فرانك هربرت، مرتكزًا في ذلك دومًا على المثل المزعج: «اسأل مجرّب ولا تسأل طبيب»، فكان يردّد على الدّوام: «لا يمكنك انتقاد شيءٍ لم تقرأه بعد»؛ وعلى ذلك أردّ: «إن ذلك أشبه بالقول إنك لا تستطيع أن تسخر من مهرجان «الرجل المحترق»[1] لمجرّد أنك لم تكن بين الحاضرين، إذ يمكنك تخيّل إلى أيّ حدٍّ ستكرهه: يمكنك الاستقراء من خلال الحقائق التي تعرفها بالفعل.» سوى ذلك، يروّعني أن ابني يملك نسختين من رواية **(كثيب)**[2]، لكنه في المقابل يملك نسختين كذلك من **(الإلياذة)**.

(1) Burning Man: مهرجان يُقام سنويًّا بغرب الولايات المتحدة ويهتم بالمجتمع، الفنّ، الاعتماد على النفس وشتى أشكال التعبير عن النّفس. ويتخذ هذا المهرجان اسمه - الرّجل المحترق - من الحدث النهائي، خلال اليوم الأخير، حيث يتم إحراق تمثال خشبي رمزيّ يُشار إليه بـ " الرجل".

(2) **Dune (1965)** – Frank Herbert.

«هل تريد أن تترك أطفالك خلفك على خير ما يرام بعد رحيلك عن هذا العالم؟» تقول صديقتي التي فوّتت حفل تأبين عمّتها؛ «إذن فاتركهم في صحبة الكتب.»

وفيما يخصّ ابنتي، عالمة الأعصاب، فهي تعرف بالضبط ما أحب قراءته، وهي توفر لي بانتظام كتبًا عن الفنّ والتاريخ والعلوم؛ حيث تكون هذه الأخيرة دومًا في المتناول، تؤول إلى مستوى رجل الشارع البسيط، وتكاد لا تكون بينها روايةً أبدًا. إنها لا تأخذ أدنى مجازفةٍ في اختياراتها! وفي المقابل، أهديها كتبًا من قبيل: **(موت في العائلة)**[1]، مجموعة القصص القصيرة: **(الجدول الدّوري)**[2]، و **(بيتر بان)**[3]، وغالبًا ما تُقرأ هذه الكتب في اليوم ذاته الذي تتلقّاها فيه. أما زوجتي، فأعطيها موادّ قراءة رفيعةً وذات نِسب قراءةٍ عاليةٍ للغاية، ما كنت لأقرأها بنفسي على الأرجح؛ لكن من الجيّد دومًا أن أحد أفراد أسرتي سيفعل. وقد اعترفت لي ابنتي مؤخّرًا أنها في عمر الحادية أو الثانية عشرة كانت تختبئ تحت الغطاء ليلًا لتلتهم كتبًا عن «جاك السّفاح» و«فلاد المخوزِق». لم تكن لديّ أدنى فكرة عن ذلك، ولعل اسم الجريدة المدرسيّة التي كانت تتولّى أمرها –The Daily Bloodsucker (أي: «جريدة مصّاص الدّماء اليومية») – مع العنوان العريض البرّاق «الرجل ذو الأوتاد الخشبيّة» الذي ظلّ معلّقًا مباشرة فوق مكتبي طوال السنين الستة عشرة الماضية كان يجب أن ينبّهني إلى شيءٍ من ذلك القبيل. ربما أن ذلك يفسّر اختيارها للتخصّص في علم الأعصاب: حتى يتسنّى لها أن تعاين – عن كثبٍ – جزء الدّماغ الذي يجعل فتاةً عاديّةً في الثانية عشرة ترغب في القراءة عن سفّاحين وقتلة جماعيّين من أوروبا الشّرقيّة.

(1) **A Death in the Family (1957)** – James Agee.
(2) **The Periodic Table (1975)** – Primo Levi.
(3) **Peter Pan (1904)** – J. M. Barrie.

كما أن ابنتي ذات الذّوق اللاذع في الكتب تكره المكتبات أشد الكره، وفي ذلك تقول:

«إن المكتبات تتميّز بكل ما هو سيّءٌ بخصوص المقابر، دون أن تكون لها أي مزايا إصلاحيّةٍ للنّفوس.» وتضيف: «حين أقرأ كتابًا، فإن ذلك استثمار، وليس قرضًا. وإذا لم يكن المرء راغبًا في امتلاك كتابٍ، فذلك يعني أنه نذلٌ حقيرٌ.»

كما أنها لا تستطيع فهم مسألة ما تدعوه بمصطلح «العناق الجماعي الإجباري»: أي حين يعطيك صديق أو صديقة كتابًا أعجبه أو أعجبها جدًّا، جدًّا، جدًّا، ويأمل أو تأمل جدًّا، جدًّا، جدًّا، أن يعجبك أنت أيضًا؛ كما لو كان اختبارَ تحديد حِمضيّتك من قاعديّتك [قيمة pH]؛ كما لو أن الأمر مسألة حياة أو موت.

تقول ابنتي: «أنا أشتري الكتب واحدًا بواحدٍ، لأنني أريد قراءة الكتاب في حينه. فأنا أريد الكتاب المناسب في الوقت المناسب؛ لا أريد تجميع الكتب في كومةٍ، ولا اكتنازها، كما لا أريد أن يعطيني أحدٌ كتبًا لأقرأها. إن كل تجربة قراءة هي تجربة شخصيّة فرديّة. كل ما لديك هو اللحظة الرّاهنة، ولا يمكن أن توجد في أي زمنٍ باستثناء الزّمن الحاضر، لذا فإنه من الغباء الاعتقاد بأنه يمكنك إعادة خلق التجربة القِرائيّة ذاتها بالنسبة لشخصٍ آخر.» وحين سألتها عمّا إذا كانت تعتبر القراءة هروبًا من الواقع، أجابت: «القراءةُ عكسُ الهروب، إنها انطواءٌ ودخولٌ في الذّات بشدّةٍ لدرجة أنك تخرج من نفسك من الجهة المقابلة». ثم حين سألتها عن قائمة الكتب التي لن تنهي قراءتها مطلقًا، صدمتني بالرّد: **(موبي ديك)**، **(تِس سليلة دُربرفيل)**، **(عوليس)**، **(يقظة فينيغان)**، **(الإخوة كارامازوف)**، بالإضافة إلى **(الجريمة والعقاب)**، التي حاولتْ قراءتها ست مرّاتٍ على الأقل.

جدير بالذّكر أن أربعةً من تلك العناوين على قائمتي للكتب التي ما عدت أعتقد بأنني سأنهي قراءتها. لذا، دعونا نلخّص ما سبق: إنها تمقت الناس الذين يستعيرون الكتب عوض شرائها، لا تحب أن يُعيرها الآخرون الكتب، وعلى الأرجح لن تنهي قراءة **(يقظة فينيغان)** أو **(عوليس)** أو **(تِس)**؛ ولديها أخٌ يملك نسختين من **(الإلياذة)**.

لقد بدأت أميل إلى الاعتقاد بأن ذوق المرء في الكتب يمكن أن يُورّث.

من بين أصدقائي المقرّبين الخمسة والسّتّين الذين شملهم الاستبيان، اثنان فقط ليسا قارئَين شغوفَين أو متعطّشَين للقراءة. أحدهما نجم كرة سلة خلال دراستنا الجامعيّة – استطاع لاحقًا أن يصير هدّاف الدوري الأوروبي لكرة السّلة – يصرّ على أن آخر كتاب قرأه هو **(ادفن قلبي في منطقة وونددد ني)**[1]. لا أستطيع الجزم ما إذا لم يصادف أيّ كتابٍ بنفس إثارة السابق أو أنه كره ذلك الكتاب لدرجة أنه تخلّى عن عادة القراءة إلى الأبد، لكنني أفهم الآتي: إن الرّياضيّين يرجعون إلى بيوتهم مساءً وهم في قمّة الإنهاك، لذا فإن آخر ما قد يرغبون في القيام به قبل النوم هو «التحاضن» مع هنري جيمس؛ كما أن الرّياضيّين ليسوا في حاجةٍ إلى الهروب إلى عالم أكثر إثارة، لأنهم اختبروا ذلك بالفعل داخل الملعب. أما الصديق الثاني، الذي أعرفه منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري، فهو لن يقرأ كتابًا حتى ولو دفعت له مقابلًا على ذلك (لقد حاولت ذلك مرّة بالفعل، لكنه رفض).

(1) **Bury My Heart at Wounded Knee: An Indian History of the American West (1970)** – Dee Brown.

تجدر الإشارة إلى وقوع **مذبحة وونددد ني** (أو: مذبحة الركبة الجريحة Wounded Knee Massacre) سنة 1890 قرب نهر الركبة الجريحة Wounded Knee Creek في داكوتا الجنوبية بالولايات المتحدة، إذ ذهب ضحيتها قبائل لاكوتا (المعروفون بهنود السهول) الذين كانوا يعيشون في محمية باين ريدج الهندية بولاية داكوتا الجنوبيّة.

ورغم وجود هذه الفجوات الهائلة بين عاداتنا في القراءة، فإن هذين الاثنين يظلّان عزيزَين على قلبي أكثر من بعض الأشخاص الذين أعرفهم ممن يقرأون لجوناثان فرانزن وجوناثان سافران وجوناثان ليثيم، بالإضافة كتاب متنوّعين يحملون اسم: كولم Colm. إن الكتب لا تبني الرّجل، رغم أنها تساعد في ذلك بكل تأكيدٍ. وفي ظل كل ما سبق، لكوني قارئًا نهِمًا، يساورني الفضول لمعرفة كيف تكون حياة أولئك الذين لا يقرأون الكتب على الإطلاق.

سألت عمّا إذا كان ممكنًا لشخصٍ لا يقرأ أن يحمل كتابًا ويستمتع بالتّجربة، فكان الجواب: لا.

ثم سألت عمّا إذا كانت القراءة «عذابًا» بالنسبة إليهما، فكان الجواب: أجل.

وقد وضّح أحدهما: «إن قراءة الكتب أشبه بتناول طعام الأثرياء؛ إذا لم تكن معدتك معتادةً عليه، فستمرض».

لعلّ له نصيبًا من الصحة في قوله، ففي نظري أن القراءة أشبه بالسّفر: إذا لم تعتد ذلك خلال شبابك، فلن تتقنه أبدًا.

من الجليّ أن شغف القراءة شرطٌ أساسيٌّ – مع استثناءات قليلةٍ – في صداقتي للآخرين، لكنه ليس شرطًا لا غنى عنه. حين كنت صغيرًا ومعدَمًا، بدأت أقرأ الكتب على أمل رفع نفسي فوق الهاوية، منتميًا إلى عقيدة: «العلم قوة» (وهو كذلك بالفعل!)؛ لكنني كنت أقرأ الكتب من أجل سبب آخر، أقل نبلًا: لأنها جعلتني أشعر بالرّفعة عن والدي الذي كان ينتمي إلى الطبقة العامة – المنقطع عن الدراسة مع بداية المرحلة الثانوية – والمحبوب من طرف الجميع. لقد كنت أمقت الفقراء القذرين التي كنت أعيش بينهم، دون أن أدرك آنذاك أنه ليس كل الفقراء القذرين فقراءَ باختيارهم، وأنه لا يُتاح للجميع زيارة قبر بودلير كل أسبوع.

حين كنت أعيش بباريس، وأنا في سن الحادية والعشرين، كنت أعمل ثلاثة أيام أسبوعيًّا بأحد أسواق الفاكهة بقرية صغيرة تدعى مالاكوف Malakoff، جنوب باريس. معظم الصّباحات، كنت أجرّ نفسي إلى العمل جرًّا، برأسٍ وجفونٍ ثقيلة من أثر السّهر طوال اللّيل، شرب النبيذ الرخيص وقراءة موليير، بالزاك، وأندريه جيد. ولم يستغرق الأمر كثيرًا حتى عرفت أن الرجال الذين أعمل معهم في سوق الفاكهة لم يقرأوا مؤلفات موليير ولا هم قرؤوا ما كتبه بالزاك أو أندريه جيد، وبالتأكيد ما كانوا ليقرأوا أعمال سارتر؛ لكنني كنت أحبّهم بشغفٍ.

إن قراءة الكتب قد تجعلك أذكى من الآخرين، لكنها لا تجعلك أفضل منهم. فأنا أعرف الكثير عن حرب الفيتنام لأنني قرأت عنها في الكتب، أما صديقي ريتشي – الذي لا يقرأ – فهو يعرف أمورًا كثيرة عن حرب الفيتنام لأنه شارك فيها؛ إن الرجل الذي يصلح سيّارتي لم يقرأ قط ما كتبه دو مونتين، لكنه ميكانيكيٌّ بارعٌ ومبدعٌ؛ كما أن رجال الشرطة ببلدتنا لم يقرأوا قطّ أعمال جون ميلينغتون سينغ، فما بالك بهالدور لاكسنس – أو على الأقل هذا ما أظن – لكنّهم شرطيّون رائعون.

كوني عاشقًا للكتب، فأنا لا أستطيع التفكير في أي شيءٍ أكثر إثارة من تجربة المفاجأة التّامة بخصوص العادات القرائية لشخص آخر؛ وبالتالي فأنا أُصعق حين أصادف أشخاصًا يهوون قراءة كتبٍ تقع جاذبيّتها خارج الإطار النّمطيّ لمجموعتهم الديموغرافيّة. أستحضر أنني، خلال مرحلتي الجامعية، كنت أواعد فتاةً استقال والدها من عمله في مكتب البريد من أجل قراءة أعمال أفلاطون، بوثيوس، والقديس توما الإكويني. ومع أنه لم يقطع شوطًا كبيرًا في أيٍّ من تلك الكتب، ولست متأكّدًا من المقدار الذي استطاع تشرّبه منها، إلا أن المجهود كان مثيرًا للإعجاب بحق. وحين كنت أكتب عمودًا لجريدة «سمارتْ ماني»، كانت محرّرتها البالغة من العمر إحدى وثلاثين سنةً

تسكن في السّابق في بيت مع مجموعة من الحمقى في واشنطن، قبل انتقالها إلى مدينة ويليامسبورغ. لعلّها كانت حمقاء، لكن بغضّ النّظر عمّا كانَته أو لم تكُنه، فهي لم تكن من صنف الأشخاص الذين تتوقّع أن يكونوا في منصب محرّر جريدة «سمارت ماني». وقد كان أسلوب حياتها النقيض تمامًا؛ لقد قرأتْ - وعربدت داخل - مؤلّفات فيرجينيا وولف، آن سيكستون، سيلفيا بلاث، ستيفي سميث، ومن بين كتب طفولتها المفضلّة التي مازالت تحتفظ بها: **(زهرة السعادة)**[1] بقلم: إيفا ليز ووريو، بالإضافة إلى **(قصص وحكايات خرافية)** و**(الأرنب المخمليّ)**[2] بقلم: غيو فوجيكاوا. زيادة على أنها قرأت مؤلفات ميلان كونديرا، رواية **(رقصة تاغارت ذو اللّثة المتقرّحة)**[3]، و**(ملكة الصّمت)**[4] بقلم ماري نيمييه. وكلّ ذلك منطقيٌّ تمامًا، لكنها قرأت كذلك كل كتب سلسلة نيرو وولف، الكتب الثلاثة والسّبعين جميعها! وتتمحور هذه السلسلة، بقلم ريكس ستاوت، عن محقّقٍ خاصٍّ سمينٍ لا يُبارح مسكنه بغرب مانهاتن، وله مساعدٌ لا يخضع لأي قيود أو قوانين يدعى: آرشي غودوين، يتولى القيام بكل الأعمال التي تتطلّب التّنقّل. تمت كتابة تلك الروايات ما بين عامي 1934 و1975، سنة ولادة صديقتي، وقد ولّت فترة سطوع نجم الرّوائيّ ستاوت منذ وقتٍ طويلٍ. لم يسبق لي قراءة أيٍّ من تلك الكتب، رغم أنني أحبّ روايات الغموض، ولا شقيقتي ري فعلت، رغم أنها أدمنت روايات القتل والغموض منذ أن قرأت روايتَي أغاثا كريستي: **(القتل السّهل)** و**(مقتل روجر أكريورد)**[5]، في سن الثانية عشرة. سألت صديقتي كيف بدأ

---

(1) **The Happiness Flower (1969)** – Eva-Lis Wuorio.
(2) **Fairy Tales and Fables (1970)**, **The Velveteen Rabbit (1980)** – Gyo Fujikawa.
(3) **The Ballad of Trenchmouth Taggart (2008)** – M. Glenn Taylor.
(4) **La Reine du silence (2004)** – Marie Nimier.
(5) **Murder Is Easy (1938)**, **The Murder of Roger Ackroyd (1926)** – Agatha Christie.

هوسها بسلسلة نيرو وولف، فأخبرتني أن محرّر إحدى المجلّات هو من اقترح عليها تلك الكتب، وبعد ذلك ظلّت عالقةً في شراكها إلى الأبد. لاحقًا، حين انفتحت عليّ أكثر، أخبرتني أن والدها قد قُتل حين كانت في سنّ الثانية عشرة، لكن لم يُعثر على جثته قط، وبدا أن الأمر مرتبطٌ بالجريمة المنظّمة.

ذلك قد يفسّر سبب قراءتها لروايات الغموض، لكنّه لا يفسّر اختيار مؤلّفات ريكس ستاوت.

كم أهوى أن يتقاطع سبيلي مع شخصٍ لديه هوسٌ خفيٌّ بكاتبٍ يتصادف أنّني أيضًا مهووس به بشكلٍ سرّي. إن الأمر أشبه بمعرفة كلمة المرور السّرّية، لكنه كذلك أشبه بالعثور على الماء بواحةٍ وسط الصّحراء؛ وذلك نادر الحدوث. فالناس في الغالب يسهل تقييمهم: قرّاء كتاب **(الاقتصاد العجيب)**[1]، قرّاء مؤلفات ديباك شوبرا، المرأة التي تقرأ كتبًا من قبيل: **(مدوزِن البيانو)**[2]، **(عازف البيانو)**[3]، **(درس البيانو)**[4]، **(عازفو البيانو)**[5]، أو **(معلّم البيانو)**[6]: أي شيءٍ له علاقةٌ بطريقةٍ أو بأخرى بنهاية الثّمانينيات - 1988 - المجيدة. والأكثر انتشارًا من ذلك هو الرّجل الذي يلتهم بكل شراهةٍ واحدًا من 1.615.000 - مليون وستة مائة وخمسة عشر ألف - كتابٍ حول أبراهام لينكولن، سواء تعلّق الأمر بـ **(لينكولن في بيوريا)**[7]، أو **(لينكولن في توليدو)**، أو **(لينكولن على بعد قرابة ستة أميال من الطريق إلى بلدة دينغمان فيري)**، أو **(أبشع من أن يعيش، أسرع من أن**

---

(1) **Freakonomics Stephen (2005)** – J. Dubner & Steven Levitt.
(2) **The Piano Tuner (2005)** – Daniel Mason.
(3) **The Pianist (1946)** – Władysław Szpilman.
(4) **The Piano Lesson (1987)** – August Wilson.
(5) **The Pianoplayers (1986)** – Anthony Burgess.
(6) **The Piano Teacher (1983)** – Elfriede Jelinek.
(7) **Lincoln at Peoria: The Turning Point (2008)** – Lewis Lehrman.

يموت: حياة وزمان آبي الصّدوق)[1]، (**سوى ذلك، هل أعجبتك المسرحيّة، يا سيدة لينكولن؟**)[2]، بل وحتى كتاب: (**لماذا ما يزال لينكولن مهمًّا حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يكتبون عليه من أجل كسب قوتهم؟**)، بالإضافة إلى الكتب التي ترجمت حديثًا على قارّاتٍ أخرى، من قبيل: (Lincoln, il capo di tutti cappi)، (Lincoln der Mensch)، (Sacré bleu, Monsieur Lincoln!)، و(Lincoln y la vida loca)[3].

إن عادات مثل هؤلاء القرّاء جامدةٌ، لا تتزحزح. فلا يفاجئنا، مثلًا، معرفة أن الشخص الذي أحبّ رواية (**زوجة الرّبّان**)[4] قد أحبّ كذلك رواية (**زوجة المسافر عبر الزّمن**)[5]؛ لكن ما يفاجئنا - وهو الأمر الذي يعيد لنا الأمل في البشريّة - هو حين ينشأ شغفٌ بالقراءة لوحده، هكذا، من تلقاء نفسه. وهذا ما حدث مع صديقي توني.

توني، الذي لا يكبرني إلا ببضع سنواتٍ، جندي مشاة متقاعد، كان طيّارًا حربيًّا في فيتنام، ثم عمل لبضع سنواتٍ ربّانًا لطائرات كبريات الشركات، ينقل الرؤساء التنفيذيّين عبر أطراف الكوكب المترامية. اعتدت رؤيته في البلدة من حينٍ لآخر، لكننا لم نكن نتحدّث مطوّلًا أكثر من مرّةٍ واحدةٍ سنويًّا، حين يحضر كلانا الحفلة السّنوية لنادي «تاريتاون غاردن كلوب» الذي تديره زوجتي رفقة زوجته. وعكس باقي الأزواج، كان لتوني دومًا شيءٌ أكثر إثارة للاهتمام بكثير لقوله عن واشنطن، عجز الصندوق الفيديرالي، وعن جريدة «نيويورك تايمز». كان شخصًا محافظًا، لكن ليس بشكلٍ متطرّفٍ،

---

(1) **آبي الصّدوق** (Honest Abe) لقب لأبراهام لينكون. وجدير بالذكر أن العنوان المذكور في النص هو لكتاب خيّاليّ، مثل عناوين الكتب الأخرى المذكورة قبله وبعده.

(2) ترجمة حرفية لعبارة ساخرة تهدف للتقليل من قيمة شكوى الشخص أو المصيبة التي نزلت به.

(3) هذه العناوين (بالإيطالية، الألمانية، الفرنسية، والإسبانية، تباعًا) هي عناوين ساخرة اختلقها الكاتب.

(4) **The Pilot's Wife (1998)** – Anita Shreve.

(5) **The Time Traveler's Wife (2003)** – Audrey Niffenegger.

وكان كذلك هادئًا، ذا سمتٍ حسنٍ؛ كنت من حينٍ لآخر أتلقّى منه على بريدي الإلكترونيّ رسالةً حسنة الانتباه، بعد قراءته شيئًا وقحًا أو «غير موقّرٍ» نشرته على جريدة «وول ستريت جورنال». لطالما استمتعت بالتحدّث إليه، رغم أن مواضيع محادثاتنا لم تكن تضمّ الكتب. وذلك بالكاد يكون مفاجئًا، لأنه يندُر أن أتحدّث في أمر الكتب مع أشخاصٍ لا أعرفهم حقّ المعرفة. لكن ذات مساءٍ شتويٍّ، قرابة العاشرة والرّبع ليلًا، وبينما بدأ الحفل السّنوي يَهمُد، ألقى توني نظرةً خاطفةً على ساعته وقال:

- «حسنٌ، أظن أنني سأعود إلى البيت وأتدفأ في صحبة سيمنون.»

لم أكن متأكّدًا من أنني سمعت ما قاله بوضوح.

- «هل قلتَ ‹سيمنون›؟ جورج سيمنون؟» سألته.

- «أجل». أجابني كما لو أنه أمرٌ عاديٌّ تمامًا، ثم أردف: «أنا...»

- «أتقصد سيمنون الذي كتب روايات «ميكري» ؟» قاطعته، ثم أضفت لأقطع الشّك باليقين: «أتقصد سيمنون الفرنسيّ؟»

- «بل هو في الحقيقة بلجيكيّ الأصل: إن أصله من لييج.» صحّح لي توني.

ثم مضينا، كلّ منّا لحال سبيله.

عرفت بعدها أنه خلال دراسة توني بجامعة مانهاتن في حيّ البرونكس، بعد الاشتراك في درسٍ عن الخطابة يتطلّب تقديم تقريرٍ شفهيّ حول فيلم أو كتاب، قد شُغِف بروايات المحقق ميغري التي ظهرت العديد من أعدادها في إصدارات كتبٍ ورقيّةٍ بالإنجليزيّة خلال الخمسينيّات والسّتّينيّات. هناك اثنتان وسبعون منها، خمسون منها ربما تمت ترجمتها إلى الإنجليزيّة خلال وقتٍ ما. وقد كتب سيمنون (الرّوائي الذي ينتمي إلى صنف الكتّاب العظماء الذين ليسوا في الواقع عظماء بالمعنى ذاته الذي نقول به إن تولستوي كاتبٌ عظيمٌ) أكثر من 200 كتابٍ، من بينها روايات تشويقٍ سيكولوجيّ،

بعضها تجري أطواره في الولايات المتحدة؛ بعضها جيّدةٌ للغاية، وأخرى ليست كذلك. تم تحويل العشرات منها إلى أفلام، بعضها أيضًا جيدٌ للغاية.

فيما يخصّ توني، لم يكن مهتمًا بالكتب التي لا تتعلّق بالمحقّق ميغري، لأنه وجدها مثيرةً للاكتئاب. أما أنا فقد قرأت بالفعل أكثر من 100 روايةٍ بقلم سيمنون، معظمها يضم المحقّق ميغري الذي لا يملّ ولا يكلّ؛ يقع جميعها في 168 صفحةً تقريبًا: مقتضبة، مقتصِدة، وآسرة. وقد أعادت أعمال سيمنون تأكيد قناعةٍ أعتنقها منذ عقودٍ طويلةٍ: لا يوجد سببٌ على هذا الكوكب قد يجعل رواية غموض أو تشويق تتجاوز 175 صفحةً. إن روايات أغاثا كريستي قصيرة، كما أن أفضل أعمال روث رندل قصيرة. لذا حين يتجاوز كاتب روايات تشويق حاجز مئتَي (200) صفحة، فإن الكتاب يصبح محض «ثقّالة» مملوءة بحشوٍ لا طائل منه.

خلال ما يقرب من أربعين سنة، كنت أقرأ روايات سيمنون في لغتها الأصليّة، ليس فقط لأن الكتب آسرةٌ ولكن لأنها طريقةٌ جيّدةٌ للحفاظ على لغتي الفرنسّية، فكتابات سيمنون مباشرةٌ وتسهل قراءتها. لكنني أحب أعماله كذلك لأنها لا تفتأ تستحضر باريس بطريقةٍ تكاد تكون ملموسةً، من خلال الطريقة التي يصف بها بعض الأحياء والحانات والمقاهي والشّوارع والرّوائح؛ وهو يكرّر على الدّوام كلماتٍ فرنسيّة تستعمل في المحادثات الاعتياديّة، وحتى حين يستعمل كلمة يتطلّب فهمها الرّجوع إلى القاموس، فإنها لا تمنع ناطقًا أصليًا بالإنجليزيّة من فهم الفكرة العامّة للجملة. وذلك على النّقيض من فلوبير تمامًا، الذي يلقي بالحاجز بعد الحاجز - باستمرارٍ - أمام غير المتحدّثين بالفرنسية بسبب هوسه باستعمال «الكلمة المناسبة». بالنسبة لي، فإن ميغري ليس ممتعًا فحسب، بل هو ممارسة مستمرّة للّغة الفرنسيّة.

هاك ما يحيّرني بشأن انكباب توني على القراءة لسيمنون: إنه لا يتحدّث الفرنسيّة؛ لا يبدو عليه أدنى اهتمام بالفرنسيّين؛ وباستثناء روايات فيليس دوروثي جيمس، لم يكن مهتمًا البتّة بصنف الغموض. لكنه أحبّ روايات ميغري بشدّة لدرجة أنه سافر إلى باريس لزيارة محطة «كي دي أوغفيفغ»، حيث كان يقع مقرّ دائرة الشرطة التي يعمل بها المحقق ميغري، وأخبرني بأنه قد يمرّ على بولفار ريتشارد لونوار، حيث كان يقيم ميغري مع زوجته الصّبورة المتفهّمة للغاية.

رويدك، انتظر لحظة! لقد عشتُ شخصيًّا بباريس لمدة سنةٍ كاملةٍ، وزرت مدينة الأنوار أكثر من خمسٍ وعشرين مرّة، لكنّني قبل تلك المحادثة، لم أدركّ قطّ أن شارع ريتشارد لونوار - الذي لا يبعد كثيرًا عن وسط المدينة - مكانٌ حقيقيٌّ. لذا في المرة التالية التي زرت باريس، ذهبت لزيارة ذلك الشارع الذي عاش فيه ميغري، الشخصيّة الخياليّة، لوقتٍ طويلٍ؛ وبالنظّر إلى شخصيّته المريعة، فالمكان يبدو ملائمًا تقريبًا.

وعلى مدى محادثات عديدةٍ، أخبرني توني بأنه لم يكن يرى ميغري على أنه مجرد شخصيّة خياليّة داخل روايةٍ غموضٍ، وأنه أحبّ تلك الكتب لأنه كان يرى انعكاس ذاتِه في شخصيّة ميغري.

يقول عنه توني: «إنه ليس شيرلوك هولمز؛ ليس مهتمًا بأثر قدم المجرم في الحديقة، ولا بالشّعرة العالقة في إطار النّافذة. إن كتبه أشبه بدراساتٍ سيكولوجيّةٍ، إذ إنه حين يأتي، يلقي نظرةً على أسرة الضّحيّة، ويسأل: ‹كم مضى على زواجكما؟ هل كنت دومًا مخلصًا لزوجتك؟› ويرغب في اكتشاف ما يدفع النّاس إلى نهج هذا السّلوك أو ذاك».

ويضيف توني، الذي يرى **(محامي بايلي)**[1] على أنه توأمه الرّوحيّ بقوله: «لقد كان لذلك نفعٌ على حياتي الواقعيّة، إذ أفادني بأن صرت أنظر إلى النّاس بالطّريقة التي يفعل بها ذلك. أنا أحبّ تحليل النّاس بالطريقة ذاتها كما يفعل ميغري، وذلك يمكّنني فهم أفكارهم وبالتالي فهمهم.»

ويقول رفيقي المتحمّس بشأن سيمنون - الذي صار راغبًا في تعلّم الفرنسيّة الآن بعد أن تقاعد من الطّيران - أنه التقى شخصًا آخر فقط غيري - لا أكثر - ممن يشاركه شغفه بميغري. أما أنا فلم ألتقِ بتوأم روحٍ آخر غيره. وقد أنشأنا - أنا وتوني - نادي «معجبي جورج سيمنون»، قسم المنطقة السّفلية لوادي هادسن؛ وهو نادٍ اجتماعيٌّ لا يُسمح بولوجه إلا للمنتسبين إليه، وأشكّ أن أحدًا آخر سينضمّ إلينا في المستقبل. والآن، كلّما لمح توني كتابًا بالفرنسيّة لميغري، مثل **(ميغري والرّجل الميّت)**، **(ميغري في بيكات)**، أو **(ميغري يسافر)**[2]؛ يرسله إليّ، وأنا أبقي عينيّ مفتوحتَين على التّرجمات الجديدة بالإنجليزية، أو الإصدارات الجديدة لأعدادٍ سابقةٍ مثل: **(ميغري في غي-مولان)**، **(ميغري والجثة مقطوعة الرأس)**، **(ميغري والرّاقصة المخنوقة)**[3]. وقد كانت لقاءاتنا على الغذاء المبنيّة على سيمنون ممتعةً للغاية، لا يكاد يضاهيها شيءٌ في مسيرتي الممتدّة لنصف قرنٍ كعاشقٍ للكتب.

أفترض أنني مدينٌ بذلك لزوجتي، لأن ذلك الحفل السّنويّ كان محطة بداية صداقةٍ جميلةٍ.

(1) **Rumpole of the Bailey (1978-2009)** – John Mortimer.

(2) **Maigret et son mort (1948), Maigret au " Picratt's " (1951), Maigret voyage (1957)** – Georges Simenon.

(3) **Maigret at the Gai-Moulin(1931), Maigret and the Headless Corpse (1955), Inspector Maigret and the Strangled Stripper (1950)** – Georges Simenon.

الفصل الثامن

واسطة إنقاذ الحياة

أصدر بيتر أوتول سنة 1971 فيلمًا عنوانه: «حرب مورفي»[1]، لعب فيه دور قبطان سفينة تجارية ينجو من قصفٍ بالطّوربيدات من طرف النازيين على سواحل فينزويلا، ويتم إنقاذه من طرف ممرّضةٍ ومهندس نفطيّات فرنسيّ ودود لعب دوره الممثّل الفرنسيّ - الذي لا يضاهى - فيليب نورايت، الذي كان بصدد إيجاد ذاته. وقد كان الفيلم من إخراج بيتر ياتس الذي تولّى إخراج العديد من الأفلام الرّفيعة - «بوليت»، «مصفّف الشعر»، و«الهروب»[2] - على مدى مسيرته الطويلة، لكن فيلم «حرب مورفي» ليس من بينها.

قبل بضع سنواتٍ، خلال سفري على متن القطار المنطلق من محطة بادينغتون التي تم تخليدها في رواية أغاثا كريستي: **(الرابعة وخمسون دقيقة من بادينغتون)**[3] نحو بيت حمَوَيَّ بقرية ستراود، حيث يمكن رؤية مؤلّف رواية **(شراب سيدر مع الرّوزيه)**[4]، لوري لي، يتجوّل بالأرجاء؛ شرعت في تصفح جريدة فوقع نظري على حوار مع فيليب نواريت. كان الحوار بخصوص آخر الأفلام التي شارك فيها، لا أذكر تفاصيل ما جاء فيه، لكن ما أذكر أن نواريت قال للصّحفي الذي يحاوره - قُبَيل نهاية الحوار - إنه سيكون ممتنًّا له للغاية إذا بلّغ سلامه وأحلى متمنّياته لأوتول حين يصادفه خلال أحد

---

(1) **Murphy's War (1971)**, directed by: Peter O'Toole.

(2) **Bullitt (1968), The Dresser (1983)**, **Breaking Away (1979),** directed by: Peter Yates.

(3) **4:50 from Paddington (1954)** – Agatha Christie.

(4) **Cider with Rosie (1959)** – Laurie Lee.

أسفاره. سأله المراسل عمّا إذا كانا ما زالا على تواصل، فردّ نواريت بأنه رغم شدّة استمتاعه بالعمل مع أوتول وكونه من أشدّ المعجبين بأعماله، إلا أنهما لم يلتقيا مجدّدًا طوال السّنين الماضية منذ أن شاركا بذلك الفيلم؛ لكنه في كلّ مرّةٍ يحاوره فيها صحفيٌّ إنجليزيّ يؤكّد على السؤال عن أحوال «رفيقه السابق في السّلاح»، كما يفعل أوتول الأمر ذاته في كلّ مرّة يحاوره صحفيّ فرنسيّ؛ إن بين هذَين الرّجلَين علاقةً متينةً لم ينجح الزّمن ولا البعد في تفتيتها.

وأنا أحبّ هذه القصّة أكثر من أية قصّةٍ أخرى سمعتها.

ذات أمسية سبتٍ في بداية ثمانينيّات القرن الماضي، كنت على متن قطار أنفاقٍ متجهٍ شمال نيويورك رفقة صديقي كلايف فيلبوت، أمين المكتبة الرئيسيّ بمتحف الفنّ الحديث. كنت آنذاك أعمل بإحدى صالات عرض أعمالٍ فنّيةٍ بحيّ سوهو بمانهاتن، أقوم على أمر المحلّ بينما كانت المديرة خارج البلدة تحاول باستماتةٍ جلب مشاريع جديدةٍ دون أن تفلح في ذلك يومًا. كان أول صباحٍ لي في العمل اليومَ الموالي لوفاة جون لينون، وقد كان يومًا مريعًا لبيع الأعمال الفنّية. كانت تدير المحلّ امرأة ظهر والدها بفيلم «زولو»[1]، أول أعمال مايكل كين. كانت سالي ذات مظهرٍ رائعٍ فتّان، تهتم بأدق تفاصيل هندامها، متلاعبةً للغاية، وذات لسانٍ لاذعٍ. وأذكر أنه ذات يوم ظهر رجلان شديدان لم يبدُ على أيّ منهما الاهتمام بالفن عند باب المحلّ، وسألا سالي لماذا لا تدفع مقابل خدمة التّخلص من قمامتها، فردّت: «ليست لديّ أية قمامة».

فقالا: «الجميع يلقون القمامة.»

فقالت: «أما أنا فلا أفعل.»

فقالا: «كفاكِ، يا آنسة!»

(1) **Zulu (1964)**, directed by: Cy Endfield.

فردّت: «لا كَفاني! فمهما يكن ذلك الذي سأقرّر فعله أو عدم فعله، فلا ‹كَفَاني›!»

فانصرفا لحال سبيلهما.

لم ألتق بأيّ شخصٍ يشبهها طوال حياتي؛ قد يكون بعض النّاس بالكفاءة التي تبدو عليهم، أما هي فقد كانت أفضل ممّا تبدو عليه.

لقد أحببت العمل هناك، رغم أننا لم نفلح في بيع أيّ شيءٍ بتاتًا. لقد كانت تلك فترةً مثيرةً للعمل بحيّ سوهو، إذ إن صالات العرض الفنيّة والمقاهي والمتاجر غير المعتادة كانت بصدد فتح أبوابها آنئذٍ، لتحلّ محلّ معامل الخياطة وأوراش صنع المعادن التي كانت تشغل المكان فيما مضى؛ وقد كان هناك أثر أذى «الثقافة المضادة» بالأجواء. فقد كان ذلك الحيّ طافحًا بالشّباب، العديد منهم غرباء أطوارٍ أصلاء يمكن للمرء أن يمنحهم أسمى الأوسمة: ألا يحتقرهم تلقائيًّا ما إن يفتحوا أفواههم. لكن في غضون ثلاث سنواتٍ، ستطلق دولتنا - التي لا تعدو كونَها شركةً عملاقةً - إحدى أكبر حملاتها الشّهيرة والفتّاكة، وبين عشيّة وضحاها، تحوّل المكان إلى جحيم بوهيميّ مغالِطٍ.

إنٍ لم تخنني الذاكرة، فقد كنا يومها - أنا وكلايف - نستقل قطار الأنفاق إلى شقّتي بموراي هيل من أجل مشاهدة مباراة تنس بين جيمي كونورز وجون ماك إنور في بطولة الأساتذة بماديسون سكوير غاردن. (لقد كنّا في قمّة الانتشاء تلك الأمسية، لذا يفاجئني أن أتذكر أي شيء). كان كلايف حينها في مزاجٍ رائقٍ، بعد أن رجع لتوّه من جولة استكشافيّة لشراء الكتب بمكتبة «ستراندً» الأسطورية، الفخورة بالـ 575 ألف كيلومتر من كتبها المستعملة. لطالما كانت أذواق كلايف أغرب من أذواقي بكثيرٍ: لم يقرأ قطّ **(دون كيخوتي)**، **(الحرب والسّلم)**، أو **(التربية العاطفية)**[1]،

(1) **Sentimental Education (1869)** – Gustave Flaubert.

لكنّه قرأ كتبًا عديدةً لم أقرأها قطّ، معظمها يتعلّق بفنّانين - غريبي أطوار في الغالب - مثل راي جونسون، الذي استأجر ربّان طائرةٍ ذات مرّةٍ ليحلّق به فوق مهرجان تقدّميٍّ أقيم على جزيرة وارد بكندا ليُلقي عليه عدّة كيلوغرامات من النّقانق. ثم حاول بعد ذلك أن يُحمّل معرضَه نفقات فعله المرتجَل ذاك، محاولًا إلباسه ثوب «العرض الفنّي»، لكنّ داعميه رفضوا طلبه.

كانت أذواق كلايف تؤول إلى التوجّهات السّياسية - المشاريع الديداكتيكيّة ذات النَّفس الطويل من قبيل رواية **(المحسِنون ذوو السراويل الرّثة)**[1]، وهو كتابٌ كنت أملكه ذات مرّةٍ لكنني قد أكون فقدته لاحقًا في حريقٍ أشعلتُه بنفسي لتجنّب قراءته. كما أنه كان يستمتع بكتبٍ من قبيل **(نفَسٌ من الهواء الطّلق)**[2]، وهو كتابٌ يحكي سيرة فلّاحٍ معدَم، بقلم الشّيوعيّ «التائب» والمتقاعد المحافظ على لقب الفلّاح: إف. سي. بال F. C. Ball. (اسم قلم للكاتب روبرت تريسل). أما أنا فلم أكن أمضي نحو هذا النوع من المحتوى، رغم أنني - حسب المعنى الضّيّق للكلمة - خرّيج مجتمعٍ فلاحيٍّ حضريٍّ.

خلال ذلك المساء، كان كلايف يحمل حقيبة مملوءة عن آخرها بمشترياته الحديثة من مكتبة «ستراند». وأذكر رحلتنا على متن قطار الأنفاق، على وجه الخصوص، لأن الحقيبة الورقيّة التي كانت تحتوي على عبوات جعّة «بادوايزر» تمزّقت وشرعت العبوات المعدنيّة في التّدحرج داخل العربة. كلما حاولنا استرجاعها، كان القطار يلتف، فنطير نحو الاتجاه المعاكس، وتمضي العبوات مبتعدةً عنا أكثر قليلًا؛ وقد وجد رفاق سفرنا تلك المحاولات الرّعناء لإنقاذ الوضع مَرحةً ومثيرة للسخرية بشكل صاخبٍ. وفي النهاية، ألقينا المنديل: أخبرنا الجميع بأن يتفضّلوا ويستمتعوا بعبواتٍ «ملك البيرّة»، ثم عدنا إلى محادثتنا ومناقشاتنا بخصوص الكتب.

---

(1) **The Ragged-Trousered Philanthropists (1914)** – Robert Noonan.

(2) **A Breath of Fresh Air (1979)** – F.C. Ball.

من بين الكتب التي حصل عليها يومها كتاب **(رسائل من السّجن)**[1] بقلم أنتونيو غرامشي. لم أكن على دراية كبيرةٍ بهويّة الكاتب أو أعماله آنذاك، لكن بعد الاطلاع على الغلاف الخلفيّ، عرفت أنه خلال العشرينيّات، وفي أسوأ وقتٍ يمكن تخيّله، أسّس غرامشي الحزب الشّيوعيّ الإيطاليّ، الأمر الذي أدّى إلى سجنه من طرف موسوليني. لم يكن للشّيوعيّين الإيطاليّين يدٌ في الأمر، لكن كلايف قدّم الكتاب بحماسٍ منقطع النّظير للعديد من أفراد العائلة والأصدقاء، الذين كان العديد منهم ذوي توجّهاتٍ فلسفيّةٍ قويةٍ، لدرجة أنني سألته عن إمكانية استعارته. أخذته للبيت ووضعته مع باقي العناوين المستفزّة المشابهة. لم يسعني قراءته ذلك المساء، ولا المساء الذي تلاه. في الحقيقة، إلى زمن كتابة هذه الأسطر، بعد إحدى وثلاثين سنة، مازال قابعًا بالمكان ذاته حيث وضعته ذلك المساء، مباشرة بجوار كتاب جوزي أورتيغا وغاسيت: **(ثورة الجموع)**[2]، رواية باتريك وايت: **(فوس)**[3]، رواية ج. ب. دونليفي: **(الغِبطة الوحشيّة لبالتزار ب.)**[4]، كتاب إرنست رينان: **(حياة يسوع)**[5]، **(الحاج مراد وقصص أخرى)**[6] بقلم تولستوي، **(عائلة باسكال دوارتي)**[7]، بالإضافة إلى عشرات الكتب الأخرى التي لم أستطع مفارقتها، رغم أنني أشك منذ وقت طويلٍ في إمكانية أن أقرأها فعلًا يومًا خلال سواءً حياتي هذه أو أيّة حياةٍ أخرى بعدها.

---

(1) **Prison Letters (1988)** – Antonio Gramsci.

(2) **The Revolt of the Masses (1929)** – José Ortega y Gasset

(3) **Voss (1957)** – Patrick White.

(4) **The Beastly Beatitudes of Balthazar B. (1929)** – J. P. Donleavy.

(5) **The Life of Jesus (1863)** – Ernest Renan.

(6) **Hadji Murat and Other Tales (1912)** – Leo Tolstoy.

(7) **The Family of Pascual Duarte (1942)** – Novel by Camilo José Cela.

مازال غموضٌ عظيمٌ يكتنِف سببَ عدم قراءتي لهذه الكتب لحدّ الآن، وباستثناء الكتابَين العصِبيّين على القراءة: **(يقظة غينيغان)** و**(عائلة باسكال دوارتي)**، المكتوبين بلغةٍ لم أتعلّمها يومًا، مع أنهما ليسا بذلك الطّول الذي قد يردعني عن قراءتهما، وباستثناء رواية **(فوس)** كذلك، لا يبدو أن أحد تلك الكتب يمكن أن يتسبّب في توقف الجهاز العصبيّ البشريّ عن العمل. لكنني كلما حملت كتاب غرامشي **(رسائل من السّجن)** وقرأت على الغلاف الخلفي أن «الكتاب يحتوي على فهرسٍ مفيدٍ، كما على مقدمة تحليليّة وغنيّة بالمعلومات عن حياة الكاتب، وهو الأمر الذي يضع إطارًا تاريخيًّا لحياة وفكر هذا المفكّر الإيطاليّ الحاسم»، أقول في سرّي: كلّا، ليس بعد. ربما سأقرأ **(أفضل أعمال رولد دال)**[1] للمرّة التاسعة عوض ذلك.

خلال السّنين التي انقضت منذ ان أعارني كلايف هذا الكتاب، وجدت الوقت لقراءة مئات الكتب: روايات الغموض التي تغيب عن ذِهني حبكاتها، السِّير الذاتية لويات إيرب، سوني بونو، وجينا لولوبريغادا، الكتب التي تستحق الاهتمام ولو أنها غير ضرورية من قبيل: **(بالوعات باريس وعمّالها)**[2] **(عود الأسنان)**[3]، **(قلم الرّصاص)**[4]، بالإضافة إلى كتاب **(أكذوبة إيرن مالي)**[5] الذي يقدّم سردًا ممتعًا لخدعةٍ أدبيةٍ من عصر الحرب العالميّة الثانية، أدت إلى انتكاس الشّعر الأسترالي لجيلٍ كاملٍ، بل ربما لفترةٍ أطول. ومع ذلك، لم أجد الوقت طوال كل هذه السّنين لقراءة كتاب غرامشي الآنف ذكره.

---

(1) **The Best of Roald Dahl (1978)** – Roald Dahl.
(2) **Paris Sewers and Sewermen (1991)** – Donald Reid
(3) **The Toothpick (2007)** – Henry Petroski
(4) **The Pencil (2007)** – Allan Ahlberg.
(5) **The Ern Malley Affair (1993)** – Michael Heyward.

أظن أنني أعلم السبب: كلما نظرت إلى الكتاب، أعود بالذاكرة إلى ذلك المساء بقطار الأنفاق، وتعود السّنين إلى الوراء لأجد نفسي وكلايف شابّين مجدّدًا. وبعد بضع سنين على مغامرة قطار الأنفاق تلك، أقلعتُ عن الشّرب نهائيا. ورغم أنني ما عدت أشتاق إلى الجلوس كلّ مساءٍ ببطنٍ منتفخة، إلا أنه لا يساورني أدنى ندمٍ لكوني مخمورًا تمامًا تلك الأمسية. والآن، حين أصادف قنّينة جعّة «بادوايزر»، فلا أستحضر بالضّرورة كلايف أو تلك الأمسية، ولكنني كلما نظرت كتاب **(رسائل من السّجن)** المنتصب على الرّف كما لو كان جنديّ حراسة حزينٍ في حِدادٍ، ينتظر إشارة انتهاء مناوبته التي يعلم أنها لن تأتي يومًا، أستحضر مشهد عبوات البيرة الملوّنة بالأحمر والأبيض والأزرق وهي تتبعثر بعيدًا عنّا نحو النهاية المقابلة من القطار رقم 6، وأسمع صدى ضحكاتنا المجلجِلة؛ لذا لن يفارقني هذا الكتاب أبدًا، رغم أنني لن أقرأه يومًا. وبما أن متعة قراءة كتاب غرامشي تكمن في المستقبل البعيد، فسنظل أنا وكلايف معًا هناك في تلك الذّكرى للأبد.

ولا أعتقد أنه يمكنك ان تحظى بتجربةٍ مشابهةٍ مع قارئ كيندل.

قبل عشرين سنة، اشتريت منزلًا صغيرًا جميلًا يقع أعلى تلٍّ مطلٍّ على بلدة تاريتاون، نيوريورك، مع إطلالة بديعة على نهر هادسون. كان العقار متاخِمًا لحقلٍ فارغ مملوكٍ لعائلة روكفلر الشّهيرة، على بعد مئات الأمتار فقط من مجمّع العائلة التاريخيّ - كايكْت Kykuit – الذي تحول الآن إلى متحف؛ ولأنني نشأت وسط الفاشلين المفلسين، فإن شراء هذا البيت يظل طافحًا بالرّأسمالية بالنسبة إليّ.

كان المنزل عبارةً عن بناءٍ من الطراز الكولونياليّ مع سياج خشبيّ أبيض، شرفة بالطابق الثاني، وحديقة خلفيّة ذات مساحةٍ مناسبةٍ. لقد كان في واقع الأمر مجرّد كوخ يحمل سفينةً على كتفيه، كوخًا مبجّلًا عدّله المالك السّابق - بطريقة غير كفؤةٍ ولا مُرضيةٍ – ليبدو أضخم حجمًا وأكثر متانةً؛ يضمّ

مطبخًا ذا تصميم غبيٍّ، مع قطعةٍ منعزلةٍ أشبه بالجزيرة تقع وسطه تمامًا، كما أن به فرنًا عتيقًا عفا عليه الزّمن، ذا حجم ضخم لدرجة أن يستحيل تغييره دون تحطيم الجدران الداخليّة للمطبخ إلى أشلاء؛ أما غرفة المعيشة فهي، عرضة للتيّارات الهوائية القويّة، مثلّجةٌ بصقيع ألاسكا على مدار السّنة، وتقع خلف المرأب مباشرة. وقد عشنا في هذا البيت طوال تسعة عشر عامًا، ولم نقم بأدنى محاولةٍ جادّة بشأن تلك التّيارات الهوائية، الإضاءة الرّعناء، أو ذلك الموقِد «التّاريخيّ» من مسرحيّة أوبرا كوميديّة، لأن زوجتي تفضّل الاهتمام بتربية أبنائنا، تميل لمساعدة كبار السّنّ، وتقرأ مؤلفات ترولوب؛ وأنا أهتم بتربية أبنائنا، أتجاهل كبار السّنّ، وأقرأ مؤلفات ثيربانتيس. وقد كنت متأكّدًا، حين اشتريت هذا البيت، أنني سأعيش فيه دومًا.

لا يمكنك أن تملّ من رؤية منظر نهر هادسون، لكن مهما كانت رمزيّة ذلك البيت قويّةً وضّاءةً في حياتي، فلا بد أن تخفُت وتفقد بريقها إذا جاورك فجأةً جيرانٌ جُددٌ ذو مجموعة مختلفة تمامًا من الرّموز. وذلك ما حدث ذات يوم، بعد مرور سبع سنواتٍ على انتقالنا إلى البيت، حين دخل ابني جريًا وأخبرنا بأن رجالًا في ملابس غريبة، مدجّجين بأجهزة مسح، يتجوّلون بالحقول المجاورة للبيت. وقد بتنا الآن نعلم بأن الملكية قد تم بيعها – في تكتّم – إلى مجموعةٍ من المطوّرين العقاريّين الذين يعتزمون بناء مجموعتَين من المنازل الضّخمة والفخمة خلف بيتنا مباشرةً: ذلك يعني أن أيامنا في هذا المنزل باتت معدودةً. وقد كان انزعاجنا من تلك المنازل الشّنيعة أقلّ من انزعاجنا من الأشخاص الشّنيعين الذين سيعيشون فيها؛ فمهما كان المنزل ضخمًا ويعوزه الذّوق، فلا يسعه إلا أن يكون «بشعًا»، أما فيما يخصّ البشر، فاحتمالات سوئهم لا متناهية.

وسرعان ما انتصبت المجموعة الأولى من بناياتٍ - «قصورٍ رغم أنفِها» - جاهزة الصّنع، عند سفح التّلّ، على بعد 200 مترٍ من منزلنا، ببلدة سليبي هولو المجاورة. وكما سبقت الإشارة، فإن هذه الأخيرة يملؤها مرتشون من الطبقة المتوسّطة متعطّشون للمال، سيسمحون للمطوّرين ببناء نسخةٍ متكاملة وبالحجم الطبيعي من «سيرك ماكسيموس» فوق قبور أمهاتهم إذاً ظنّوا أن ذلك سيوسّع دائرة المداخيل الضّريبيّة. ولكن وبأعجوبةٍ، فقد ظل النصف الثاني من الحقل - الجزء الذي يقع ببلدة تاريتاون والمُتاخم لبيتنا - فارغًا، أولًا بسبب كساد سنة 2001، ثم بعدها بسبب الكساد الأعنف الذي بدأ سنة 2008 ولم ينته بعدها أبدًا. من جهة أخرى، قام مجلس البلدة بإجراء مجموعة من الدراسات المتعلّقة بالتأثير على البيئة، معطّلين بذلك أعمال الشّرّ تلك، ثم ذات يومٍ، ابتهجنا بسماع خبر إفلاس المطوّر. وطوال هذه الفترة الفاصلة، كان هناك أملٌ أنه في حالة ما إذا تمكّنت البلدة من تأخير أعمال البناء لما يكفي من الوقت، فإن الأمريكيّين قد يعودون إلى رشدهم ويتوقّفون عن السّماح لعمّال بناءٍ أخذوا تفاصيل تصاميمهم عن جنكيز خان، بقطع مئات الأشجار وإقامة بيوتٍ لعائلات منفردةٍ أشبه بصوامع تخزين حبوبٍ محلّها. ولكن مع أن بعض أجزاء البلاد انقلبت في نهاية المطاف على هذه الأبنية القميئة، فإن تاريتاون ليست من صنف البلدات التي تعود إلى رشدها اختياريًّا: إنها تظل متخلّفةً دومًا عن الموجة بكثيرٍ، وليست هناك أية سفاهةٍ قد لا تتقبّلها بصدرٍ رحب.

وفي النّهاية، وقعت الأملاك برمّتها بين براثن شركة «تول برادرز» التي لا ترحم، وهَوَتِ الأرض أسفل تلك المنازل، وانتهى الحلم. وبينما بدأ الحقل - الذي يقع خلف منزلي الأنيق المحبّب من الطّراز الكولونياليّ - يستحيل إلى أنقاض تحت الكرة الحديديّة المدمّرة، علمت أن الوقت قد حان أخيرًا لأشرع في تحضير المنزل للبيع. لقد رحل طِفلاي، وصار الوقت مناسبًا للبحث عن

مكان أصغر على أية حالٍ والتخلّص من بعض الأغراض التي ما عدنا في حاجةٍ إليها. بدأت أولًا بأقراص الفونوغراف، وبعدها الأقراص المدمجة... وأخيرًا، حان دور الكتب.

كان أمرًا مؤلمًا إلى حدٍّ يفوق الوصف. لطالما كانت الكتب جزءًا لا يتجزّأ من حياتي منذ الأزل. لقد كانوا جنودًا صالحين، ورفاق نعمةٍ. إن كل كتابٍ منها قد نجا من حملات تطهير شتّى على مدار السّنين الماضية؛ كلّ واحدٍ منها استُدعي مرارًا ليَمثُل أمامي ويدافع عن نفسه. ليس هناك أيّ كتابٍ ضمن مجموعتي إلا وقد خاض معركةً شرسةً، واجه فيها كلّ الكتب الجديدة القادمة، وكسب حقّه في البقاء: إذا كان كتابٌ ضمن مجموعتي، فإنه هناك لسببٍ وجيهٍ.

لكن، هل الأمر كذلك فعلا؟

هل يجب عليّ أن أظل متشبّثًا بنسختي غير المقروءة من كتاب سامون كريستيان ميسيلاني: **(مجموعة ممتعة وغير متوقّعة من الحقائق، الأمور المثيرة للاهتمام، والتفاهات)**[1]؟ ألا توجد طريقة لأقنع نفسي بالتّخلّي عن **(مجموعة غنيّة من أدب البيسبول تؤرّخ للتاريخ الدّرامي لفريق فيلاديلفيا فيليز)**[2] أو **(خَصِيّ: الأشهر الثمانية التي قضيتها في السجن)**[3]؟ ما احتمال أن تحتاج زوجتي يومًا ما للاستعانة بكتاب **(فهم عمليتَي الحمل والوضع)**[4] مجدّدًا؟ ما الذي قد يدفع كاثوليكيًّا مرتدًّا مثلي إلى قراءة كتاب

---

(1) **Summon's Christian Miscellany: An Amusingly Informative Collection of Unexpected Facts, Curiosities, and Trivia (2006)** – Parminder Summon.

(2) **The Phillies Reader: A Rich Collection Of Baseball Literature That Chronicles The Dramatic History Of The Philadelphia Phillies (2005)** – Richard Orodenker.

(3) **Castrated: My Eight Months in Prison (1973)** – Ralph Ginzburg.

(4) **Understanding Pregnancy and Childbirth (1973)** – Sheldon Cherry.

(الحياة الخفيّة للثوّار الحسيديّين)[1]؟ هل هناك فرصة لأعيد قراءة كتاب **(شبق: إيرتيكيّات ثنائية الجنس)**[2] بقلم مارلين جاي لويس؟ ما سبب استمرار وجود كتاب **(عرضٌ جانبيٌّ)**[3] هنا؟ وأخيرًا، هل يجب عليّ فعلًا التشبّث بهذه الأغراض السّافلة المثيرة للحواس من قبيل: **(فا فا فوم: نساء فاتنات، صور مثيرة، فتيات سافرات، وعارضات أزياء متأنّقات)**؟

أجل، في الواقع، يجب عليّ ذلك.

فالكتاب الأول هديّة من شقيقتي الكبرى، والثاني هديّة من شقيقتي الصغرى. ولولا ذلك الكتاب الموسوعيّ عن الحمل، لكان من السهل أن تضع زوجتي وليدَين مغفّلَين. أما الكتاب عن المتمرّدين الحسيديّين[4] فهو بقلم امرأة لعبت دور البطولة في فيلم منخفض الميزانيّة كنتُ منتِجَه سنة 1994؛ لقد عاشت تلك التجربة ونجت منها ثم أصبحت صحفيّة، وكتابها هذا بالمناسبة أفضل بكثيرٍ من فيلمي. أما أدريان دي بليسيس، أحد مؤلّفي **(العرضُ الجانبيّ)**، وهو كتاب عن بورصة فانكوفر الشّهيرة، فقد ساعدني في تحضير مقالٍ نشرتُه على مجلة فوربس سنة 1989، مقالٌ قاد في نهاية المطاف إلى انهيار البورصة. وقد اتضح أنها البورصة الوحيدة التي ساعدتُ في تدميرها. وفيما يخص كتاب **(الخصِيّ)**، فقد كُتب بقلم رالف جينزبورغ، وهو سجينٌ شهيرٌ متمرّسٌ منحني أولى وظائفي في الكتابة. وخلال عملي عنده، التقيت بمارلين جاي لويس، التي تنتقل مجموعتها القصصية في صنف الأدب الإيروتيكي بسرعةٍ فائقة؛ لقد قرأت كتابها مرّةً وقد أقرأه مجدّدًا.

(1) **Unchosen: The Hidden Lives of Hasidic Rebels (2005)** – Hella Winston.

(2) **Lust: Bisexual Erotica Paperback (2004)** – Marilyn Jaye Lewis.

(3) **SideShow: The Howe Street Carnival (1988)** – Adrian du Plessis.

(4) نسبة إلى الحسيديّة، وهي طائفة يهوديّة.

أما المقعد الأخير باللائحة فهو من نصيب كتاب **(فا فا فووم)**، الذي منحنيه صديقٌ مقرّبٌ قضى مبكّرًا. حين شرعت في زيارة لوس أنجلوس خلال نهاية الثمانينيات، كان صديقي إد المحرّر المشارك لمجلة «موفي لاين» Movieline، المجلّة الوحيدة بتاريخ أمريكا التي لم تكن تخدم وظيفة القوادة الواضحة والصّريحة لمجال صناعة الأفلام. وخلال صباحات السّبت، كان إد يتجسّد بالمكان، بجانب حوض السّباحة، يؤوي جثّته الضخمة داخل كرسيّ، ويطلب كمّياتٍ هائلةٍ – غير معقولةٍ – من الطعام على حسابي، ثم نستمتع بما يسرده من قصص عن شتم جيمس فوكس خلال تصوير فيلم: «أولئك الرجال المذهلون في آلاتهم الطائرة»[1]، الصادر سنة 1965 من إنتاج والده.

لقد أخبر العاملين بقناة فوكس ذات مرة: «أنتم لا تحصلون على الفتاة، كما أنكم لن تفوزون بالسّباق. هل تعني لكم عبارة ‹أحتاج إلى إعادة كتابة النص› شيئًا؟» لم يكن إيد قد جاوز الثالثة عشرة حينها، وقد منعوه نهائيًّا من الدخول إلى مكان التّصوير، أو على الأقل هكذا يتذّكر الأمر.

لقد كنت أفترض أننا – أنا وصديقي إيد – سنستمّر على هذا النحو إلى الأبد: أن يتصل بي في ساعةٍ متأخرةٍ من اللّيل ليخبرني بأنه يقود سيارته نحو سان دييغو من أجل مشاهدة فيلم «الأوجه الثلاث لحوّاء»[2] للمرة التاسعة عشرة؛ وأن أتصل به من السطح العلوي لمعلب نوتردام – والدّموع تتلألأ بعينيّ – لأشارك معه بهجتي برؤية تمثال يسوع لأول مرة في حياتي. ظننت أننا حين نشيخ ونتّخذ وضعيتنا المعتادة بجوار مسبح الفندق ويقصّ عليّ مجدّدًا كيف أنه قاد سيارة ليموزين طويلة مباشرة على مدرّج مطار لوس أنجلوس الدّولي من أجل إنقاذ نجوم فيلم «بوابة النعيم»[3] المصدومين، بعد البداية

(1) **Those Magnificent Men in Their Flying Machines (1965)**, directed by: Ken Annakin.
(2) **The Three Faces of Eve (1957)**, directed by: Nunnally Johnson.
(3) **Heaven's Gate (1980)**, directed by: Michael Cimino.

الكارثية للفيلم بمهرجان تورنتو، ونقلهم بعيدًا نحو مخابئ آمنة ومنازل بعيدةٍ بالرّيف أو بفرنسا حيث لن تصل الصحافة إليهم. وفي تلك الأثناء، سأكون بصدد طلب رأيه بخصوص تقليدي لجون مالكوفيتش في دور «قلب الأسد» وقد بلغ من الكبر عتيًّا. لكن إيد قضى قبل أوانه، مستسلمًا لفشلٍ قلبيّ في عمر الحادية والأربعين؛ والآن ستظل ذكرياتي عنه إلى الأبد مرتبطةً بمجموعةٍ من الكتب السّخيفة من قبيل **(فا فا فووم)**، **(دليل الحقائق العارية على أشرطة الفيديو: أين تجد ممثليك وممثلاتك المفضلين عراة على شريط الفيديو)**، و**(الأفلام السّيئة التي نحبّها)**[1]. في النهاية، قرّرت أن كتب السّير الذاتية الرّعناء لكل من ستيف ماك كوين وجينا لولوبريغيدا يمكن التّخلص منها، ولكن **(فا فا فووم)** باقٍ.

ومع استمرار عمليّة التّطهير، اتضح أنها لم تكن تلك بدايةً جيّدةً، كما أن الأمور لم تتحسّن فعلًا بعد ذلك. فلسببٍ ما، خلال مسار حياتي، صرت أملك ثلاث نسخ من رواية **(إيثان فروم)**، وهو كتاب لستُ أحبّه حتّى، لذا يمكن التّخلص من نسختين منه. والكتاب الثالث الذي بدا لي أنه يمكن الاستغناء عنه قريبًا هو نسخة متهالكةٌ للترجمة الفرنسية لرواية: **(تحت البركان)**[2]، وهي تحفة مالكوم لوري التي قرأتها قبل ثلاثين سنةً، ولكن ليس بالفرنسيّة. فذات ليلةٍ كنت أدردش مع أستاذ اللغة الفرنسية بالجامعة – الذي حافظتُ على حبل الودّ قائمًا معه لمدة ثلاث وأربعين سنةً – بخصوص مشكل «تصفية الكتب» هذا الذي أعاني منه. لقد كان له دورٌ محوريٌّ في حصولي على منحةٍ جامعيّةٍ لقضاء سنةٍ في فرنسا، وهو أجمل شيءٍ على الإطلاق قام به أحدٌ من أجلي، بل هو أفضل شيءٍ على الإطلاق قد يقوم به أحدهم من أجل غيره. ولهذا السّبب لم أستطع قطّ أن أفارق نسخة ممزّقةً ومهترئة من كتابٍ عنوانه:

---

(1) **Bad Movies We Love (1993)** – Edward Margulies & Stephen Rebello.
(2) **Under the Volcano (1947)** – Malcolm Lowry.

(فن المحادثة)، وهي قواعد نحويّة رتيبةٌ وشنيعةٌ، كما أنها ليست مفيدةً أبدًا، كنا نستعملها خلال السنة الثانية بقسم المادة الفرنسية. أخبرت توم عن مأزقي بخصوص رواية لوري السّالف ذكرها، محاولًا تخيّل موقفٍ قد يكون فيه هذا الكتاب مفيدًا.

فكان ردّه كالآتي: «ما زلت أحتفظ بنسختي بالفرنسية لكتاب أرسطو: **(الأخلاق النيقوماخية)**[1]؛ فأنت لا تعلم متى قد يكون كتابٌ ما مفيدًا.»

المشكلة هي أن كل كتابٍ ضمن مجموعتي يرتبط بزمانٍ ومكانٍ معيّنَين، ذلك أنني أدوّن دومًا اسم وزمان ومكان الاقتناء على الغلاف الدّاخلي للكتاب. وبالتالي فإن كلّ كتبي - على نحوٍ ما - هي تِذكاراتٌ. أحتفظ ببضع مئاتٍ من الكتب لأنها أعمالٌ كلاسيكيّةٌ سأرغب دومًا في إعادة قراءتها؛ مئة كتاب أو ما إلى ذلك كانت هدايا من أصدقاء مقرّبين أُنزلهم منزلةً موقّرةً. أما الباقي منها فيذكّرني بشيءٍ ما، وقد كان ذلك هو الحال بالنسبة لرواية **(تحت البركان)**: لقد تركها أحدهم خلفه في حوض سباحة في مدينة لورد الفرنسيّة، فانتشلته. لو أن الأمر وقع بإحدى حانات مدينة **لِيل**، لكنتُ على استعداد للتّخلّي عنه. بل إنني ما كنت سآخذه أصلًا. ولكن لورد؟ لورد؟؟ كانت القدّيسة بيرناديت ستقوم من قبرها، تبصق بضع حفناتٍ من التّراب، ثم تمضي في أعقابي إلى أطراف الأرض القصيّة. وقد وقع الأمر ذاته مع كتاب باتريك وايت: **(ببغاوات الكوكاتو)**، وهي مجموعة قصص قصيرةٍ لمحتها جاثمةً فوق حاوية قمامة بالشارع ذات يوم حين كنت ماضيًا في أحد شوارع مانهاتن رفقة صديقٍ لن أراه مجدّدًا. لطالما وجدتُ دستةً منها لصديقي وايت؛ وقد بدأت قراءة رواية **(فوس)** خلال صيف سنة 1976 لكنني مازلت أحاول إنهائها. أما فيما يخص كتاب **(ببغاوات الكوكاتو)** بغلافه المروّع في لونٍ أزرق ضاربٍ إلى الاخضرار، ورغم أنه كان تذكارًا حلوًا مرًّا لصداقةٍ ما عادت الآن على قيد

---

(1) **Nichomachean Ethics** (Ēthika Nikomacheia) – Aristotle.

الحياة، فإنه يظلّ كذلك تذكارًا لصداقةٍ كانت طافحةً بالحياة ذات يوم؛ لذلك سأحتفظ به أيضًا.

ذات يوم، وبعد انقضاء أسابيع من اتخاذ هذه القرارات، قرّرت التحقّق من نسبة الكتب التي لديها قصّة خلفيّة مرتبطة بها، فاتّضح أن لكلٍّ منها – جميعها – قصّةً. هناك كتبٌ اشتريتها في شيكاغو، وأخرى في فورت لي [ولاية نيوجيرسي]. هناك كتبٌ اشتريتها ببروفيدونس، وأخرى بباريس. والحق يُقال: لم تكن الجودة الأدبية للكتاب دومًا السبب في نجاته من المقصلة.

لقد احتفظت بكل من **(هل يمكنك صنع ثقب في رأسك والنجاة بعد ذلك؟)**[1] و**(الكوميديا الإلهية)** لدانتي، لأنهما كانا هديّتَي عيد ميلادٍ تلقّيتهما من ابنتي؛ واحتفظت بكتاب **(إدغار آلان بو في ويست بوينت)**[2] لأن صديقًا عزيزًا طلب منّي مراجعته ووجدته أصيلًا بحقٍّ، كما فاجأني أنه كان ممتعًا بحقٍّ؛ واحتفظت بكتاب **(أندي روديك يضربني بمقلاة)**[3] لأن مودّةً نشأت بيني وبين المؤلّف الذي طلب مني تجميع فهرس فكاهيٍّ للكتاب، إذ سخرتُ منه لخسارته مباراة غولف ضد جدّته، حيث لم تكن النتيجة متقاربةً حتّى. ثم صار الكتاب أشبه بغرضٍ لأحد هواة تجميع الكتب، إذ وضعته في إطار وعلّقته؛ لأن الفهارس الساخرة من هذا النّوع جدّ نادرةٍ.

(1) **Can You Drill a Hole Through Your Head and Survive?: 180 Fascinating Questions and Amazing Answers about Science, Health, and Nature (2007)** – Simon Rogers.

(2) **Grim Legion: Edgar Allan Poe at West Point (2016)** – Jack Alcott.

(3) **Andy Roddick Beat Me with a Frying Pan: Taking the Field with Pro Athletes and Olympic Legends to Answer Sports Fans' Burning Questions (2007)** – Todd Gallagher

وقد ظلّت العديد من الكتب حاضرةً مجموعتي لأسبابٍ فريدةٍ أو عاطفيّةٍ، من بينها رواية غراهام سويفت: **(ضوء النهار)**[1]، وهي هديّةٌ من صديقةٍ إنكليزيّةٍ كانت تعمل آنذاك عند المسؤول عن الدّعاية لكاتبها. لم أكن أهتم كثيرًا لأمر الكاتب، لكن الأكيد أنها كانت تروقني، كما أن الكتاب كان يحتوي على مقاطع من قبيل: «كيف يحدث ذلك؟ كيف نختار؟ يدخل حياتَنا شخصٌ، ثم لا نقوى على العيش بدونه، رغم أننا كنّا نعيش قبله.» أما رواية **(الطريق نحو التّطهير)**[2] فقد اقترحها عليّ ماكس ألان كولينز الذي ثبّتني لساعتَين بمطعم صينيٍّ وسط شيكاغو ذات عشيّة، ليخبرني بالانحدار الحزين لحياة إليوتّ نيس بعد أن غادر مدينة «مدينة الرّياح» [أي: شيكاغو] وانتقل إلى «الخطيئة بمحاذاة البحيرة» [أي: مدينة كليفلاند]. وقد انهمكت في قراءة كتاب **(Radical Chic & Mau-Mauing the Flak Catchers)**[3] على سطح أحد الفنادق المدعوّة «ويست هوليود» خلال أول ليلةٍ أقضيها بلوس أنجلوس، ولم أتوقّف إلا حين صعد إليّ مسيّر الفندق ليخبرني بأن نزلاء الطوابق الدّنيا بالفندق يشتكون بشأن الصوت المرتفع لقهقهتي المتواصلة، لذا سلّمته الكتاب وقلت له: «هاك، فلتجرّب بنفسك!». أما فيما يخصّ رواية **(الفتاة ذات وشم التنين)** فقد اشتريتها من مطار هيثرو بعد المشاركة في برنامجٍ إذاعيٍّ رفقة تريسي شيفالييه. إن الناس الذين يشاركون معًا في برنامجٍ إذاعيٍّ أو تلفزيٍّ تنشأ بينهم علاقة متينة لا يمكن أن تتفسّخ، لأنهم استغلّوا ما معهم من مواردهم وعملوا معًا للنجاة من تجربة كان يُحتمل أن تنتهي بشكلٍ كارثيٍّ. أما كتابَا جيمس كرملي: **(الدّبّ الرّاقص)** و**(القضيّة الخاطئة)**[4]، فقد اقتنيتهما من مكتبةٍ بشارلوتسفيل حين كان ابني يعمل هناك لفترةٍ وجيزةٍ، ولست متخلّصًا من أيٍّ منهما قريبًا.

---

(1) **The Light of Day (2003)** – Graham Swift.

(2) **Road to purgatory (2003)** – Max Allan Collins.

(3) **Radical Chic & Mau-Mauing the Flak Catchers (1970)** – Tom Wolfe.

(4) **Dancing Bear (1983), The Wrong Case (1975)** – James Crumley.

ولأسبابٍ مشابهةٍ، لن أستطيع يومًا أن أفرّط في الكتب الآتية: **(مِستر بلو)**[1]، **(أوب أولوب)**[2]، **(أيام السّفينة الحرّاقة اللانهائية)**[3]، **(إلى اللقاء، أراك غدًا)**[4]، بل وحتى **(رثاء يوليوس مارانتز)**[5]، لأنها جميعًا هدايا من صديقٍ اختفى يومًا من حياتي على حين غرّةٍ؛ في حين أن **(الابتسامة الحزينة للقرى الخمسة)**[6] بقلم بينيت ميرثليس، **(الطيّار المفجّر)**[7] بقلم، والكتاب المجيد: **(تاريخ الساعة: الساعات والأوامر الزّمنيّة الحديثة)**[8] بقلم جيرالد دورن فان روسم، قد أهدانيها أصدقاء حاليّون وسابقون، زملاء عمل، أفراد عائلة، أو زوجتي؛ بينما العناوين الآتية كلّها بأقلام أصدقائي: **(الأرق الإبداعيّ)**[9]، **(مباهج اللغة الإصطلاحيّة)**[10]، **(ساحر الأكاذيب)**[11]، **(أسماء حمقى، وجوه حمقى)**[12]، و**(درس سريع للأب من أجل إقناع ابنه بالدراسة في الجامعة)**[13].

إن جميع هذه الكتب الآنف ذكرُها كتبٌ ممتازةٌ، إلا أن معظم الناس مكاني كانوا سيكتفون منها بعد قراءتها مرّةً وحيدةً، لكنني لست واحدًا منهم. والأمر صحيحٌ كذلكَ بالنسبة لرواية أوكلي هول: **(أمبروز بييرس والجواهر**

---

(1) **Mr. Blue (1927)** –Myles Connolly.
(2) **Op Oloop (1934)** – Juan Filloy.
(3) **Days of the Endless Corvette: A Novel (2007)** – Man Martin.
(4) **So Long, See You Tomorrow (1979)** – William Keepers Maxwell Jr.
(5) **The Lamentations of Julius Marantz (2007)** – Marc Estrin.
(6) **The Grim Smile of the Five Towns (1907)** – Arnold Bennett.
(7) **Bomber pilot (1943)** –Leonard Cheshire.
(8) **History of the hour (1996)** – Gerhard Dohrn-van Rossum.
(9) **Creative insomnia (1978)** – Douglas Colligan.
(10) **The Joys of Jargon (1990)** – Tom Fahey.
(11) **The Wizard of Lies: Bernie Madoff and the Death of Trust (2011)** – Diana B. Henriques.
(12) **Fools' Names, Fools' Faces (1996)** – Andrew Ferguson.
(13) **Crazy U: One Dad's Crash Course in Getting His Kid Into College (2011)** – Andrew Ferguson.

الثلاثة)[1]، التي اقتنيتُها من جنوب نيوجيرسي خلال آخر مرّةٍ أخذت فيها والدتي إلى الكازينو المفضّل لديها: «ذي كلاريدج». أما آخر مرةٍ أخذتها إلى «ريزورت إنترناشونال»، فقد اشتريت رواية **(حطام سفينة)**[2] بقلم لويس بيغلي، وقد تحقّقتُ مؤخّرًا مما كتبته على غلافها الدّاخليّ يومها فوجدت:

جو كوينان

18 يناير 2005

أتلانتيك سيتي، من بين كلّ الأمكنة.

لذا، سأحافظ على هذين الكتابَين اللذين اقتنيتهما من جنوب نيوجيرسي.

وسرعان ما صار جليًّا أن «عمليّة الغربلة» لن تصل إلى أية نتيجة، لأن الأمر برمّته محض مهزلةٍ تمثيليّةٍ. وذات صباحٍ، حين بلغتُ منتصف عمليّة التّطهير العقيمة هذه تقريبًا، نظرت من النافذة الخلفية فرأيت أول تمثال يقيمونه عند نهاية الشارع. لقد دقّت ساعة الحقيقة أخيرًا: لقد بدأ الحثالةُ عملية الانتقال إلى مساكنهم الجديدة، وأزفَ وقتُ رحيلنا عن هذا البيت. ولكن، كالعادة، لم أستطع أن أقرّر متى يجب أن نرحل أو أية حالة غضبٍ أخرج فيها عن طوري هي ما ستكون القشّة التي ستقصم ظهر البعير. هل يجب أن نبقى هنا لسنةٍ إضافيّةٍ حتى يتسنّى لنا القول «لقد أمضينا عقدَين بالتمام والكمال في هذا البيت» ؟ ولماذا نزعج أنفسنا بذلك أصلًا؟ هل يجب أن ننتظر حتى ينتهي المطوّرون العقاريّون من تشييد مبانٍ بشعةٍ بحجم مدينة هاليكارناسوس بجوارنا مباشرةً؟ هل يجب أن ننتظر حتّى يشيّدوا عشرات النّسخ المقلّدة عن قصر الحمراء، ثم نغادر بعد أن نستفيد من ارتفاع ثمن العقار بالمنطقة، حيث سيرغبُ الناس العاجزون عن تحمّل تكلفة شراء أحد تلك البيوت (المخصّصة للأغنياء الجدد) في شراء بيتٍ يقع بجوارها مباشرةً،

---

(1) **Ambrose Bierce and the Trey of Pearls (2004)** – Oakley Hall.

(2) **Shipwreck (2004)** – Louis Begley.

لينعموا في «ظلّها المعماريّ» إلى الأبد؟ لقد كان الأمر لغزًا معقّدًا. أما زوجتي، ذات التّوجه العمليّ، فقالت إنه يجب علينا الرّحيل حين نشعر بأن وقت الرّحيل قد حان.

شكرًا جزيلًا، كم هي نصيحةٌ مفيدةٌ بالفعل!

وكما هو متوقّعٌ، ابتكرت لهذه المشكلة حلًّا يتعلّق بالكتب، فقرّرت بأننا لن نرحل حتى أنهي قراءة كُل كتابٍ بالبيت لم أقرأه بعد. لقد كانت تلك طريقةً من أجل تحديد خطٍّ زمنيٍّ للأمور: فلنقل، بعد سنتَين. لكنني سرعان ما خرّبت الأمر برمّته حين حِدتُ عن مساري وقرأت رواياتٍ من قبيل: **(نهاية القضيّة)**[1]، **(مغامرات بو جيست)**[2]، **(الطاعون)**[3]، و**(إقناع)**[4]، مع أنني قرأت جميعها مرّاتٍ عديدةً في السّابق. ثم عدّلتُ الخطّة الأصليّة وقرّرتُ أنني لن أبيع البيت إلا بعد أن أقرأ كل الكتب التي رسمت البسمة على مُحيّايَ خلال إقامتي فيه؛ وهذا بالطبع سيتطلّب سنينًا عديدةً. بعد ذلك قرّرتُ أن أقرأ كل الكتب التي تركها طفلاي خلفهما، بما في ذلك: **(الملفات الملتبسة للسيدة باسيل إ. فرانكويلر)**[5] و**(القطار القطبيّ السّريع)**[6]، وبالطبع لن أستثني رواية **(كثيب)**. وهذا المخطّط بدوره سيتطلب سنينَ طويلةً، لن تكون أي منها ممتعةً. وبالتالي واصلت ابتكار هذه المخطّطات لبرامج قراءة مستبعَدة إلى أن توجّب عليّ أخيرًا الإقرار بأن الأمور بدأت تخرج عن السّيطرة حين سألت نفسي: متى سأقرأ رواية **(جاك القدَريّ)**[7]؟ متى ستكون

---

(1) **The End of the Affair (1951)** – Graham Greene.
(2) **Beau Geste (1924)** – writer P. C. Wren.
(3) **The Plague (1947)** – Albert Camus.
(4) **Persuasion (1817)** – Jane Austen.
(5) **From the Mixed-Up Files of Mrs. Basil E. Frankweiler (1967)** – E. L. Konigsburg.
(6) **The Polar Express (1985)** – Chris Van Allsburg.
(7) **Jacques the Fatalist (1796)** – Denis Diderot.

اللّحظة مواتيةً أخيرًا للشروع في قراءة كتاب هربرت جورج ويلز: **(ملخص تاريخ البشرية)**[1]؟ من كنت أخدع حين قلت إنه ستحين لحظةٌ في حياتي حين أكون في مزاج مناسبٍ لقراءة مؤلّف **(تيتيان: حياته وزمنه)**[2] بجزأيه، مع العلم بأنني لا أملك إلاّ الجزء الأول فقط، أو قراءة **(قصة استكشاف نهر زامبيزي: 1858-1864)**[3]؟

وأنا أبتكر الجدول المرهِق تلو الآخر، تجلّت حقيقة الأمر أمامي، وأدركت أن دور الكتب في حياتي انحصر في أمرٍ وحيدٍ طوال حياتي: لطالما استعملتها كطريقةٍ لتشتيت انتباهي وكذا لرفع معنويّاتي، ولكن أيضًا كطريقةٍ لتأجيل اتخاذ القرارات؛ أما الآن، أكثر من أي وقتٍ مضى، فقد كنت أستعملها لتجنّب مواجهة الواقع.

هل يمكن أن يكون الهوس بالقراءة مضرًّا برفاهية المرء؟ أجل، أظن ذلك، لأن قراءة الكتب لم تكن تجربةً جيّدةً على الدّوام بالنسبة لي. لقد شجّعتني على تطوير رؤيةٍ غير نمطيّةٍ وممتعةٍ عن العالم. إن تكريس ساعاتٍ طوالًا للقراءة هو السبب في أنني لم أمزّق ذلك السّجّاد المقزّز على السلالم المؤدية للطابق الثاني ببيتي، أو أجلب عاملًا لرأب ذلك التّشقق بجدار غرفة الطّعام، أو أغيّر ذلك الموقد الغبيّ العتيق الذي لا يعمل اثنان من رؤوس الغاز به منذ سنواتٍ غابرةٍ. لقد ظلّت قطعة لوحٍ منقوشٍ بديعٍ جاثمةً على أرضيّة مكتبي طوال أربع سنواتٍ: لم أستطع قطّ تخصيص خمس عشرة دقيقة لتعليقها كما يجب، لأنني كنت منهمكًا بقراءة أعمال بروست؛ لقد ظلّ صنبورٌ بأحد الأحواض يقطر، بلا توقّف، لمدة سنتَين متتاليتَين، بينما كنت أشق طريقي عبر مؤلّفات تاسيتُس؛ لا الفواتير أُدِّيتْ، ولا الإيصالات أُرسِلتْ

(1) **The Outline of History (1920)** – H. G. Wells.

(2) **Titian: his Life and Times** (in 2 volumes, **1877**) – Joseph Archer Crowe.

(3) **Livingston's River: A His- tory of the Zambezi Expedition, 1858–1864 (1970)** – George Martelli.

لأصحابها، ولا الاتصالات رُدّ عليها، بسبب هوسي بالكتب؛ لدرجة أنني ذات يوم انتبهت إلى أنني لم أنظّف النافذة العريضة بمكتبي منذ 12 سنة؛ بل الأسوأ من ذلك حتى أنني تركت الأمطار تتولّى الأمر خلال إعادة قراءة مؤلفات بروست، وأحيانًا تولستوي.

لا يمكن أن تستمرّ الأمور على هذا المنوال!

ذات يوم، بعد أن بلغ السّيل الزّبى وضقت ذرعًا من عدم امتلاكي لشاشة ذي عرضٍ عالي الجودة أو مشغّل أقراص «بلوراي» أو باب مرأب يُفتح حين تحتاجه، قرّرت أخذ الأمور على محمل الجدّ: خلال الشّهر الموالي لن أقرأ صفحةً واحدةً من أيّ كتابٍ؛ لن تتعدّى قراءتي صفحاتِ الجرائد. لقد جرّبت ذلك من قبل، وكانت النتائج متوسّطةً، لكن هذه المرّة، ولأول مرةٍ في حياتي، التزمت بالبرنامج تمامًا. «أعزلَ» من كُتبي ولكن بعزيمةٍ لا تلين، تمكّنت من شراء تلفازٍ ثلاثيّ الأبعاد، جهاز تشغيل أقراص «بلوراي»، تنظيف الخزانات، تعليق اللّوح المنقوش على الجدار، إعادة ترتيب أقراص الفونوغراف، تغيير مكبّرات الصّوت المعطّلة، شراء حاسوبٍ محمول، شراء هاتف ذكيّ [سمارتفون]، تركيب طابعةٍ جديدةٍ، تحميض الفيلم الذي يرقد بخزانتي منذ ثلاث سنوات منذ رحلتي اليتيمة لروما، الرّدّ على الاتصالات الخمس والسّبعين التي فوّتتها، وأداء فواتيري، بالإضافة إلى قضاء الوقت رفقة أسرتي، وبعد ذلك عدت إلى قراءة بروست. وإلى يومنا هذا، ما زالت النوافذ ببيتي ومكتبي – على حدّ سواءٍ – غير مغسولةٍ.

قرأت في الآونة الأخيرة مراجعةً لئيمةً لكتابٍ جديدٍ حول ألعاب الفيديو، تتمثل أطروحتها في أن هذه الألعاب أكثر تشويقًا ومكافأةً من الحياة الواقعيّة، لذا ليس مفاجئًا أن الشّباب يفضّلونها على ما يدعوه معظمنا بـ «الواقع». لقد كان رأي المُراجِع أن الأمر مريعٌ بحقٍّ، وكذلك كان رأيي: ماذا عن لحظات الغروب وعلاقات الغرام والمشي بمحاذاة الشّاطئ؟ ولكنني كلّما أمعنتُ

التّفكير في الأمر إلا ووجدتُ أن علاقتي بالكتب تعكس علاقة العديد من الشّباب بألعاب الفيديو. لقد شرعت في القراءة بوتيرةٍ محمومةٍ خلال طفولتي حين كنت أعيش داخل مشروعٍ سكنيٍّ تحت الوطأة الخانقة لأبٍ مدمنٍ للكحوليّات كان يسرق منّا طفولتنا، حرفيًّا. لذا فإنه من الجليّ أنني كنتَ أقرأ لأهرب من واقعي، وكذلك كانت تفعل أخواتي؛ بل وكذلك كان يفعل والدنا أيضًا. إن بعض كتبي المفضّلة - **(جزيرة الكنز)** و**(المخطوف)**[1]، **(حكاية مدينتين)**، **(رحلة حول العالم في ثمانين يومًا)**[2]، **(دراسة في اللّون القرمزيّ)**[3] - كانت كتبه المفضّلة هو أيضًا.

لم يكن يحبّ معاناته من البرد والجوع والمعاناة أكثر مما كنّا نفعل؛ ولو كانت ألعاب الفيديو آنذاك فسيجرّبها كذلك.

من وجهة نظري للأمور، فإن الشخص يطوّر في مرحلة مبكّرةٍ من حياته أنماطًا من السلوكيّات أو مجموعة من المهارات التعويضيّة للتعامل مع مشكلٍ ما، لكن بعد فترةٍ طويلةٍ من حلّ المشكل، فإنه لا يتخلّى عن ذلك السّلوك أوتوماتيكيًّا أو يقوم بتعديله على الأقل. فبعد انقضاءِ عقودٍ طويلةٍ على أيام المشروع السّكنيّ الباردة، واصلتُ القراءة بطريقةٍ محمومةٍ، تكاد تكون يائسةً، خلال كلّ ساعات النّهار واللّيل، لأن الواقع - ولو أن واقعي الجديد قد تطوّر على جلّ الأصعدة - لم يكن بمثل بهاء الواقع الموجود داخل الكتب. وبالتالي، فكما يتم تأنيب المراهقين على السنوات التي ضيّعوها على ألعاب الفيديو، يمكن أن أُساق إلى المحاكمة ذاتها بسبب الفترات الهائلة التي خصّصتها وأمضيتها في القراءة في الوقت الذي كانت هناك أمورٌ أخرى أكثر إلحاحًا تتطلّب انتباهي. لقد ضربتِ المسيحيّةُ بجذورها عميقًا في المجتمع لأنها كانت توفّر للفقير بديلًا أكثر أملًا وبهجةً للحياة على هذا الكوكب؛ وكفعلِها

(1) **Treasure Island (1883), Kidnapped (1886)** – Robert Louis Stevenson.
(2) **Around the World in Eighty Days (1873)** – Jules Verne.
(3) **A Study in Scarlet (1886)** – Sir Arthur Conan Doyle.

نفعل الكتب. وما إن تَعلَق بالصّنّارة - سواء تعلّق الأمر بالدّين أو بالكتب - حتى تصير مدمنًا. لطالما تركتُ العديد من المشاريع تذبل تحت الشّمس وتمضي هباءً، لأنني كنت منشغلًا بقراءة الكتب؛ رفضتُ القيام بأي تقدّم في مسيرتي إلى أن بلغت منتصف ثلاثينياتي لأنني كنت منشغلًا للغاية بقراءة الكتب؛ رفضت العمل على تنمية نوع الاتصالات التي قد تكون مفيدةً في مجال عملي لأنني كنت منشغلًا للغاية بالقراءة. (في الواقع، كانت القراءة سببًا، كما أن أولئك القومَ مُريعونَ بحقّ). ومع ذلك، تظل خلاصة الأمر هي الآتي: لو أتيح لي القيام بالأمر من البداية، لفعلت الشيء ذاته مجدّدًا. فكما يقول الفرنسيّون: «لا تغيّر فريقًا فائزًا!» وأنا أضيف: حتى حين لا يفوز، لا تغيّره!

وفي ظلّ كلّ ما سبق، أتقبّل الآن أنه يجب عليّ التوقّف عن استعمال الكتب كآلية تأخيرٍ وبيعُ منزلٍ كنت أفترضُ أنني سأموت فيه. سوى ذلك، سأجد نفسي بعد عشر سنواتٍ من الآن أمقت جيراني الذين يعيشون بجواري في بذخٍ بابليٍّ: مرأب يَسَع سبعَ سيّاراتٍ، نوافذ على طراز الكاتدرائيّات، ومسابحَ بحجم دولة لاتفيا؛ بينما أكون ما أزال مكبّلًا مشلولًا، عاجزًا عن الحركة، لأنني لم أفرغ بعد من قراءة رواية **(ميدل مارش)**. وتماشيًا مع ذلك، قرّرتُ جمع أغراضنا، بيع المنزل، والانتقال إلى مكانٍ آخر حيث يمكنني وضع الكثير الكثير من خزانات الكتب وقضاء العشرين سنةً القادمة من حياتي في الاستغراق في قراءتي. لا بد للمرء أن يكبر يومًا، حسب المقولة الشّائعة. وتلك أبشعة تجربة على المرءِ أن يتحمّلها في حياته على ظهر هذا الكوكب.

هناك الكثير من القصص الحزينة والسعيدة بخصوص الكتب؛ فعلى سبيل المثال كتب الشاعر الرّومانيّ أوفيد - بعد نفيه نحو منطقة معزولة عند طرف البحر الأسود - تأبينًا على شرف عدوّه اللّدود أوغسطوس سيزار بلغة البربريّين الذين كانوا يعمّرون تلك المنطقة؛ وقد اختفى مؤلّفه كما اختفت تلك اللغة عن الوجود. أما هوميروس فقد كتب ملحمةً اختفت دون أدنى أثرٍ؛

كما أن ألفًا وخمسمائة مسرحيّةٍ للوبيد فيغا ما عادت معنا اليوم؛ زيادة على أن كل أعمال إسخيلوس صارت رمادًا حين أشعل مدمّرو الثقافة النيران في مكتبة الإسكندريّة سنة 640 للميلاد. وقد اتضح أنه كتب ثمان مسرحيّاتٍ وكانت للمصريّين النسخة الوحيدة من أعماله الكاملة بعد أن استعاروها من الإغريق؛ ولم تنجُ منها إلا سبعة.

ستضمن الكتب الإلكترونيّة أن المآسي المشابهة – الموصوفة في **(كتاب الكتب الضائعة)**(1)، أحد كتبي المفضّلة الذي انتشله أحدٌ من خزانتي – لن تتكرّر. وهذا أمر رائعٌ بحقٍّ، إلا أنني ما زلت أفضل الكتب الورقيّة. ففي نظري – ونظر من يشبهونني – تظل الكتب أوعيةً مقدّسةً. إن البطاقات البريديّة والصور وبرامج العروض الموسيقيّة وتذاكر السينما ومواعد القطار تظل تذكارات؛ أما الكتاب فهو نسيجٌ ضامٌّ. إن للكتب قدراتٍ خيميائيّةً تستطيع تحويل الملل إلى بهجةٍ، وحياةً رتيبةً يسهل التنبّؤ بها إلى شيءٍ مبهجٍ خلسةً (أو هذا على الأقل ظنّ عشّاق الكتب). إن كون الكتب مادّيّة ملموسةً أمرٌ يحدّد هويّتنا، كما كانت المخطوطات المكتوبة يدويًّا في القرون الوسطى تحدّد الرّهبان الذين أخفَوها عن البرابرة.

إننا نعتقد أن الأشياء تحتوي في ذاتها على قدراتٍ سحريّةٍ.

قد يرى الأشخاص الذين يفضّلون الكتب الإلكترونيّة أن هذا الأمر محيّرٌ أو سخيفٌ، إذ إنهم يظنّون أنّ الكتب تحتلّ مساحةً، وهذا كلّ ما في الأمر. وهذا صحيح، تمامًا مثلما يفعل أطفالك، مدينة براغ، وكنيسة سيستين. وقد قرأت مقالًا مؤخّرًا قال فيه كاتبٌ علميٌّ مرموقٌ إن النسخ الورقية من الكتاب ليست مهمّةً، وإنها لا تعدو كونها غرضًا يثير شهوة القارئ الحسّيّة ليس إلا، ثم علّق قائلًا بأن قيمة الكتب أشبه بقيمة «الكفن في العزاء». وبغض النظر

---

(1) **The Book of Lost Books: An Incomplete History of All the Great Books You'll Never Read (2005)** – Stuart Kelly

عن التعليقات المشابهة، لا يتملّكني أدنى قلقٍ بشأن مستقبل الكتب. فإذا كانت الكتب قد نجت من الهونيّين، الونداليّين، النازيّين، وغيرهم، فإنها ستنجو بكل تأكيدٍ من الكتّاب العلميّين المرموقين؛ سيواصل بعض الناس تعظيم الكتب، وغيرهم لن يفعلوا.

في السياق ذاته، يقول أحد أصدقائي إن الكتب في المستقبل «سيتم إنتاجها بطريقة جميلةٍ: أوراق سميكة، شرائط ملوّنة، وأغلفة ملائمة»، لأن الأشخاص الذين يعظّمون الكتب يتوقّعون أنها ستصير أعظم، وبالتالي فإنها ستحتوي على شرائط ملوّنة. ويقول آخر: «إن الناس، بعد مرور قرنٍ ونصف القرن على اختراع آلة التصوير، مازالوا يرسمون. لذا أتوقع مسيرةً مشابهةً للكتب.» ويقول ثالث: «ستظل الكتب على قيد الحياة، لأنها جزءٌ من حمضنا النّوويّ.» ويقول رابع: «إن الأوراق ما تزال تكنولوجيا رائعةً.» بينما يضيف خامس – بفطنةٍ – إن الكتب ستظل على قيد الحياة «ولكنّها ستظّل مخصوصةً لطائفةٍ صغيرةٍ من الناس، مثل ركوب عربات الخيول بحديقة سنترال بارك؛ ولكن قيمتها أكبر من ذلك.»

لا يسع المرء إلا أن يأمل ذلك.

إن حياة القراءة التي وصفتها قد كانت في قمّة الإثارة بالنسبة لي، لكنني أقِرُّ بأن الناس من طينتي بهم خَبَلٌ شبيه بخبَل الحُسّاد الحاقدين، بل ربما أكثر. لقد ابتكرنا طريقةً للتعامل مع العالم تناسبنا، لكنها لن تناسب الجميع. إن حضور الكتب بين يديّ، في بيتي، داخل جيوبي، وفي حياتي؛ سيكون أساسيًّا دومًا لسعادتي. لن أملك قارئة إلكترونيّةً أبدًا، لأنه لن يحدث مطلقًا أن أتفاجأ بوجود ملحوظة مكتوبة بخط يد حبيبةٍ سابقة بالكاد أذكرها، كما لن تسقط تذكرة باهتة لجولة في برج إيفل من قارئة كيندل أبدًا.

أنا لاضيٌّ[1]، وأفخر بذلك.

سمعت مرّةً عن قصة رجلٍ أحبّ امرأةً تعيش بمكانٍ بعيدٍ للغاية. كان من النادر أن يلتقيا، لكنهما كانا يتبادلان الهدايا. كانت ترسل إليه الكتب، بينما كان يرسل إليها الأغاني. لم تكن تختار تلك الكتب كيفما اتُّفق؛ بل كان لكل كتابٍ معنى. غالبًا ما تكون مؤلّفاتٍ لكتّابٍ مغمورين، بعيدةً كلّ البعد عن الكتب التي قد يختارها بنفسه، إلا أن اختياراتها كانت كلها تقريبًا «نفّاذةً» وملهمةً. وقد عرّفته هذه الكتب - التي كانت معظمها روايات بأقلام كتّابٍ يابانيّين، بلجيكيّين، أرجنتينيّين، وفيتناميّين - على عوالم لم يسبق له رؤيتها؛ كانت كتبًا بديعةً، غريبةً، ورائعةً. خلال صداقتهما، أرسلت إليه سبعة وأربعين كتابًا، قرأها جميعًا باستثناء كتابٍ واحدٍ. وكان حين تصله الكتب لا يستعجل البتّة في قراءتها، لا تستبدّ به قطّ الرغبةُ في الاستعجال. وحين ينتهي، كان يضعها على رفٍّ، ينظر إليها ويمسح عليها بيده بضع مرّاتٍ في اليوم، لأنه كلما لمس أيًّا منها يشعر بوجودها - صاحبة الكتب - معه بالغرفة. لقد كانت تلك الكتب هي مذكّرات علاقة حبّهما؛ كانت الدّليل الظّاهريّ على أن شخصَين أحبّا بعضهما ذات يوم حبًّا جمًّا.

ثم دخلت تقلّبات الحياة على الخطّ، فتلاشت قصّتهما الرّومانسيّة. لقد كانا يعيشان بمكانَين متباعدَين للغاية، بدأ الإنهاك العاطفيّ يجد سبيله إلى قلبيهما، وكانت لهما التزامات أخرى، وبالتالي فقد خَمَدتْ نيران الهوى. كانا يتحدّثان عبر الهاتف من حين لآخر، لكنهما كانا يمقتان ذلك، لأن محادثاتهما على الهاتف لم تكن تتعدّى الدردشة المملّة والميكانيكيّة بين صديقين، بينما كانت الأمور التي قالاها لبعضهما حين كانا معًا عبر لغة

(1) **Luddite**: نسبة إلى اللاضية (Luddism) وهي حركة اجتماعية ثورية نشأت بإنكلترا خلال الثورة الصناعية بداية القرن التاسع عشر، حين بدأ أعضاء هذه الحركة في شن هجومات تخريبيّة لتدمير الآلات التي تتسبّب في قطع أرزاق العمّال بالمعامل (بعد أن حلّت محلّهم). ويعود أصل التسمية إلى مؤسّسها: نيد لاض Ned Ludd.

أخرى: لغة العاشقين. وذات يوم كتبت له تلك المرأة رسالةً تقول فيها إنها لم تعد ترغب في رؤيته مجدّدًا، وبأن علاقة حبّهما انتهت. لن تتصل به، ولن تنبس أبدًا بكلمة «وداعًا»، لأنها أسوأ كلمةٍ تم ابتكارها في اللغة. وهكذا اختفت من حياته؛ لن يراها مجدّدًا، ولن يصلَه منها أي كتابٍ جديدٍ.

كان حانقًا، خائب الأمل، مفطور الفؤاد؛ شعر بالخيانة، فأخذ كل تلك الكتب التي أرسلت له وحشرها في علب وخبّأها في القبو. ولوهلةٍ فكّر في التّخلّص منها، أو ربما تدميرها. لكنه تراجع عن الأمر، فذلك أمرٌ لا يمكن تصوّره.

وتوالت الأيّام، ولم يسمع عنها مجدّدًا، لكن غضبه أخذ يخمد شيئًا فشيئًا: لأن تحبّ وتخسر أفضل من ألا تحبّ على الإطلاق! (لقد قرأ ذلك في كتابٍ ما). وذات يوم نزل إلى القبو وحمل تلك العلب إلى الطابق العلوي، أخرج الكتب وأعاد وضعها على الرّف بالتّرتيب ذاته الذي تلقّاها به على مدى السّنين السابقة خلال علاقة حبّهما. بعد ذلك شرع في قراءتها مجدّدًا بالترتيب ذاته الذي وردت به. فأعاد قراءة الكتاب الذي يحكي عن السّاموراي والآخر عن السّفينة الملعونة؛ أعاد قراءة الكتاب عن لاعبي الشّطرنج، آخر عن ملاك الرّحمة، وكتابٍ غيره عن المستكشف المعذَّب، وآخر عن دودة القزّ. وقد أحبّ تلك الكتب كما أحبّها أول مرةٍ، وسيعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا إلى أن توافيه المنيّة. كان يعلم علم اليقين بأنه لن يرى تلك المرأة مجدّدًا، لكن الكتب ستُبقيها في قلبه إلى الأبد.

كان هناك كتابٌ واحدٌ فقط – رواية عن رجل يطارد امرأة غامضةً ومراوغة – هو الذي لن يُتمّ قراءته. لقد شرع في قراءة هذا الكتاب مباشرة قبل انتهاء مغامرته الرّومانسيّة ولم يكن قد تجاوز الصّفحة العاشرة حين سقطت القذيفة وسط عالمه وصيّرته أشلاء. أغلق الكتاب يومها، وسيتركه مغلقًا إلى الأبد؛ لأنه إلى أن يقرأ آخر صفحةٍ من آخر كتابٍ أرسلته إليه حبّ

حياته، فستظل حبيبةَ قلبه على الدّوام. وبما أنه لم يُنه قراءة هذا الكتاب، فستكون هناك دومًا هديّةٌ في انتظاره؛ ستحضُر كهديّةٍ من المستقبل، كهديّةٍ من الماضي.

وهذه القصّة لا يمكن أن تقع مع قارئة كيندل.

أمضت جاكلين كالفيت، والدة أقدم أصدقائي وأقربهم إليّ - السنوات الستة الأخيرة من حياتها في شقة ببرلين رفقة ابنتها وصهرها الألمانيّ. كانت مريضةً وواهنة، والشيء الوحيد الذي ظل يثير حماسها هي زيارة المكتبة العامة من حينٍ لآخر. خلال تلك السنوات السّتة، وبينما كان قلبها آخذًا في التّداعي تدريجيًّا، قرأت جاكلين ألفَي (2000) كتابٍ. ألفَين، يا سادة!

لقد كانت تستعمل الكتب كواسطة إنقاذ حياة بشكلٍ حرفيٍّ: كانت تلك المرأة تقرأ لتعيش!

كان والدي كذلك من الطينة ذاتها أيضًا. ورغم أننا لم نكن أنا وهو مقرّبَين، إلا أننا كنّا نتشارك الشّغف بالكتب. ويوم دفنه، زرت شقّته الضيّقة مرّةً أخيرةً، فوجدت أن كل ممتلكاته يمكن أن تُجمع في ثلاثة أكياس قمامةٍ بلاستيكيّة (كنايةً على أسلوب حياته المتقشّف): لم يكن يملك الكثير، ولم يترك الكثير خلفه. حين دخلت شقّته، لاحظت أنه لا يوجد طعامٌ بالثّلاجة، ولا أعمال فنّيّة معلّقةٌ على الجدران؛ مشغّل أشرطة لا يعمل إلا على مزاجه، كما أنه لم يملك جهاز تلفازٍ. لكن الكتب كانت بكلّ مكانٍ؛ كتبٌ عن رجال الدّين، كتبٌ عن رعاة البقر، كتبٌ عن الرّومان، وكتابٌ عن رواية **(كلب آل باكرفيل)**[1]. وكانت هناك أيضًا الكثير من الكتب عن يوم وفاة شخصٍ ما: أبراهام لينكولن، جون فيتزجيرالد كينيدي، وايلد بيل هيكوك، والمسيح عيسى. وقبل تلاشي حياته، وإطباق الموت عليه، تخلّص من كل الأمور التي لا يحتاجها المرء في هذا العالم. لم يكن هناك أيّ شيء مما يُعرض على

(1) **The Hound of the Baskervilles (1902)** – Sir Arthur Conan Doyle.

التلفاز قد يعني له شيئًا في تلك المرحلة؛ ولم يكن هناك شيءٌ قد يعلّقه على الجدران مما قد يشكّل أدنى فرقٍ الآن: لا صورة، ولا لوحة فنية، ولا حتى صليبًا. ولكن قيمة كتبه ظلّت ثابتةً، تمامًا كما كان عليه الحال حين كان شابًّا يملأ قلبَه الأملُ، قبل أن يتسرّب الكحول إلى سفينته ويُغرقها إلى الأبد. لقد ظلّت الكتب تحمل أمل السّفر بعيدًا، أبعد بكثيرٍ مما ذهب يومًا، وأملَ أن يذهب إلى مكانٍ أكثر راحةً مما قد بلغه يومًا. لقد مكّنته كتبه من التّشبّث بأحلام لن يستطيع تحقيقها يومًا؛ ومع أنها لم تجلب له النّجاح، إلا أنها جعلته يجد طريق الخروج من ألم الإخفاق.

إن القراءة هي الطريقة التي يتّبعها الجنس البشري في تأخير المحتوم؛ إنها الطريقة التي نرفع بها قبضاتنا المشدودة في وجه السّماء. وما دامت مشاريع القراءة الهائلة مبسوطةً أمامنا، فلا يمكن أن نلفظ أنفاسنا الأخيرة: قل لملاك الموت أن يعود لاحقًا، لأنني لم أنهِ بعدُ قراءة رواية **(فيبّيت)**[1]. وهذه في نظري أعظم هديّة تمنحها الكتب للجنس البشريّ. إن كلّ حياة – حتى الحيوات الرّائعة – تنتهي بشكلٍ حزينٍ: الناس الذين نحبّهم يمضون إلى العالم الآخر، والأصوات التي نحبّها تنطفئ إلى الأبد. لكن الكتب تحتفظ بأمل أن الأمور قد تنتهي بشكلٍ مغايرٍ. جين[2] ستتزوج روشستر، كما سيتزوّج بيب[3] من إستريلا؛ وجان فالجان سيظل بعد رحيل المحقق جافير[4]. في النهاية، يسقط الظالم الطالح، ويزدهر الفرد الصالح. وطالما أن هناك كتبًا جميلةً في انتظارنا، فإن هناك أملًا بأن نستطيع تغيير وجهة السّفينة ونجد ميناءً آمنًا نرسو فيه. ما يزال هناك أملٌ في كلمات فولكنر: لا يجب علينا أن ننجو فقط وإنما أن ننمو ونزدهر.

مازال هناك أمل بأن نكون من الذين عاشوا جميعًا سعداء إلى الأبد.

---

(1) **Villette (1853)** – Charlotte Brontë.

(2) جين في رواية **(جين آير)** بقلم شارلوت برونتي.

(3) الشخصيّة الرئيسيّة في رواية **(آمال عظيمة)** بقلم تشارلز ديكينز.

(4) السجين السّابق والمحقق الذي يطارده في رواية **(البؤساء)** لفيكتور هيغو.

جو كوينن
هوسُ القراءة

"إنه احتفاءٌ بالأدب، بالقراءة، وبنداء الكتب الخفيّ؛ عبر قلم فكاهيّ ذي أسلوبٍ رفيع، يهوى مؤلّفات جورج سيمنون، ويَضيق بما كُتب وفقًا للموضة الرائجة كما بالمراجعات 'المذهلة'."

_ جريدة كنساس سيتي ستار (أفضل 100 كتابٍ صادرٍ سنة 2012).

"مذكّرات شغوفةٌ، مضحكةٌ للغاية أحيانًا، بخصوص حياةٍ قضاها صاحبها في قراءة الكتب وإعادة قراءتها".

_ جريدة ستار تربيون

"كتابٌ مضحكٌ بطريقة لاذعة".

_ مجلة بابليشرز ويكلي

"كتابٌ مفكِّهٌ، يكرّم القراءة ويحتوي على ما قد يُضايق حتى (على وجه الخصوص؟) عشّاق الكتب مشبوبي العاطفة."

_ مجلة كيركوس ريفيوز

"إن مذكرات كوينن هذه لتقريظٌ شغوفٌ للكتب الورقيّة: الدّعامة الأساسية لوجوده."

_ جريدة ذي كريستشن ساينس مونيتور

"حين وصف ت. س. إليوت الفكاهة على أنها السّلاح الذي يستعمله الذّكاء من أجل الدّفاع عن نفسه، كان من الممكن أن يستحضر حالة كوينن اللاذع (المدجّج بالأسلحة)."

_ جريدة ذي دينفر بوست

9 781961 628052

منشورات وسم